وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

داوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى

عليهم السلام

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

dar_ammar@hotmail.com

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى

عليهم السلام

الجزء الثالث

الشيخ نافع بن خالد العلواني

المتوفى سنة ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رحمه الله

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

داود

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

داوود عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله العلي العظيم القاهر، الملك السلطان القادر، هو الأول والآخر، والباطن والظاهر، خلقَ فقدَّرَ، وشرعَ - سبحانه - فيسَّرَ، فكل عبدٍ إلى ما قدَّر الله وقضاه صائر، لا يعزبُ عن سمعه أقلُّ الأنين، ولا تخفى عليه حركات الجنين، ولا يحجب بصره ساتر.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أهل الفضائل والمفاخر، وسلّم تسليماً كثيراً.

قال المؤرخون: سبق ظهور نبيِّ الله «داوود» أمورٌ كانت مقدمة لظهوره، فما هي هذه الأمور؟

بدأت هذه الأمور بقصة شموئيل:

وشموئيل كان نبياً من أنبيائهم سبقه أنبياء كثيرون.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: لما توفي موسى عليه السلام خلفه في بني إسرائيل: «يوشع بن نون»، وحارب يوشع أهلَ الشام وفلسطين وملوكهم، وانتصر على واحد وثلاثين ملكاً، وكانوا وثنيين، وأقام يوشع فيهم التوراة حتى قُبض، ثم جاء بعده أنبياءُ لا شرائع لهم حيث كانوا يحكمون بشريعة موسى، ويحافظون عليها.

كان آخر هؤلاء الأنبياء بعد موسى نبي الله «حزقيل»، الذي واصل إقامة التوراة فيهم إلى أن قُبض.

قال المؤرخون: بعد وفاة نبي الله «حزقيل» بدأت تظهر في بني إسرائيل

المعاصي، وعادت إليهم عبادة الأوثان لتأثرهم بالكنعانيين بواسطة روابط الزواج، وحيث تزوج كثير من اليهود بنساء الكنعانيين، فلما ظهرت فيهم - بني إسرائيل - عبادة الأوثان أرسل الله إليهم «إلياس بن ياسين» ينتهي نسبه إلى «هارون بن عمران»، وكان «إلياس» في مدينة «بعلبكَّ» التي كان فيها صنم يُقال له «بعل» وهو أعظم أصنامهم، وكان مصنوعاً من النحاس، وداخلُهُ مُجَوَّفٌ، ووضعوا هذا الصنم على قاعدة من النحاس كبيرة جداً كالتنور، فكانوا يوقدون النار في هذه القاعدة حتى يحمى النحاس، ثم يأتون بالقرابين فيضعونها على ذراعي الصنم «بعل» فتُحرق بالحرارة، فيحسبون أنَّ الصنم تقبَّلها.

قال المؤرخون: وكانوا أحياناً يُقربون بعض أبناء عُظمائهم لهذا الصنم، وقد عَبَدَ الإسرائيليون هذا الصنم متأثرين بالكنعانيين.

كان لهذا الصنم أربعة وجوه، كما كان له من الخدم والسدنة أربعُ مائةٍ وخمسون سادناً، وتوجد لهذا الصنم صورة في: «دار الآثار بمتحف اللوفر في باريس، منقوشة على وجه حجارة صَوَّروهُ كإنسان على رأسه خوذة ولها قرنان، وبيده مقرعة».

قال المؤرخون: و«إلياس»: هو المعروف عند الإسرائيليين باسم «إيليا»، وعند العرب: «إلياس، أو مار إلياس».

لما بلغ إلياسُ الأربعين من العمر بعثه الله نبياً إلى بني إسرائيل ولأهل بعلبك.

هذه المدينة: هي من المدن القديمة العجيبة، فيها آثار عظيمة، وقصور مُقامة على أساطين الرخام، لا نظيرَ لها في الدنيا، فيها ملعبان مُسَوَّران بالحجارة، طول الحجر الواحد منها عشرة أذرع، على أعمدة شاهقة، حتى

أنَّ العوامَّ يقولون: «إن سورها بناه الشياطين لا يؤثر فيه الحدثان، ولا يُغيره الزمان، وبها قصر سليمان عليه الصلاة والسلام».

وقال بعض المؤرخين: إن هذه المدينة كانت مَهْراً قدَّمه زوج بلقيس حين تزوجها، فقد ذكرها امرؤ القيس في شعره فقال:

لقد أنكرتني بعلبكُّ وأهلها ... ولابْنُ جريج في قرى حمص أنكرا

كانت كثيرة الخيرات والبساتين، حتى قال صاحب «الروض المعطار-١٠٩»: يُشترى عندهم من الفواكه بدانقٍ، ما يأكلُ جماعة أهل البيت ويزيد منه.

قال صاحب «معجم البلدان»: وببعلبك دبسٌ، وزيتٌ وجبنٌ ولبنٌ ليس في الدنيا مثلها يُضرب بها المثل، وفيها قبر نبي الله «إلياس»، فيها ولد، وفيها مات.

بعث الله «إلياس» إليهم عندما بلغ الأربعين وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الصافات].

وقد وصفه الله بالرسالة مع أنه جاء مُذكّراً بشريعة موسى، والسبب أنه أُمرَ بالتبليغ لملوك بني إسرائيل: «أن الله غضب عليهم لأنهم بدأ يظهر فيهم الشرك، وعبادة الأوثان»، والمعنى: بلغ رسالة عن الله هذا فحواها، فوصْفُ الرسالةِ هنا بمعنى تبليغ رسالة، مثل الرسلِ المذكورين في سورة «يس» المرسلين إلى أهل أنطاكية.

ثم أصاب الجدب قومه، فطلبوا منه الدعاء، ووعدوه الاستجابة له بأن

يؤمنوا، فدعا لهم، فلما كشف الله ما بهم نكثوا العهد، فدعا عليهم وقال: «اللهم إن بني إسرائيل قد أَبَوا إلا الكفر بك، والعبادة لغيرك، فغيِّر ما بهم من نعمتك».

وقد روى محمد بن إسحق قال: ذُكر لي أنَّ الله أوحى إليه: «إنا قد جعلنا أمرَ أرزاقهم بيدك وإليك»، فقال إلياس: «اللهم فأَمسِكْ عنهم المطر»، فحُبس عنهم ثلاث سنين حتى هلكت ماشيتهم وزروعهم، وجهدوا جهداً شديداً، كما ذكر ابن الأثير، عندها قال لهم إلياس: «إنه قد هلك ما رأيتم من الدواب والزروع بخطاياكم، فإن أحببتم أن تعلموا أن الله ساخط عليكم بأفعالكم، وأنَّ ما أدعوكم إليه هو الحق، فاخرجوا بأصنامكم وادْعُوها، فإن استجابت لكم فذلك الحقُّ كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على الباطل فتركتم ما أنتم عليه، ودعوتُ الله لكم بالفرج»، قالوا: أنصفتَ، فخرجوا بأصنامهم فدعَوْها فلم تستجبْ لهم، فقالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادعوا الله لنا بالفرج، فدعا، فخرجت سحابة مثل الترس، وعظُمت وهم ينظرون، ثم كان منها المطر بإذن الله، وسُقُوا، فلم يتركوا الباطل الذي هم عليه، فلما رأى إلياس منهم ذلك سأل الله أن يقبضَه، فيريحَه منهم. - ابن الأثير ج١ ص٢١٣.

قال المؤرخون: أوحى الله إلى «إلياس» أن استخلف عليهم «إلْيَسَعَ» وكان اليسعُ هذا قد وُلد في بعلبك، وكان تلميذاً لإلياس وصاحباً له، وقال ابن عساكر: كان اليسع ابن عم لإلياس.

قال الحسن: كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام، فمكث في قومه ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله عز وجل مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضهُ الله تعالى.

وقد أحبه الناس – كما قال الواقدي – وعَمَّت البركة عليهم بدعائه، حتى إنَّ الرجل في زمنه لو جمع تراباً على صخرة ثم بذر فيه حباً أنبتت، وكان يخرج من عصير الزيتون القليل، الكثير من الزيت، وقد ذكر الله عز وجل اليسع مع الأنبياء في الكتاب الكريم في [سورة الأنعام]: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص]، أي اذكر يا محمد هؤلاء الأخيار للتأسي بهم.

قال ابن جرير: ثم عَظُمت الخُطوبُ والبلايا في بني إسرائيل، وصاروا يقتلون الأنبياء، فسلّط الله عليهم ملوكاً ظلمة جبارين، ثم سلّط عليهم الأعداء من غيرهم.

وكانوا إذا أرادوا قتال عدوّهم حملوا معهم «تابوت الميثاق»: وهو صندوق فيه شيء مما تركه موسى وهارون، وقدَّموا هذا التابوت أمامهم، فيتحمسُ الناس ويقاتلون ويُنصرون بإذن الله.

قال المؤرخون: وحصلت حرب مرة بينهم وبين «أشدود وغزة وعسقلان» من العمالقة، وقُتل من بني إسرائيل خلقٌ كثير، وأخذ العماليق منهم سبايا، حتى سُبي أولاد الملوك.

قال الآلوسي: سبى العماليق من أبناء ملوك بني إسرائيل أربعمائة وأربعين ولداً، وأخذوا توراتهم، ولم يكن فيهم وقتها نبيٌّ يرجعون إليه في تدبير أمورهم، كما أخذوا منهم «تابوت العهد» وفيه التوراةُ، ووضع العمالقة التابوت في قرية تُسمى «بيت داجون»، وداجون: اسم إله من آلهة العمالقة.

قال صاحب كتاب «قصص الأنبياء»: وتوجد بالقرب من الرملة قرية

من بلاد فلسطين اسمها «بيت دَجْنٍ» أعتقد أنها هي قرية «بيت داجون» التي وضع فيها العمالقة التابوت وما فيه.

قال السدِّي بإسناده إلى ابن عباس وابن مسعود: وانقطعت النبوة من سبط «لاوي» ولم يبقَ فيهم إلا امرأة واحدة حامل، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً، ثم عزلوها في بيتٍ خشية أن تلد جارية فتُبْدِلَها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل بولدها، فولدت ذكراً أسمتهُ «شموئيل» أي إسماعيل في العربية، لأن اليهود يجعلون السين شيناً، ومعناه: «سمع الله دعائي واستجاب لي».

ولما كبر الغلام سلّموه لشيخ من علمائهم ليُعلمه التوراة، فقام الشيخ بتعليمه وجعله كولده، فكان ينام قريباً من الشيخ لحرصِ الشيخ عليه.

قال المفسرون وعلى رأسهم ابن كثير والبروسوي: ولما كَبُرَ الغلام وبلغ أتاه جبريل في المنام وناداه، فانتبه الغلام من النوم خائفاً، وقال للشيخ: أنت ناديتني؟ فكره الشيخ إن قال له: لا، أن يخاف ويُرَوَّعُ، فقال: نعم، ارجع يا بني فنم، فرجع الغلام فنام، ثم دعاه جبريل الثانية باسمه، فقام الغلام وقال: أنت دعوتني؟ قال الشيخ: يا بني اذهب فنم، فإن دعوتك الثالثة فلا تُجبني، فلما كانت الثالثة وقام الغلام ظهر له جبريل فقال له: إنْ الله قد بعثك إلى قومك نبياً، وهذا النبي «شموئيل» من نسل هارون.

قال الآلوسي وغيره: فلما أتاهم كذبوه، وقالوا: لقد استعجلت بالنبوة ولم تَحِنْ لك، وليس أوانها، فإن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نُقاتلْ في سبيل الله، ويكون ذلك علامة نبوتك، وإلى هذا أشارت الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة ٢٤٦].

قال المؤرخون: هذه الآية أشارت إلى قصة عظيمة من تاريخ بني إسرائيل لما فيها من العلم والعبرة، لأن القرآن يريد أن يُعطيَ أمة محمد ﷺ العبرةَ من التاريخ وفوائده، هذه القصة هي حادث انتقال نظام الحكم في بني إسرائيل من الصبغة الشورية، إلى الصبغة الملكية المُعَبَّرِ عنها بعصر الملوك.

الصبغة الشورية كانت تُسمى «بعهد القُضَاة»، وذلك أنه لما توفي موسى في حدود سنة «١٣٨٠ ق م»، خلفهُ في بني إسرائيل «يوشع بن نون»، بناءً على أوامر موسى عليه السلام، فجعل يوشع لأسباط بني إسرائيل حكاماً يسوسونهم ويقضون بينهم وسمّاهم «قضاةً» ودام حكم القضاة «٣٥٦ عاماً»، وكان بين وفاة يوشع وبعث شموئيل «٤٦٠ عاماً»، وكان من أولئك الحكام أنبياء، وكان هناك أنبياءٌ غيرُ حكام، وكان من أنبيائهم وقُضاتهم «شموئيل»، وكان محبوباً عندهم، ثم لما فسدَ بنو إسرائيل، وابتعدوا عن هدي التوراة، وقامت حروبٌ بينهم وبين الفلسطينيين، ثم رأينا كيف انهزم بنو إسرائيل وأخذ العمالقة التابوت.

قال الإسرائيليون: إن سبب ضعفنا وهزيمتنا كون صموئيل قد شاخ وضَعُفَ، وظنوا أنَّ قوة الفلسطينيين وانتصارهم كان بسبب نظامهم الملكي، فاجتمع عُرفاؤهم من كل المدن وطلبوا من صموئيل أن يُقيم لهم ملكاً يُقاتل في سبيل الله، فاستاء منهم شموئيل، وحذرهم عواقب ظلم ملوكهم، وكان مما قال لهم: إن الملكَ يأخذ بنيكُم لخدمته وخدمة خيله، ويتخذُ منكم من يركض أمام مراكبه، ويُسخِّرُ منكم حرّاثين لحرثه، ويجعل بناتكم عطاراتٍ وطباخاتٍ وخبازاتٍ، ويصطفي من حقولكم وزراعاتكم أجوَدَها فيُعطيها لعبيده، فإذا صرختم بعد ذلك في وجه مَلِكِكُم لا يستجيبُ الله لكم.

فقالوا: لا بدَّ لنا من ملكٍ لنكون مثل سائر الأمم، فقال لهم ما قصه

الله علينا في نفس الآية من [سورة البقرة ٢٤٦]: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا۟ۖ﴾.

قال ابن كثير: طلبوا ذلك من نبيهم «شموئيل» لما قهرهم عدوهم، وكانوا يعلمون أن نجاحهم إنما يكون باجتماعهم على ملوكهم، وطاعة هؤلاء الملوك لتوجيهات الأنبياء.

قال البروسوي: كان الملكُ هو الذي يُسَيِّرُ الجموع، والنبي يُشير ويُرشد، ويأتيه بالخبر من السماء، كما كان ﷺ يؤمّر على الجيوش ويوصيهم بطاعة الله وامتثال أمره، كان جوابه لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا۟ۖ﴾ [البقرة ٢٤٦].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة ٢٤٦].

﴿ٱلْمَلَإِ﴾: أشراف الناس من أهل الحلِّ والعقد بينهم، وسُمُّوا بذلك لأنهم يملؤون العيون رُوَاءً، والقلوب هيبةً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: أي قد علمتَ خبرهم بإعلامنا إياك ذلك، وغايةُ هذا التعبير التحريض على التعجب من حالهم.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾: هو «شموئيل» كما مرَّ معنا، والقرآن لم يذكر اسمه لأنَّ محَلَّ العبرة ليس شخص النبي وإنما حالُ القوم، وهكذا دأْبُ القرآن دائماً، وكان «شموئيل» يُعرف بابن العجوز؛ لأنَّ أمه حملت به على كِبر.

ويذكر صاحب كتاب «أنبياء الله» محاورة حصلت بين الملأ من بني إسرائيل وبين نبي الله «شموئيل»، أتوا إليه فقالوا: ألسنا مظلومين؟

قال: نعم، قالوا: ألسنا مقهورين مشردين؟

قال: نعم، قالوا: ابعث لنا ملكاً يجمعْنا تحت رايته، ونُقاتلْ في سبيل الله، ونستعيدُ أرضنا وذرارينا، وأولادنا.

قال لهم «شموئيل»: هل أنتم واثقون من القتال إن كُتبَ عليكم؟

قالوا: كيف لا نُقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من بعض ديارنا، وشُرِّدَ أبناؤنا؟

فكان جوابه ما قصه الله علينا في نفس الآية [البقرة ٢٤٦]: ﴿ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ ﴾؟، أي معه، أخافُ إن فُرِض عليكم القتال أن تَجْبُنوا؟!! وهذا يدل على علمه بأحوالهم و «هل» في قوله السابق، ليست للاستفهام، وإنما للتقرير، فهو قد تقرّر عنده جُبْنُهم، وأنه صادق في توقُّعه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ ﴾ [الإنسان]، أي قد أتى.

ماذا كان جوابهم؟

كان جوابهم لنبيهم ما قصه الله علينا في نفس الآية: ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾ [البقرة ٢٤٦]، والمعنى: أيُّ سببٍ وأيُّ عذرٍ، وأيُّ غرضٍ لنا في ترك الجهاد؟ بل الحال والواقع يفرض علينا أن نُجاهد لأننا حُرمنا من بعض ديارنا ومن أبنائنا، إخراجٌ من الديار، وأسرٌ وقتلٌ للأولاد.

قال المفسرون: ولكن سُرعان ما تحقق صدْقُ ما توقعه نبيُّهم فيهم إذ عندما فُرِض عليهم القتال، وبُعِثَ لهم الملك جَبُنوا وتراجعوا وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ ﴾ [البقرة].

قال القرطبي: لما فُرِضَ القتال، تغيرت نياتُهم، وفترت عزائمُهم، ثم قال: وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الراحة والرفاه تتمنى الحرب أوقاتَ الأنفةِ، فإذا حضرت الحربُ كَعَّتْ وانقادت لطبعها.

وقال صاحب «المنار» ناقلاً عن الشيخ محمد عبده في هذه الآية ما معناه: من الفوائد الاجتماعية في هذه الآية أنَّ الأمم التي تفسد أخلاقُها قد تفكر بالمدافعة والجهاد عند الحاجة، ولكن بشروط يَتخيَّلُونها، فإذا توفرت هذه الشروطُ التي تخيلوها يجْبُنون، ويزعمون أن هذه الشروط غير كافية ليَعْذُروا أنفسَهم، ثم قال: «وما هم بمعذورين»، ثم قال: وهذا على حدِّ قول الشاعر:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلبَ الطعنَ وحدَهُ و النِّزَالا

ولذلك علمنا النبي ﷺ فائدة جليلة بقوله: «لا تَتَمنَّوْا لقاء العدو، وسَلُوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا».

ولذلك وصف الله تصرفَ بني إسرائيل حين جَبُنُوا بالظُلم؛ لأنهم قالوا ولم يفعلوا، فقال: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة].

فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ ﴾، والشيء العزيز القليل أعلى بهاءً من الكثير الذليل.

قال المفسرون: وقوله: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ ﴾، جاء ليُقرر قاعدةً إيمانية أنَّ المقاييس ليست بكثرة الجمع، ولكن بنُصرة الحق، وأنصار الحق رغم قِلَّتهم سينتصرون، وأهل الحق والحقيقة لا يخلوا منهم زمان ولا مكان، ولذلك قال الشاعر:

إنَّ الذي جعل الحقيقة عَلْقماً لم يُخْلِ من أهل الحقيقة جيلا

وهذا نلاحظ أنَّ الآيات التي خُتمت بها هذه القصة جاء فيها بعد ثلاث آيات: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة ٢٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، هذا وعيدٌ وتهديدٌ لهم؛ لأنهم أظهروا خلافَ ما أَضْمروا، وزعموا غير ما كَتَمُوا، ولما عُرضت دعواهم على مَحَكِّ معناهم فما أفلحوا عند الامتحان، إذ عجزوا عن البرهان، وعند الامتحان يُكرم الرجل أو يُهان، كما قال البروسوي.

قال العلماء: من قال «لا» بعد قوله «نعم»، فقد ظَلَمَ، ولذلك قال الشعراءُ:

من قال: لا في حاجةٍ مسؤولة فما ظَلَمْ
وإنما الظالمُ من يقول: لا بعد نَعَمْ

وقالوا:

حسنٌ قولُ «نعم» من بعد لا وقبيحٌ قول «لا» بعد نعم
إنَّ «لا» بعد «نعم» فاحشة فبلا فابدأْ إذا خفتَ الندم

طالوت الملك:

قال المفسرون: بعد هذا الحوار بين نبيهم وبينهم، وما هي إلا فترة يسيرة، أتاهم «شموئيل» قائلاً لهم بعد أن أُوحي إليه: «إن الله قد أجابكم لما سألتم، وبعثَ لكم طالوت ملكاً عليكم، فأطيعوه، وقاتلوا عدوكم معه»، وذلك قوله تعالى في [سورة البقرة ٢٤٧]: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾

وانتبه – يا عبد الله – إلى هذا الأدب النبوي العالي، فقد أراد أن يقول لهم: إنَّ مسألة اختيار طالوت ليست مني، لأنها ليست مسألةً بشرية، وإنما هي اختيار من الله، أما أنا فبشر مثلكم وواحد منكم.

وقوله: ﴿قَدْ بَعَثَ﴾: فيه إشارة لطيفة إلى المهمة التي سيقوم بها «طالوت»، وهي كما قال العلماء: بعثُ شعبٍ ميتٍ ليستخلص حقوقه ممن اغتصبها.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾: أي لا لغيركم، فهو رسالةٌ لكم محصورةٌ فيكم.

و﴿طَالُوتَ﴾: وهذا اللفظ لقبه، واسمه «شاول»، مأخوذ من الطول، للمبالغة فيه كما تقول: طاغوت: أصله طغيوت، وقع فيه قلبٌ مكانيٌّ، وجبروتٌ وملكوتٌ، ورهبوتٌ، ورغبوتٌ، ورحموتٌ، وهذه الأوزانُ قليلة في العربية ونادرة، ولعلها من بقايا العربية القديمة السامية، ويدل على ذلك منعه من الصرف للعلمية والعُجْمى.

ولعل عدولَ القرآن من اسمه إلى لقبه لثِقَلِ اللفظ، وخِفة كلمةِ «طالوت» وهي اللقب.

قال القرطبي: لما سأل نبيُّهم الله عز وجل أن يبعثَ إليهم ملكاً، وأن يدلَّهم عليه، أوحى الله إليه: «انظر إلى القَرَنِ الذي فيه الدُّهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنَشَّ الدهنُ الذي في القَرَنِ، فهو ملكُ بني إسرائيل، فادْهن رأسَه، وملِّكْهُ عليهم».

قال المفسرون: كان طالوت عاملاً فقيراً، يعمل في السقاية والحرث، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، كانت النبوة في سبط لاوي: ومنهم موسى وهارون، وكان المُلكُ في سبط يهوذا: ومنه سليمان وداوود، ولم يكن

في سبط بنيامين لا نبوة ولا مُلك، خرج طالوت مرة من بيته في طلب دوابَّ له ضاعت ومعه غلامٌ يُساعده، فمرَّ قريباً من بيت النبي «شموئيل» فقال الغلام لطالوت: لو دخلتَ بنا إلى هذا النبي نسأله الدعاء لردِّ ضالتنا؟!

فدخلا، وبينما هما عنده إذ نشَّ الدهن الذي في القَرَنِ، فقام إليه النبي فأخذه ودهن به رأس طالوت وقال له: «أنت ملكُ بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أُملِّكَك عليهم»، قال طالوت: وما علامة ذلك؟

قال النبي شموئيل: أن تعود إلى بيتك وقد وجدت ضالَّتَك فيه، فكان كما قال، ذكر ذلك ابن إسحق وابن جرير.

قام النبي شموئيل ومسح رأسَ طالوتَ بالزيت، وقبَّله، وجمع بني إسرائيل في بلد «المِصفاة»، وأحضر طالوت، وعيّنهُ ملكاً عليهم وذلك سنة «١٠٩٥» قبل ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ماذا كانت ردَّةُ فِعل بني إسرائيل على تعيين طالوت ملكاً؟

قال الآلوسي: وتسامعَ الناس بذلك، فأتت عُظماءُ بني إسرائيل إلى نبيّهم مستغربين هذا التعيين حيث لم يكن من بيتِ مُلكٍ ولا نبوةٍ، وإنما هو واحد من عامة الشعب، وهذا ما ذكره الله بالآية [٢٤٧ البقرة]: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾.

قالوا - معترضين على نبيّهم، بل على ربهم -: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾.

قال أرباب البصائر: قولهم هذا يدل على أنَّ الناس حين يريدون أمراً من الأمور، لا يريدون الرجل المناسب لهذا الموقف ولهذا الأمر، ولكنهم يريدون الرجل المناسب لنفوسهم وأهوائهم بدليل قولهم: ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ﴾.

أراد الله وضع قضيةٍ على المؤمنين أن يفقهوها، وهي أننا حين نريد أن نختار لقضية أو لموضوع، فعلينا ألا نُخدع بحسبٍ أو نسبٍ، أو جاهٍ، أو كثرة مال، بل علينا اختيارُ الأصلح من أهل الخبرة.

ولذلك نرى القرطبي يقول عندما فسَّر ردَّهم: لقد تركوا السبب الأقوى - وهو اختيار الله عز وجل وقضاؤه - ليأخذوا بأسبابهم، ولذلك يقول الله تعالى يوم القيامة: «وضعت لي نسباً، ووضعَ الناسُ نسباً، أما نسبُ الناس فالمال، وأما نسبي، فإن أكرمكم عند الله أتقاكم».

لذلك قال العلماء في قول بني إسرائيل لنبيِّهم: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾، قالوا: إن قولهم هذا فيه شَبَهٌ من فخر إبليس حيث قال حين أُمرَ بالسجود لآدم: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

ثم إنَّ قولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، هو العقدة الخالدة عند كثير من البشر، بل عند أكثر البشر: أن يُقَوَّم الأشخاص بالمال، فالوجيه عندهم صاحب الثروة، والشريف صاحب السلطان.

وما أجمل قول «الحرّالي» الذي ذكره القاسمي: قال: إن قولهم عن طالوت: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، يعنون بذلك أنه فقير، والمُلكُ يحتاج إلى المال، قال: إنَّ هذا استصنامٌ للمال وتجاهلوا أنَّ المُلكَ بإيتاء الله، فكان هذا القول منهم فتنة فيها جهل وشرك.

قال العلماء: وتناسوا أنَّ القضية التي طلبوها تحتاج إلى رجل فيه صفتان: رجل جسيم، ورجل عليم، والله اختار لهم طالوت رجلاً جسيماً وعليماً معاً.

وتلمَسُ من قولهم السابق: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، تَزَايُدَ صنوفِ الفتن عليهم،

ولكن نبي الله «شموئيل»، أسرع في البيان لهم، أن هذا اختيار الله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة ٢٤٧].

وعبارة: ﴿ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ تدل على أنه قد يكون في بني إسرائيل الجسيمُ، ولكن لا علمَ عنده، أو قد يكون العليم فيهم، ولكن لا بسطةَ ولا جسامةَ عنده، ولذلك قال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾.

والمراد بالعلم هنا: علمُ سياسة أمر الأمة التي ترجع إلى أصالة الرأي وقوة البدن؛ لأنه بالرأي يُهتدى لمصالح الأمة، لاسيما في وقت المضائق، وعند تعذر الاستشارة، أو عند خلاف أهل الشورى، ويشمل ذلك الحرب والسلم، وبالقوة يستطيع الثبات في مواقع القتال، فيكون بثباته ثباتُ نفوس الجند والجيش، وقدَّمَ النبي «شموئيل» في كلامه العلم على القوة؛ لأن وقعه أعظم، ولذلك قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ، وهي المحل الثاني

والنفس إن جمعت كلا طرفيها بَلغَتْ من العلياء كل مكان

وفي تقديم العلم على الجسم إشارةٌ إلى أنَّ إمامة الجاهل وقيادته لا خيرَ فيها.

قال صاحب كتاب «حياة داوود» في هذا العلم: إنه علمٌ يُوهَبُ من الله، ولا يُكتب في الكتب، إنه الفهمُ والإدراك السياسي، انظر إلى عمر بن الخطاب ماذا قال فيه رسول الله ﷺ: «لم أرَ عبقرياً يَفْري فريَّهُ».

ولله درُّ صاحب «المنار» ما أجمل تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾، حيث قال: **أنَّ أسباب اختيار طالوت تعود إلى أربعة أمور:**

أولاً: الاستعداد الفطري لتدبير شؤون الأمة وقيادتها.

ثانياً: جودة الفكر في المواقف الصعبة مع الشجاعة.

ثالثاً: كمال الجسم ورواؤُهُ وقوَّتُهُ، واكتمال الحواسِّ.

رابعاً: توفيق الله تعالى الأسباب له، وهو ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ** ﴾.

ثم قال رحمه الله: وأما المال، فليس بركنٍ في تأسيس المُلك؛ لأنه بالأمور السابقة يأتي المال ويتوافر.

وقد أشار ابن عاشور إلى نفس الفكرة فقال: أما المال فإنه يتوافر بالعلم والنصر؛ لأنَّ المال تأتي به الرعية، كما قال «أريسطاليس»، ولأنَّ المَلِكَ وإن كان ذا ثروة، فثروته لا تكفي لإقامة أمور المملكة، ولهذا لم يكن من شروط الخليفة عند المسلمين أن يكون ذا سعة في المال، وقد تولى أمر الأمة أبوبكر وعمر وعلي ولم يكونوا ذوي يسار، وغِنَى الأمة في بيت مالها، ومنه تقوم مصالحها، وأرزاق وُلاة أمورها، ولله در الشاعر العربي حيث وصف الرجل الجدير بالاختيار ليكون مسؤولاً بقوله:

فَقلِّدُوا أمركم لله دَرّكم ... رحبَ الذراعِ بأمر الحرب مُضطلعا
لا مُترفاً إنْ رخيُّ العيش ساعده ... ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به خشعا
وليس يشغله مالٌ يُثمره ... عنكم ولا ولدٌ يبغي له الرفعا

وانتبه إلى جميل الختام في قوله عز وجل بقوله: ﴿ **وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة]، فالله يؤتي ملكه من يشاء: أي أن الله له سُنَّةٌ في تهيئة مَنْ يشاء للمُلك، وذلك بتوفر معاني الخير في الشخص مع الشجاعة والقوة، وليس المقصود عِظَمُ الجسم وكِبَرَهُ، ألم ترَ إلى قول القائل:

تَـرى الرجـلَ النحيـفَ فتزدريه   وفي أثوابـه أسـدٌ مزيـر[1]
ويُعجبـك الطّريـرُ فتبتليـه   فَيُخْلِفُ ظنَك الرجلُ الطريرُ[2]
وقـد عظُـمَ البعـيرُ بغـير لُـبٍّ   فلـم يسـتغن بالعظـم البعـيرُ

قال القرطبي: ومن هذا المعنى ما ورد في «صحيح مسلم» أنَّ النبي ﷺ قال لأزواجه: «أسرعكُنَّ لحاقاً بي أطولكن يداً»، فكُنَّ يتطاولن، فكانت زينب أولهن موتاً؛ إذ كانت تعمل بيدها وتتصدقُ.

ونحن لو استعرضنا عباقرة الدنيا لوجدت هاتين الصفتين: «بسطة العلم، وبسطة الجسم»، تنتظمهما جميعاً.

ففي بسطةِ العلم كمال الباطن.

وفي بسطة الجسم كمال الظاهر.

قال الآلوسي في «تفسيره»: المقصود من بسطة الجسم: القوة والجمال، وليس المقصود الطولَ، ولو كان الطول الكبير دالاً على الفضيلة لكان نبينا أولى بذلك مع أنه ﷺ كان ربعةً من الرجال.

وفي الأمثال قالوا: «المرءُ بأصغريه، لا بكبرِ جسمه وطولِ بُرْدَيْه».

ويأتي الختام الذي ختم به شموئيل كلامه وهو: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾: لعلمه أنَّ طالوت أصلحُهُم، وأنَّ أكثر الشعب أرادهُ، وأنَّ القِلةَ العاتية هي التي رفضته.

---

(١) مزير: الشديد، القوي القلب.

(٢) الطرير: منظرهُ فيه رَواء.

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾: يُوَسّعُ على الفقير ويُغنيه، عليم بمن يليق بالمُلك ممن لا يليق.

وهذا الختام بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى، فيه تنبيهٌ على طريقةٍ يَتَّبعُها القرآن الكريم، وهي طريقة الإتيان بالدليل بعد الحُكم وأنه عز وجل إذا شاء أمراً اقتضتهُ حكمتُهُ في نظام الخليقة، فإنه يقع لا محالة.

فالله واسع: وسِعَ غناه كل فقير، ووسعت رحمتُه كل شيء، ووسِعَ علمه كل شيء، ووسِعَ إحسانه كل شيء، ووسعت قُدرته كل شيء.

والواسعُ: هو الذي لا نهاية لسلطانه، ولا نهاية لعلمه وقدرته، ولا نهاية لعطائه.

قال بعض العارفين – كما نقل النابلسي –: والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون لَـمَـا سُمِّيتَ الواسع، وما أجمل قول القائل:

ملكُ المُلوكِ إذا وهب ... لا تسألنَّ عن السبب

فقام داعيه – النابلسي – وعدّله فقال:

ملكُ الملوكِ إذا وهب ... قم فاسألنَّ عن السبب

الله يـعطي مَـنْ يـشاء ... فـقف على حَدِّ الأدب

والله عليمٌ: واسم العليم مهم جداً في طريق الإيمان؛ لأنك إذا أيقنت أنه تعالى يعلم الظاهر والباطن، يعلم سرك وجهرك، يراك في خلوتك وجلوتك، في نواياك، في حضرك وسفرك، يعلم ما تشتهيه وما يجري في نفسك إذا أيقنت ذلك لزمت جانب الاستقامة.

قال الآلوسي: روايات أهل الأخبار عموماً تقول: إنَّ زعماء بني إسرائيل

لما رأوا إصرار نبيّهم على بَعثِ طالوت ملكاً عليهم كما أمر الله، قالوا عندئذ: ما علامة مُلْكِه، وما دليل اصطفائه؟

قال لهم النبي صموئيل: «إن علامة اختيار الله له ملكاً عليكم، أن يُردَّ التابوت الذي أُخذَ منكم».

قال الرازي: إنَّ العلامة أن يُردَّ التابوتُ عليكم على وجهٍ خارقٍ للعادة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٤٨﴾ [البقرة].

قال العلماء: لما استقبل بنو إسرائيل الاختيار الإلهي لطالوت ملكاً باللّجاج، واللجاجُ نوع من العناد، ولا يُنهي هذا اللجاج وهذا العناد إلا أمرٌ حِسِّيٌّ مُشاهدٌ يُلزمهم الحُجة، كان لا بدَّ من مجيء معجزة وهذا ما حصل.

والتابوت: هو صندوق مستطيل، كان موسى قد أمر بصنعه، صنعه «بَصْلَئيلَ الملهَم» في صناعة الذهب والفضة والنحاس ونجارة الخشب، فصنعه من خشب «السنط»، وجعل طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعاً ونصفاً، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، وغشّاه بذهبٍ من داخل وخارج، وصنع له إكليلاً من ذهبٍ، وسبك له أربعَ حِلَقٍ من ذهب على قوائمه الأربعِ، وجعل له عَصَوَيْن من خشب مُغَشّاتَيْن بذهبٍ لتدخل في الحلقات لحمل التابوت، وجعل غطاءَه من ذهب، وجعل على طريق الغطاء صورةً تخيَّل بها اثنين من الملائكة من ذهب باسِطَيْنِ أجنحتهما فوق الغطاء.

وأمر الله موسى أن يضع في هذا التابوت لَوْحَيْ الشهادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ

﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف].

والألواح كانت قبل التوراة، ثم أُنزلت التوراة فصارت كتاباً واحداً، ومع لَوْحي الشهادة كان في التابوت بعضُ آثار آل موسى وآل هارون، ومع الألواح الثيابُ التي أَلبسها موسى أخاه هارون حين جعله الكاهن لبني إسرائيل والحافظَ لأمور الدين وشعائر العبادة، ومن ذلك العصا.

والمُراد بقوله: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾: أي أهل بيتهما من أبناء هارون؛ فإنهم عُصْبَةُ موسى؛ لأنَّ موسى لم يترك أولاداً.

﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: قد تُطلق على ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره، وقد تُطلق على الشيء النفيس الذي يُحافظ الناس عليه، ومِنْ ذلك قول النابغة:

بقيّةُ قُدْرٍ مِنْ قُدورِ تُوُرِثَتْ لآل الجُلاحِ كابراً بعد كابر

وقوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: أي في إتيانه استقرارٌ نفسيٌّ لكم، وفيه طمأنينةٌ حيث يزول خلافكم وتطمئنون إلى طالوت؛ لأنَّ السكينة من السكون والهدوء والاطمئنان، والصحيح: أنَّ فيه أشياءَ فاضلةً من آثار الأنبياء تطمئن النفوس لها.

قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾:

قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، فآمنوا عندها بنبوتِهِ وأطاعوه.

ويروي المؤرخون: أن التابوت جاء على عجلةٍ تجرها بقرتان، وأنَّ العمالقة هم الذين وضعوا التابوت على العجلة وأرسلوها باتجاه بني إسرائيل.

وقد ذكر أهل الكتاب القصة فقالوا ما خُلاصتُهُ: إن التابوت بقي سبعة أشهر في بلاد فلسطين موضوعاً في بيت أصنام العمالقة «بيت داجون»، ثم

وضعوه بالقرب من مزبلة في بعض مُدنهم، فتفشَّى فيهم مرض البواسير، وسُلِّطت عليهم الجرذان تأكل زروعهم، فاستشاروا كُهان أصنامهم، فأشاروا عليهم بتوجيهه - التابوت - إلى بني إسرائيل على عربة؛ لأنهم تشاءموا من وجود التابوت بعد ابتلائهم بالمرض وبفساد الزروع، وساق الله أقداراً إلى أقدارٍ، فجعلوا التابوت في عربة تجرها بقرتان، ووجَّهوها إلى جهة منازل بني إسرائيل فمشت العربة فساقتها الملائكة حتى وصلت إلى منازل بني إسرائيل، فكانت آية عظيمة.

قال ابن عاشور: وصريح القرآن يُخالف رواية أهل الكتاب.

ولكن: ما الذي يمنع من حمل الآية على ظاهرها، وأنَّ الملائكة حملته، ويؤكد هذا قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة]، أي إن كنتم مؤمنين بالله ومُصدقين لما يقول، فصدقوا بتمليك طالوت عليكم.

قال العلماء: والسياق القرآني يدل على أنَّ الله بهتَهم بالحجة، وبهتَهم بالآية المعجزة؛ إنه مشهدٌ يخلع القلوب حين رأوا التابوت يوضع فجأةً بين أيديهم تحمله الملائكة، وهم لم يروا الملائكة؛ لأنها كائنات غير مَرْئية، ولذلك أسند الحقُّ أمر الإتيان إلى التابوت: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، والدليل على أنَّ هذه الآية أفحمتْهم أنَّ القرآن لم يذكر أيَّ اعتراضٍ منهم بعد ذلك، وحذفَ أموراً كثيرة يدل عليها سياق الآيات التالية، مما يدلُّنا على أنهم قبلوا بطالوت بعدها ملكاً، فقام طالوت بعدها وجمع الجنود ورتَّبهم وقسّمهم، ونظَّم أمر الحرب، وكل هذه التفاصيل سكت عنها القرآن ليقول لنا: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا

مِّنْهُمْۚ ﴾ [البقرة ٢٤٩].

قال صاحب «روح البيان»: لما رأوا التابوت لم يشكّوا في النصر فتسارعوا إلى الجهاد، فقال لهم المَلكُ طالوت: لا يخرج معي شيخ كبير، ولا مريضٌ، ولا رجلٌ بنى بناءً ولم يفرغ منه، ولا صاحبُ تجارةٍ مُشتغلٍ بها، ولا رجلٌ عقد على امرأة ولم يدخل بها، ولا أُريد إلا الشاب النشيط الفارغ، ثم سلك بهم طالوت الطريق لقتال العمالقة، وكان الوقت قيظاً.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وجهز طالوت الجيش، وسار بهم وسط مرتفعات وصحراءَ وطرقٍ صعبة حتى أحسَّ الجنود بالعطش، وعندها قال لهم طالوت: سيأتي أمامنا بعد قليل نهر، فمن شرب منه فليخرج من الجيش، ومن لم يذقْه - إلا غُرفة بلَّ بها ريقه - فليبقَ معي، وذلك ما قصّه الله علينا بقوله: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ [البقرة ٢٤٩].

قال العلماء: لقد أوضح لهم طالوت: أنهم مقبلون على مهمة لله وفي سبيل الله، وإنَّ الله سبحانه سيختبركم، ولستُ أنا، والاختبار يكون على قدر المهمة، ولا شك أن طالوت أراد هذا الاختبار وحبَّذه؛ لأنَّ القوم وقفوا أول الأمر ضد تعيينه ملكاً؛ لذلك أراد أن يدخل الحرب على أرضٍ صلبة، فما هو هذا الاختبار؟

وقوله: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ ﴾: أي لما خرج الجيش من بيت المقدس وجاوزوا مساكنهم وقراهم التي خرجوا منها، وابتعدوا عنها، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾، أي مختبركم بنهر، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء مع شدة عطشه عُلِمَ أنه مطيعٌ في غير ذلك، ومَنْ غلبتْهُ شهوته على

الماء وعصى الأمر، فهو في العصيان في الشدائد الأخرى أحرى.

والنهر هنا: المقصود به بين الأردن وفلسطين، وهو «نهر الشريعة» المشهور.

والنَّهْرُ والنَّهَرُ: لغتان بتسكين الهاء وتحريكها، وكل ثُلاثي وسطه «حشوة» حرفٌ من حروف الحلق فإنه يأتي على هاتين اللغتين كقولك: صخْر و صخَر، شعْر و شعَر، بحْر و بحَر.

ومنه قول الشاعر:

كأنما خُلقت كَفَّاهُ من حَجَرٍ ... فليس بين يديه والندى عملُ
يرى التَّيَمُّمَ في برٍ وفي بَحَرٍ ... مخافةَ أن يُرى في كفِّه بلَلُ

قال صاحب «التحرير والتنوير»: والظاهر أنَّ المَلكَ طالوت لما عَلِمَ أنه سائر بهم إلى عدو كثير العدد قوي العُدد، أراد أن يختبر قوة يقينهم في نُصرة الدين، وتحمُّلِهم المتاعبَ ويعلم مدى مقاومتهم لشهواتهم قال لهم: إنكم ستمرون على نهر، وهو «نهر الأردن»، أو نهر الشريعة فلا تشربوا منه، فمن شرب منه فليس مني، ورخَّص لهم في غُرفةٍ يغترفها الواحد بيده يَبُلُّ بها ريقه.

وهذا غاية ما يُختبر به طاعةُ الجيش، فإن السير في الحرب يُعطش الجيش، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه شهوةً وعطشاً، كما أنه أراد إبقاء نشاطهم، لأنَّ المحارب إذا شرب ماءً كثيراً بعد التعب، انحلَّتْ قواه ومال إلى الراحة وأثقله الماء، ولذلك لم يَقْسُ الله عليهم في الابتلاء، فأباح لهم ما يَفُكُّ العطش، ويَسُدُّ الرمق.

والعرب تعرف أنَّ المحارب المتعب إذا شرب بعد التعب ماءً كثيراً يثقلُ وتَنحلُّ عُراه، ولذلك قال الطفيل يذكر خيلهم فيقول:

فلما شارفتْ أعلامَ طيّ وطيٌّ في المغار وفي الشعاب
سقيناهُنَّ من سَهلِ الأداوي فَمُصْطَبَحٌ على عجلٍ وآبي

والمعنى أنَّ الذي مارس الحرب مراراً لم يشرب؛ لأنه لا يسأم من الركض والجهد، والغِرُّ منهم يشربُ لجهله لما يُراد منه.

لذلك أباح له أن يغترفوا منه غُرفةً.

وقوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾: أي ليس من أصحابي وأشياعي الذين يُقاتلون عدوي، ويُحتمل أن يكون المعنى أنه سيبعده من الجيش، أو أنه بُعدٌ معنوي، بمعنى أنه غضب عليه، وهذا المعنى أقوى ومنه قول النابغة:

إذا حاولتَ في أسدٍ فجوراً فإني لستُ منك ولستَ مني[1]

وقول النابغة الذبياني هذا، يُوبخ به عُيينة بن حصن الفزاري حين دعا قومه إلى نقض العهد في بني أسد: وهذا هو المراد بالفجور في البيت.

قال القرطبي: وهذا مهْيَعٌ أي واضح في كلام العرب.

وقوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾: لم يُخرجْهم عن الإيمان، بل المعنى: لا أصحبُكُم في الحرب وسأغضبُ عليكم، ومنه قوله ﷺ: «ليس منا مَنْ لم يرحمْ صغيرنا، ويُوقِّر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

قال القرطبي: كان في الجيش المؤمن والمنافق، والمُجِدُّ والكسلان.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾: أراد بقوله هذا إظهار مكانة مَنْ ترك الشربَ من النهر وولاءه وقربه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾: فيه رخصةٌ للمطيعين بالغُرفة

(١) أي لا عُلْقَةَ ولا اتصالَ بيني وبينك.

من الماء ليرتفع عنهم أذى العطش نوعاً ما، وليعلمَ السامعون أنَّ المغترفَ بيده هو كمنْ لم يشربْ منه شيئاً ولاءً وقُرْباً.

وقوله: ﴿لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾: بمعنى لم يَذُقْهُ، من الفعل طَعِمَ من الطَّعْم بفتح الطاء إذا ذاقه مأكولاً كان الشيء أو مشروباً، ويُعرف ذلك بالسياق والقرينة، وأصله اختبار طَعْمِ المطعوم من مُلوحةٍ، أو حلاوةٍ، ثم توسعوا فيه فصار يُطلق على اختبار المَشروب، ومنه قول المخزومي - شاعر جاهلي قُتل يوم بدر -:

فإن شئتِ حرَّمتُ النساء سواكم وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخاً[1] ولا بَرْدا

والغُرْفَةُ: قالوا: بالضم هي الغرفةُ باليدين.

والغَرفةُ: بالفتح: باليد الواحدة ملء الكف.

وقد ورد عن علي قوله: «الأكفُ أنظف الآنية»، ومنه قول الحسن:

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغُدْرانِ بالرَّاحِ

وقد كره العلماء أن يكرعَ الإنسان الماء كروعاً، وهو الشرب بفمه مباشرةً من النهر أو الساقية بدون كفٍّ أو إناء، فقد أخرج ابن ماجة في سننه من حديث ابن عمر قال: مررنا على بركة فجعلنا نكرعُ فيها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناءٌ أنظفَ من اليد» والحديث فيه راوٍ ضعيف، ولكن قد روى له مسلم.

ما نتيجة هذا الاختبار لهم؟

كانت النتيجة ما ذكره الله عز وجل في كتابه: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا

---

(١) نُقاخاً: الماء الصافي، وبردا: قبل النوم، وقيل الماء البارد.

﴿مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة ٢٤٩].

قال ابن عباس: شربوا على قدر يقينهم: فشَربَ الكفار شُربَ الهِيْم، وشرب العاصون دون ذلك، وبقي المؤمنون بعضهم لم يشرب، وبعضهم أخذَ الغُرفة.

ثم قال ابن عباس: فأما من شربَ فلم يرْوَ، بل برَّحَ به العطش، وأما من ترك الماء فحسُنت حاله، وكان أجلدَ وأصبر ممن أخذ الغُرفة.

قال صاحب «روح البيان»: المخالفون لما وصلوا إلى النهر ابتَلُّوا، وكرعوا فيه كروعاً مثل الدواب.

قال الرازي: الذين شربوا وخالفوا، اسودّتْ شِفاههم ولم يَرْوَوْا.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، وهم أهل الصدق والغيرة على الدين والأمة، وما أجملَ قول صاحب «المنار» عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: «والعدد القليل من أهل العزائم، يفعلُ ما لا يفعله الكثيرُ من ذوي المآثم».

وكم كان عدد الذين لم يشربوا؟

والجواب عند الحسن البصري قال: إن الذين لم يشربوا كانوا على عدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشرَ رجلاً، والدليل على ذلك أنَّ النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم اليوم على عدّةِ أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاز معه إلا مؤمن».

قال البراء بن عازب: وكنا يومئذ - أي يوم بدر - ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

قال المفسرون: وهكذا كانت غرابيل الاصطفاء، لأنَّ الذي شربَ وكرعَ دلَّ ذلك على قلةِ صبرهم، وإنهم ليسوا بأهلٍ لمزاولة الحروب، ثم جاز طالوت

النهر مع من لم يشرب، ومع من أخذ غُرفةً وكانوا قلةً كما رأينا.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وجاءت اللحظة الحاسمة، وكان اللقاء بجيش العمالقة الكبير، وعُدّتُهُ ما بين التسعين والمائة ألف، وجاءت التصفية الأخرى، فالعدو كثير، وهؤلاء قلة، فكيف كان حال هذه القلةِ المؤمنة؟

قال البروسوي: المؤمنون الذين جاوزوا النهر مع طالوت لما رأوا كثرة العدو انقسموا إلى فريقين، فريق غلبَ عليه حُبُّ الحياة، وغلبه طبعه، وكره الموت، وفريق كان شجاعاً قويَّ القلب لا يُبالي بالموت إذا كان في طاعة الله، بل يُسارع إلى الموت طلباً لما عند الله قائلاً:

ياحَبَّذا الجنة واقترابها   طيبةٌ وباردٌ شرابها

وتقرأ ما قاله هذان الفريقان في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

قِسمٌ من هؤلاء المؤمنين صَبَرَ على الماء، ولكنه الآن في مواجهة الموت، وهذا اختبار صعب، لأنَّ الإنسان قد يصبر على شهوته ولكن ليس كلُّ إنسانٍ يصمُدُ أمام الموت، ولهذا قالوا لما رأوا كثرة العدوّ: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ﴾، كيف نهزم هذا العدد وهذا الجبارَ؟

ويأتيهم الجواب من القسم الثاني الذي نذر نفسه لله عز وجل، وأرادَ الشهادة.

والتعبير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]، فلقاءُ الله هنا كناية عن الموت في سبيل الله وفي مرضاته، وفي

الحديث: «من أحبَّ لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه»، والظنُّ هنا: بمعنى اليقين، والعرب تستعمله، ومن ذلك ما نقله صاحب «كتاب الأغاني» عن دريد بن الصِّمَّةِ:

فَقلتُ لَهم ظُنُّوا بألفَي مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُم في الفارسيِّ المُسَرَدِ

ويأتي الظنُّ بمعنى العلم، أي قال هؤلاء الذين يعلمون ويؤمنون أنهم راجعون إلى ربهم بعد الموت فيُجازيهم ويُثيبُهُم.

وقولهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة].

هذا تحريضٌ منهم على القتال والثبات والصبر، واقتداءٌ بمن صَدَقَ مع ربه، وصبرَ على الشدائد في سبيل مرضاته.

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: وهكذا يجب أن نكون وأن نفعل؟!! لكن الأعمال القبيحة، والنيات الفاسدة هي التي جعلتنا ننهزم أمام عدونا، وذلك بما كسبت أيدينا.

وفي البخاري: أن أبا الدرداء قال مرةً لمن حوله: إنما تُقاتلون بأعمالكم.

وفي الحديث النبوي الشريف قوله: «وهل تُرزَقونَ وتُنصرون إلا بضُعفائِكم».

ثم قال القرطبي: فالأعمال فاسدةٌ، والضعفاءُ مُهْمَلون، والصبر قليل، والتقوى ضعيفةٌ أو زائلةٌ، والله عز وجل يقول لنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران ٢٠٠].

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل].

ويقول: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾ [الحج].

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ ﴾ [الأنفال].

ثم يقول القرطبي: هذه شروط النصر وأسبابه، وهي معدومة عندنا وفينا، «فإنا لله وإنا إليه راجعون»، على ما أصابنا و حَلَّ بنا، بل لم يبقَ مِنَ الإسلام إلا ذِكْرُهُ، ولا من الدين إلا رسمُهُ لظهور الفساد، وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، وبراً وبحراً، وعمَّت الفتنُ وظهرت المحنُ، ولا عاصمَ إلا مَنْ رحم. توفي القرطبي سنة ٦٧١ هـ.

ثم تابع القرطبي كلامة فقال: ثم التقى الصفان، وتقاربَ الزحفان، وبدأ المؤمنون بالتضرع إلى ربهم عز وجل يسألونه الثبات والصبر والظفر، وذلك ما وضَّحهُ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ ﴾.

البَرازُ: المكان الفسيح في الأرض المُتسع منها مع استواء.

جالوت:هو أمير العمالقة - أهل فلسطين.

فصار المعنى: لما التقى الصفان في الأرض البَراز الفسيحة، وهي ساحة المعركة، لجأ طالوت ومَنْ معه من المؤمنين إلى الله تعالى يدعونه بأمور ثلاثة: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾، ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾، ﴿ وَٱنصُرۡنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

وكلمة ﴿ أَفْرِغْ ﴾: تَدُلُّكَ على أنهم طلبوا من ربهم أن يملأ قلوبهم بالصبر، لأنَّ الإفراغ تفيد التعميم مع الإحاطة؛ لأنَّ الإفراغ إخلاءُ الإناء من كل ما فيه، أي صُبَّ علينا صبراً فلا نجزع لما يُصيبنا من جراحات.

ثم دعوا بالأمر الثاني: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾: في الميدان فلا نهرب منه.

ثم دعوا بالأمر الثالث: ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾: أي على جالوت وجنوده.

قال صاحب «المنار»: وهذه الأمور الثلاثة بعضها مُرَتَّبٌ على بعضٍ بحسب الأسباب التالية:

فالصبر سببٌ للثبات، والثبات من أسباب النصر، وأَجدرُ الناس بالصبر المؤمنون بالله عز وجل الغالب على أمره، وبدؤوا بطلب الصبر لأنه مِلاكُ الأمر، ثم تأتي النتيجة فما هي؟

تظهر في قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة].

و«الهَزْمُ»: الكسر، ومنه قولهم: سقاءٌ مُتَهَزِّمٌ، إذا أثنى بعضه على بعض فَجَفَّ وتكَسَّرَ، ومنه قيل لماء زمزم: هَزْمَةُ جبريل؛ لأنه ضرب الأرض بعقبه فتكسرت الأرض وخرج الماء، فصار المعنى: كسروهم كسرةً انتهت بهم إلى الهرب بإرادة الله المنفذةِ لسننه في نصر المؤمنين الصابرين الثابتين على

الكافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وتدل كلمة فهزموهم على فرار من كان يجب أن يكون مهاجماً، وأنزل الله نصره عليهم.

وقد كان نبينا ﷺ، إذا لقي العدو في القتال يقول: «اللهم بك أَصولُ، وبك أجول»، وكان يقول: «اللهم إني أجعلك في نُحورِهم، وأعوذ بك من شرورهم».

وقوله: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾، وهذه أول مرة يظهر فيها اسم «داوود» في هذه القصة، ولا نعرف عنه شيئاً من قبل.

فمن هو داوود؟

هو «داوود بن إيشى»، من أهل بيت المقدس، وولد في قرية «بيت لحم» بفلسطين، وهي مكان مولد السيد المسيح كذلك، وكان أصغر إخوته الثلاثة عشر.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: بدتْ على داوود أماراتُ النبوة في أول عهد شبابه، إذا قال لأبيه مرة: يا أبتِ: إني لم أضرب بقدمي شيئاً إلا صرعته في الحال، فأجابه الوالد: بُشراك يا بني لقد أعطاك الله فضلاً كبيراً.

قال البروسوي: كان داوود من صِغَره راعياً، وكان له قَذّافَةٌ «مقلاع» يصرع بها الذئاب وغيرها من الوحوش التي تُحاول مهاجمة الأغنام التي يرعاها.

ثم قال لوالده مرة ثانية: إن الله قد ألان لي الحديد، فصنعتُ منه هذا الدرع، ثم رفعَ ثوبه، فإذا هو يلبس تحته درعاً ذات حلقات، لم يُصنع مثلها في التاريخ من قبل، فقال له أبوه: أبشِرْ يا بني فقد جعل الله رزقك في يديك، ثم قال داوود: يا أبتاه قد وهب الله لي قوةً عظيمة في هذا المقلاع، فإذا رميتُ به

شيئاً أصبتُهُ، فقال الوالد: اشْكُرِ الله على ما أعطاك من فضله الواسع.

ثم قال داوود: يا أبتاه: اليوم كنت سائراً في الطرق أُسَبِّحُ، فسمعتُ تسبيحاً بجانبي، فإذا أحجارٌ ثلاثة تُردد تسبيحي، فوقفتُ أنظر إليها، وإذا بصوت يُناديني: خذها يا داوود فسوف ينصرك الله بها.

وهاهي معي يا أبتاه.

وبالأمس رأيتُ هُدهُدَيْن جميلَيْن، على غُصنِ شجرة يتحدثان ففهمتُ حديثهما، فقال الأول مُشيراً إليَّ بمنقاره: هذا هو داوود الذي سينصره الله.

وقال الثاني: هذا داوود الذي ألانَ الله له الحديد، فهو في يده كالعجين.

ثم قالا معاً: الله يؤتي الحكمة من يشاء، ومشيتُ يا أبي وسط الجبال أُسبحُ فمسعتُ تسبيح الجبال معيَ.

فسجد والده «إيشى» باكياً شاكراً لله، وقال: سبحان الله العظيم المنعم الذي علَّمك منطقَ الطير، وألان لك الحديد، وسخَّر لك الجبال يُسبحن معك، وشكراً لله على النصر القريب، والنبوة المرتقبة.

المبارزة مع جالوت:

أخرج عبد الرزاق في «مُصَنَّفِه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن وهب قال: لما التقى الصفان طلبَ زعيم جيش الكفار وهو «جالوت» أوجُلْيَات المبارزة، فلم يخرج إليه أحد - كما ذكر الرازي - فقال لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل، لو كنتم على حقٍّ لبارزني بعضكم !!

قال صاحب كتاب «حياة داوود»: ويُكرر جالوت النداء للمبارزة، فلم يخرج إليه أحدٌ، وكان يقول: هل من أحد منكم يريد أن يُجرب الموت؟

قال القرطبي: كان داوود أصغر إخوته الثلاثة عشرَ، كان منهم في جيش طالوت على رواية المؤرخين سبعة، وعلى رواية العهد القديم ثلاثة، البكرُ واسمه: «ألياب»، والثاني واسمه: «أبنياداب»، وثالثهما اسمه: «شَمَّةُ».

طلب والد داوود من داوود أن يذهب إلى الجيش ويتفقد أحوال إخوته، وتم لقاؤه بإخوته في الوقت الذي كان جالوت يتحدى الناس، ورأى داوود غطرسته واستكباره، فقال داوود لإخوته - كما روى البروسوي -: من يخرج إلى هذا الأقلف؟ أي غير المختون، فسكتوا.

قال المؤرخون: فتسلل داوود إلى مقابلة طالوت، وسأله أن يسمح له بمبارزة جالوت؟! فاستغرب طالوت طلبه مما دفع صاحب كتاب «حياة داوود»، أن يقول: إن هذا الطلبَ يُثير الضحك.

وحاول طالوت أن يمنعه، ولكن رأى طالوت في لهجته الحزم والعزمَ في نيته، فسأله: هل جرَّبْتَ نفسك بشيء؟ قال داوود: نعم، وقع الذئب في غنمي، فضربتُه بالمقلاع، ثم أخذتُ رأسه بيدي ففصلتُهُ عن جسده، ونازلني دبٌّ مرة فأرديتُه، فسمح له طالوت، ووعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، وأن يولّيه المُلك من بعده - كما ذكر صاحب «قصص القرآن»-.

قال ابن كثير: وكان داوود عندما توجه بأمر والده إلى إخوته ليراهم وهم في جيش طالوت، ناداه حجر وهو في الطريق قائلاً: يا داوود: خذني فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم حجر آخر، فحمل الثلاثة في مخلاته، واستبشر بخير.

قال البروسوي: عندما سمح له طالوت بمبارزة جالوت، زوَّده بفرس وسلاح وعتاد، فلبسها، ثم سار قليلاً في ساحة المعركة ورجع، فقال طالوت: لقد خاف الغلام وتراجع، ثم لما عاد داوود قال له طالوت: ما شأنك؟ فقال

داوود: إن لم ينصرني الله عز وجل، لم يُغنِ عني هذا السلاح شيئاً، فدعني أُقاتل كما أريد، وفي رواية للقرطبي: دعني أُقاتل على عادتي، قال: وكان داوود من أرمى الناس بالمقلاع.

فقال طالوت: نعم لك ما تشاء، فحمل داوود مخلاته وفيها مقلاعه وأحجاره وتقدم من الصف للمبارزة.

قال الماوردي: وكان على رأس «جالوت» بيضةٌ ضخمةٌ.

قال صاحب «روح البيان»: إن جالوت لما رأى داوود، قذف الله في قلبه الرعب، فقال لداوود متصنعاً الشفقة عليه: ارجع يا فتى فإني أرحمك أن أقتلك؟ فقال داوود: بل أنا أقتلك، فقال له جالوت: أين سيفك وسلاحك وترسُك وعدتك، أتيتني بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب؟ يُخَيَّلُ إليَّ أنك كرهت حياتك، وسئمت عيشك رغم حداثة سنك.

فقال داوود: نعم أتيتُكَ كما يؤتى الكلب، فأنتَ شرٌّ من الكلب، عندها اشتدَّ غضب الطاغية جالوت، وقال – كما ذكر المؤرخون –: ادنُ مني؛ فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك، وتُطوى صحيفتك، لأُقسِّمَنَّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء.

فقال داوود: بل يُقَسِّم الله لحمكَ، فإني أتيتُك باسم الله.

قال القرطبي: ثم تَدانيا، وقصدَ جالوت أن يأخذ داوود بيده استخفافاً به، فنفرَ داوود، وأخرج الحجر الأول من المخلاة ووضعه في المقلاع وقال: بسم الله إلهِ إبراهيم.

ثم أخرج الحجر الثاني ووضعه في المقلاع وقال: بسم الله إلهِ إسحق.

ثم أخرج الحجر الثالث ووضعه في المقلاع وقال: بسم الله إلهِ يعقوب.

قال ابن كثير: قال السدي: لما وضع الأحجار الثلاثة في المقلاع وأدارها صارت الثلاثة حجراً واحداً ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه.

قال القرطبي: ثم حزَّ داوود رأسه بسيف جالوت، وجعله في المخلاة، وأخذَ خاتمه، وأخذ داوود يجر جالوت من رجله حتى وضعه أمام طالوت، وفرح المؤمنون بذلك، واختلط الناس وحَمَلَ أصحابُ طالوت على أصحاب جالوت فهزموهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة ٢٥١].

قال ابن كثير: ووفى طالوت بوعده لداوود إن قتل جالوت أن يزوجه «ميكال» ابنته، وأن يُشاركه في المُلك، ثم قال القرطبي: وهذا دليل على جواز أن يقول الإمام: «من جاء برأسٍ فله كذا، ومن هَدَمَ حصناً فله كذا، يريد بذلك أن يُخمِّسَهم».

ولكن الإمام مالك كره ذلك وقال: أخاف أن يكون القتال عندئذ للدنيا، ولكن القرطبي علَّق على قول مالك بقوله: ولكن ثبت هذا عن نبينا محمد ﷺ فقد ورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ قتلَ قتيلاً فله كذا، ومن أسر أسيراً فله كذا»، وروى عكرمة مثل هذه الرواية.

قال العلماء: وفي الآية دليل على جواز المبارزة، وهل يُشترط لها إذن الإمام؟

قال الإمام أحمد: نعم، وقال الجمهور: لا يُشترط إذن الإمام.

وقد سُئل مالك عن الرجل يخرج بين الصفين يقول: من يُبارز؟

فقال مالك: ذلك إلى نيَّته، إن كان يريد بذلك وجه الله فأرجو ألا يكون به بأس، فقد كان يُفعل ذلك فيما مضى.

وقال ابن المنذر: إن استأذن المبارز الإمام فحسَنٌ، وإن لم يستأذنه فلا بأس به كذلك.

قال صاحب كتاب «حياة داوود»: وفي لحظة قتل جالوت، كانت بداية ظهور المكنون، إنه داوود المختار من الأمة، إنه أشجعها، إنه فردٌ في أمة، أقواها إيماناً وشجاعة وعلماً بربه عز وجل، ولذلك كان أهلاً للنبوة والمُلك، وذلك قوله تعالى في [سورة البقرة ٢٥١]: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾.

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: أي مُلك بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي النبوة، فجمع الله له المُلك والنبوة بعد موت «طالوت» الملك، «وشموئيل» النبي، فكان ملكاً نبياً.

وقيل الحكمةَ: الزبور.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾: أي مما يشاء الله تعليمه إياه من صنعة الدروع بإلانة الحديد، وكان يصنعُها ويبيعُها، وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وعُلِّمَ منطق الطير، وتسبيح الجبال، وكلام النمل، والصوت الطيب، فلم يُعطِ الله أحداً مثل صوته، وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذَ بأعناقها، وتطلبُه الطيورمصيخةً له، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء].

قال العلماء: وبعد ذكرِ قصة هذا الصراع بين بني إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم، وبعد ذكر الوقائع والحروب، قد يقول قائل: ما هي العبرة، وماهي الحكمة في حدوث هذه الوقائع، وهذه الحروب وأمثالها في هذا العالم؟

والجواب: نقرؤه في تذييل هذه الآية القرآنية العظيمة التي جاء هذا التذييل بعد ذكر نصر الله لهذه القلة المؤمنة وذلك قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة ٢٥١]، ثم يأتي تذييل هذه الآية العظيمة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

قال ابن عاشور: في هذا التذييل بيانٌ للحكمةِ من حدوث هذه الوقائع والحروب في العالم.

ثم قال: ومضمون هذه الآية عبرةٌ من عِبَرِ الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونُظُمِ العُمران التي لم يهتد إليها أحدٌ قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراكِ ما في طياتِها.

وقال المحققون وعلماء الاجتماع: ويأتي الحق هنا بسُنة كونية في الوجود، وهي أنَّ الحرب ضرورة اجتماعية، وأنَّ الحقَّ سبحانه يدفع الناسَ بالناسِ، وأنه لولا وجود قوةٍ أمام قوة لفسد العالم، فلو سيطرت قوة واحدةٌ في الكون لفسدَ - أي لفسد من على الأرض واختل نظامُ مَنْ عليها -. فقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، أي لولا دفعُ الله بالقلةِ المؤمنة الكثرةَ من عدوهم لفسدت الأرض.

فالدفعُ: هو الردُّ عن أمرٍ تُريده، فإن كان مُرادُ كثيرٍ من الناس الشرَّ فإن الله يدفعه بأيدي خلْقه، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة].

قال العلماء: قرأ الجمهور: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾.

وقرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب: «ولولا دِفاع الله الناس».

والدفاعُ هنا مصدر دافع الذي هو المبالغة في الدفع وليس للمشاركة، وذلك كقول موسى جابر الحنفي:

لا أشتهي يا قوم إلا كارهاً ... بابَ الأمير ولا دِفاعَ الحاجب

ولكن لماذا يدفعُ الله الناس بعضهم ببعض؟

والجواب: لأنَّ هناك أُناساً يريدون الشر، وأُناساً يريدون الخير، فمن يريد الشر يدفعُ مَنْ يريد الخير، وذلك بمقتضى كون الإنسان خُلقَ مختاراً، فإذا وقعت المعركة بهذا الوصف «بين أهل الخير وأهل الشر»، فإن الله لا يتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير ونُصرته؛ لأنه تعالى هو القائل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

قال ابن عاشور: وأهم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب: فبالحرب الجائرة يطلبُ المحارب غصْبَ منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المُحِقُّ من المُبطل، ثم إن دفاع الناس بعضهم بعضاً يصدُّ المُفسد عن محاولة الفساد.

قال صاحب «تفسير روح البيان» للبروسوي: وفي قوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة ٢٥١]، ثم في هذا التذييل تنبيهٌ على فضيلة المُلكِ، وأنه لولاه لما انتظم أمرُ العالم، ولهذا قيل: «الدين والمُلك توأمان، في ارتفاع أحدهما ارتفاعُ الآخر؛ لأنَّ الدين أساسٌ، والملكُ حارس، وما لا أُسَّ له فمهدوم، وما لا حارسَ له فضائع»، ثم قال رحمه الله تعالى: إنَّ دفع الله الناس بعضهم ببعض على وجهين: دفعٌ ظاهر، ودفعٌ خفي.

➢ **الدفع الظاهر**: ما كان بالسُّوّاس الأربعة: الأنبياء، والملوك، والحكماء، والوُعَّاظ:

- فسلطان الأنبياء: على الكافة، خاصِّهم وعامِّهم، ظاهرهم وباطنهم.
- وسلطان الملوكِ: على ظواهر الكافة دون البواطن، ولذلك كان الملوكُ يقولون: نحن ملوكُ أبدانهم لا ملوكُ أديانهم.
- وسلطان الحكماء: وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة ٢٦٩]، - والحكمة هنا: وضع الشيء في موضعه والانتفاع بالمواعظ -، على الخاصة دون العامة.
- وسلطان الوعاظ: على بواطن العامة.

➢ **الدفع الخفي**: هو سلطان العقل يدفع الإنسان عن كثير من القبائح.

قال العلماء: وهذه الآية مسوقةٌ مساقَ الامتنان، لأنَّ الله يعلم منا أننا لا نُحب فساد الأرض؛ لأنَّ فسادها - أي فساد ما عليها - هو اختلالُ نظامنا، وذهابُ أسباب سعادتنا، ولذلك عقَّبه بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة]، فعندما تطغى جماعة يأتي لهم الله بجماعة يَردُّونهم، حتى تبقى عناصر الخير في الوجود، وكل ذلك من فضل الله على العالمين كافة، حيث تنتظم مصالح العباد بهذا الدفع.

ففضْلُهُ عز وجل يعمُّ العوالم كلها، ففي عالم الدنيا يكون فضله بهداية طريق الرشد والصلاح، وأما في الآخرة فبالجنات والدرجات والنجاة والفلاح، وهكذا كان تذييل الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾.

العودة إلى داوود:

قال المفسرون: وفَّى طالوت لداوود بشرطه فزوَّجهُ ابنته، وأحلَّهُ بين قلبه

ونفسه، وجمعت بينهما أواصر النَّسب.

أما داوود، فقد انعقد له النصر، وتم له الظفر، فمالت القلوب إليه، وأحبه الناس.

قال صاحب «قصص القرآن»: ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يؤمَنُ على الدهر كدرُها، والنفوس وإن كانت نقيةً، قلَّ أن يبقى على الأيام نقاؤها، فقد أصبح داوود يوماً فإذا طالوت عابسَ الوجه، لاويَ العِذار، ابتسامُهُ تَكلُّف، وحديثه تَحفُّظٌ، فماذا غيَّر من قلبه، ورنَّقَ من صفو مودّته – أي عكّر – ألا زال داوود سيفاً سله الله مجاهداً غازياً مُظفراً؟

أليس هو صهره وراعيَ ابنته؟

تساءل داوود: ما الذي عسى غيَّر قلبك يا طالوت؟

ثم قال داوود في نفسه: لعلّه خاطرٌ متردِّدٌ، ومزاجٌ معتكر، لا يلبثُ أن يصفوَ ويلينَ.

قال المؤرخون: وضم داوود وزوجه «ميكال» ليلُ ساجٍ، فقال لها وهو يهمس بصوته، ويتحفظ في حديثه:

يا «ميكال»: لا أدري أمُخطئ أنا أم مصيبٌ فيما رأيتُ؟

وصادقٌ فيما حَزَرْتُ أم غير صادق؟

لقد رأيتُ أباكِ عابس الوجه، ضائق الصدر، تُحدِّثُ نظراته عن غيظٍ كامنٍ، وتُشير حركاتُه عن شيء جديد، فهل عندك شيء مما رأيتُ؟

قالت ميكال: وقد أرسلتْها آهةً حبيسةً، وذرفتْها دمعةً سخينة: لست أكتُمك يا داوود شيئاً أَعْلمُهُ، وأصونُ عنكَ شيئاً تجهلُهُ؛ إن أبي منذ رأى القوم

من بني إسرائيل يُكنُّونَ لك في نفوسهم محبةً، وإجلالاً، ويغضون عيونهم في حضرتكَ مهابةً وإعظاماً، ومنذ رآك تنتقل من ظفر إلى ظفرٍ، ويَجِيْؤُكَ النصرُ يتبعُهُ النصر، خشيَ على مُلكه من نفوذك، وخافَ على نفسه من سلطانك، والمُلْكُ - كما تعلم يا داوود - مرعىً خصيبٌ، وحِمىً عظيم، يُدافع صاحبُه عنه بنفسه وسلاحه، وصاحبُهُ أبداً يشُكُ في بِطانته، ويخاف حتى من خُلصائِه، فهو لذلك يأخذُ بالظن، ويُعاقبُ لمجرد الخشية.

ثم تابعت الزوجة حديثها فقالت: وأبي وإن كان مؤمناً خالصَ الإيمان عالماً وافر العلم فهو ملكٌ تنتابُهُ هواجسُ المُلوك وسَوْرَتُهُم، وقد علمتُ أخيراً أنه يُفكر في التخلص منك، والقصِّ من جناحك، والرأيُ عندي أن تأخذ بالحزم نفسك، وتحتاطُ لحياتك فإنْ كان ما توقعتُهُ حقاً ظفرتَ بالسلامة، وإن كان الأمر بعيداً لم يضرك الحزمُ شيئاً.

فقال داوود، وقد آلمهُ ما سمعَ: ما أنا إلا جنديٌّ مُقاتل تحت راية السلطان، ومؤمن أُدافعُ عن بيضة الإيمان، ولعلَ ما دخل على طالوت من وسوسة الشيطان وربما أخزى شيطانه، أو قهر هواه، ثم استسلم للنوم كأنه لم يعرف من دخيلةِ نفس طالوت شيئاً.

قال الآلوسي: لما مالت قلوب الناس إلى داوود بعد انتصاره على جالوت، دبَّ داء الحسد في قلب طالوت.

قال صاحب كتاب «حياة داوود»: ولا يُحْسَدُ إلا مَنْ كان ممتازاً، وقديماً قالوا: «كلُ ذي نعمةٍ محسود»، وداوود كان ممتازاً، فعليه أن يستعدَّ لرشقِ سهام الحاسدين، والتاريخ مليءٌ بالأمثلة، فنحن نقرأ في [سورة يوسف]:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ

أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

قال صاحب «أيسر التفاسير»: الحسدُ سببٌ لكثير من الكوارث البشرية نراها في حسد إبليس لآدم، فكانت كارثةُ الهبوط إلى الأرض، والفتنةُ فيها، ثم نُشاهد ذلك في حسد قابيل لهابيل فقتله، ثم رأيناه في حسد اليهود للإسلام وأهله مما جرَّ حروباً لا حدَّ لها على الإسلام والمسلمين.

كان يوسف محبوباً لامتيازه، وإلا فما هي جريمته؟

فالحسد يُعمي القلوب: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [يوسف ٩].

فلما صَحَوْا وأدركوا أن الله خلقهُ ممتازاً، وكان يجبُ عليهم أن لا يحسدوه، قالوا: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف].

وامتياز الأنبياء والرسل أعظم أنواع الامتياز ظاهراً وباطناً، ولذلك يُعاديهم الجاهلون بكل أنواع العداء، واسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام ١١٢].

قال صاحب كتاب «حياة داوود»: داوود شابٌ انتزع النصر لشعبه بأكمله، وألحق الهزيمة لشعبٍ بأكمله، إنه امتيازٌ ليس كمثله امتياز عندهم، فلابُد أن يكون الحسد والبلاء ليس كمثله حسدٌ وابتلاءٌ.

قال المؤرخون: وبدأ الحقد على داوود، وحِقْدُ المُلوكِ أشدُّ أنواعِ الحقد، فطالوت يريد أن يحافظ على عرشه، وأساس العُروش حب الشعوب لُملوكهم، وهاهو الحب ينتقل إلى داوود، إذاً دبَّ الحسد في قلب طالوت، فكيف الخلاصُ من داوود؟

لا بُدَّ من دفعه إلى معركة مع الكنعانيين العمالقة، وهذا ما بيَّته طالوت.

قال صاحب «قصص القرآن»: استيقظ داوود يوماً على دعوة طالوت، فأسرعَ مُلبياً الدعوة، ومَثُلَ أمامه، فقال له طالوت: إنَّ بي اليوم همّاً ناصباً، وأمراً حازماً، فقد بلغني أنَّ كنعان جمعت جموعها لقتالنا وليس لي عونٌ إلا بك، وليس لهذا الأمر سواك، فاذهب إليهم، إياك أن ترجع إلا منصوراً يرعَفُ سيفك من دمائهم، أو مقتولاً محمولاً على أعناق رجالك.

وحسِبَ طالوت أنه كُفِيَ أمر داوود، ولكن داوود أدرك اختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوة طالوت له، ومع ذلك استجاب وقاتل الكنعانيين وانتصر، فزاد تعلُّق الشعب به، وزاد تعلُّق زوجته «ميكال» الوفية به، والعذارى تتعلق قلوبهن بالأبطال، وزاد تعلُّقها بزوجها داوود حين لاحظت ألاعيب والدها، وصِدْق زوجها.

قال المؤرخون: وفاتح طالوت ابنته يوماً بأن تكون له عوناً على القضاء على زوجها داوود، فرفضت.

وكان لطالوت ولدٌ اسمه «يوناثان» أحبَّ داوود كثيراً، ولذلك لما دبَّر طالوت مؤامرة لقتل داوود على يد مجموعة من الحرس الخاص، أسرع «يوناثان» وأخبر داوود بهذه المؤامرة وقال له: إن أبي يريد قتلك هذه الليلة، فحافظ على نفسك حتى الصباح، واختبئ.

وقد ذكر أهل الكتاب هذا الأمر في «العهد القديم»، وهكذا فشلت المؤامرة.

وقد ذكر النيسابوري في «تفسيره» محاولة أُخرى لقتل داوود فقال: كان من عادة الأنبياء والمُلوك في بني إسرائيل يتوكؤون على العصي ويغرزون في أطراف هذه العصي أزجّةً من حديد، وكان داوود مرة جالساً في ناحية البيت، فدخل طالوت فجأة ورماه بالعصا ليقتله بها صبراً، فحاد عنها داوود، وأمالَ

جسمه دون أن يُغيّر مكانه، فثبتت من قوة الضربة في الجدار، وقال داوود: أردت قتلي؟ قال لا، بل أردتُ أن أقفَ على ثباتك عند الطعان ورباطة جأشك عند مُلاقاة الأقران.

فقال له داوود: أفوجدتَ ذلك على ما قدَّرتَهُ فيَّ؟

قال طالوت: نعم، ولكنك لعلّك فزعْتَ؟

فقال داوود: معاذَ الله أن أخافَ إلا الله، فلا ملجأ إلا إليه، ولا يدفعُ الشرَّ إلا هو.

ثم إنَّ داوود انتزع العصا من الجدار، وهزها هزةً عنيفة وقال لطالوت: أُثبتْ كما ثبتُّ لك، فقال طالوت: أَنشدكَ بالله ثم بحرمةِ المصاهرةِ التي بيني وبينك.

قال المؤرخون: وما كان قصد داوود إلا تخويفه وتحذيره، فقال له: يا طالوتُ: إن الله كتب في التوراة: «وجزاء سيئة سيئة مثلها والبادئ أظلم»، فقال طالوت: أفلا تقول قول هابيل: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾ [المائدة].

فقال داوود: قد عفوت عنك لوجه الله تعالى.

وتأخذ الحَمِيَّةُ الابن «يوناثان»، فقال لأبيه طالوت: يا أبتِ يجب ألا تُخطئ في حقِّ عبدك داوود؛ لأنه لم يُخطئ إليك، وكل أعماله حسنة لك.

قال المؤرخون: ازداد حنق طالوت على داوود، فأضمر له القتل، وبَيَّتَ النكال به، وعلمت زوج داوود بما أضمر أبوها لزوجها، فأسرعت إلى زوجها لهيفةً حزينةً، وحدّثته بلفظٍ خاطف، وقلبٍ واجف: أن انجُ بنفسك، واهرب بحياتك، وإلا أكسبتني حسرةً بموتك.

فما وجد داوود بُدّاً من الهرب، وركب متنَ الاغتراب، واتخذ الليل جملاً، وهرب طريدَ الحسدِ والحقدِ، عامرَ القلبِ بالإيمان، عظيمَ الثقة بالله، فانتهى إلى مفازة أوى إليها، وعلمَ إخوتهُ بمكانه فأسرعوا إليه، ثم قصدَهُ مريدوه ومُحِبُّوه من بني إسرائيل جماعات، وانثالوا عليه زُرافاتٍ.

أما طالوت: فقد ضعُفَ أمره في قومه، وكثُرَ الهاربون من جنده، وكثُرَ الخارجون عليه، فمال إلى المعاقبة على الظن، وأعملَ السيف، وأخذَ البريء بذنب المسيء، ثم آذى العلماء، واضطهد القراء، وعمَّ الرعب.

قال المؤرخون: وما دام داوود حياً يُنافس طالوت، فإنَّ طالوت لن يهدأ له بال، فلا بُدَّ من النهوض لحرب داوود، فجهز جيشاً وخرج به لقتال داوود، وعلمَ داوود بذلك، فخرج من مفازته، يتحسَّسُ أمر طالوت فإذا به يعلم أنَّ طالوت في وادٍ قريب منه معه ثُلةٌ من جيشه وجنده وقد رقدوا لما أصابهم من جهد.

مشى داوود وئيداً حتى وصل فوق رأس طالوت وهو نائم ورُمحه إلى جانبه، فاستلَّ داوود الرمحَ وعاد إلى مكانه دون أن يشعر به أحد.

ونهض طالوت وتفقَّد رُمحه باحثاً عمن أخذه، وبينا هوحائرٌ مُضطربٌ، وافاه رسولٌ من داوود بيده الرمح وقال له: هذا رُمحك، وقد مكَّنَ الله لداوود من رأسك ولكنه كان أعزَّ نفساً، وأكرم قلباً، وأدنى إلى الله إيماناً.

وذكر الآلوسي والثعلبي أنَّ داوود لما وقفَ فوق رأس طالوت وهو نائم، وضعَ سهاماً عند رأسه وعند رجليه، وعن يمينه وعن شِماله، فلما استيقظ طالوت ورأى السهام فعرفها فقال طالوت عندها: يرحم الله داوود، هو خيرٌ مني، ظَفِرَ بي فكَفَّ عني.

قال المؤرخون: أثَّرت كلماتُ رسول داوود في قلب طالوت، فنالتهُ حُرْقَةٌ من الندم على محاولة غَدْره بداوود وعلى قتله العلماء، فماذا يفعل غداً بين يدي جبار السماء.

يظفر داوود بطالوت، فيعفو عنه، ولم يمسَّه بسوء، ويعترفُ طالوت بذلك فيقول: « أنت أبرُّ مني لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتُكَ شراً».

ثم أعلن طالوت الحقيقة فقال: الآن علمتُ أنك تكونُ ملكاً، ثم تاب طالوت توبةً نصوحاً، فكان يخرج إلى القبور ويبكي إلى أن وافته المنية.

أما داوود، فقد أكرمه الله بالمُلك، ثم بالنبوة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة ٢٥١].

وقال عز وجل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ].

والإيتاء في قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ ﴾: أي أعطيناه إعطاءً عظيماً يتناسبُ مع عظمة المُعطي بما له من القدرة والعظمةِ سبحانه وتعالى.

وقوله عز وجل: ﴿ مِنَّا ﴾: تُفيدنا تأكيدَ فخامته الذاتية بفخامته الإضافية، أي من لَدُنَّا ومن عندنا، وذلك تشريفٌ للفضل الذي أُوتيه داوود، وقصرٌ للنعمةِ على المُنعم سبحانه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿ فَضْلًا ۖ ﴾: الفضلُ هو الزيادة، والله أعطى داوود نِعَماً كثيرة، وجاءت اللفظةُ مُنكَّرةً للتفخيم وتعظيم ذلك الفضل، وأنه أنواعٌ من الفضل، وليس نوعاً واحداً، ومن ذلك: فضل النبوة، وفضل المُلك،

وفضل القضاء بالعدل، وفضل العناية بالأمة وصلاحها، وفضلُ الشجاعة في الحرب، وفضل سَعَةِ النِعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صُنع الدروع من الحديد، وفضل إيتائه الزبور، وإيتائه الصوت الحسن، وطول العمر في الصلاح.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾: أي رَجِّعي معه ما يقول من الأذكار من تسبيح وتحميد، وهذا خصوصية لداوود حيث أمر الله الجمادات كالجبال، والحيوانات من الطيور أن تُؤَوِّبَ معه، وتُرجّعُ التسبيح بحمد ربها مجاوبةً له، وهذا من النِعَمِ الكبرى التي لم تكن لأحدٍ قبله ولا لأحدٍ بعده.

قال القرطبي: كان داوود يُسبح إثْرَ صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾[ص].

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأنبياء].

قال صاحب «التحرير»: وكذلك الطير تُغرد تغريداً مثل تسبيحه، وكلُّ ذلك مُعجزةٌ له، وعنايةٌ من الله به.

قال صاحب «كشف الأسرار»: كان داوود يسمع ويفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به، فكان كرامةً ومعجزةً له.

وقوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾: أي هذا شأنٌ ثابت لله عز وجل، وهو القدرة على ذلك.

قال العلماء: وهذا التعبير: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾: أراد الله عز وجل به أن يُزيل عن النفوس استبعاد تسبيح الجبال والطير معه، أي مع داوود، ولذلك

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا ﴾: أي جعلناها طائعةً لداوود إذا أمرها بذلك، حتى قال بعضُ العلماء: إنَّ صدى الجبال الذي يسمعُهُ الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة.

وأكرمه الله بأن أعطاه الزبور: قال تعالى في [سورة النساء]: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾، ومعنى الزَبور: المكتوب مِنَ الزَّبر، وهو الكتابَةُ، وسُمي الكتابُ زبوراً لقوة الوثيقة به.

قال القرطبي: كان الزبور مائة وخمسين سورةً ليس فيها حُكمٌ ولا حلالٌ ولا حرام، وإنما هي مواعظ، وتحميدٌ وتمجيدٌ وثناءٌ على الله عز وجل.

قال ابن عاشور: أوتي داوود الزبور فيه حكمٌ وعظاتٌ، فكان تكملةً للتوراة التي كان فيها تعليم الشريعة، فاستكمل داوود الحكمةَ ورقائق الكلام.

قال البروسوي في «روح البيان»: كان داوود يبرُزُ إلى البرية ويقرأ الزبور فيقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه، ويقوم الناس خلفَ العلماء، ثم يقوم الجن خلف الناس.

وفي حديث أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمعُ لقراءتك، لقد أُعطيتَ مزماراً من مزامير آل داوود»، قال أبو موسى: فقلتُ أما والله يا رسول الله لو علمتُ أنك تسمعُ لحبَّرْتُهُ لك تحبيراً.

وعن أبي عثمان قال: ما سمعتُ قطُّ بربَطاً ولا مزماراً ولا عوداً أحسنَ من صوت أبي موسى، وكان يَؤُمُّنا في صلاة الغداة فنوَدُّ أن يقرأ سورة البقرة من حُسنِ صوته.

قال ابن كثير: كان داوود مع رخامة صوته سريع القراءة للزبور، فقد ورد عن الإمام أحمد قال: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَ على داوود القراءة فكان يأمُر بدابته فَتُسرجُ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يده»، والقرآن هنا: الزبور.

وثبتَ في الحديث أنَّ داوود كان يأكل من عمل يده بقوله ﷺ: «إنَّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإنَّ نبيَّ الله داوود كان يأكل من كسبِ يده».

وفي البخاري: «خُفِّفَ على داوود القرآن، فكان يأمُر بدوابّه فتُسرج فيقرأُ القرآن قبل أن تُسرجَ دوابُّه، ولا يأكل إلا من عمل يده».

وكان إنزال الزبور في رمضان في السادس منه كما ورد عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾: معطوف على ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ ١٠].

قال ابن عباس: كان داوود إذا سبَّحَ اجتمعت إليه الطير فسبَّحت بتسبيحه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص]: أي كلٌّ من الطير والجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ]: من هذه الفضائل إلانةُ الحديد، قالوا: كان الحديد في يديه من شدة قوته التي آتيناه إياها كالشمع بالنسبة إلى قوة البشر، فكان يعمل به ما يريد من غير إدخال نارٍ ولا ضرب مطرقةٍ.

قال ابن عاشور: وإلانةُ الحديد تسخيره لأصابعه حيث يلوي حِلَقَ الدروع ويغمزُ المسامير، وفيه إشارة إلى أنه سيُقدم على صُنعه دروعاً، ولذلك

قال تعالى بعدها: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾: أي دروعاً كواملَ تاماتٍ، لأنَّ الدروع قبل داوود كانت قصيرة تحمي القلب والرئتين، وكانت ملساء ينزلق عليها السيف فربما أصابت منطقة أُخرى من الجسم، فكانت صناعة داوود للدروع واسعةً تحمي أكبر قدرٍ ممكن من الجسم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾: أي يجعلُ الحِلَقَ بعضها في بعض وتكون المسامير التي تُثَبِّتُ هذه الحِلَقَ بعضها إلى بعض، فالمسامير للحِلَقِ كالخياطة للثوب، ويُسمى صانع الدروع «سَرَّاداً»، أو «زرّاداً»، وتوصف الدروع بالمسرودةِ، كما توصف بالسابغةِ، قال أبو ذؤيب الهذلي:

وعليهما مَسْرودتان قضاهُما داوود أو صَنَعُ[1] السَّوابغ تُبَّعُ

قال المفسرون: وكان درع الإمام علي رضي الله تعالى عنه ليس له ظهر، فقالوا له: ألا تتخذ لدرعك ظهراً؟ فقال: «ثكلتني أمي إن مكّنتُ عدوي من ظهري»، وفي روايةِ صاحب كتاب «عيون الأخبار» للدِّينَورِي، أن علياً قال: «إذا استمكنَ عدوي من ظهري فلا يُبْقِ».

قال العلماء: تأملْ - يا عبد الله - أنَّ الله عز وجل لم يُعلّم نبيَّه داوود أولاً وسائل السِّلمِ، إنما علَّمه وسائل الحرب وإعدادَ العُدة للوقوف أمام من نَقَضَ كلمة الله، وحادَ عن منهج الله، علَّمهُ أن يُعدَّ له ما استطاع من قوة، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

اللَّبوسُ: يُطلق في العادة على لباس الحرب وهو الدرع، ولا يُطلق على الدرع لباس، بل لَبُوس، وما أجمل قول كعب بن زهير:

(١) صَنَعُ: الحذقُ.

شُــمُّ العرانــين أبطــالٌ لَبوسُــهُم   من نسج دَاوود في الهيجا سرابيلُ
بيضٌ ســوابغُ قد شُكَّت لها حِلَقٌ   كأنها حِلَـقُ القَفْعَـاءِ[1] مجـدول

يقول تعالى في [سورة الأنبياء]: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾: يعني قد ثبتَ عليكم النِعم الموجبة للشكرِ، فهل تقرر شُكرُكم وثبت مقابلةً لهذه النعمة؟

قال العلماء: وهذا التعبير بـ«هل»: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾، شبيه بقوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة].

فالقرآن لم يقل: «فهل تشكرون»، مع أنَّ «هل» لها مزيدُ اختصاصٍ بالدخول على الأفعال، فجاءت هنا داخلةً على جملة إسمية: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾، لتدلَّ على الأمر الوارد على صورة الاستفهام لأنَّ الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار على الشكر: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

وهذا الأمر بالشكر عامٌّ لأهل مكة ومَنْ بعدهم إلى يوم القيامة.

قال العلماء: ومِنْ فضل الله على داوود، تلك القوةُ النادرةُ، قال تعالى يُخاطب نبينا محمداً ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص]، والخطابُ هنا للنبي محمد ﷺ فيه إشارةٌ إلى أنه سيكون له سلطانٌ ولم يكن له جُنْدٌ، ثم أُمِرَ بالصبر كما صبر داوود على طالوت وحَسَدِه، والذكر هنا من التذكُّر لا من ذكر اللسان.

و﴿ٱلْأَيْدِ﴾: القوة من قولهم: «آدَ، يئيدُ» إذا قَوِيَ واشتَدَّ، ومنه قوله

(١) القفعاء: بزرة نبت صحراوي ينبسط على وجه الأرض يُشبه حِلَقَ الدروع.

تعالى: ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ [الأنفال ٢٦]: أي قَوَّاكم بنصره، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات].

قال ابن عاشور في «تفسيره»: كان داوود قد أُعطي قوةً نادرة، وشجاعةً وإقداماً عجيبين، وهذه القوة محمودةٌ لأنه استعملها في نُصرة الحق، ونُصرةِ التوحيد.

قال العلماء: وأُوتيَ مع القوة البدنية، قوة التحمل في العبادة، فكان كاملاً في عُبوديته لله عز وجل.

قال القرطبي: كان داوود يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشدُّ الصوم وأفضله، وكان يُصلي نصفَ الليل، وكان لا يَفِرُّ إذا لاقى العدوَّ، كما كان كثير الدعاء لله عز وجل، وقد ورد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «خير الصيام صيام داوود، كان يصوم نصف الدهر، وخير الصلاة صلاة داوود، كان يرقد نصف الليل الأول، ويُصلي آخرَ الليل حتى إذا بقي سُدس الليل رَقَدَهُ».

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلتُ يا رسول الله: إني أسردُ الصومَ، أفأصوم الدهر؟ فقال ﷺ: «لا»، قلتُ: أفأصوم يومين وأُفطر يوماً؟ فقال ﷺ: «لا»، قال عبد الله: فجعلتُ أُناقصه حتى قال لي: «صم صومَ داوود، فإنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»، وفي رواية: «ولا يفرُّ إذا لاقى».

وأخرج الحافظ وابن سعد عن أبي الدرداء مرفوعاً: كان داوود يقول: «اللهم إني أسألك حُبَّكَ، وحُبَّ من يحبكَ، والعملَ الذي يُبلِّغني حُبك، اللهم اجعل حُبك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد».

قال أبو الدرداء: وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داوود، أو حدَّثَ عنه يقول: «كان أعبدَ البشر».

وورد عن أنس رضي الله تعالى عنه، أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خيرَ الناس، فقال ﷺ: «ذاك إبراهيم»، قال الرجل: يا أعبدَ الناس، فقال ﷺ: «ذاك داوود».

وقال ثابت: كان داوود قد جَزَّأَ ساعات الليل والنهار على أهله، ولم تكن ساعة تأتي من ليلٍ أو نهار إلا وإنسانٌ من آل داوود يُصلي، فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ].

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ صَعِدَ المنبر، فتلا هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ]، ثم قال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ أُوتيهن فقد أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ داوود».

قال الراوي: فقلنا: ما هنَّ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «العدل في الرضا والغضب، والقصدُ في الغنى والفقر، وخشيةُ الله في السرّ والعلانية».

فقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾: أي اعملوا الصالحات شكراً لله على نِعمه.

وقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾: هذا إخبارٌ بواقعٍ، وصدق، فالشاكرون لله على نِعمه قليل، وفي كل زمان ومكان، وذلكَ لاستيلاء الغفلة على القلوب من جهة، ولجهل الناس بربهم وبنِعمهِ من جهة أُخرى - الجزائري -.

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن إبراهيم اليتمي، أنَّ عمر ابن الخطاب سمع في الطريق رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فتعجَّبَ

عمر من دعوة الرجل ولم يفهم معناها، فسأله عنها، ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: سمعت الله يقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، وأنا أرجو وأسأل الله أن أكون منهم، فقال عمر: كُلُّ الناس أعلمُ منك يا عمر.

هناك أُناسٌ عندهم ملكَةُ التقاط المعاني وتوظيف تلك الألفاظ لهذه المعاني، من ذلك أنَّ رجلاً كان يسعى بين الصفا والمروة، والمسعى كان في القديم عبارة عن شارع فيه دكاكين على الصفين، وكان في أحد الدكاكين رجل يُنادي على الخيار يقول: العشرة بريال يا خيار، فسمعهُ رجل يسعى فقال: إذا كان الخيارالعشرة بريال، فبكم يكون الأشرار؟!!

وحُكي أنَّ رجلاً كان يسير في سوق البطيخ في بغداد في يوم حار وهو صائم، فمرَّ برجل يبيعُ شراباً مُبرَّداً – كالعرق سوس – وهو يُنادي: غفر الله لمن شرب مني، فمال إليه وقال له: اسقني، فقال صاحب الرجل الذي كان معه: تذكر أنك صائم، فقال: والله لقد رجوتُ دعوته – كما ذكر ذلك الشعراوي في «تفسيره».

وقال ثابت: كان داوود يُطيل الصلاة ثم يركع، ثم يرفعُ رأسه، ثم يقول: «اللهم لك رفعتُ رأسي يا عامرَ السماء نظرَ العبيد إلى ربّها».

وكان داوود يقول في الثناء على الله: «إلهي لو أنَّ لكل شعرةٍ مني لسانين يُسبِّحانك الليلَ والنهارَ، ما قضينا شُكرَ نِعمةٍ من نعمك».

وروى ابن عساكر أنَّ داوود قال يوماً: «يا رب قد أنعمتَ عليَّ كثيراً، فدُلَّني على أن أشكركَ كثيراً»؟

فأوحى الله إليه: «يا داوود، اذكرني كثيراً، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني».

«يا داوود: إذا علمتَ أنَّ ما بك من النعمةِ مني فقد شكرتني».

هنا نريد أن نوضح بعض النقاط المتعلقة بالشكر، فنقول:

أساسُ الشكر: المعرفةُ للنعمة، فأنت عليك معرفةُ النعمة، ثم يكون الشكر بعد معرفتك للنعمة.

ونحن نعلم أنَّ نِعَمَ الله علينا لا يُمكن إحصاؤها، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

قال البروسوي في هذه الآية: المعنى: لا تستطيعون حصرَ نِعَم الله وضبطَ عددها ولو إجمالاً، فضلاً عن القيام بشكرها، يعني: يستحيل على الإنسان أن يُوفِّيَ الله حقه من الشكر.

قال ابن عطاء: يا عبد الله: إنَّ لك نفساً وقلباً وروحاً وعقلاً ومحبةً، وديناً، ودنيا ومعرفة وطاعة ومعصية، وابتداءً وانتهاءً وحيناً، وأصلاً وفعلاً..

- فنعمةُ النفس: الطاعات والإحسان، والنفس فيهما تتقلبُ.
- ونعمة القلب: اليقين والإيمان، وهو فيهما يتقلب.
- ونعمة الروح: الخوف والرجاء، وهو فيهما يتقلب.
- ونعمة العقل: الحكمة والبيان، وهو فيهما يتقلب.
- ونعمة المعرفة: الذكر و القرآن، وهي فيهما تتقلب.
- ونعمة المحبة: الإلفة والمواصلة والأمن من الهجران، وهي فيها تتقلب.

ثم قال: وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

إذاً نحن لا نستطيع أن نوفي الله حقه من الشُكر على نِعمه، حتى قال

البروسوي: اعلم يا هذا لو أنَّ الإنسان صرفَ جميع عمره إلى الأعمال الصالحة وإقامة الشكر لما كافأ نعمةً واحدةً من نِعَمِ الله – كنعمة الوجود مثلاً – فضلاً عن سائر النِعم، ولذلك قالوا: وما أجمل قولهم:

لو عشتُ ألفَ عامٍ في سجدةٍ لربي
شكراً لفضلِ يومٍ لم أقضِ بالتمامِ
والعامُ ألفُ شهرٍ والشهرُ ألفُ يومِ
واليوم ألفُ حينٍ والحينُ ألفُ عامِ

إذاً: أساس الشكر المعرفة، هذه **الأولى**.

ومِنَ المستحيل أن نوفيَ الله حقَّ شُكره، لذلك علَّمنا رسول الله ﷺ أن نقول ما دمنا لا نؤدي حقَّ الشكر لله: «سبحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك».

والثانية: أنت – يا عبد الله – تشكر الله على نِعمه، ولكن اعلم: أنَّ الشكر نفسه نعمةٌ، إذاً فأنت في نِعمٍ كثيرة، أنت تشكر على نِعمة، وشكرك على هذه النعمة نعمة، ولذلك قالوا:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجبُ الشكر
فكيفَ بلوغُ الشكرِ إلا بفضلهِ وإن طالت الأيامُ واتَّصلَ العمر

إذاً من المستحيل علينا أن نقوم بشكره عز وجل كما ينبغي، لكن أخذَك القليل خير من ترك الكثير، ولذلك قُلْ:

«يا رب لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك، يا رب ليس في قدرتي أن أشكركَ كما ينبغي، لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع».

والثالثة: لو أنَّ مخلوقاً أسدى إليك نعمةً أو معروفاً، فلمن الشكر؟

والجواب كما قال العلماء: «لله فقط»، لماذا؟

لأنَّ هذا المخلوق الذي أكرمك، هو من خلقِ الله، الله أعطاهُ القوةَ والحياة، والله سمح له أن يخدمك، وكذلك الله ألهمه أن يُعينَك، ثم بماذا أعانك؟ بماذا خدمك؟

إن أعطاك طعاماً، فالطعامُ من خلقه عز وجل، ثم كيف تأكل الطعام؟ بأجهزة هي من خلقه تبارك وتعالى.

أعطاك مالاً، والمال قيمتُهُ بقيمةِ ما اشتريت به من النِعَمِ، والنِعَمُ من الله، فكل ذلك يعود إلى الله، فالشكر كله يعود إلى الله عز وجل.

قال العلماء: لكن المخلوقَ الذي قدَّمَ لك المعونة أو النِعمةَ ما دام مُكلَّفاً مختاراً ومُخيراً، إذاً يستحق الشكر بعد الله عز وجل، ولكن: لا تقل الشكر لله وفلان، بل قل: الشكر لله ثم لفلان.

قال العلماء في كتاب النابلسي: و«ثم» هذه ضرورية جداً فهي تعني: الحمد لله على هذه النعمةِ التي أنعمَ الله بها عليَّ، ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه، لهذا قال ﷺ: «مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ لم يشكرِ الله».

قال العلماء: لكن لو جاءك معروفٌ أو خيرٌ من مخلوق غير مُكلف كجماد أو حيوان، فيكون الشكرُ لله وحده فقط، لأنَّ هذه المخلوقات لا تعقل ولا اختيار لها.

فمثلاً: لو مشيتَ تحت شرفة، وسقط حجر من أعلى البناء فوقع الحجر على الشرفة وأنت تحتها، فالشرفةُ تلقَّت الحجر، لولا الشرفة لهلكتَ، فهل تشكر الشرفة؟ لا، وإنما اشكر الله فقط، أما العاقل الذي أحسنَ، فنُقدم

الشكر لله أولاً، ثم للمخلوق المُحسن.

والرابعة: - يا عبد الله -: **عليك أن توازن بين نِعمةٍ أسداها الله لك، وبين نِعمةٍ أسداها العبد مهما كان مركزه.**

قال العلماء: إعطاءُ وإنعامُ السلطان مُكدَّرٌ من وجوهٍ:

فأنت قد تحتاج إلى شيء فتطلبه من إنسان فلا يُعطيكَ لحاجته إليه، ولكنك إن طلبت من الله فهو يُلبّيكَ ولا يمنعُكَ.

وقد تحتاج لمعونةٍ من فلان، وتعرف أنه يُعطيك ولا يمنعك، ولكنه قد يكون وقتَ حاجتك مُسافراً، فعطاؤه مستحيل لبُعد المسافة، أما الله فهو معك دائماً، ثم هناك أمر هام، وهو: أنَّ العبدَ إذا أعطاكَ وقصَّرت معه في شيء، فإنه يقطع عنك، أو يَمُنُّ عليك، لكنَّ الله تعالى يقول لك: «عبدي: لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفكَ في رزقك».

وقوله تعالى في فضائله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ ﴾[ص]: أي كان داوود رجّاعاً إلى طاعة الله في كل أموره، والوقوف عند حدوده، يُؤْثِرُ كل شيء يُحبه الله.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠ ﴾ [ص].

قوله: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ ﴾: أي قوّينا مُلكه بالأسباب الدنيوية والدينية.

أما الأسباب الدنيوية، فهي القوة المادية، وكثرة الجنود، وبِهَيْبَةٍ قذفها الله تعالى في قلوب قومه لقضية حصلت معه عليه السلام.

فقد روى عكرمة عن ابن عباس، أنَّ رجلاً ادَّعى عند داوود على رجل بقرةً، فأنكر المُدعى عليه، فقال داوود للمدَّعي: أَقِمِ البيِّنَةَ، فلم يُقمْها، فرأى داوود في منامه أنَّ الوحي يأمره أن يقتل المدّعى عليه فتريث داوود وقال: إنه منام، ثم تكررت هذه الرؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي، فأحضر داوود المدعى عليه وأعلمه أنَّ الله أمره بقتله، فقال الرجل المدعى عليه: صدق الله، إني كنتُ قتلتُ أبا هذا الرجل غيلةً، فقتله داوود، فهذه الواقعة شَدَّتْ مُلكه.

أما الأسباب الدينية الموجبة لشدِّ مُلكه وتقويته فهي: الصبر، والتأمل، والاحتياط، وكونه رجاعاً إلى الله في كل شؤونه.

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠ ﴾.

والحكمةُ: الإصابة في الأمور، والسداد فيها، ووضع الأشياء في أحكم مواضعها، فالحكمة العمل بالعلم، والزبور كله حِكَم.

وقوله: ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾.

هو بلاغةُ الكلام، وجمعُهُ للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان، والفاصل: الفارق بين شيئين، ويُطلق على ما يُميز شيئاً عن الاشتباه بضدِّه، فصار المعنى: أنَّ داوود أوتي من أصالة الرأي، وفصاحة القول ما إذا تكلم جاء بكلام فاصل بين الحق والباطل شأنَ كلام الأنبياء والحكماء.

وقال البقاعي صاحب كتاب «نظم الدرر» في قوله تعالى ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾: أي كان يفرقُ بديهةً دون احتياج إلى رَوِيَّةٍ بين المتشابهات، ويُميز بين المشكلات الغامضات، وإذا تكلم وقفَ على المفاصل، فيُبيّنُ من سرده للحديث معانيَهُ، ويضعُ الشيء في أحكمِ مبانيه.

وقال صاحب «أيسر التفاسير»: إنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَفَصْلَ

﴿ٱلۡخِطَابِ﴾: الفقه في القضاء، ومن ذلك: البَيِّنةُ على المُدعي، واليمينُ على من أنكر.

قال العلماء: ومِنْ صورة فصل الخطاب الذي هو الفقه في القضاء، ما رُوِيَ: أن ابن أبي ليلى جلدَ امرأة مجنونة قذفت رجلاً فقالت له: يا ابن الزانين، جلدها وهي قائمة في المسجد، فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: **لقد أخطأ ابن أبي ليلى في ستة وجوه وهي:**

١. المجنون لا حدَّ عليه لأنه غير مكلف.

٢. لا يُقام على القاذف إلا حد واحد على مذهب أبي حنيفة، لأنَّ القذفَ حق لله عز وجل عنده.

٣. أقام الحدَّ بدون مطالبة المقذوف.

٤. والى بين الحدَّيْن، والواجب أن يُفرّق بينهما.

٥. أنه حدَّها قائمةً، والمرأة تُحَدُّ جالسة مستورة.

٦. أنه أقام الحدَّ في المسجد، والإجماعُ منعقد على أنَّ الحدود لا تُقام في المساجد، ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾.

داوود المَلك:

قال ابن كثير: صار المُلكُ إلى داوود عليه السلام، وجمع الله له بين المُلكِ والنبوة، بين خير الدنيا والآخرة، وكان قبله يكون المُلكُ في سِبطٍ، والنبوة في سِبطٍ آخر.

قال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص].

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: بعد أن أصبح داوود ملكاً صعد إلى «حبرون»، وهي مدينة الخليل اليوم، وأقام فيها سبعَ سنوات، ثم انتقل إلى «صِهْيون»، وهو حصن سماهُ مدينة داوود، وهو قريب من بيت المقدس.

و«حبرون»، هي مدينة الخليل اليوم وغلبَ عليها اسم «الخليل».

قال صاحب «معجم البلدان»: أول من مات ودُفن فيها: «سارة» زوج إبراهيم عليه السلام، ثم دُفنَ «إبراهيم» في ذلك المكان إلى جنبها، ثم تُوفيت «رَبْقَةُ» زوج إسحق، فدُفنت في ذلك المكان كذلك، ثم تُوفي «إسحق» فدُفنَ فيه إلى جانب زوجه، ثم تُوفي «يعقوب»، فدُفنَ فيه، ثم تُوفيت زوجته «لعيا»، ويُقال لها «إيليا»، فدُفنت فيه، إلى أيام «سليمان بن داوود»، حيثُ أوحى الله إليه أن ابْنِ على قبر خليلي «حيراً»: حِمىً أو حظيرةً، ليكون لزواره بعدك.

خرج سليمان لبناء السور، ولكنه لم يتأكد من المكان تماماً، وأراد أن يبنيه في مكانٍ مُطلٍّ على حبرون اسمه «الرامةُ»، فأوحى الله إليه: أن انظر إلى النور، فنزل نورٌ من عنان السماء، فنظر سليمان، فكان النور على «حبرون» فوق المغارة، فبنى عليه الحَيْر.

قال المؤرخون: وخَلْفَ الحير قبر يوسف الصديق، جاء به موسى من مصر، وكان مدفوناً وسط النيل، فدُفن عند آبائه، و«حبرون»: قريبة من بيت المقدس.

قال المؤرخون: وسَّعَ داوود رقعةَ مملكته التي كانت محصورة في «حبرون وصِهيون»، فقام بحروب كثيرة مع الوثنيين جيرانه، وانتصر عليهم، فاستولى على فلسطين، ووصل إلى منطقة الفرات وضمها إلى مُلكه، وفتح دمشق عاصمة «الآراميين» بعد معارك شرسة، وحارب «بني عمون»، حُكام

الأردن، واستولى على شرقي الأردن، وهكذا أصبحت مملكةُ داوود من «أَيْلَةَ – خليج العقبة – إلى الفرات، واحتل القدس، وجعلها عاصمة لدولته – احتلها من اليبوسيين –».

كلمة وتعليق للدكتور «محمد السيد الوكيل» حول مُلك داوود لفلسطين.

قال محمد السيد الوكيل: إنَّ ادعاء الإسرائيليين أنَّ البلاد التي احتلها داوود في فلسطين والشام والأردن، وامتدت إلى الفرات هي بلادهم، ادعاءٌ باطل لا يستند إلى وثائق شرعية تُثبت حقهم في هذه البلاد، ذلك لأنَّ هذه البلاد كانت قبل داوود مسكونة من أقوامٍ ليسوا من الإسرائيليين، فالعماليق كانوا سكان فلسطين قبل مجيء إبراهيم الخليل عليه السلام، فإن استولى الإسرائيليون على أرضهم في فترة تاريخية قصيرة عن طريق الحروب، حيث استعاد سُكانُ فلسطين والشام والأردن أراضيهم بعد ذلك وطردوا الإسرائيليين.

فهذه الفترة القصيرة التي حكم فيها الإسرائيليون لا تُكسبهم حقاً تاريخياً لهذه الأراضي، بل من حق العماليق – وهم من العرب – أن يعودوا إلى بلادهم وأراضيهم، وعلى هذا:

فيكون الإسرائيليون هم الدخلاء، وهم المغتصبون لهذه البلاد.

ثم يُعلق الدكتور محمد السيد الوكيل فيقول: وفي اعتقادي أنه لا يفُلُّ الحديد إلا الحديد، ولا يُخرس الطغاة إلا قوة الحق، فإذا أراد العرب والمسلمون استرداد بلادهم، والعيش في أمانٍ على أرضهم، فعليهم بالعودة إلى التمسك بدينهم، والاستعداد بالقوة الروحية والبدنية لردعِ عدوهم، واستخلاصِ حقهم.

قال المؤرخون: لما بويع داوود بالمُلكِ بقي في «حبرون» – الخليل – سبعَ سنين، ثم غادرها إلى «صِهيون»، حيث بايعه جميعُ بني إسرائيل بالمُلْك، وولما كان في «حبرون» بايعه سِبط يهوذا فقط.

وبعد أربع سنوات في إقامته في «صِهيون» أو «حصن صهيون» كما يُسمى، نزل ببني إسرائيل طاعون شديد كاد يقضي عليهم، وفزع داوود، وذهب حتى وقف في مكان «هو موضع الصخرة» ودعا الله أن يكشف عنهم ما هم فيه، فاستجاب الله له، ورفع عنهم الطاعون.

أحداث ووقائع مثيرة وقعت في عهد داوود:

قال المؤرخون: لم يخلُ عهد داوود عليه السلام، من أحداث مثيرة، تلفت نظر الباحثين لأهميتها، وتُرغم أهل التحقيق على الوقوف أمامها بحذر ليستوثقوا من صحتها، أو كذبها.

وكل حدث في التاريخ، وفي أي عصر وقع، فإن هذا الحدث لا يخرج عن أمرين: إما حدثٌ ثابتُ الوقوع مُدَعَّمٌ بالبراهين والوثائق التي تؤيد الحدث، وإما أن يكون الحدث أو الخبر مكذوباً لتشويه الواقع، وإخفاء الحقائق، وتضليل الباحثين، والافتراء على التاريخ.

ونحن نشاهد في العصور القريبة منا، بل وفي العصور التي نعيشها كثيراً من الدَّسِّ، ومن تغيير الحقائق، فكيف بأحداثٍ وقعت منذ آلاف السنين؟ وقد كثُرَ الوضعُ والدَّسُّ في تاريخ الفترة الإسرائيلية وما بعدها، حتى أنَّ لفظة «الإسرائيليات» لترمز عند المحققين المسلمين إلى الأحداث غير الموثقة، وإلى الأخبار المكذوبة التي يدُسُّونها في التاريخ وفي التفاسير، ثم شاعت هذه العبارة «الإسرائيليات»، عند المحققين من غير المسلمين.

ولقد هيأ الله عز وجل برحمته جماعة من الباحثين المحققين، فرَّغوا أنفسهم لتمحيص تلك الأخبار، وإصدار الأحكام عليها بما تستحقها بعد دراستها والتأكد من حقيقة وضعها.

ثم قال محمد السيد الوكيل: ولا شك أنَّ هذه الأحداث بعضها حقائق لا يُنكرها إلا جاحدٌ مُكابر، وبعضها موضوعٌ زائف مكذوب، وإنْ ساندتها أكاديمياتٌ، ووقف إلى جوارها باحثون لهم صيتٌ ذائع، وعلم شائع.

وقد حدث في عهد داوود أحداثٌ، بعضها من هذا القبيل – أي مكذوب – وبعضها من ذلك القبيل – أي ثابت واقع صادق – وسنستعرض نماذج من كلا النوعين مما جرى في عهد داوود عليه السلام، حتى نقف على الحقائق، وحتى نستفيد من العِبرِ.

الحادثة الأولى:

مسخ يهود «أيلة» قردة وخنازير.

قال المؤرخون، وصاحب «معجم البلدان»: «أيلة» بلدة على ساحل بحر القلزم، وهي مدينة لليهود الذين حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمُسخوا قردةً وخنازير، وسُميت «أيلةُ» باسم «أيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام»، ولما سار النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، جاءه حاكم «أيلة» – يوحنّا بن رؤبة –، فصالح النبي على الجزية، وقرر على كل حالمٍ ديناراً واحداً من الذهب، واشترط عليهم قِرى مَنْ يَمرُّ بهم من المسلمين، وكتب النبي ﷺ لهم كتاباً أن يُحفَظُوا أو يُمنَعُوا، فكان عمر بن عبد العزيز لا يزداد على أهل «أيلة» عن الثلاثمائة دينار شيئاً، وكانت دنانيرها الذهبية مشهورة «قال أميمة بن الجُلاح يرثي ولده»:

ألا إن عيني بالبكاء تهلَّلُ جزوعٌ صبورٌ كلُّ ذلك يُفعلُ
فـإن تعتَريني بالنهار كآبةٌ فليلي إذا أمْسَى أمـرُّ وأطـولُ
فـما هَــبرزيٌّ من دنانير أيلةٍ بأيدي الوشاةِ ناصِعٌ يَتَأَكَّلُ
بأحسَنَ منه يومَ أصبحَ غادِياً ونفّسَني فيه الحِـمامُ المُعَجَّلُ

ويقول بعض المؤرخين: إنَّ فيها بُردَ النبي ﷺ كان قد وهبه لحاكم «أيلة» – يوحنه بن رؤية – لما سار إلى تبوك، وصالح النبي على الجزية.

قال المؤرخون: وحدثُ المسخ، حدثٌ يجذب القارئَ إلى تحقيقه والتثبُّت منه، ويُثير في النفس الدهشة والعجب، وهو حدثٌ فريد لم يقع في تاريخ البشرية من قبلُ ولا من بعد، فلم يحدث أن تحول مخلوق من جنس إلى جنس آخر منذ خلق الله الأرض ومن عليها وما عليها حتى يومنا هذا.

وأما ما جاء على لسان «دارون» من أنَّ الإنسان أصله من فصيلة القردة، ثم ترقى في النوع بسبب المؤثرات البيئية، والعوامل الحضارية حتى تحول إلى صورته الحالية، فهي نظرية قد انهارت ولم تثبت للتحقيق العلمي، وقد أثبتَ كذبها عمالقة المحققين الأجانب مثل: «كاتروفان»: وهو عالم فرنسي، ومنهم العالم البيولوجي: «أوش كلارك»: وهو عالم بيولوجي كذلك، تكلمت عنه الكاتبة العربية: «منيرة الغاياتي» في كتابها «مذهب النشوء والارتقاء»، وكتاب «سقوط الداروينية» للدكتور «أنور الجندي».

ويرى المحققون: أنَّ «دارون» وهو يهودي، أو موالٍ لليهود، حاول بنظريته هذه أن يُزيح عن أجداده اليهود كابوس هذا المسخ الذي لا زال عاره يُلاحق أبناءهم إلى يومنا هذا.

أما سبب هذا المسخ: فهو ما ارتكبه يهود «أيلة» – وهي العقبة – اليوم

من المخالفات والاعتداء على الأمر الشرعي، أي الاعتداء على أمر الله تعالى الذي كان أمرهم به مِنْ عهد موسى.

ما هو هذا الأمر؟

هو المحافظة على حُكْمِ السبت وعدم الاكتساب فيه ليتفرَّغوا فيه للعبادة بقلبٍ خالص من الشُّغل بالدنيا.

قال العلماء: والله عز وجل يريد من عباده أن يأخذوا أوامره مأخَذَ الجِدِّ والعزم على تنفيذها سواءٌ كانت هذه الأوامر في شأنٍ من شؤون الدين أو شأنٍ من شؤون الدنيا، خذ مثلاً قوله تعالى في [سورة الجمعة]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾.

هذان أمران أحدهما في الدين، والثاني يتعلق بالدنيا، وكلاهما من منهج الله، فالله لا يريدك أن تُتاجر وتعمل وقت الصلاة، ولا أنْ تترك عملك بلا داعٍ وتبقى في المسجد بعد الصلاة.

إذا نودي للصلاة فإلى المسجد، وإذا قُضيت الصلاة فإلى السعي.

قال المفسرون: هناك يومان في الأسبوع ذُكرا في القرآن بالاسم، وهما يوما الجمعة والسبت، بينهما أيام الأسبوع الأُخرى الخمسة لم تُذكر في القرآن الكريم بالاسم، وإنما نُسبت إلى الأعداد:

فالأحد: منسوب إلى واحد، والاثنين: منسوب إلى اثنين، والثلاثاء: منسوب إلى ثلاثة، والأربعاء: منسوب إلى أربعة، والخميس: منسوب إلى خمسة، وكان المفروض أن يُنسب الجمعة إلى ستة ولم يُنسب؟ لماذا؟

لأنه اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظامُ وجوده، فسمّاه الله تعالى يومَ الجمعة، وجعله لنا عيداً؛ لأنه اجتمع فيه تمامُ إيجاد الكون وتمامُ النِعمة الإلهية في هذا الإيجاد، فالمؤمنون يجتمعون فيه اجتماع حفاوةٍ بتمام خلق الكون لهم، وكان ذلك في ستة أيام، قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ [الحديد ٤]، كان تمام الخلق في يوم الجمعة، وفي اليوم السابع: وهو يوم «السبت» كان كل شيء قد استقر وفرغ من خلق الكون، والسبت مأخوذ من السُّبات، وهو سكون الحركة بعد تمام الخلق، فلما أراد اليهود يوماً للراحة في الأسبوع، أعطاهم يوم السبت ليتفرغوا فيه للعبادة - كما ذكرنا - بقلبٍ خالص.

أخذ الله عليهم العهد من أيام موسى أن يُحافظوا على حُكم السبت وعدم الاكتساب فيه، ولكنهم لم يُراعوا هذه الحُرمةَ، ولم يحفظوا عهد الله، وأراد الله أن يبتليهم ويختبرهم ليرى مدى تمسُّكهم بهذا العهد، وليُظهر نفاقهم، فحرَّم عليهم صيد السمك يوم السبت.

لاحظ أهل «أيلة» تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ، لأنها إذا لم تَرَ سُفُنُ الصيادين وشِباكهم، أَمِنَتْ فتقدمت إلى الشاطئ لابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام وصغار السمك وغيرها، فاحتالوا على صيد السمك في ذلك اليوم وهو «السبت»، وذلك بوضع الشباك والحبائل وحفر البرك قبل يوم السبت، ولا يستطيعُ السمك الخروج لقلة الماء في البرك، فيأتون فيأخذون هذه الأسماك يوم الأحد.

قال ابن كثير: وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، فلما اجترؤوا على محارم الله، واحتالوا لتحليل ما حرَّمَ الله، قال الله تعالى لهم: ﴿ **كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ** ﴾، وهذا ما ذكرته لنا الآية: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ**

﴿فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة].

هنا لا بد من وقفة عند قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

قال العلماء: في العادة أنك لا تأمر إنساناً أمراً إلا إذا كان المأمور في قُدرته أن يفعل هذا الشيء، والأمر هنا: أن يكونوا قردةً، فهل يستطيعون تنفيذه؟

وهل باستطاعتهم أن يُغيروا خِلْقَتَهم إلى قردةٍ؟ إنه أمرٌ في مقدرة الله وحده، فكيف يقول لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾؟

والجواب: نقول: إنَّ الأمر هنا يُسمى «أمراً تسخيرياً» وهو انصياعُ المأمور للآمر وهو غير مُختار، فالأمر نفسه هو الذي جعلهم قردةً، ولو كان المأمور لا يسمعُ هذا الأمرَ ولا يُريده.

هنا سؤال: كيف كان المسخ؟

قال جمهور المفسرين: مُسخت أجسامهم بتغييرها أجسام قردةٍ مع بقاء الإدراك الإنساني.

وقال مجاهد: صيَّرَ عقولهم عقول قردةٍ مع بقاء الهيكل الإنساني، فهو عنده: مسخُ قلوبٍ لا مسخُ ذوات، والعبرةُ حاصلةٌ في كلا الاعتبارين، والقدرة صالحةٌ للأمرين، والكلُّ معجزةٌ للشريعة أو لداوود عليه السلام.

ثم جمهور المفسرين الذين قالوا بأنَّ الأجسام قد مُسخت، اتفقوا على أنَّ الممسوخَ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، وهذا من عدل الله وحكمته التي اقتضت ألا يُنجبَ هؤلاء الممسوخون العصاةُ، حتى لا يتحمل الأبناءُ وزرَ الآباءِ؛ لأنَّ هذا مرفوض عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام ١٦٤].

ثم نريد أنْ نقفَ عند الفعل ﴿ عَلِمۡتُمُ ﴾ في الآية: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ ... ﴾.

قال العلماء: والخطاب هنا ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ﴾ لليهود الذين كانوا مُعاصرين للنبي محمد ﷺ تذكيراً لهم بما كان من سَلَفِهم من الاستخفاف بأوامر الله تعالى في هذه القصة.

قال ابن عاشور: هذه القصة معجزةٌ غيبية أوحى الله إليه في لفظها ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ﴾ ما يشير إلى أنَّ العلمَ بها أُخفي مِنَ العلم بالقصص الأخرى؛ لأنها وقعت في زمن داوود ولم تكن مسطورةً في الأسفار القديمة، ولكنها كانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم.

قال صاحب «نظرات في أحسن القصص»: وهذا الحدث وهذه القصة من الأمور التي حاول اليهود إخفاءها والتكتم عليها حتى لا تكون وصمةَ عار في «تاريخهم»، إلا أنهم لم يستطيعوا الاستمرار في هذا الكتمان أمام تحديات القرآن لهم حين ذكر الحادثة بطريق التأكيد على وقوعه، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ .. ﴾.

واعتمد الإسرائيليون في إخفاء هذا الحادث وكتمانِهِ على عوامل منها:

العامل الأول: المدة الزمنية الطويلة بين أيام داوود، وبين بعثة النبي ﷺ.

العامل الثاني: أنَّ التوراة بين أيديهم ولم يُذكر فيها ذلك، وأنَّ الذين حضروها قد ماتوا.

العامل الثالث: أنَّ أحداً من الأمم لا يعرف هذا السر، بل وحدهم هم الذين يعلمونه، ولكن القرآن فاجأهم بما لم يكن في حُسبانهم، فتناول الحادثة بأسلوب لا يدع مجالاً للشك، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي

ﭐلسَّبۡتِ ﴾ [البقرة ٦٥].

وكلمة ﴿ عَلِمۡتُمُ ﴾ هنا: تحتمل معنى العلم، فيكون المعنى: «إنكم تعلمون هؤلاء الأشخاص بذواتهم وهم المخالفون، أي تعرفونهم بأسمائهم وذواتهم»، وتحتمل معنى: المعرفة بأحوالهم وصفاتهم لا بذواتهم وأشخاصهم.

قال محمد السيد الوكيل: وحيث واجهَهُم القرآن الكريم بذلك، لم يفكروا ولم يُكذبوا ما قاله لهم النبي ﷺ، فدل ذلك على صدق الحادثة.

ولذلك أمر الله تعالى نبيه محمداً أن يسأل اليهود عن هذه الحادثة وعن تلك البلدة التي مُسِخَ المخالفون فيها لأمر الله قردةً، فقال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ ﴾: أي اسأل مُعاصِريكَ من اليهود الذين أنكروا رسالَتَكَ، والسؤال هنا للتقرير والتوبيخ لهم، ولِعَدِّ سوابقِ عصيانهم، فالله تعالى يقول لرسوله: «إنَّ مخالفتَهم إياكَ يا محمد ليس شيئاً جديداً فيهم، بل إنَّ عصيانهم قديم».

وليس السؤال من محمد ﷺ سؤال استفهام؛ لأنَّ الرسول ﷺ قد أعلمهُ ربه وحياً بهذه القصة التي كان اليهود يكتمونها عن جيرانهم كما كتموا مساوئ تاريخهم، فالسؤال فيه تقريرٌ للحادثة، وفيه وخزٌ لهم لتلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد.

كما أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ ﴾ يدل على أنَّ المسؤولَ عنه: «وهي هذه

القصة ومخالفتهم للأمر بِعَدمِ العمل يوم السبت» حقيقة لا يمكن تكذيبها.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي «أَيْلَةُ»: - خليج العقبة اليوم - على البحر الأحمر.

وقوله: ﴿شُرَّعًا﴾ أي ظاهرةً متتابعةً مصطفةً، وهو كنايةٌ عن الكثرة التي تَرِدُ يوم السبت.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نختبرُهُم ليظهر عُدوانهم ليتَّرتبَ الجزاءُ على عملهم بسببِ خروجهم عن أمر ربهم، وفسقِهم، ولذلك قال بعدها: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

هنا سؤال: ماذا كان موقف بقية أهل «أيلة» من هؤلاء المخالفين لأمر الله؟

والجواب:

قال العلماء: كان أهل المدينة ثلاثَ فرق:

الأولى: فرقة العادْين الذين خالفوا وعصَوا واحتالوا على الصيد، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

الثانية: فرقة الواعظين الذين نَهَوْا العادِّينَ عن العدوان، وهي التي أُشير إليها بقوله تعالى في الآية.

الثالثة: فرقة اللائمين للواعظين التي قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف ١٦٤]؟.

فكان جواب الواعظين: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٤].

ما معنى المعذرة إلى الله؟

والجواب: تقول: عَذَركَ زيدٌ، إذا فعلْتَ فعلاً كان في ظاهره ذنباً ثم بيَّنْتَ العُذر في فعلِه، مثل: أن تَعِدَهُ أن تلقاه في الساعة العاشرة مثلاً، وتأخرت عنه طويلاً، فيقول لك: لقد جعلتني أنتظرك طويلاً، وتأخَّرتَ عني.. تقول له ذلك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر عن الموعد المتفق عليه، فيردُّ عليك: والله تعطلت السيارة ولم أجد وسيلة للوصول ولذلك تأخرت.

«وهذا عُذر» وهو إبداءُ سبب لأمرٍ خالفَ مُرادَ الغير، ولذلك يُقال: «أعذرَ مَنْ أنذر»، وهناك «مُعَذِّرٌ»، وهو الذي يأتي بعذر كاذب، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ [التوبة ٩٠].

والآن: ماذا كانت نتيجة هذه الفِرق الثلاث؟

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

قوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾: هؤلاء المذنبون ضربوا بِنُصْحِ الفئة الصالحة عُرْضَ الحائط، وأعرضوا عن موعظتهم فكانت الموعظة كالشيء المَنْسِي الذي لا تأثير له.

وأما الفريقان الآخران: فقد نَجَوْا من العذاب الذي استحقَّهُ فاعلو السوء بظلمهم.

وأما الفريق المعرض فقد استحق العقاب وحده بظلمِهِ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

والبئيسُ: هو الشديد معنىً ووزناً.

قال الحسن: نَجَتْ فرقتان، وهلكت فرقةٌ، وقوله أقربُ إلى سياق الآيات،

لأنَّ ابن عباس يُقرر أن المداهنين عُذبوا كذلك، ولكن السياقَ لا يدُل عليه عند المحققين.

الحادثة الثانية:

حكمُهُ في غنم القوم:

وخُلاصة القصة كما وردت عن ابن مسعود، والقاضي شُريح، ومُقاتل: وفيها متابعة لذكر فضائل داوود ونِعَمِ الله عليه، أنَّ راعياً نزلَ ذات ليلة بجانب كرم، فدخلت الأغنام الكرمَ، على حين غفلة من راعيها، وأفسدت الكرمَ، فلمْ تُبقِ فيه شيئاً، فذهب صاحب الكرم من الغدِ إلى داوود عليه السلام، وتخاصم الرجلان، أحدهما عاملٌ في زرعٍ أو كرمٍ لجماعة، والآخر راعيَ غنمٍ لجماعة، وقضى داوود أن تُعطى الغنَم لأصحاب الحرث إذا كان ثمن تلك الغنم يُعادل تقريباً ثمنَ ما تَلِفَ من ذلك الحرث.

قال ابن عطية: إنما قضى داوود بذلك لأنه لم يجد تفاوتاً، وخرج المتخاصمان من باب آخر كان يجلس عليه سُليمان، فسألهما سليمان: بِمَ قضى لكما نبي الله داوود؟ فقالا: كذا وكذا، فقال: لو كنت أنا قاضياً لحكمتُ بغير هذا، فبلغ ذلك داوودَ، فأحضره وكان سليمان في الحادية عشرة من عمره، وقال له: بماذا كنتَ تقضي؟ قال: إني أرى ما هو أرفقُ بالجميع، قال داوود: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويُصلحه عاماً كاملاً حتى يعود كما كان ويردُّهُ إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تُسَلَّم لراعيهم، فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدة، فإذا كَملَ الحرثُ وعاد إلى حاله الأول، ردَّ كلٌّ واحدٍ منهما ماله إلى صاحبه، فيأخذ أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرمِ كرمهم.

فقال داوود: «وُفِّقتَ يا بُنيَّ لا يقطع الله فهمك»، وقضى بما قضى له

سليمان.

قال النحاس: والفرقُ بين الحُكمين أنَّ قضاء داوود بالغنم لصاحب الحرث، لأنَّ الثمن كان قريباً منه، وأما في حُكم سليمان فكانت قيمة ما حصل له من الغنم، وقيمة ما أفسدته الغنم سواء.

وذلك ما قصَّهُ الله علينا في [سورة الأنبياء]: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ نَفَشَتۡ ﴾: والنفْشُ: انتشار الغنم ليلاً على حين غفلة من راعيها، أي انتشرت في حجم كبير، «فلان نافش ريشه».

وقوله: ﴿ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴾: عالمين مُراقبين، ويدلُّ على أهمية الحكم.

وقوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ ﴾: أي ألهمناه وجهاً آخر في القضاء هو أرجح وأعمق.

قال العلماء: وإنما أراد الله بذلك إظهار عِلْمِ سليمان ليزداد سُرور أبيه به، وليتعزَّى بهذا الولد عما فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان، وحسبُك أنَّ قضاءه كان موافقاً لقضاء النبي محمد ﷺ في قضية الزبير حين حصلت خصومة بينه وبين الأنصاري على سقاية ماء.

قال العلماء: وحتى لا يخطر ببالك أنَّ تخصيص سليمان بالفهم معناه أن حُكم داوود لم يكن شرعياً، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾، فالكلُّ كان مصيباً، ولكن حُكمَ داوود كان أوفَقَ، وحُكمَ سليمان أرفَقَ.

قال المؤرخون: ولهذا لما أمر «الوليد بن عبد الملك»، بهدم كنيسة دمشق لبناء المسجد الأموي، كتب إليه ملكُ الروم: «إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأت أنت»، فأجابه الوليد برسالة صدَّرها بقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [سورة الأنبياء].

قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بِصوابهِ، وعَذَرَ داوود باجتهاده.

وكان السلفُ يخافون من تولي القضاء، فقد كان بعضهم إذا أُسند إليه القضاء يبكي لظنه أنَّ القاضي إذا أخطأ بعد أن اجتهد فهو في النار، ولهذا لما تولى «إياس بن معاوية» القضاء، دخل عليه «الحسن البصري» فوجده يبكي، فقال: ما يُبكيكَ يا هذا؟ قال: يا أبا سعيد: بلغني أنَّ القضاةَ رجل اجتهد وأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن البصري: يا أبا معاوية: إنَّ فيما قصَّ الله علينا من نبأ داوود وسليمان عليهما السلام حُكماً يردُّ قولَ هؤلاء الناس عن قولهم، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [سورة الأنبياء].

فأثنى الله على سليمان ولم يذمَّ داوود عليه الصلاة والسلام.

والحكم عندنا في مثل هذه القضية: أنَّ ما أفسدت المواشي ليلاً يَضْمَنهُ أصحابُها، أما في النهار فلا، وعلى أهلِ المزارع نهاراً حفظها، لحديث البراء في ناقته التي أفسدت زرعاً، وادعى رجلٌ عند «شُريح» على رجل قطعت غنمه

غزلاً له، فقال شُريح: إن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن، وقرأ الآية السابقة.

الحادثة الثالثة:

فتنة داوود:

ورد عن ابن العباس وعن الحسن: أنَّ داوود كان قد قسَّمَ أوقاته أربعة أقسام: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً لأموره الخاصة، ويوماً يلتقي فيه ببني إسرائيل فيعظهم ويُبكيهم ويبكونه.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: وفي يوم من أيام داوود الخاصة التي يخلو فيها إلى نفسه، والتي لا يجرؤ أحدٌ على تعكير صفوِ وحدتهِ، إذا برجلين يَتخطَّيان الأسوار في غفلة من الحُراس، ويدخلان عليه في محرابه، ففزعَ منهم وظن أنهما يريدان شرّاً به، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ
تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ
تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص].

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ مستعملٌ لتشويقِ السامع إلى ما يُلقى عليه، كما إذا قُلتَ لشخصٍ يُجالسك:

هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد بذلك تشويقه إلى سماع كلامك، وأنَّ عندك خبراً بديعاً من حقه ألا يخفى.

والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المُتنازعينَ الذين تسوَّروا على داوود مسجده وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟

وكلمة: ﴿ ٱلْخَصْمِ ﴾: تُطلق على الواحد وأكثر، أي وعلى المثنى والجمع، لأنه في الأصل مصدر، فيطلق على المفرد والجمع، وأُريدَ به هنا خصمان لقولهما بعدها: ﴿ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾ وقد يكون مع كل خصمٍ جماعةٌ من أهله يُؤانسونه ويُعاضدونه، فيُطلقُ «الخصم» على المفرد والمثنى والجمع، منه قول الشاعر:

وخصمٌ غِضابٌ ينفُضون لِحَاهُمُ
كنفضِ البراذينِ العِراب المخاليا

قال العلماء: والعرب يعدلون أحياناً عن صيغة التثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينةٌ تمنع الشك، لأنَّ في صيغة التثنية ثِقلاً لنُدرة استعمالها ولكراهية اجتماعِ مُثَنَّيين، قال تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. ﴾ [التحريم ٤]، في معاتبة حفصة لما أسرَّ لها النبيُّ ﷺ حديثاً، فأفشتهُ لعائشة.

وقوله: ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ تسوَّر: مُشتق من السُّوْر وهو الجدار المحيط بالمدينة أو بمكان ما، يُقال: تسوَّر: إذا اعتلى السورَ ومثله قولهم: تسنَّم جملَه: إذا علا سنامه، وتَذرَّأه: إذا علا ذُرْوَتَه، ويُقال: صاهى: إذا ركب صهوة جواده، والسَّوْرَةُ: تُطلق على المنزلة العالية، لبقعة محسوسة أو منزلة معقولة ومنه:

أَلْم ترَ أنَّ الله أعطاك سَوْرةً   ترى كلَّ مَلكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ

دلت الآية: على أنَّ مكان عبادة داوود كان مُحاطاً بسورٍ لئلا يدخله أحدٌ إلا بإذن الحرس.

وقوله: ﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾: هو البيت المُتَّخذ للعبادة، وقد يُطلق المحراب على الغرفة «العِلِّية» المنفردة، ومحرابُ المسجد: هو القسم المنفصل عما عداه.

قال الراغب: سُمي محرابُ المسجد بذلك؛ لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، ثم تأتي الآية الأُخرى لتُبيِّن حال داوود حين دخلوا عليه فجأةً فقال تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ص ٢٢].

والفزعُ: انفعالٌ يظهر منه اضطرابٌ على صاحبه، وهذا الانفعال ناتج عن تَوَقُّعِ مكروه، أو شدةٍ، أو مُفاجأة.

وكان فَزَعُهُ لأمرين: لدخلوهم بدون إذن، ومن غير المدخل المعتاد فظن أنهم يريدون به شراً.

هنا سؤال طرحه ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»: قال: فإن قيل: لِمَ فزِعَ داوود وهو نبيٌّ، وقد قويَتْ نفسه بالنبوة؟

والجواب: أنَّ الخوف انفعال جِبِلِّيٌّ طبيعي، وضعه الله في أحوال النفوس عند رؤية المكروه، وهذا الأمر لا تخلو من بوادره نفوس البشر، حيث يَعرِض لها ذلك الانفعالُ بادئ ذي بدء، ثم يطرأ على هذا الانفعال ثباتُ الشجاعة، فتُبْعِدُ هذا الخوف عن النفس، والنفوسُ متفاوتةٌ في دوام هذا الخوف وانقشاعه.

والنبي بشرٌ يَعْتريه الخوف الجِبِلِّيُّ ثم يتخلَّصُ منه بشجاعته، هذا إذا لم يكن الله قد أمَّنَ النبي فذلك مقام آخر، كقوله عز وجل لموسى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة]، وهذا وَعْدٌ من الله أن يكفيَ رسوله مِمَّنْ عاداه، ثم قال له بعد ذلك: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة].

قال المفسرون: هذا أمانٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ كيْلا يخافَ ولا يَحْذَرَ، والنبيُّ ﷺ لما دخل المدينة قالت اليهود: يا محمد: إنا ذوو عددٍ وبأسٍ، فإنْ لم ترجعْ قتلناك، وإن رجعت ذوَّدناكَ وأكرمناكَ، فكان يحرس النبي ﷺ مائة من المهاجرين والأنصار، يَبِيتون حوله ويخرجون معه خوفاً من اليهود، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة ٦٧]، عَلِمَ أنَّ الله حافظُهُ من كيد اليهود ومن غيرهم، فقال للمهاجرينِ والأنصار: «انصرفوا إلى رحالكم فقد عصمني من اليهود»، والأنبياء مأمورون بحفظ حياتهم ففي حديث سعد بن أبي وقاص أنَّ النبي ﷺ كان في قُبة فسمعَ الرسول ﷺ قعقعة السلاح، فقال: «من هذا؟»، قال: سعد يا رسول الله، فقال له ﷺ: «ما جاء بك؟»، قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام، والحديث في مسلم عن عائشة.

وروى الترمذي أنَّ العباس كان يحرسُ النبي ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة ٦٧]، فَتُرِكَت الحراسةُ.

«الباحثة البلجيكية العاكفة على دراسة سيرته ﷺ، لما وصلت إلى هذه النقطة قالت: لو كان هذا الرجل يخدع الناس ما خدع نفسه في حياته، ولذلك أنا أقول بملء اليقين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

قال البروسوي: أرادَ الخصوم أن يُزيلوا فزعَهُ - داوود - فقالوا: لا تخف، وهي كلمة يقولها القادم على آخر بهيئةٍ غير مألوفة من شأنها أن توقعَ الرِّيبةَ في قلب الناظر إليه.

قال القاسمي: أي لا تخف منا فلسنا قاتِلَيْن، وإنما نحن خصمان جئنا

لنحتكِمَ إليك، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾[ص]، والبغيُ: الظلم لقول الشاعر:

ولكن الفتى حَمَلُ بنُ بدرٍ بغى والبغيُ مرتعُهُ وخيمُ

نُلاحظ أنهما لم يُعيِّنا الباغي ولا المظلوم، لماذا؟

والجواب: لسببين:

الأول: أنَّ المقامَ مقامُ تهدئةِ رَوْعِ داوود فالإيجاز هو اللائق هنا، ثم يأتي التفصيل في الشكوى بعد ذلك.

الثاني: إظهار الأدب مع الحاكم، فلا يتولّيان تعيين الظالم منهما، بل يتركان ذلك للحاكم ليُعيّنَ الظالم والمظلوم.

وقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، أي بما يُطابق أمرَ الله تعالى.

قال العلماء: وهذا يُشبه قول الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ في خصومة مع شخص آخر، فقال أحد المُتخاصمَيْن: يا رسول الله: اقضِ بيننا بكتاب الله، فقال الثاني: أجل يا رسول الله، فاقضِ بيننا بكتاب الله وائذن لي أن أتكلم، ثم تكلمَ وفَهِمَ الرسول ﷺ القضية فقال: «أما والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله»، والحديث في موطأ مالك عن رواية زيد الجهني، وأبي هريرة.

وقوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾: أي لا تتجاوز الحق، أي لا زيادة ولا نُقصان.

قال ابن عاشور في «تفسيره»: وهذا الكلام مُستعمل في التذكير، ولا يُعَدُّ صُدورُ مثل هذا الكلام مِنَ المتخاصمين للقاضي أو للحاكم جفاءً، أو خروجاً عن الأدب، وإنما هو من باب قولهم: «اتق الله في أمري»، ولا يجوز

للقاضي أن يُعاقبَ عليه كما يُعاقبُ من أساء إليه.

قال العلماء: وقول أحد المُتخاصمين: «اتق الله في أمري»، هي مقالة غايتُها الحرص على إظهار الحق وفيها معنى التذكير، ولكن إذا صدرت من أحد المُتخاصمين بعد الحكم فهي جفاء وسوء أدب، وذلك كالذي قال للنبي ﷺ في قسمة قسَمها: اعدِلْ، فقال النبي ﷺ: «وَيْلكَ فمن يعدلُ إنْ لم أعدل».

وعند المالكية إذا قال الخصم للقاضي: «اتَّقِ الله في أمري»، أو «اعدل»، فلا يُعدُّ هذا إساءةً لا قبلَ الحُكم ولا بعده.

وقد أفتى مالك رضي الله تعالى عنه بسجن فتى، فقال والد الغلام لمالك: «اتق الله يا مالك» فوالله ما خُلقت النار باطلاً، فقال مالك: من الباطل ما فعله ابنك، والرجل قد زاد في التعريض بقوله: «والله ما خُلقت النار باطلاً».

قال الآلوسي في «تفسيره»: وفي تَحمُّلِ داوود منهم دلالةٌ على أنَّ الحاكم أو المُفتي، أو المُحَكَّم، أن يقتدي بهذا النبي الأوّاب، ثم قال: والعجب ألا يقتدي حُكامنا بهدي الأنبياء، بل يغضب أحدهم لأقل كلمة تصدر ولو فلتةً من أحد الخصمين يُتوهَّمُ منها الحطُّ لقدره، ولو فكر لنفسه لعَلِمَ أنه بالنسبة لنبي الله داوود لا يعدلُ مَتْكَ الذباب، ثم قال الآلوسي: «اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق، واعصمنا من الأغلاط».

ثم جاء ختام الآية: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي أرشدنا إلى الحق الواضح.

قال العلماء: وهذا التعبير منهم يدلك على أنهم لم يقصدوا بقولهم السابق: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾، الإساءة؛ لأنهم طلبوا الهداية إلى الحق منه، وعرَفا أنه لا يقولُ إلا الحق.

هنا سؤال: قد يقول قائل: لقد دخل عليه الخصمان بدون إذن، فلماذا لم يؤدِّبْهما ولم يُخرجْهما من حضرته؟

والجواب: كما ذكر صاحب «أحكام القرآن»:

أولاً: أنّا لا نعلم كيفية شرعه - شرع داوود - في الحجابِ والإذن، ليكون الجواب على حسب تلكَ الأحكام، وقد كان أمر الحجاب في ابتداء شرعنا مُهملاً عن هذه الأحكام، حتى أوضحها الله عز وجل بالبيان.

ثانياً: يحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له.

ثالثاً: أنه أرادَ داوود أن يستوفيَ كلامهما الذي دخلا من أجله حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى، هل هذا الأمر يحتمل التقحُّمَ فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذرٌ لهما؟ أم لا يكون لهما عذر منه.

رابعاً: أنه يحتمل أن يكون في المسجد، ولا إذن في المسجد لأحد، ولا حَجْرَ فيه على أحد.

وقد ذكر القشيري أمراً **خامساً** وهو أنهما قالا: لما لم يأذن لنا الموكَّلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسوُّر، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا، فقبِلَ داوود عذرهم.

واستمعَ إلى قولهما، ثم يأتي تفصيل القصة، حيث بدأ المُدَّعي فقال ما ذكره الله تعالى في الآية: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص].

قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾: تحتمل الأُخوة في الدين، أو الصداقة، أو الخِلطة، أو النسب، والراجح الأول، لما سيأتي في الآية التالية وهو قول داوود: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [ص ٢٤].

قوله: ﴿ لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾: والنعجة: الأنثى من الضأن، وتُطلق على البقرة الوحشية كذلك.

قال المحققون: النعجة أنثى الضأن، ومن قال: إنها المرأة فعليه الدليل.

وقوله: ﴿ أَكۡفِلۡنِيهَا ﴾: أي ملِّكْني إياها.

وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾: أي غلبني وقويَ عليَّ، وأظهرَ في الكلام عزةً عليَّ وتطاولاً، فصار المعنى الكامل العام: أنه سأله أن يُعطيه نعجته، ولما امتنع اشتدَّ عليه بالكلام وهدَّدَهُ، فأظهرَ الخصم المُشتكي أنه يُحافظ على صِلاتِ القرابة، أو الجوار، فشكاه إلى المَلِكَ ليمنعَهُ من معاملةِ أخيه معاملةَ الجفاء والتطاول لِيمْلِكَ نعجته عن غير طِيْبِ نفس منه.

قال صاحب «التحرير»: وبهذا يتبيَّن أنَّ موضع هذا التحاكم طلبُ الإنصاف في معاملة القرابة لئلا يُفضي الخلافُ بينهم إلى التواثُبِ فتنقطعَ أواصرُ المبرّة والرحمة بينهم، ولكن بأي شيء، عزَّهُ وغلبه؟

قالوا: إما بمكانته فلن أستطيع مخالفته، أو ببيانه، والأول أظهر؛ لأنه لما سأله الشاةَ لم يستطعْ مخالفته.

ويروي ابن العربي في «أحكام القرآن» قصة لطيفة يُبيّنُ فيها أنَّ السلطان إذا طلب من أحد الناس حاجة يكون ذلك غصباً لهذه الحاجة، فقال: كان في بلادنا أمير يُقال له «سير بن أبي بكر»، من أُمراء المرابطين وأحدِ قُوَّاد «يوسف بن تاشفين» المشاهير، تركه في الأندلس حين عَزَمَ على الرجوع إلى بلاده.

قال ابن العربي: كلمتُ هذا الأمير في أنْ يسأل رجلاً حاجةً لي، فقال لي الأمير: أما علمتَ أنَّ طلب السلطان للحاجة غصبٌ لها؟ فقلتُ: أما إذا كان السلطانُ عدلاً فلا، فعجبتُ من عُجْبته، وحفظهِ وفِطْنتِه، كما عَجِبَ من

جوابي له واستغربه.

قال العلماء: لما تكلم المُدَّعي، سكت المُدعى عليه، أو اعترف ولم يتكلم، ورأى داوود هذا الظُلم البَيِّنَ الذي لا يحتمل التأويلَ، اندفعَ داوود قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص ٢٤].

ثم أراد داوود أن يُسلِّيَ المظلومَ عما حصل له من خَليطِه، فبيَّنَ له أنَّ عادةَ الظلم بين الخُلطاءِ مُتفشِّيةٌ، ولكن عند غير الصالحين، ثم حثَّهما على أن يكونا من الخُلطاء الصالحين، فقال عليه السلام: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص ٢٤].

هنا موعظةٌ من داوود حيث أراد أن يُرَغِّبَهما في أخلاق الصالحين، وأن يُكَرِّهَ إليهم الظلمَ.

هنا سؤال: لماذا خصَّ داوود الخُلطاء غير الصالحين بالظلم، مع أن غيرَ الخُلطاء قد يظلمون؟

والجواب: إنَّ الاختلاط وسيلةٌ لمعرفةِ ما عند الآخرين من الخسيس والنفيس من المال، فإذا رأى الواحدُ عند الآخر شيئاً نفيساً طَمِعَ فيه، فيؤدّي ذلك إلى المنازعةِ، هذا إذا كان هؤلاء الخُلطاءُ سببُ خِلْطَتهم حبُّ الدنيا، أما أهل الصلاح فلا.

وقول داوود: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: هو حثٌّ منه للخصمين أن يكونا من الصالحين لما هو مستقرٌّ في النفوس مِنْ نفاسة كلِّ شيءٍ قليل، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة].

إذاً فعلى المؤمن أن يحذر الكثرةَ إذا بها شيءٌ خبيث، وتظهر العبرة في هذا

الأمر في حكايةٍ حدثت مع أبي جعفر المنصور حينما بويع بالخلافة، وذهب الناس يهنِّؤونه بأمارة المؤمنين، ودخل عليه «مقاتل بن سليمان» أحد الصالحين الواعظين، فلما رآه أبو جعفر قال: جاء ليُعكِّرَ علينا صَفْوَ يومنا، سأبدؤه قبل أن يبدأني، ثم قال للشيخ: عِظنا يا مقاتل.

قال: يا أمير المؤمنين: أَعظُكَ بما سمعتُ أم بما رأيتُ؟

ذلك لأنَّ السمعَ أكثر من الرؤية، فالرؤية محدودةٌ على ما تدركه العين، لكن السمعَ متعددٌ؛ لأنَّ الإنسان قد يسمعُ تجارب غيره من الناس – كما قال الشعراوي –.

قال أبو جعفر: تكلم بما رأيتَ، قال مقاتل: يا أمير المؤمنين مات «عمر بن عبد العزيز» وقد ترك أحدَ عشرَ ولداً، وخلَّفَ ثمانية عشرَ ديناراً، كُفِّنَ منها بخمسة، واشتروا له قبراً بأربعة، ثم وزِّع الباقي على الورثة.

ومات «هشام بن عبد الملك» يا أمير المؤمنين، وكان له أربعُ زوجات، فكان نصيبهن من التركة الثُمُنَ وهو «ثلاثمائة وعشرون ألف دينار»، والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ بعينيَّ هاتين في يوم واحدٍ ولداً من أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرسٍ في سبيل الله، وولداً من أولاد هشام يسأل الناس في الطرق، ولذلك قال تعالى في ختام الآية: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ ﴾ [المائدة ١٠٠].

وقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة].

ولكن: ما السببُ في قِلَّةِ الصالحين؟

والجواب: إنَّ الجواذبَ إلى لذات الدنيا كثيرةٌ، والمشيَ مع الهوى محبوبٌ، ومُجاهدة النفس عزيزُ الوقوع لا يكون إلا ممن سَما دينه، وشَرُفتْ هِمته، وهذا

قليل.

ثم يأتي قوله تعالى بعدها: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص].

قال القاسمي: للمفسرين في قصة نبأ داوود أقوالٌ عديدةٌ ووجوهٌ متنوعة مَرَدُّها إلى مذهبين:

المذهب الأول: أنَّ داوود صدرت منه مخالفةٌ فاستغفر منها، فغفر الله له، ولكن ما هي هذه المُخالفة؟

والجواب: إنه خَطَبَ على خِطبةِ مسلمٍ «أوريا».

والرواية الثانية: أنه كان لا يعلم أنها مخطوبة، ولكن أهلها آثروه على الخاطب الأول لمكانته وصلاحه، ثم علمَ داوود بذلك وسكت.

ويرى بعض المفسرين أنَّ المُخالفة كانت، أنَّ داوود لما رأى المُتسوِّرَينِ قد دخلوا عليه من غير الباب المعتاد، وفي وقت كان ينفرد فيه بالعبادة، ففزع منهم، ظنَّ أنهم يريدون اغتياله حيث كان منفرداً، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في محاكمة، ولإنهاء خصومة بينهما، استغفر ربه من هذا الظن الذي ظنَّه بهما، وخرَّ ساجداً لله عز وجل، ولذلك جاء بعد قوله تعالى عن داوود: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، قوله تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾، أي ذلك الظنَّ السيء الذي ظنه بالمتخاصمين.

ويرى البعض الآخر من المفسرين والمؤرخين، كما ذكر «جاد المولى» في كتابه «قصص القرآن»: أنَّ داوود بعد انصراف المتخاصمين أخذَ يُفكر بهذا الحدث والتسور المفاجئ، فأدركَ بفطرته السليمة أنَّ ذلك درسٌ من الله، وعبرةٌ له ليُراجع نفسه، ويُغيّر موقفه من تأجيل قضايا الناس في المحاكمات،

وألا يتركهم في انتظارٍ وضجر، وينصرف إلى العُزلة، لأنَّ الفصلَ في القضاء للناس أولى وأحقُّ.

ثم قال جاد المولى: وما كان يخطر بِخَلَدِ نبي الله داوود أنه بعمله هذا - تاخير القضاء - يَستوجبُ اللومَ، ولكن الله حاسبه وألزمه الحُجة على عُلُوِّ منزلته حتى يوقنَ الناس أنَّ الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيُحاسبُ صاحبها عليها سواءً في ذلك عامَّتُهم وأنبياؤهم.

وقال آخرون: كان في شريعة اليهود مُباحاً أن يطلبَ رجلٌ من آخر التنازل عن خطيبةٍ خطبها، أو عن زوجة له، لمودةٍ بينهما، أو لقرابة، ثم يطلقها زوجها حتى إذا انقضت عِدتها تزوجها الشخص الذي يريدها وكان ذلك معمولاً به في صدر الإسلام.

وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله ﷺ بينهما: «إنَّ لي زوجتين أنزلُ لك عن أحسنهما»، فقال عبد الرحمن: «باركَ اللهُ لك في أهلك»، ومايجوز فِعْلُه يجوزُ طلبه فداوود طلب من «أوريا» أن يتنازل له عن زوجته، كما يسأل الرجلُ الرجلَ حاجةً أو بيعَ جارية، فنبَّه الله داوود وعاتبه على ذلك، وليس هناك نص يدل على أنه تزوجها، أو ولدت له.

وقد ورد عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داوود على أن قال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: أي تَحَوَّلْ لي عنها، فعَتَبَ اللهُ على داوود أن استعمل لنفسه هذا المباحَ، لما فيه من إيثار نفسه بما هو لغيره ولو بوجهٍ مباح.

فكانت قصة الخصمين عظةً له، وليشعر أنه كان الأليقَ بمقامه أن لا يطلب هذا الأمر، ولا يقتربَ من هذا الزواج وإن كان مباحاً له.

وحكى السمرقندي كما نقل عنه القاسمي قال: إنَّ ذنب داوود الذي

استغفر منه هو قوله: ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ ﴾ [ص ٢٤].

المذهب الثاني: فهو ما ذكره «ابن حزم» في «الفِصَل في المِلَلِ والأهواءِ والنِحَلِ» – سنة ٣٨٤ الى ٤٥٦ هـ –.

قال النُقّاد: وضع ابن حزم مؤلفه الديني التاريخي العظيم، وهو كتاب لم يُسبق إلى مثله في الفكر العالمي.

قال عنه ابن بشكوال: ابن حزم من أهل العلم والأدب والخير، وكان له يدٌ في البلاغة قويةٌ.

كان شافعيَّ المذهب، ظاهريَّ الفِكر، عنيفَ النقد للخرافات ولتقديس الأولياء.

قال أصحاب هذا المذهب الثاني في قضية داوود: إنَّ ما حكاه الله عن داوود عليه السلام قولٌ صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله الكاذبون المستهزئون المتعلِّقون بخرافات ولَّدَها اليهود.

كان الخصوم قوماً من بني آدم بلا شك، مختصمين في نِعاجٍ من الغنم على الحقيقة بينهم، بَغَى أحدهم على الآخر على نصِّ الآية.

ومن قال أنهم ملائكة مُعرِّضين بأمر النساء، فقد كَذَبَ على الله، وقَوَّلَهُ ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّبَ الله عز وجل، وأقرَّ على نفسه الخبيثة أنه كذَّبَ الملائكة، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ ﴾ [ص]، فقال هو: لم يكونوا قط خصمين ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان لأحدهما تسعٌ وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: أَكْفِلنيها، ثم يقول ابن حزم: فاعجَبُوا، لِمَ يُقحمون في الباطل أنفسهم؟ ونعوذ بالله من الخذلان.

ثم يقول: أما استغفار داوود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾، وخروره ساجداً: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾، ومغفرة الله له: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾.

فالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أَوْلَى الناس بذلك، وبكل فعلٍ كريم، والاستغفار فِعْلُ خيرٍ لا يُنْكَرُ من مَلَك ولا من نبي، ولا من مذنبٍ ولا من غير مذنب، فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض، والملائكة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر].

ثم قال ابن حزم: وأما قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، فقد ظن داوود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سَعَةِ المُلْكِ العظيم فتنة، فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر الله تعالى له هذا الظن، إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنةً.

ثم قال ابن حزم: «لقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يُثَبِّتَ الله قلبه على دينه».

وهكذا أجمعَ المحققون على سلامة داوود مما نَسَبَ إليه اليهود مِنْ طمعه في امرأة غيره.

قال الداوودي: ليس في قصة داوود مما رواه اليهود خبرٌ يثبت.

وذهب أحمد بن نصر وأبو تمام من المحققين إلى مثل ما قاله الداوودي.

وقال الناصر في «الانتصاف»: وقد التزم المحققون من أُمتنا أنَّ الأنبياء - داوود وغيرهم - معصومون من الذنوب، مبرؤون من ذلك، ثم قال: والتمسوا المحاملَ الصحيحة الصادقة لهذه القصة، وهذا هو الحقُّ الأبلجُ

والسبيل الأبهجُ إن شاء الله تعالى.

وقال البرهان البقاعي: إنَّ ما ذُكر عن داوود وأمثاله من كذب اليهود، وأنهم تَعمَّدُوا الكذب عليه لأنَّ عيسى من نسله ومن ذريته فطعنوا في داوود ليجدوا سبيلاً إلى الطعن في عيسى، قال لي ذلك بعض من أسلم من اليهود.

وقال القاضي عياض في «الشفا»: وأما ما ذُكر عن داوود عليه السلام، فلا يجب أن يُلتفت إليه لأنه من تسطير الإخباريين الذين نقلوا عن أهل الكتاب الذين بدَّلوا وغيَّروا، ثم نقله بعض المفسرين عنهم، ولم يَنُص الله على شيءٍ من ذلك ولا ورد في حديث صحيح، وكذلك قال ابن كثير في «تفسيره».

وقال صاحب «البحر المحيط»: ونعلم قطعاً أنَّ الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع، ولم نثق بشيءٍ مما يذكرون، ثم قال: فما حكاه الله هو الصدق، وما حكاه القُصَّاصُ من الكذب فيه نقصٌ من مقام النبوة، ورحم الله من قال:

ونُؤثرُ حكمَ العقلِ في كلِ شُبهةٍ ... إذا آثَرَ الأخبارَ جُلاَّسُ قُصَّاصِ

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، أي تيقَّنَ وعَلِمَ أنَّ ما صدر منه فتنة من النفس، لأنه تابعَ ميلَ النفس وإن كان في دائرة المباح في دينهم، ولذلك استغفر ربه على ذلك الظن، أي لما عَلِمَ ذلك طلب الغفران من ربه، وذلك قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾، قال الحسن: لا يكون ساجداً حتى يركع، والمراد بالركوع هنا الانحناءُ الشديد حتى قاربَ السجودَ، وقصد بالركوع هنا السجودَ، لدخول الركوع فيه؛ لأنَّ أول السجود الانحناء ثم الهُوِيُّ، وأحدهما يدخل في الآخر، وقيل: ركع ثم خرَّ ساجداً، قال الشاعر:

فخرَّ على وجهه راكعاً وتائباً إلى الله من كل ذنب

وكان ركوعُ داوود تَضرُّعاً لله تعالى ليقبلَ استغفاره، كما كان سجودَ شكرٍ لله الذي وفَّقه بالرجوع عن البطش بهم حين ظن أنهم يريدون اغتياله، وشكراً لله على أنْ بيَّن له ذلك.

هنا سؤال: هل هنا سجدة؟ وهل هي من عزائم السجود؟

والجواب: إنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر، ويُستحب سجود الشكر، يُثابُ فاعله، ولا يُعاقب تاركه، لأنَّ هذا السجود نوع من الشكر، والشكرُ: الاعتراف بالنِّعم، والقيامُ بطاعةِ المُنعم، فقد ورد في البخاري وأحمد عن ابن عباس قال: «إنها ليست من عزائم السجود، وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يسجد فيها» - البخاري وأحمد وأصحاب السنن -.

وقال المالكية: هي من عزائم السجود ويُسجد فيها، والراجح أنها ليست من عزائم السجود لما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص]، فلما بلغَ السجدة نزل فسجدَ وسجدَ الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغَ السجدة، تَشَزَّنَ الناسُ للسجود: «أي تهيَّأ»، فقال النبي ﷺ: «إنما هي توبةُ نبيٍّ ولكن رأيتُكم تشزَنْتُم»، فنزل وسجد، - أبو داوود وإسناده على شرط الصحيح -.

وأخرج ابن ماجة في «سننه» عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ، فأتاهُ رجل فقال: يا رسول الله؛ إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم كأني أُصلي إلى أصلِ شجرة فقرأتُ السجدة فسجدتُ وسجدت الشجرة معي فسمعتُها تقول: «اللهم احطُطْ بها عني وِزْراً، واكتبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذُخراً»، قال ابن عباس: فرأيتُ الرسول ﷺ قرأ السجدة فسجد، فسمعتُهُ يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة.

وذكر الثعلبي عن أبي سعيد قال: قلتُ يا رسول الله: رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة، والشجرةُ تقرأُ «ص»، فلما بلغت السجدةَ سجدتْ فيها، فسمعتُها تقول في سجودها: «اللهم اكتبْ لي بها أجراً وحُطَّ عني فيها وزراً، وارزقني بها شُكراً، وتَقَبَّلْها مني كما تقبلتَ من عبدك داوود سجدتهُ».

فقال النبي ﷺ: «أفسجدتَ أنت يا أبا سعيد؟» فقلتُ: لا يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «لقد كنتَ أحقَّ بالسجود من الشجرة»، ثم قرأ النبي ﷺ «ص» حتى بلغَ السجدةَ فسجد ثم قال: مثل ما قالت الشجرة.

قال العلماء: وقولهم: ليست من عزائم السجود: أي لم يَرِدْ فيها أمرٌ ولا تحريض ولا حثٌّ، وإنما ورد بصيغة الإخبار.

قال النسائي: سجدها داوود توبةً، ونسجدُها شكراً، فينبغي أن نسجدها خارج الصلاة لا فيها.

وعند الشافعي تُسْجَدُ سجدةَ تلاوة.

وأما على قول من قال: إنها سجدةُ شكر فلا تُسْجَدُ في الصلاة.

قال العلماء: وسجود الشكر متى يكون؟

قالوا: يكون سجود الشكر عند تجدُّد نعمةٍ، واندفاع نِقمةٍ.

وتُسَنُّ سجدةُ الشكر عند حدوث نِعمةٍ «كولدٍ أو مال، أو قدوم غائب، أو نصر».

أفادتكم النَّعماءُ مني ثلاثة يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبَا

أو عند اندفاع نِقمة: «كنجاة من حريق أو من غرقٍ، وعند رؤية مبتلىً في دينه أو ماله»، لكن لا يُسجد أمام المُبْتَلى، لماورد عن أبي بكرةَ، أن النبي ﷺ

كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه خرَّ ساجداً، والحديث هذا غريب.

لكن المنذري قال: وجاء حديث سجدة الشكر من حديث البراء بإسناد صحيح، ومن حديث كعب بن مالك لما سمعَ البشير بقبول توبته سجد، وثبتَ أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه سجد شكراً عندما فُتحت اليمامة.

وثَبَتَ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه سجد سجدة شكر حين وجد «ذا الثَدِيَّةِ» بين الخوارج، وكان النبي ﷺ قد وصفه لهم قبل وفاته ﷺ، فكان كما وصفَ النبي ﷺ فسجد عليٌّ رضي الله عنه، شكراً لله على أنَّ الحقَّ معه.

وعند المالكية: تُشرعُ صلاة الشكر، لا سجود شكر، لما ورد أنه ﷺ صلى ركعتين شكراً لله تعالى عند مقتل أبي جهل.

وهل يُشترط لسجود الشكر شروط؟

والجواب: نعم، يُشترط لسجود الشكر ما يشترطُ لسجود التلاوة.

عند الجمهور: الطهارتان، وستر العورة، واستقبال القبلة، والنية، والصحيح أنه لا يُشترط لها إلا التكبير عند النزول وهي كسجدةِ التلاوة.

واحتج المالكية بأنها من عزائم السجود بحديث رواه البخاري عن مجاهد قال: سألتُ ابن عباس عن السجدة في «ص» فقال: أوما تقرأُ قوله تعالى: [الأنعام ٨٤] ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[الأنعام ٩٠].

فكان داوود ممن أُمِرَ نبيكم أن يقتديَ به، فسجدها داوود وسجدها رسول الله ﷺ، ولذلك كانت عند مالك من عزائم السجود.

والتحقيق: أنه ثبتَ أنَّ النبي ﷺ سجد فيها فنسجُدها اقتداءً به ﷺ،

سواءً كانت سجدةَ شكر أو سجدة تلاوة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص]، الزلفى: القُربى، وحُسْنَ المآب: أي حُسنَ الكرامة من الله يوم الجزاء.

وهذا كلامٌ يُمدح به من قدَّمَ الكثير من الطاعات، وتحمَّلَ الكثير من الشدائد في سبيل الله، ولذلك ورد عن مالك بن دينار قوله: إذا كان يوم القيامة، أُتِيَ بمنبر رفيع يوضع في الجنة، ويُقال: «يا داوود: مَجِّدْني بذلك الصوتِ الحسن الرخيم الذي كنت تُمَجّدني به في الدنيا، قال: فيندفعُ داوود بصوتٍ يستغرقُ نعيمَ أهل الجنة».

وجاء في بعض الآثار: أن الله أوحى إلى داوود: يا داوود: قُلْ للعاصين أن يُسمعوني ضجيجَ أصواتهم، إني أحبُّ أن أسمعَ ضجيج العاصين إذا تابوا إليَّ.

يا داوود: لن يتضرع المتضرعون إلى مَنْ هو أكرم مني ولا يَسأل السائلون أعظم مني جُوداً، وما من عبدٍ يُطيعني إلا وأنا مُعطيه قبل أن يسألني، ومُستجيب له قبل أن يدعوَني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

قال العلماء: ثم يأتي أقوى الأدلة على فساد ما نسبه اليهود إلى داوود من مخالفة، وهو قوله تعالى بعد ذِكر القصة: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

والخليفة: هو الذي يخلفُ غيره في عملٍ من الأعمال.

والمعنى: جعلناكَ يا داوود تخلُفُ مَنْ تقدَّمك من الأنبياء، فأنتَ خليفةٌ عن موسى، وعن علماء بني إسرائيل في الدعوة إلى الله تعالى.

وكذلك أنت خليفةٌ عن المَلك «طالوت» في تدبير شؤون الناس ومصالحهم.

وقوله: ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: المقصود به: أرض بني إسرائيل، وهي الأرض المعهودة، أو أغلب أرض الدنيا، لأنه كان أعظمَ ملوك الدنيا حينها.

قال ابن عطية: ولا يُقال: خليفةُ الله، إلا لرسوله ﷺ.

وأما الخلفاءُ: فكل واحد منهم خليفةُ الذي قبله، ألا ترى إلى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، كيف بَيَّنوا هذا المعنى، فقالوا لأبي بكر الصديق: يا خليفةَ رسول الله، ودُعِيَ بذلك مُدَّة حياته، فلما تولى عمر قالوا: يا خليفةَ خليفةَ رسول الله ﷺ، وهذا اللفظ طويل، ثم سيطول في المستقبل أكثر بعد خلافةِ عمر ومن بعده، فدعَوا عمر عندها: أمير المؤمنين، وما يجيءُ على لسان الشعراء في أشعارهم أحياناً من تسمية أحد الخلفاء، «خليفة الله» فهو تجوُّزٌ كما ورد في شعر «ابن قيس الرّقيّات» إذ قال:

خليفة الله في بريَّتِهِ   جفّتْ بذاك الأقلامُ والكتبُ

أما قوله تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص ٢٦].

قال الغرناطي: هذا تنبيهٌ لأولياءِ الأمور وللحكام أن يحكموا بالحق وإلا، فإنَّ داوود من حيثُ عصمتُه لا يحكم إلا بالحق.

قال الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» في قوله تعالى السابق: إنَّ الله أمر نبيَّه داوود بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه عن اتباع الهوى لقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص ٢٦].

ثم قال الشنقيطي: ومعلومٌ أنَّ داوود نبي الله لا يحكم إلا بالحق لا بغيره،

ولا يتبعُ الهوى؛ لأنَّ الهوى سبيل الضلال، ولكن الله تعالى يأمرُ أنبياءه وينهاهم ليُشرِّعَ لأُممهم، ولذلك نرى أن الله تعالى خاطب محمداً ﷺ، فأمرهُ بمثل ما أمر به داوود، ونهاهُ عن مثل ما نهى عنه داوود، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة ٤٩].

فقوله تعالى محذراً نبيَّه ﷺ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الغاية منه تحذير أُمته ﷺ، وإلا فالرسول لعصمتِه مِنْ أنْ يُخالف أمرَ الله لا يحتاج إلى أمر.

وقال له في [سورة الإنسان]: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

وخاطبه في [سورة الإسراء]: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال الأمين الشنقيطي: هذا الخطاب موجَّهٌ للنبي ﷺ ليُشرّعَ لأُمته على لسانه: إخلاص التوحيد في العبادة لله عز وجل، لأنه معلوم أنَّ محمداً ﷺ لا يجعل مع الله إلهاً آخر، وأنه لا يقعُدُ مذموماً مخذولاً.

وأصرحُ دليل في هذا الباب: أي أنَّ الله تعالى يوجّهُ الخطابَ للنبي ﷺ، والمقصودُ بذلك أُمّتُهُ.

قول الله تعالى في [سورة الإسراء]: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي لا يؤذيهما ولو بكلمة أُفٍّ، ومن المعلوم أنَّ والديه ﷺ قد ماتا قبل هذا الخطاب بزمن طويل.

مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أُمه وهو صغير، فلا وجهَ لاشتراط بلوغهما الكِبَرَ بعد موتهما؛ لأنهما لن يبلغا الكِبَرَ، لأنهما ميتان، فدلت الآية على أنَّ المراد من خطاب النبي ﷺ: التشريع لغيره، والخطابُ لأُمته.

قال صاحب «أضواء البيان»: ومن أساليب اللغة العربية خطابُهُم إنساناً والمرادُ بالخطابِ غيره، وهذا أمر شائع عند العرب، ومن أمثلتهم السائرة المنتشرةِ قول الراجز «سهل بن مالك الفزاري»: «إياك أعني واسمعي يا جارة»، قالوا: وسبب هذا المثل أنَّ «سهلاً بن مالك الفزاري»، زار «حارثة ابن لأْم الطائي»، فوجده غائباً، فأنزلتْهُ أُختُ سهلٍ وأكرمتْهُ، وكانت ذكية جميلة فأَعجبتْهُ، فقال مُخاطباً امرأةً غيرها لِيُسْمِعَها:

يا أختَ خيرِ البدوِ والحضارة كيف تَريْن في فتى فَزارة
أصبحَ يَهوى حُرةً مِعْطارَة إياكِ أعني واسمَعي يا جارة

ففهمت المرأة قصده فأجابته في الحال:

إني أقول يا فتى فزارة لا أبتغي الزوجَ ولا الدَّعارة
ولا فراقَ أهلِ هذي الحارة فارحلْ إلى أهلِكَ باستحارة

والمقصود بقولها «باستحارة»: أي إرجع إلى أهلكَ الآن بالمحاورة التي وقعت بيننا، «وهي كلامك وجوابي عليه»، ولا تحصل مني غير ذلك.

وبذلك تعلمْ - يا عبد الله - أنَّ داوود لا يحكُمُ إلا بالحق، وأنه لا يتبعُ الهوى، فهو نبيٌّ معصوم، وما وردَ في خطابه إنما هو خطاب لأُمته، وإنَّ كثيراً مما وردَ في الكلام عليه إنما هو من الإسرائيليات التي لا ثقة بها، ولا مُعَوَّلَ عليها، ولم يَصِحَّ مِنَ الأخبار عن نبينا ﷺ شيء من ذلك.

وقد ورد عن ابن عباس بقوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي

ﭐلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص ٢٦].

قال: المعنى: إذا ارتفع لك الخصمان، وكان لك في أحدهما هوىً، فلا تَشْتَهِي في نفسك أن يكون الحق له ليظفر على صاحبه.

قال القرطبي: دلَّ ذلك على وجوب الحكم بالحق، وألا يميل مع أحد الخصمين لقرابةٍ أو رجاءَ نفعٍ، أو بسبب صداقةٍ أو صُحبةٍ.

وقد رويَ عن «عبد العزيز بن أبي رَوَّاد» أنه قال: بلغني أنَّ قاضياً كان في زمن بني إسرائيل، بلغَ من اجتهاده وصلاحه أنه طلبَ إلى ربه أن يجعل له عَلَماً، إذا هو قضى بالحق عرفَ ذلك، وإذا هو قصَّرَ عرفَ ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مُدَّ يدكَ في جدارك، ثم انظر حيثُ تبلغُ أصابعُكَ من الجدار فاخطُط عندها خطّاً، فإذا قُمتَ من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخط فامدُدْ يدك إليه، فإنك متى ما كنتَ على الحق فإنك ستبلُغُهُ، وإن قصَّرتَ عن الحق قصَّرَ بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد في القضاء بالحق، فإذا قام من مجلسه وفَرَغَ، لم يَذُقْ طعاماً ولا شراباً، ولم يُكلمْ أحداً من أهله بشيء حتى يأتيَ ذلك الخط، فإذا بلغه حَمِدَ الله تعالى، ثم فَعَلَ كلَّ ما يحل له من طعام وشراب وأهل.

فلما كان ذات يوم وهو في مجلس قضائه، أقبلَ شخصان إليه يُريدانِ أن يختصما إليه، وكان أحد الشخصين الخصمين صديقاً عزيزاً له، فتحركَ قلبه عليه محبَّةَ أن يكون الحقُّ له فيقضيَ له، فلما أن تكلما دار الحقُّ على صاحبه، فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهبُ كلَّ يوم، فَمَدَّ يده إلى الخط، فإذا الخط ذهب وانشمر إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه، فخرَّ ساجداً باكياً وهو يقول: يا رب: شيئاً لم أتعمدْه، ولم أُرِدْهُ فبيِّنه لي، فقيل له:

«أتحسبنَّ أنَّ الله تعالى لم يطلعْ على خيانة قلبك، حيث أحبَبْتَ أن يكون الحقُّ لصديقك لتقضي له به؟ قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردَّ الحقَّ إلى أهله وأنت كاره».

وورد عن «الليث بن سعد» قال: تقدمَ خصمان إلى عمر بن الخطاب فأقامَهما، ثم عادا فأقامَهما، ثم عادا ففصلَ بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدما إليَّ فوجدتُ لأحدهما ما لم أجدْ لصاحبه فكرهتُ أن أفصلَ بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدتُ بعضَ ذلك، ثم عادا وقد ذهبَ ذلك ففصلتُ بينهما.

قال العلماء: وكان بين عمر وأُبَيٍّ خصومةٌ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لِعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أول جورك، أجلسني وإياه مجلساً واحداً، فجلسا بين يديه.

قال الفقهاء: وهذه الآية ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص ٢٦] تدل على أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بعلمِهِ لأنَّ ذلك يفتحُ باب التسلُّطِ من الحُكام على مَنْ يكرهون.

وقد رُويَ عن جماعة من الصحابة، كان فيهم الصديق أبو بكر قال: لو رأيتُ رجلاً على حدٍّ من حدود الله ما أخذتُهُ حتى يشهدَ على ذلك غيري.

وقد رُويَ: أنَّ امرأةً جاءت إلى عمر بن الخطاب فقالت له: احكم لي على فلان بكذا، فإنك تعلم ما لي عنده؟!! فقال: «إن شئتِ - أردتِ - شهدتُ لك فنعم، وأما الحكم لا».

وفي حديث رواه أبو داوود والنسائي: أن النبي ﷺ اشترى فرساً فجحدهُ البائعُ وقال للنبي ﷺ: هَلُمَّ شاهداً يشهدُ أني قد بعتُكَ، فلم يحكم عليه النبي

ﷺ بعلمِهِ، بل قال ﷺ: «من يشهد لي؟»، قال «خزيمة بن ثابت»: أنا أشهد أنك قد بِعْتَهُ، فأقبلَ النبي ﷺ على خُزيمة فقال: «بِمَ تشهدُ؟»، قال خزيمة: أنا أشهدُ بتصديقك يا رسول الله.

قال: فجعل رسول الله ﷺ شهادة خُزيمة بشهادة رجلين.

قال الرازي: لما كان الإنسان مدنيّاً بطبعه، لا تنتظمُ أموره إلا بالاجتماع مع غيره، فهذا يحرثُ، وهذا يطحن، وهذا ينسج، وعند اجتماعهم لا بُدَّ من خصومات ومنازعات، كما لا بُدَّ من إنسانٍ قادر على الفصل في هذه الخصومات، وهذا الإنسان هو السلطان الحاكم الذي يَنْفُذُ أمره في الكل.

وهذا السلطان إن كان حكمه وَفْقَ هواه طلباً لمصلحته غَظُمَ ضرره على الخلق؛ لأنه يُضحي بالرعية فداءً لنفسه، فيُخرِّبُ العمران في الدنيا، ويهلَكُ هو في الآخرة، وأما إذا حكمَ وَفْقَ الشريعة الإلهية فإنَّ المصالح العامة تنتظم، وتتسع أبواب الخيرات على أحسن الوجوه.

ثم قال الرازي: وهذا هو المُراد من قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، فالآية تحذيرٌ للحكام من الظلم، ثم قال: ثم إنَّ متابعةَ الهوى توجب الضلال عن صراط الحق، والضلالُ يوجب العذابَ، فالمحصلةُ أنَّ متابعة الهوى تؤدي إلى سوء العذاب، ولذلك كان «سهل بن حنيف» يقول: اتهموا الرأيَ، وهذا قوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وسبيل الله: هو كل عملٍ فيه مرضاةُ الله تعالى وطاعته.

قال ابن كثير في هذه الآية: هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمورأنْ يحكموا بين الناس بالحق المُنزل، وقد توعَّد الله تعالى مَنْ ضَلَّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالعذاب الشديد فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

﴿شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص]، والنسيان هنا: هو الإعراض الشديد لأنَّ المُعرضَ عن الأمر كالناسي له، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة ٦٧].

وروى ابن أبي حاتم: أنَّ «الوليد بن عبد الملك» قال «لأبي زرعة»: أيُحاسبُ الخليفة، فإنك ممن قرأتَ الكتاب الأول، وقرأتَ القرآن وفَقُهتَ؟

فقلتُ: يا أمير المؤمنين: أقولُ؟ قال الوليد: قُلْ، وأنت آمنٌ.

قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنتَ أكرمُ على الله أم أنبياؤه؟

قال الوليد: أنبياؤه، قال: فإنَّ الله تعالى قال لداوود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص].

قال ابن الفرس: وهذه القصة دليل على جواز القضاء في المسجد.

وفاة داوود عليه السلام:

قال المؤرخون: كان داوود من أعظم ملوك بني إسرائيل، وقد جمع الله له ما بين النبوة والمُلك، وقبله كان المُلكُ في سِبطٍ، والنبوة في سِبطٍ آخر.

عاش داوود مائة عام مَلَكَ فيها أربعين سنة.

قال ابن جرير: إنَّ داوود عاش مائة سنة، وقد أخرج الإمام «أحمد بن حنبل» بإسنادٍ قوي من حديث أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «كان داوود عليه السلام فيه غيرةٌ شديدةٌ، فكان إذا خرجَ أُغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع»، قال: «فخرج ذات يوم وغُلِّقت الدار، فأقبلت امرأته تطلعُ إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار»، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لَنُفْتَضحنَّ بداوود، وجاء داوود فإذا

الرجل قائم وسط الدار، فقال له داوود: من أنت؟ فقال الرجل: «أنا الذي لا أهابُ المُلوك، ولا أُمنعُ مِنَ الحُجَّاب، فقال داوود: أنت والله ملكُ الموت مرحباً بأمر الله، ثم مكثَ حتى قُبِضَتْ روحه، فلما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنه طلعت عليه الشمس»، فقال سليمان للطير: أظلّي على داوود، فأظلّتْهُ الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحاً.

قال ابو هريرة: فطفِقَ رسول الله ﷺ يُرينا كيف فعلت الطير، وقبضَ رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذ المُضَرَّحِيّةُ[1].

وقد وردَ عن الحسن: أنَّ داوود ماتَ فجأةً.

وقال أبو السكن الهجْري: مات إبراهيم فجأةً، ومات داوود فجأةً، ومات سليمان فجأةً، صلوت الله وسلامه عليهم جميعاً.

وقال إسحق بن بشر: إنَّ الناس حضروا جنازة داوود، وجلسوا في الشمس في يوم صائفٍ، وكان في الجنازة أربعون ألف راهب سوى غيرهم من الناس، فآذاهم الحرُّ، فنادَوا سليمان أن يعمل لهم وقايةً من الحرِّ، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها أن تُظلَّ الناس، فتراصَّ بعضها إلى بعض من كل وجهٍ حتى استمسكت الريح حتى غُمّوا، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من جهة الشمس، وتنحّي من ناحية الريح ففعلت، فكان الناس في ظلٍ تهبُّ عليهم الريح، فكان ذلك أولَ ما رأوه من مُلكِ سليمان، كما روى ابن الأثير في «تاريخه».

نماذج من مخاطبة داوود لربّه تبارك وتعالى:

أخرج البيهقي وابن عساكر وابن عباس قال: إنَّ مما خاطب به داوود

---

(١) المضرحيّةُ: مفردها: مضرحيٌّ: وهو الصقر الطويل الجناح، كما قال الجوهري.

ربَّه: يا ربّ: أيُ عبادك أحبَّ إليك؟

قال: «يا داوود أحبُّ عبادي إليَّ نقيُّ القلب، نقي الكفين لا يأتي لأحدٍ بسوء، ولا يمشي بالنميمة، تزولُ الجبال ولا يزول، أحبّني وأحبَّ من يُحبني، وحَبَّبَني إلى عبادي».

قال داوود: يا رب: إنك لتعلم أني أُحبك، وأُحبُّ مَنْ يُحبُّك، فكيف أُحَبِّبُكَ إلى عبادك؟

فقال تعالى: «يا داوود: إنه ليس من عبدٍ يُعين مظلوماً أو يمشي في مَظْلمةٍ إلا أَثْبَتُّ قدميه يوم تزول الأقدامُ».

وفي بعض الآثار القدسية: أنَّ الله أوحى إلى داوود:

«يا داوود: أبلغ أهل أرضي، أنني حَبيبٌ لمن أحبَّني، وجليسٌ لمن جالسني، وصاحبٌ لمن صاحبني، ومُختارٌ لمن اختارني، ومُطيعٌ لمن أطاعني، من طلبني بالحقِّ وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني»

يا داوود: «قل لهم، لم أخلقْهم لأربحَ عليهم، وإنما خلقتُهم ليربحوا عليَّ».

وأوحى الله إليه: «يا داوود: كَذَبَ من ادَّعى محبَّتي، وإذا جَنَّ عليه الليل نام عَنّي، أليس كل مُحِبٍّ يُحب الخلوة بحبيبه؟ «

ومن الأحاديث القدسية: ما ورد عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى داوود: «يا داوود حذّرْ وأنذرْ أصحابَكَ كلَّ الشهواتِ فإنَّ القلوب المتعلقةَ بالشهواتِ محجوبةٌ عني».

وعن عليٍّ عليه السلام قال: أوحى الله إلى داوود، «يا داوود، إنَّ العبدَ ليأتي بالحسنة يوم القيامة، فأُدخله بها الجنة»، قال داووود: يا رب: ومن هذا العبد؟ قال عز وجل: «مؤمن يسعى لأخيه المؤمن في حاجةٍ يُحِبُّ قضاءها،

قُضيت على يديه أم لا» – أخرجه ابن عساكر والخطيب –.

وورد عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه قال: أوحى الله إلى داوود: «وعزتي وجلالي، ما من عبدٍ يعتصمُ بي دون خلقي أعرفُ ذلك من نيّته، فتكيدُهُ السموات والأرض بمن فيها، إلا جعلتُ له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبدٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته إلا قطعتُ أسباب السماء بين يديه».

وورد عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى داوود، «أنْ قُل للظلمةِ لا يذكروني، فإني أذكر من يذكرني، وإنَّ ذكري إياهم أن ألعنهم» – ابن عساكر والحاكم –.

وأخرج ابن عساكر والطبراني من حديث أبي ذر قال: قال داوود: يا رب، ما حقُّ عبادكَ عليكَ إذا هم زاروك، فإنَّ لكل زائر على المَزُورِ حقاً؟ فقال تعالى: «يا داوود: فإنَّ لهم عليَّ أن أُعافيهم في دنياهم، وأغفر لهم إذا لقيتُهم».

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود، قال: قال داوود: إلهي: ما جزاء من يُشَيِّعُ ميتاً إلى قبره ابتغاءَ مرضاتك؟

فقال عز وجل: «أن تُشيّعهُ ملائكتي، فتُصلّي على روحه».

قال: اللهم: ما جزاءُ من يُعزِّي حزيناً، ابتغاء مرضاتك؟

فقال عز وجل: «أُلبِسُهُ لباسَ التقوى، وأستره به من النار».

قال داوود: اللهم، ما جزاء من عالَ يتيماً أو أرملةً ابتغاء مرضاتك؟

فقال عز وجل: «أُظِلُّهُ يومَ القيامة، يوم لا ظلَّ إلا ظلي».

قال داوود: إلهي، ما جزاء من سالت دموعه على وجنتيه من مخافتك؟

فقال عز وجل: «أحميه من لفحِ جهنم، وأقيه يوم القيامة من الفزع الأكبر».

ومن وصايا داوود لولده سليمان، عليهما الصلاة والسلام:

يا بنيَّ: إياكَ والهزلَ، فإنَّ نفعهُ قليل، ولكنه يُهيجُ العداوة بن الإخوان، وإياكَ والغضب، فإنَّ الغضبَ يستخِفُّ بصاحبِهِ.

وعليك بالتقوى والطاعة لله عز وجل، فإنهما يغلبان كل شي، واقطع طمَعك من الناس فإنَّ ذلك في الغنى، واعلم: أنَّ الطمعَ هو الفقر الحاضر.

وإياك وما يُعتذَرُ منه من القول أو الفعل، وعَوِّدْ لسانك قول الصدق.

والزم الإحسان في قولك وفعلك، وكن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.

وانظر ما تَكرهُ أنْ يُذكرَ عنك في نادي القوم، فلا تفعلْه إذا خلوتَ.

ولا تَعِدَنَّ أخاكَ بما لا تُنجزه له، فإنَّ ذلك عداوة من بينك وبينه.

وإن استطعت أن يكون يومُك خيراً من أَمْسِكَ فافعلْ، وصلِّ صلاة مودّعٍ.

واحذر يا بني: مُجالسة السفهاء، ولا تَرُدَّ على عالمٍ، ولا تُمارِ في الدين.

وإذا غضبتَ فألصق نفسك في الأرض، وتَحَوَّلْ من مكانك وارجُ رحمة الله فإنها وسعت كلَّ شيء.

وورد بسند غريب مرفوعاً أنَّ داوود قال: يا زارعَ السيئآت أنت تحصدُ شوكَها وحَسَكَها.

وقد ذكر عبد الله بن المبارك في كتاب «الزهد»: أنَّ في حكمة آل داوود: حَقٌّ على العاقل ألا يغفلَ عن أربع ساعات:

ساعةٌ يُناجي فيها ربه، وساعةٌ يُحاسب فيها نفسه، وساعة يُفضي بها إلى إخوانه يخبرونه بعيوبه ويُصْدِقونه عن نفسه، وساعة يُخَلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلُّ ويَجْمُلُ، فإنَّ هذه الساعةَ عونٌ على هذه الساعات، وإجمامٌ للقلوب.

وحقٌّ على العاقل: أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه، ويُقبل على شأنه.

وحقٌّ على العاقل ألا يُظعنَ إلا في إحدى ثلاث:

- زادٌ لمعاده.
- ومَرَمَّةٌ لمعاشه.
- ولذةٌ في غير مُحَرَّمٍ.

وأخرج الحافظ ابن عساكر في «تاريخه»: أنَّ رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال ابن عباس: لأُحدِّثنكَ حديثاً كان عندي في البحثِ مخزوناً، إن شئت أنبأتُكَ بصوم داوود، فإنه كان صَوَّاماً قوَّاماً، وكان شُجاعاً لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلتُ يا رسول الله: إني أسردُ الصومَ، أفأصوم الدهر؟ فقال ﷺ: «لا»، قلتُ: أفأصومُ يومين وأُفطرُ يوماً؟ فقال ﷺ: «لا» قال عبد الله: فجعلتُ أُناقصه حتى قال لي: «صُم صومَ داوود فإنه كان يُفطر يوماً ويصوم يوماً».

وعنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: أنه ﷺ قال: «خيرُ الصيام صيام داوود، كان يصوم نصف الدهر، وخير الصلاة صلاة داوود، كان يرقد نصف الليل الأول، ويُصلي آخر الليل حتى إذا بقيَ سُدُسُ الليل

رَقَدَهُ».

وعنه أيضاً - أي عبد الله بن عمرو بن العاص - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله بن عمرو: إنك إنْ تصوم الدهر، وتقوم الليل، إنك إن فعلت ذلك هاجت له العين، ونَقِهَتْ له النفس، لا صامَ من صامَ الأبدَ، صومُ ثلاثةِ أيامِ من كل شهر، صومُ الدهر كُلِّهِ»، فقلت: يا رسول الله إني أُطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ: «صُم صومَ داوود، كان يصوم يوماً ويُفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى».

وفي بعض ألفاظ الحديث: «صم يوماً وأفطر يوماً، فإنه أعدل الصيام عند الله».

وورد عن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان داوود النبي يصوم يوماً ويفطر يوماً، يجعلُ يومين، يوماً لقضائه، ويوماً لنسائه.

وروى الحافظ ابن عساكر في «تاريخه»: أنَّ رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام، فذكر له صيام داوود وأنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

ثم قال ابن عباس: وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام صيام داوود».

ثم تابعَ ابن عباس كلامه فقال: وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يُكوِّن فيها - يُحدث أنغاماً ويتحرك فيها -.

قال ابن عساكر: ومعنى السبعين صوتاً، الُمراد بها هذه الأنغامُ المتفرعةُ إلى هذا العدد، ويكونُ المعنى: أنَّ صوته كان قابلاً لجميع الأنغامِ أُصولها وفروعها، فكان يؤديها بدون كُلفة، والله أعلم.

ثم تابع ابن عباس قوله، فقال: وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه، ويُبكي ببكائه كل شي، ويصرفُ بصوته المهموم والمحمومَ.

وذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: أنَّ داوود أمسى صائماً، فلما كان عند إفطاره أُتيَ له بهدية من لبن، فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: من شاتنا، فقال: ومن أين الثمن؟ قالوا: اشترينا من مالنا حلالاً فلِمَ تسأل؟ فقال عليه السلام: «إننا معاشر الرُّسُل أُمرنا أنْ نأكلَ من الطيبات ونعملَ صالحاً»، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون].

المعنى: أننا قلنا لكل رسول مضى «كُلْ من الطيبات» وهذه الطريقة تُسمى التوزيعَ، وهي شائعةٌ في خطاب الجماعات، ومنه: «ركبَ القومُ دوابَّهُم»، وهذا ما حصل مثله لرسول الله ﷺ، فقد رويَ أنَّ أم عبد الله أخت «شداد بن أوس» بعثت بقدحِ لبن عند فِطْره وهو صائم، فردَّ النبي ﷺ رسولها: «من أين لك هذا اللبن؟»، قالت: من شاة لنا، فردَّ إليها رسولها: «من أين لك هذه الشاة؟»، قالت: اشتريتُها بمالٍ لي، فأخذه، فأتت أم عبد الله في اليوم الثاني: يا رسو ل الله رددتَ عليَّ..

فقال ﷺ: «بذلك أُمِرتِ الرسل، ألا نأكل إلا طيباً، وألا نعمل إلا صالحاً» رواه الطبراني وفيه رجل ضعيف وهو ابن أبي مريم.

قال المؤرخون: توفي داوود في بيت المقدس سنة «١٠١٥» قبل الميلاد كما روى ابن عاشور.

سليمان

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم
سليمان عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله ذي النِّعم الظاهرة، والحِكَم الباهرة، والعقوبات الزاجرة، خلقَ الخلائق ثم عادَ عليها بالفناء، فإذا هي في البلاء متناثرة، ثم يجمعهم بنفخة الصور إلى الدار الآخرة، فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة.

نحمده سبحانه وتعالى على نعمه الفاخرة، ونصلي ونسلم على محمد عبده ورسوله صلاةً إلى صلاة إلى عاشرة، وعلى آله وأصحابه أهل الصلاح والهِمم الباهرة.

قال المفسرون: ورث سليمان نبوة أبيه ومُلكه، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل ١٦].

قال ابن العربي صاحب «أحكام القرآن» المتوفى سنة ٥٤٣ هـ: المراد بالإرث هنا، نزولُ سليمان منزلة أبيه في النبوة والمُلك.

وقال ابن عاشور: المعنى: قامَ مقامه، في كونه أعطاه الله النبوة والحكمة، كما قامَ مقامه في سياسة الأمة، والسُّمعة الطيبة العظيمة في بني إسرائيل - لأنَّ الموتَ لا يكون سبباً لنبوة الولد - فتعيَّن أنَّ إرثَ المال غير مقصود، ولو كان في الأمر وراثة مال لانقسمَ على أولاده جميعاً، وكانوا تسعة عشر ولداً ذكراً وأنثى، فخُصَّ سليمان بالذِّكر: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ بما كان لداوود، وزادَهُ من فضله مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، كما كان أقضى من داوود، وداوود أشدُّ تعبداً منه.

قال ابن عطية: داوود من بني إسرائيل، وكان ملكاً، وورث سليمان

مُلكه ومنزلته من النبوة، وسُمِّيَ ذلك الأمر ميراثاً تجَوُّزاً، كما قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

قال العلماء: فليس في الآية دليلٌ على جواز أنْ يورَثَ مالُ النبي بعد وفاته، وثبت عن نبينا محمد ﷺ قوله: «لا نورَثُ ما تركنا صدقة»، والمُراد من الضمير في الفعل «نورث»: جماعةُ الأنبياء.

وقد شاع على ألسنة أهل العلم هذا الحديث بغير هذا اللفظ، وهو: «إنا – أو – نحن معاشر الأنبياء لا نُورث».

قال ابن عاشور: ولا يُعرف الحديث بهذا اللفظِ؛ لأنه وقع في كلامِ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مع العباس وعلي رضي الله تعالى عنهما في شأن صدقة النبي ﷺ، قال عمر للعباس وعلي: أنشدكما الله هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، يريد رسول الله ﷺ نفسه.

وقد أجمع الخلفاء الراشدون وغيرهم على ذلك، خلافاً للعباس وعلي، ثم رجعا رضي الله تعالى عنهما حين حاجَّهما عمر.

ولئن قال قائل: لماذا الأنبياءُ لا يرثهم أحد بعد وفاتهم؟

والجواب: إن ذلك سَدُّ ذريعةِ حضور تمني موتِ النبي في نفس بعض ورثته.

استخلاف داوود لسليمان:

أخرج الحافظ «ابن عساكر» عن أبي هريرة قال: نزل كتابٌ من السماء إلى داوود مختوماً، فيه عشرُ مسائل، وفي رواية أُخرى رواها صاحب كتاب «حياة الأنبياء»، أوصَلَ الأسئلة إلى بضعة عشرَ سؤالاً، وكان فحوى الكتاب: يا داوود، سَلْ ابنك سليمان عنها، فإن هو أخرجهن فإنه الخليفة من بعدك.

قال: فدعا داوود سليمان، ودعا سبعين قِسّاً، وسبعين حَبْراً، وأجلسَ سليمان بين أيديهم وقال له: يا بني: إن الله أنزل كتاباً من السماء فيه كذا وكذا مسألةً – كذا: كاف حرف تشبيه، وذا اسم إشارة، يُكنى بها عن العدد–، وأُمرتُ أن أسألكَهُنَّ، فإن أنت أخرجْتَهُنَّ، فأنت الخليفةُ بعدي، فقال سليمان: ليسألْني نبي الله عما بدا له، وما توفيقي إلا بالله.

قال داوود: أخبرني يا بني: ما أقربُ الأشياء؟ وما أبعدها؟

وما آنسُ الأشياء؟ وما أوحشُها؟

وما أقلُّ الأشياء؟ وما أكثرُها؟

وما أحسنُ الأشياء؟ وما أقبحُها؟

وما القائمان؟ وما المختلفان؟

وما المُتباغضان؟ وما الساعيان؟

وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حُمِدَ آخره؟

وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذُمَّ آخره؟

فأجاب سليمان عليه الصلاة والسلام، قائلاً لوالده: يا نبي الله:

أما أقربُ الأشياء فالآخرة، وأما أبعدُها فما فاتكَ من الدنيا.

وأما آنسُ الأشياء: فجسدٌ فيه روح، وأما أوحش الأشياء: فجسدٌ لا روح فيه.

وأما أقل الأشياء فاليقين، وأما أكثروها فالشكُ.

وأما أحسن الأشياء: فالإيمان بعد الكفر، وأما أقبح الأشياء: فالكفر بعد الإيمان.

وأما القائمان: فالسماء والأرض، وأما المُختلفان: فالليلُ والنهار.

وأما المُتباغضان: فالموت والحياة، وأما الساعيان: فالشمسُ والقمر.

وأما الأمر الذي إذا ركبه الإنسان حُمِدَ آخرة: فالحلمُ عندَ الغضب.

وأما الأمر الذي إذا ركبه الإنسان ذُمَّ آخرة: فالحِدَّةُ عند الغضب.

قال المؤرخون: ففلّوا الخاتَمَ عن أجوبةِ الرسالة النازلةِ على داوود، فإذا هو – الجواب – بالمسائل سواءٌ على ما نزل من السماء.

فقال الأحبار والرهبان: نريد أن نسأله مسألة أُخرى، فإن أجابَ فهو الخليفة من بعدك.

فقال سليمان: سَلُوني: وما توفيقي إلا بالله.

قالوا: ما الشيء الذي اذا صَلَحَ صلحَ كل شيء منه، وإذا فسد فسدَ كل شيء منه؟

فقال سليمان عليه السلام: هو القلب، إذا صَلَحَ صلحَ كل شيء منه، وإذا فَسَدَ فسدَ كل شيء منه.

فقال الأحبار والرهبان: صدقتَ، فدفع إليه داوود قضية المُلك، وكانت وفاة داوود بتقدير الله تعالى في اليوم التالي.

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: وَرِثَ سليمان عِلْمَ أبيه، وزاده الله فهماً في قضايا الفصل في القضاء: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء ٧٩].

لذلك قال مقاتل: كان سليمان أقضى من داوود، وكان داوود أشدَّ تعبُّداً من سليمان.

وقال: الأنبياء أكملُ البشر عقولاً، وبعضهم أكملُ من بعض، وسليمان

من هؤلاء الأنبياء تظهرُ عليه أماراتُ العقل والحكمة من صغره واستبانت عبقريته في القضاء منذ فُتُوَّتِه، فكان أقضى من والده داوود.

قال ابن عساكر في رواية وردت عن ابن عباس قال: وُلِدَ لداوودَ سليمان غلاماً نقياً طاهراً، فَهِماً عاقلاً عالماً، وكان من أجمل الناس وأعظمِهِم وأطولهم.

وبلغَ من المنزلة عند أبيه داوود؛ أنه كان يُشاوره في أموره ويُدخله في حُكمه عند القضاء، ثم قال ابن عباس: وكان أول ما عرفَ داوود من حكمة سليمان، ومن ظهور أمارات النبوة فيه.

أنَّ امرأة ذات جمال جاءت إلى القاضي في قضية خصومة بينها وبين أحد من الناس، فنظر القاضي إليها فأعجبته، فأرسل بعض أهله لخطبتها، فأبت وقالت: أنا عن الزواج بعيدةٌ، وعن الحرام والقبيح أبعدُ.

ثم رفعت أمرها إلى صاحب الشرطة لحلِّ خصومتها، فجرى لها مع صاحب الشرطة مثل ما جرى لها مع القاضي.

فانقَلَبَتْ إلى صاحب السوق «المحتسب»، فكان منه مثلُ ذلك، فرفعت الأمر إلى حاجبٍ كان على باب داوود، - وقد قلنا في السابق أن سليمان كان يجلس على الباب الذي يخرج منه المتخاصمين - عند قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [الأنبياء].

وسمع سليمان الشكوى حين قصَّتها المرأة على حاجب داوود، وكان الحاجب مثل الثلاثة الذين سبقوه، خطبها للزواج، فرفضت وآثرت ترك حقِّها، ولزمت بيتها.

قال ابن عساكر ناقلاً عن ابن عباس: وكان أحد هؤلاء الأربعة حقوداً،

وشاء الله أن يجتمع هؤلاء الأربعة في مكان واحد، يتحدَّثون، ثم جاء ذكرُ الزواج فذُكرت المرأة، وذَكروا ما لاقوا من رفضها.

فقال الحقود: ما يَمنعُكم وأنتم أهلُ الأمر أن تتلطفوا بها حتى تستريحوا منها، - يعني بذلك تدبير حيلة للقضاء عليها - فتفتَّقَ مكرُهم - واليهود أهل مكر وخداع - على أن يشهدوا عند داوود على أنَّ لهذه المرأة كلباً، وأنها تُرسِلُهُ على نفسها فينال منها ما ينالُ الرجل من أهله.

فدخلوا على داوود، وقالوا: إن هناك امرأةً تُسَمّن كلبها وتُرسلهُ على نفسها فيفعلُ بها ما يفعلُ الرجل بأهله، وقد كرهنا أن نرفعَ الأمر إليك حتى تَحقَّقنا منه، ورأينا ذلك بأعيننا، فبعثَ داوود إليها، وسُجنت لتنفيذ حكم الرجم فيها بعد أن حكمَ القاضي بذلك، وادَّعى أنه شاهدَ ومَنْ معه الأمر عياناً.

وكان سليمان فتى شهد الواقعة، فقام بتمثيلية: جمع عِدَةً من الصبيان، فجعل منهم صبياً قاضياً، وجعل من الثاني مسؤول الشرطة، وجعل ثالثاً مسؤول السوق، وآخر حاجباً، وأتى بصبيٍّ وسيم أعطاه دور المرآة، ثم استدعاهم للشهادة عنده - عند سليمان - كهيئة ما شهدَ الأربعة عند داوود، وقرروا رجمَ الصبي الذي أعطوه دور المرأة المُتهمة.

قال سليمان عندما تمت الشهادة من الأربعة الممثلين فرقوا بينهم: ثم دعا بالصبي الذي أعطاه دور القاضي وقال له سليمان: أتقنْتَ الشهادة؟ قال الصبي الآخذ لدور القاضي: نعم، قال سليمان: فما لون الكلب الذي رأيته وثبتَ عندك؟ قال: أسود، فقال سليمان نَحُّوهُ.

ثم أتى بالصبي الثاني المُمَثل لدور رئيس الشرطة، فقال له سليمان: أتقنْتَ الشهادة؟ قال: نعم، قال له سليمان: فما لون الكلب الذي ثبتَ عندك؟ قال:

أبيض، قال سليمان: نحُّوه.

ثم دعا بالصبي الذي مثّل دور الحاجب، فقال له سليمان: أتقنْتَ الشهادة؟ قال: نعم، قال سليمان: فما لون الكلب؟ قال: أغبش، قال سليمان: نحُّوه.

ثم أتى بالصبي الذي مثَّل دور صاحب السوق، فسأله سليمان: أتقنْتَ الشهادة؟ قال: نعم، قال سليمان: ما لون الكلب الذي ثبتَ عندك؟ قال: أحمر، فقال سليمان: نحُّوه.

ثم جمعهم سليمان للصبيان الأربعة وقال لهم: وَيْلَكُم أردتم أن تَغْشُوني حتى أرجمَ امرأةً من المسلمين، ثم قال لجماعة الصبيان حوله: ارجُموهم، وترك الصبي الآخذ لدور المرأة.

قال المؤرخون: وكان قد قام بهذه التمثيلية أمام الناس، فدخلوا على داوود وأخبروه بذلك، فقال داوود: عليَّ بالشهود الساعة واحداً واحداً، فأُتي بهم وبدأ بسؤال القاضي: ما لون الكلب؟ قال: أسود، ثم أتى بصاحب الشرطة وسأله، فقال: أبيض، ثم بصاحب السوق، فقال: أحمر، ثم أتى بالحاجب وسأله، فقال: كان أغبش، فأمر داوود بقتلهم مكان المرأة.

فكان هذا أول ما استبانَ لداوود من فهم سليمان عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وقد اخرج الحافظ و الخطيب عن ابن عباس قال: كان داوود يستخلفُ سليمان في حياته لما أبصَرَ فهمه، ونفاذَ بصيرته في الحكم، وقد جعله الله فهِماً.

وفي يوم كان داوود جالساً مع عظماء بني إسرائيل من الأحبار والرهبان فالتفت داوود إلى سليمان وسأله: يا بني ما العقل؟

فقال سليمان: يا أبه: ما ارتدى العبدُ برداءٍ أجمل من العقل، إنْ اعوجَّ

أقامه، وإن عَثَر رفعه، وإن افتقر أغناه، وإن جاع أشبعه، وإن ظَمِئَ أرواه، وإن غوى أرشده، وإن تكلَّم صدقَه، وإن انكشف سترهُ، وإن أقام بين ظهراني قومٍ سُرّوا به، وإن شهد شهادةً قبلوها، وإن غاب عنهم أسِفُوا عليه، وإن سكت، قالوا: لبيبٌ، وإن بسطَ يده قالوا: جوادٌ، وإن قبضها قالوا: مُقتَصِدٌ، فالعقلُ رأس الإيمان، ووسط الإيمان، وآخر الإيمان، به يصل العبد إلى الجنة، وبه يتفاضل أهل الدنيا في دنياهم، وأهل الجنة في درجاتهم؛ لأنَّ العاقل إذا أخطأ رجع، والعقل يَرُدُّ صاحبَه إلى أحسن العواقب، وصاحبُ العقل لا يكون عَجُولاً، ولا جَهولاً، ولا يَستخفُّه الفرح، ولا يغلبه هواه، فعجب داوود من حكمته واستخلفه.

قال عبد الله بن سلام: لم يبعث الله رسولاً إلى قومه حتى يجده أرجَحَهم عقلاً.

قال صاحب «دائرة معارف القرن العشرين» - فريد وجدي -: سليمان: هو الذي بنى بيت المقدس على ما أَسَّسَه أبوه داوود.

وقال أصحاب «دائرة المعارف الإسلامية»: سليمان يُعرف عند أهل الكتاب: «سلومون».

قال المؤرخون: كان ثمَّةَ أربعة من حكام العالم العظام:

إثنان كافران: النمرود وبختنصر.

وإثنان مؤمنان: الإسكندر «ذو القرنين»، وسليمان.

وكان سليمان أكثر هؤلاء تألُّقاً.

وكانت توليتُهُ للمُلك سنة «١٠١٤» قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

ومن تألُّقه فَهمُ سليمان وعلمهُ، وتألقه في شؤون القضاء.

ويروي أهل الكتاب قصة تدل على فهمه وتألقه، وهذه القصة لها شاهد يؤيدها في «صحيح البخاري» مع اختلاف بسيط سنذكره.

ونبدأ بالقصة التي رواها أهل الكتاب عن سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

ورد عن أهل الكتاب: أنَّ امرأتين زانيتين اختصمتا في رضيع، كلٌّ منهما تزعم أنَّ هذا الرضيع ولدها، فبماذا حَكَمَ سليمان؟

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: تقدمت المرأة الأولى فقالت: أنا وهذه المرأة ساكنتان في بيت واحد، وقد وَلَدْتُ معها في البيت، وفي اليوم الثالث من ولادتي وَلَدَتْ هذه المرأة أيضاً، وكنا معاً، ولم يكن معنا غريبٌ في البيت، فماتَ ابن هذه في الليل؛ لأنها اضطجعت عليه، فقامت وسط الليل، وأخذت ابني من جانبي وأَمَتُكَ - أيها الملك - نائمةٌ، وأضجعتهُ في حضنها، وأضجعت ابنها الميت في حضني.

فلما قمت من الصباح لأُرضع ولدي - يا سيدي - إذا هو ميت، ولما تأملتُهُ، إذا هو ليس ابني الذي ولدتُهُ !!

فقالت المرأة الأُخرى: كلا يا سيدي، بل ابني الحيُّ، وابنُها الميت، فردت الأولى وقالت: كلا، إنه ولدي وتكلمتا أمام الملك.

فقال الملك: هذه تقول: الحيُّ ولدي، والأُخرى تقول: الحيُّ ولدي، إيتوني بسيفٍ، فأتوه به، فقال: اشطروا الولد الحيَّ إلى شطرين، وأعطوا نصفاً لهذه، ونصفاً لهذه؟!!

فتكلمت المرأة التي هو ابنُها حقيقةً، وحيث اضطرمت أحشاؤها على ولدها وقالت: استمع يا سيدي، أعطوها الولدَ الحيَّ ولا تُميتوه، وقالت

الأُخرى: لا، لا يكون لي ولا لك اشطروه، عندها قال الملك: «أعطوا هذه الولدَ الحيَّ فإنها أمُّه»، هكذا جاءت القصة عند أهل الكتاب.

أما عند البخاري فقد جاءت القصة مختصرة، وإليك النص من حديث أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فجعل الفراشُ، وهذه الدواب تقع في النار..».

وقال ﷺ: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتُها: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داوود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داوود، فأخبرتاه فقال: إئتوني بالسكين أشقُّهُ بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى».

قال أبو هريرة: والله ما سمعت بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المديةُ.

قال العلماء: وكون داوود قضى للكبرى، لأنَّ الولدَ كان في يدها، وعجزت الأُخرى عن إقامة البينة، ووضعُ اليد دليل في الظاهر على المُلكِ حتى تقوم البينةُ على عكس ذلك.

وسليمان لم يعزم على شقِّ الطفل، وإنما أراد استكشاف الأمر، فحصَلَ مقصودُهُ لذلك لما رأى جَزَعَ الصُغرى الدالَّ على عظيم الشفقة.

قال ابن الجوزي: استنبطَ سليمان لما رأى الأمر مُحتملاً فأجادَ، وكلاهما – أي داوود وسليمان – حكم بالاجتهاد، حيث لا نصَّ؛ لأنه لو وجد نصٌّ لما جازَ لسليمان أن يحكم بخلافه.

قال صاحب «حياة سليمان»: هذا الحديث دليل من دلائل نبوة النبي محمد ﷺ، فمثل هذا التفصيل في الحديث لا يكون إلا عن وحي ممن يعلم

السرَّ وأخفى.

انظر إلى الدقة في الحديث، هذه الدقة لا تصدر إلا ممن رأى الواقعة، وهو قوله ﷺ: «فقضى للصغرى»، إنه ﷺ يُحدِّدُ المرأة التي خافت على الولد أن يُقطع، إنها الصغرى.

ثم قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: لقد ثبتت هذه القصة عن سليمان في «صحيح البخاري»، وكما ظهرت إشعاعاتُ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ في قضية الحَرْثِ والغنم، تظهر كذلك هنا هذه الإشعاعات في هذه القصة.

وقد ذكر ابن عساكر عن عمرو بن وهب قال: بلغني أنَّ داوود قال: إلهي كُنْ لسليمان كما كنت لي، فأوحى الله إليه: «أن قل لسليمان يكون لي كما كنتَ لي، أكونُ له كما كنتُ لك».

نِعَم الله عز وجل على سليمان:

قال العلماء: إن الله عز وجل مَنَحَ سليمان نِعماً كثيرة مَنَّ بها عليه، من ذلك:

أولاً: إيتاء علوم الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل].

وهذه الآية دليلٌ على فضل العلم، وأنه من جلائل النِعم، وفواضل المِنح يستدعي إحداث الشكر.

وفي الآية دليل وإشارة إلى أن داوود وسليمان كانا شاكرين لهذه النعمة - أي نِعمة العلم -، فصار تقدير الكلام:

لقد آتينا سليمان وداوود علماً، فعملا به وعلَّماهُ، وعرفا حقَّ النِعمةِ فيه

وقالا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل].

وهذا القول: هو من باب الشكر والمَحْمَدَةِ، لا من قبيل الفخر.

كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدم ولا فخرَ»، أي: أقول هذا القولَ شكراً، ولا أقوله فخراً.

قال الرازي: وإنما يُحمد موقعُ شكر اللسان ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، إذا كان مسبوقاً بعمل القلب، وبعمل الجوارح، بالعزم على فعل الطاعات، وترك المخالفات، ثم العمل بالطاعات والقيام بها ولذلك صار المعنى: آتينا داوود وسليمان علماً، فعملا به، قلباً وقالباً، وقالا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل].

ثانياً: إصابتُهُ للحكم في صباه، وقد ذكرنا أمثلة على ذلك.

ثالثاً: ما قصَّهُ الله علينا في [سورة النمل]: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ.. ﴾.

قال ابن العربي: جعل الله لسليمان معجزةَ فهمِ كلامِ الطير والبهائم والحشرات، وإنما خصَّ الطير لأجل أن يسوق قصة الهدهد بعدها، ألا نرى أنه ذكر قصة النمل معها، والنمل ليست من الطير.

قال ابن عاشور: هذه المقالة قالها سليمان في مجمعٍ عظيم؛ لأنَّ لهجةَ الكلام لهجةٌ خطابيةٌ في مجمعٍ فيه من الخاصة والعامة، وإنما قال سليمان ذلك: لإظهار نِعَمِ الله عليه والتحدثِ بها، ولدعوة الناس للتصديق بهذه المعجزات الباهرات، وليقدر الناسُ قَدْرَهُ، ويعلموا وجوبَ طاعته حيث اصطفاه الله،

وتتضمن الشكر لله الذي منحه العلم والمُلك.

قال البقليُّ: أخبر سليمان الخلقَ بما وهبه الله تعالى؛ لأنَّ المُتمكن يجوز له أن يُخبر الخلقَ بما عنده من موهبةِ الله؛ لزيادة إيمان المؤمنين، ولإقامة الحجة على المُنكرين.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وهذا العلم أُوتيه سليمان عن طريق الوحي بأنْ أطلعه الله تعالى على ما في تقاطيعِ وتخاليفِ صغير الطيور، أو نَعِيقها من دلالةٍ على ما في إدراكها وإرادتها.

نقول هذا؛ لأنَّ بعض علماء الحيوان يجتهد في إدراك شيء من لغاتها، ووسائل التفاهم بينها - بين هذه الحيوانات - عن طريق الحَدْسِ والظنِّ والتخمين، لا على سبيل الجَزْمِ واليقين.

أما ما وهبه الله لسليمان فكان شأناً آخر خاصاً على طريق خرقِ العادة، والتي تُخالف مفاهيم البشر.

وإنه لمن اليسير على الله أن يُعلِّمَ عبداً من عباده لغة الطير والحيوانات هبةً لدنيّةً منه عز وجل بلا محاولةٍ ولا اجتهاد، وهذه الهبة هي إزالة حواجز النوع التي أقامها بين الأنواع وهو - عز وجل - خالق الأنواع جميعاً.

نقول هذا، لأنَّ بعض أصحاب المدرسة العقلية أراد إخراج هذه المُعجزة عن طبيعتها، وقال: إن هذا الأمر نَتَجَ عن إلْفِ سليمان لها، واختلاطه بها.

قال العلماء: والاقتصارُ على كلمة: ﴿ مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ إيجازٌ؛ لأنه إذا عَلِمَ سليمان منطقَ الطير وهي أبعد الحيوان عن الركونِ للإنسان وأسرعها نفوراً منه، عُلِمَ أنَّ منطقَ ما هو أكثرُ اختلاطاً بالإنسان حاصلٌ له بالأحرى، كما يدل عليه قوله تعالى فيما يتعلق بالنملة: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾، فتدل

الآية: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: على أنه عُلِّمَ منطقَ كلِّ صنفٍ من أصناف الحيوان، وهذا العلم سماه العرب «علم الحُكْل»: قال العجاج: أو رؤبة ولده:

لـو أنني أُوتيْـتُ عِلْـمَ الحِكْلِ عِلْـمِ سُـليمانَ كلامَ النَّمْـلِ
أو أنني عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْـلِ[1] أو عُمْـرَ نـوحٍ زَمَـنَ الفِطَحْـلِ
كنت رهينَ هَرِمٍ أو قتلِ

واستعمالُ كلمة ﴿مَنطِقَ﴾، لتدلّك على أنه شبهها بمنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير.

وحقيقة المنطق، الصوت المُشتمل على حروفٍ تدل على معانٍ، أو هو مجرد الصوت، كما قال القائل:

لم يمنع الشُّربَ منها غير أنْ نطقتْ حمامةٌ[2] في سَحوقٍ[3] ذاتِ أوقالِ[4]

قال صاحب كتاب «قصص الأنبياء» النجار: قال: إنَّ الذين يُراقبون الحيوانات والطيور، يجدون أنَّ أصواتها تختلف باختلاف حاجاتها ومطالبها، فَمُواءُ الهِرَّة المحبوسة غير موائها عند طلب الطعام أو الماء، وكلاهما يختلف عن صوتها عند طلب التزاوج، فلكل صوت كيفية ونبرة ليست في الصوت الأول، يفهمه عنها أبناء جنسها.

وقد ذكر الشيخ «أحمد عمر السكندري»: أنَّ أطفالاً ألقوا في بيته حدأةً

(١) الحِسل: ولد الضب ويُسمى السحل، يعيش مائة سنة، ثم يسقط سنه فيُسمى بعد سقوط السن ضباً.
(٢) وفي رواية: هتفت حمامة
(٣) السحوق: ما طال من شجر الدوم، ويُقال له: شجر المُقل.
(٤) الأوقال: مفردها وَقْل، وهو الثمر من الدوم.

بعد أن لعبوا بها وأتعبوها، فألقاها أولاده فوق السطح، فكان يصدر عنها صوت خاص كلما رأت الحدأ، فكنَّ يَحُمْنَ عليها، وفي كل يوم يُلقينَ إليها بعض الطعام من قطع عظام بهن شيء من بقايا اللحم، وأرجل دجاج ونحوه مما يرزقهن الله.

قال: وكان أولادي يقدمون لها الماء وبعض الطعام إلى أن شُفيت فطارت.

وقد نشرت جريدة الأهرم في عددها الصادر يوم الأحد في الرابع من شباط سنة ١٩٣٧ م الكلمة التالية: «كشف عالم ألماني - بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل - أثراً لم ينتبه إليه أحد قبله وهو: أنَّ الطيور لا تصدح، ولكنها تتكلم، ولها لهجات خاصة مثل البشر، ثم قال: ومثال ذلك: أنَّ الشحرور النمساوي لا يفهم لهجة الشحرور البلغاري، والشحرور الفرنساوي لا يفهم لهجة الشحرور الإنجليزي كذلك».

قال العلماء: والآن، ومع تقدم العلم، يتحدث العلماء عن لغة للنمل، ولغة للنحل، ولغة للسمك وغيرها كذلك.

قال صاحب كتاب «إنسان العيون»: والمقصود من «منطق الطير»: الطير الذي لم يُفصح العبارة، وإلا فإنَّ بعض الطيور يُسمع منها الإفصاحُ بالعبارة، فهناك نوعٌ من الغربان يقول: «الله حق»، والطائر المُسمى «بالدُّرة» تنطق بالعبارة الفصيحة.

ثم قال: أي صاحب كتاب «إنسان العيون»: وقد وقعت لي قصة مع دُرَّةٍ حين دخلتُ منزلاً لبعضِ أصدقائي وفيه درةٌ لم أرها، فإذا هي تقول: «مرحباً بالشيخ البكري»، وتُكرر ذلك، فعجبتُ من فصاحة عبارتها.

قال صاحب «أحكام القرآن»: لا خلاف عند العلماء في أنَّ كلَّ الحيوانات

لها أفهامٌ وعقول، والحمام أعقل الطير - كما قال الشافعي - وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتِها بدقةٍ تفاهماً غريزيّاً، لكننا نحن البشر لا نفهم هذا المنطقَ، والحقُّ تبارك وتعالى يُعْلمُنا في [سورة الإسراء]: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾.

نقول: طالما قال الله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ ﴾ فلا بد أنه مقالٌ وكلامٌ، وإن قال البعض: إنه تسبيح دلالة لا مقال.

ونقول: نحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض؛ لأننا لم نتعلمْها، واللغة بنتُ السماع، والذي لم تسمعْه لا تستطيع نُطقه.

والطفل الذي نشأ في بيئة عربية يتكلم العربية؛ لأنه سمعها، ولا يتكلم الإنجليزية لأنه لم يسمعها، ولو وضعت هذا الطفل في بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية؛ لأنَّ اللغة لا ترتبط بجنسٍ ولا بلونٍ ولا دم، اللغة سماعٌ.

وذكر البروسوي: أن رجلاً خرج من بغداد ومعه أربعمائة درهم لا يملك غيرها، فوجد في طريقه أفراخ زُرِّيات «المسمى أبو زريق» يبيعُها بعض الناس في الطريق، فاشتراها بما معه، ثم رجع إلى بغداد.

وكان له دكان، فحمل هذه الأفراخ في قفص وعلَّقها على باب دكانه، فهبت ريح باردة، فماتت الأفراخ إلا فرخاً واحداً، كان أصغرَها وأضعفَها، فأيقنَ بذهاب رأس ماله النقدي الذي دفعه ثمناً لها، فقام يدعو الله لَيْلَهُ كله يقول: يا غياث المستغيثين أَغِثْني، ثم زال البرد، وارتفعت الشمس، ونَفَشَ ذلك الفرخ ريشهُ، وصار يصيحُ بصوتٍ فصيح: يا غياث المستغيثين أغثني، فاجتمع الناس على هذا الطائر يسمعون صوته، ووافقَ أن مرت بهذه اللحظات أَمَةٌ لأمير المؤمنين، فاشترتهُ منه بألف درهم، كما ذكر ذلك صاحب

كتاب «حياة الحيوان».

والطائر - أبو زريق - هو المُسمى «الفتق»، طائر بحجم اليمامة، وأهل الشام يُسمونه - زريق -،هو طائر ألوفٌ للناس، فيه قبولٌ للتعليم، ويُدرك ما تعلَّمَهُ بسرعة.

وقوله ﴿ عُلِّمْنَا ﴾و﴿ وَأُوتِينَا ﴾، هو تعظيمٌ لأمر السلطان عند الرعية، ولإظهار هيبة الملك، وقد يكون التكلمُ بلغةِ الجمع من مقتضى السياسة، كما أجابَ معاويةُ عمربن الخطاب حين لقيهُ في أُبَّهَةٍ وجندٍ في بلاد الشام، فقال عمر لمعاوية: أَكُسْرويةٌ يا معاوية؟ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين: إننا في بلادٍ من ثغور العدوِّ فلا يرهبون إلا مثل هذا، فقال عمر: خدعةُ أديبٍ، أو اجتهادُ مُصيبٍ، لا آمُرك ولا أنهاكَ، وترك الأمر لعُهدةِ معاوية وما يتوسَّمُهُ من سياسة الأقوام، مثل ذلك من السياسة ما أمر به ﷺ العباس من عرض الكتائب على أبي سفيان يوم الفتح.

وقوله: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾، أي أُوتينا من النفائس و الأموال مما له علاقةٌ بمقام سليمان، أي من النفائس الصالحة للملوك.

كما يُقال: «فلانٌ يقصدُه كلُّ أحدٍ، ويعلم كلَّ شيء»، فيدل على الكثرةِ، أي: قُصَّادهُ كُثر، وعلمهُ غزير.

ثم انتبه إلى ختام قول سليمان في الآية: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾، تجد أنها قد أُكدت بثلاثة مؤكّداتٍ، إنَّ: حرف توكيد، واللام: التي هي للقسَم في الأصل، وهو: ضمير الفعل وهو مؤكد.

والقصد من هذه المؤكدات: إظهارُ عظمةِ هذه النِعم الجليلة، وأنَّ ذلك الإنعامَ منه عز وجل يقتضي أن نقوم بواجب الشكر له.

والفضلُ: هو الزيادة في الخير، والمُبين: الظاهر الواضح، وكل هذا الكلام مَسُوقٌ على سبيل التحدث بنِعم الله، لا على سبيل الاستعلاء والاستكبار.

والآن، تعالوا نستعرض طرفاً وروايات تُحدثنا عن علمه بلغة الطير والحيوانات:

قال مقاتل: كان سليمان جالساً ذات يوم مع حاشيته وجُلسائه، فمرَّ به طائر فطافَ وصوَّتَ، فقال سليمان لجُلسائه: أتدرون ماذا يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلامُ عليك أيها الملك، والنبيُّ لبني إسرائيل: «أعطاك الله الكرامةَ، وأظهركَ على عدوك، إني مُنطلقٌ إلى أفراخي، ثم أمُرُّ بك الثانيةَ»، ثم قال سليمان: وإنه سيرجع إلينا الثانية، فانظروا إلى رجوعه.

ثم رجع الطائر وصوَّتَ، فقال سليمان عليه السلام: إنه يقول: السلام عليك أيها الملك، إنْ شئت أن تأذنَ لي كيما أكتسبَ على فراخي حتى يَشُبُّوا، ثم آتيكَ فتفعل بي ما شئت، فأخبرهم سليمان بما قال الطائر، ثم أَذِنَ له.

وروى القرطبي: أنَّ سليمان مرَّ بهدهدٍ فوق شجرةٍ، وقد نصبَ له صبيٌّ فخاً، فقال له سليمان: احذر يا هدهد !! فقال الهدهد: يا نبي الله: هذا صبيٌّ عقله قاصر، فأنا أسخرُ به، ثم رجع سليمان فوجد الهدهد قد وقع في شبكة الصبي فاصطاده وحمله بيده، فقال سليمان: هدهد، ما هذا؟ فقال: والله ما رأيتُها حتى وقعتُ فيها يا نبيَّ الله.

قال سليمان: ويحكَ، فأنت ترى الماء تحت الأرض، أما رأيتَ الفخ؟!!

قال الهدهد: يا نبي الله، إذا وقع القدر عَمِيَ البصر.

وقال كعب: صاح ورشانٌ – وهو طائر بحجم الحمامة جمعه وُرْشانٌ – عند سليمان بن داوود، فقال لمن عنده: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه

يقول: لِدُوا للموت، وابنُوا للخراب.

وصاح طاووس عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال: إنه يقول: كما تَدينُ تُدان.

وذكر البروسوي والقرطبي وغيرهما قالوا: صاح هدهد مرة أمام سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبون.

وصاح طبطوى، وهو طائر يُشبه القطا، ولكنه أكبر منه، فقال سليمان: إنه يقول: كل حَيٍّ ميتٌ، وكل جديد بالٍ.

وصاحت خُطافةٌ، فقال: إنها تقول: قَدِّمُوا خيراً تَجِدُوه.

والخطاطيف: طيور صغيرة تُسمى: «زوار الهندِ»، وهي من الطيور التي تقطع البلاد رغبةً بالقرب من الناس، وتألف البلاد المُعتدلة والدافئة، وهو المعروف عند الناس بـ «عصفور الجنة»، والناس يحبون هذا الطائر، لأنه زاهدٌ في أقواتهم، وإنما قُوتُه البعوض والذباب.

وهدهدت حمامة، أو رخمةٌ.

والرخمة: طائر أصَمُّ أبكم لا يسمع ولا يتكلم ولذلك قالوا: إنَّ أطول الطير أعماراً الرخم، فالسلامة والبركة في العمر في حفظ اللسان.

قال سليمان: أتدرون ما تقول؟ إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد خلقه، وملءَ سمائه وأرضه.

وصاحت الحِدْأةُ، فقال سليمان: إنها تقول: كل شيء هالكٌ إلا وجهه.

قال القرطبي: وكان سليمان يُحدثهم بأقوال الحيوان فقال:

القطاة تقول: مَنْ سكتَ سَلِمَ.

والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا هَمُّه.

والضفدع تقول: سبحان ربي القدوس.

والبازيُّ يقول: سبحان ربي وبحمده.

والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

والزرزور يقول: اللهم إني أسألك قُوتَ يومٍ بيومٍ يا رزاقُ.

والعُقاب يقول: في البعد عن الناس أُنسٌ.

والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون.

ويروي أصحاب الأخبار: أنَّ رجلاً غنياً اشترى في عهد سليمان طائراً حسنَ الشكل، حسنَ الصوت، اشتراه بألف درهم، ووضعه في قفص، فجاء طائر فوقف على القفص وصوَّتَ صوتاً واحداً، ثم طار.

ثم حدث بعد ذلك شيءٌغريب، وهوأن الطائر الذي في القفص سكت بعدها ولم يَعُدْ يُصَوِّتُ.

واحتار صاحبه، فقيل له: لو عرضت الأمر على سليمان.

فشكا الرجل أمره إلى سليمان، وقصَّ عليه القصة، فقال له سليمان: أحضره إلى هنا.

وأُحضِرَ الطائرَ في قفصه، قال له سليمان: إن لصاحبك عليكَ حقاً، حيث اشتراك بثمنٍ غالٍ، فَلِمَ سكتَ؟!!

فقال الطائر: قل للرجل يرفعُ قفصهُ عني، فإني لن أصيحَ ولن أُصَوِّتَ ما دُمتُ في القفص.

قال سليمان:ولِمَ؟ قال: لأنَّ صياحي يا نبي الله كان جزعاً على فراقِ

أولادي وأفراخي وعُشّي، فوقف هذا الطائر يوماً على قفصي وقال: يا هذا، إنما حبسَك لأجلِ صوتك، فاصبر واسكت، ولا تجزع حتى تنجوَ.

فالتفتَ سليمان لصاحب الطائر وقال له: هذه قصةُ طائرك.

فقال الرجل: يا نبيَّ الله أرسلهُ، فإنما كنتُ أحبسهُ لصوته.

فدفع سليمان لصاحب الطائر ألفَ درهم، ثم أرسلَ الطير في الهواء، فطار الطائر وصاح، فقال سليمان: إنه يقول: سبحان من صوَّرني، وفي الهوا طيرني، ثم في القفصِ صبّرني.

فقال سليمان: لما صَبَرَ فرَّجَ الله عنه.

وأخرج البيهقي من حديث أبي مالك قال: مرَّ سليمان بن داوود بعصفورٍ يدور حول عصفورةٍ، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبي الله؟

قال: يخطبها إلى نفسه ويقول: تزوجيني أُسكنْك أيَّ غرفِ دمشق شئت.

قال سليمان عليه السلام: لأنَّ غرفَ دمشق مبنيةٌ بالصخر، لا يقدرأن يسكنها أحد، ولكن: كل خاطب كذاب.

وروى وهبٌ عن مالك: أنَّ سليمان النبي مرَّ على قصر بالعراق، فإذا فيه كتاب منقوش:

خرجنا من قرى اصطخر إلى القصر فقِلْناه[1]
فمن سأل عن القصر فمبنيّاً وجدناه

وعلى القصر نسرٌ فناداه سليمان، فأقبل النسر إليه، فقال للنسر: مذ كم

(١) وقت القيلولة.

وأنت ههنا؟

قال النسر: مذ تسعمائة سنة، ووجدتُ القصر على هيئته.

قال ابن كثير: ركب سليمان يوماً في جيش جمعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس معه يسيرون، والطير تُظِلُّه بأجنحتها من الحرِّ، وعلى كل جيشٍ من هذه الجيوش الثلاثة نُقباءُ يردُّون أوَّله على آخره، فلا يتقدم أحدٌ عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[النمل].

والحشرُ: الجمعُ من كل مكان، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الشعراء].

المعنى: اجتمعت جنوده بأنواعها في حضرته مسخرةً لأمره، ثم بيَّن أصناف الجنود:

صنفُ الجن: وهم لتوجيه القوى الخفية المستورة.

صنف الإنس: وهم جنود تنفيذ أوامر سليمان، ومحاربة العدو وحراسة المملكة.

وصنف الطير: وهو من تمامِ الجندِ، لنقلِ الأخبار، وحملِ الرسائل إلى قُوّاده، وذكر الجنَّ والطير ولم يذكر الخيل لغرابة ذلك.

وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾، والوَزْعُ: كفُّ الغير عن شيء لا يُراد.

﴿ يُوزَعُونَ ﴾: أي يَكُفّون أفراد القوات عن التقدم والتأخر حتى يكون السيرُ منتظماً.

قال قتادة: كان لكل صنفٍ وَزَعَةٌ في رُتَبِهم ومواضِعِهم إذا مَشَوا في

الأرض، «لا عند الطير في الهواء».

والوازع في الحرب: هو المُوكل بالصفوف يزعُ مَنْ تقدمَ منهم. وقد روى «محمد بن إسحق» عن «أسماء بنت الصديق أبي بكر» رضي الله عنهما قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى - يوم فتح مكة - قال أبو قُحافة والد الصديق لابنته، وقد كُفَّ بصره: قال: با ابنتي، أظهري بي على أبي قُبيس - جبل بمكة - قالت: فأشرفتُ به عليه، فقال: ما تَرين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال أبو قُحافة: تلك الخيلُ.

قالت: وأرى رجلاً من السواد مُقبلاً ومُدبراً، قال: ذلك الوازع، يمنعُها أن تنتشر، ثم أكمل الحديث.

ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغرَ ولا أدحرَ، ولا أحقرَ ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزُّلِ الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العِظام، إلا ما رأى يوم بدر - قيل: وما رأى يا رسول الله؟ - قال: أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة» - الموطأ -.

ومن ذلك قول الشاعر:

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا
وقلتُ ألَمّا أَصْحُ والشيبُ وازِعُ

وقول القائل:

ولا يزعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من الناس إلا وافر العقل كاملُه

وقول القائل:

ومـن لم يَـزَعْـهُ لُـبُّـهُ وحياؤهُ ... فليسَ له من شَيْبِ فُودَيْهِ وازعُ

قال صاحب «التحرير»: وفي الآية إشارة إلى أنَّ جمعَ الجنود، وتدريبها من واجبات الملوك ليكون الجنود مُحافظين على كفاءاتهم، وليُتمِّموا ما يَنقُصُهم، وليتذكروا ما قد نَسوه عند النفيرِ.

قال البروسوي: وكان سفره من بلاد الشام إلى أطراف اليمن.

وقد كان نبينا ﷺ يفهم لغة الحيوان.

فقد ورد في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ دخل يوماً مع بعض أصحابه حائطاً - بستان - من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، فمسحَ رسول الله ﷺ سَراته وذِخراه، فسكنَ الجمل، فقال ﷺ: «من صاحب هذا الجمل؟»، فجاء رجل من الأنصار قال: هو لي يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكها الله لك، إنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه»، وفي رواية: «شكا إليَّ كثرة العمل، وقلَّة العلف»، والسراة: الظهر، والذخرى: العظم الشاخص خلفَ الأذن.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة»، من حديث ابن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمررنا بشجرة فيها فرخا حُمَّرَة، فأخذناهما، فجرت الحُمَّرَةُ إلى النبي ﷺ وهي تَعْرِضُ، فقال ﷺ: «من فَجَعَ هذه بفرخيها؟» قلنا: نحن!! فقال ﷺ: «ردُّوهما موضعَهما»، فرددناهما.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان جيش سليمان يتألف من البشر ومن الجن والطير، ونحن نعلم أنَّ الجن كائناتٌ خلقها الله وليسَ في استطاعة البشر رؤيتُها، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾ [الأعراف].

قال ابن عاشور: فرؤية ذواتِ الشياطين منتفيةٌ لا مَحَالَةَ، وقد يخوّل الله رؤية الشياطين أو الجن مُتشكلةً في أشكال الجسمانيات، معجزةً للأنبياء كما ورد في الصحيح: «أنَّ عفريتاً من الجن تفلّتَ عليَّ الليلة في صلاتي، فهممتُ أن أوثقه في سارية المسجد..».

وقد تكون الرؤية مُتشكلاً كرامةً للصالحين، كما ورد في الصحيحين، حين سرق شيطانٌ من زكاة الفطر، فقال ﷺ لأبي هريرة: «ذلك شيطان».

أما سليمان: فقد أعطاه الله عز وجل وحده القدرة على رؤيتها وتسخيرها، وتوظيفها جنوداً له في أيام الحرب، وعمالاً له في أيام السلم، فتخيَّل – يا عبد الله – عظمةَ جيشٍ، قِسْمٌ من جنوده لا يُرى !إن قتال مثل هذا الجيش غير ممكن.

ثم إننا نعلم قيمة الاستطلاع في الجيوش الحديثة، وذلك لمعرفة قدرة العدو، وهذا الأمر كانت تقوم به الطير، ثم تُخبر سليمان بتحركات العدو.

سليمان وجنوده بوادي النمل:

ذكر القرآن أنَّ هذا الجيش مرَّ على مكانٍ معين يُعرف بوادي النمل، فقال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨** ﴾ [النمل].

ووادي النمل: هو الوادي المعروف بوادي السدير قرب الطائف، وكلمة: ﴿ أَتَوۡاْ ﴾ تُشعرك بأنهم أتوا من أعلى الجبل إلى وادي النمل أو قرية النمل.

والنمل: اسم جنس لحشرات صغيرة ذات ستةِ أرجل تسكن في شقوق من الأرض، وهي أصنافٌ مُتفاوتةٌ في الحجم والواحد من النمل، نملةٌ بتاء الوحدةِ، فكلمة «نملة» تدل على فرد واحد من هذا النوع «النمل»، دون

دلالة على تذكير أو تأنيث، فإن قال قائل: لماذا اقترنت التاء في الآية في قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾؟

والجواب: اقترنت التاءُ بقالت مُراعاةً للفظ فقط، ومراعاةً لشبه هاءِ «نملة» بهاء التأنيث، والهاء هنا تدل على الوحدة، أي فرد واحد من هذا النوع دون دلالة على تذكير أو تأنيث، والعرب لا يقولون: مشى شاة إذا كان الماشي فحلاً من الغنم، وإنما يقولون مشت شاةٌ، وطارت حمامةٌ، فإذا كانت الحمامة ذكراً قالوا: طارت حمامةٌ ذكر، ولا يقولون: طار حمامةٌ.

وفي حديث ابن عباس حين تكلم عن صلاة العيد مع رسول الله ﷺ قال: أقبلتُ راكباً على حمارٍ أتانٍ، فوصفَ «حمار» الذي هو اسم جنس باسم خاص بأُنثاه.

قال القرطبي وغيره وسُميت النملة نملةً لتنمُّلها، أي لكثرة حركتها، وقِلَّةِ قرارها.

قال الصاوي: والنمل معروف، وهو شديد الإحساس والشمِّ، ومن شدةِ إدراكه يفلقُ الحبة فلقتين حين يُدخلها إلى عُشه خوفاً من الإنبات، ويفلق حبَّةَ الكزبرةِ أربع فِلق؛ لأنَّ الكزبرةَ إذا فُلقت فلقتين نبتت، ويأكل في عامه نصفَ ما جمع، ويستبقي باقيهُ عنده، والكسبرة بالسين لا بالزاي.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ [النمل].

قال الآلوسي: لما أحست النملة بإشراف سليمان وجنده على الوادي صوَّتت النملةُ، ففهم سليمان معنى صوتها، وهو قولها: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾.

قال ابن كثير: أمرت، ثم حذَّرت، واعتذرت عن سليمان بعدم الشعور،

وخاطبتهم خطاب العُقلاء؛ لأنها أمرتهم بما يُؤمر به العُقلاء: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾.

ولماذا هذا الأمر التحذيري؟

جاء الجواب: ﴿ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ ﴾، والحطم: الكسر، وسُميَّ حجر الكعبة «الحطيمَ"؛ لأنه كُسِرَ منها، وكلامُها أرادت به تحذيرهُنَّ من إهمال الحذر، ثم اعتذرت فقالت: ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

قال القرطبي: قولها هذا التفاتةُ مؤمنةٍ، فهي تقول: إن سليمان من عدله وفضله، وفضلِ جنوده، لا يَحطمونَ نملة فما فوقها إلا إذا لم ينتبهوا، ولم يشعروا.

وقال البروسوي: كأنها شعرت عصمةَ الأنبياء من الظلم والأذى إلا إذا وقعَ ذلك سهواً.

ويُشبه قول هذه النملة في جند سليمان: ﴿ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، قول الله تعالى في جند نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ ﴾ [الفتح ٢٥].

هذه الآية تُشير إلى معنىً دقيق وهو: أنه لولا كراهةُ إصابتكم أُناساً مؤمنين في مكة يكتمون إيمانهم، أمثال: «أبي جندل، وسلمة بن هشام، وعباس بن أبي ربيعة»، وأشباههم لا تعلمونهم، لأُذِنَ لكم بفتح مكة من أيام صلح الحديبية، ولَسلَّطكم على أهل مكة، فالآية تُشير إلى أنهم لا يقصدون إيذاء مسلم، وهذا إشارة إلى كمالِ خُلق الصحابة.

قال القرطبي: ولكن الفرق بين الثناءين، أنه في الأولى أثنت النملة على جند سليمان، وأما الذي أثنى على جند محمد ﷺ فهو الله عز وجل بذاته

العلية، لما لفضل جند محمد على جندِ غيره من الأنبياء، كما لمحمد ﷺ فضلٌ على جميع النبيين.

قال بعض أهل التفسير: وواضحٌ من قول هذه النملة ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كلٌّ مهمتَهُ، ويُؤديها على أكمل وجه، فهذه نملةُ استطلاع أو دورية.

ولاحظْ وجَرِّبْ - يا عبد الله - لو أنك جلست في مكانٍ وتركت فيه بعض فُتات الطعام أو الحلوى، لرأيت بعض النمل يدور حولها دون أن يقربها، ثم انصرفوا عنها، وبعد فترة ترى جماعةً منهم جاءت وحملت هذه القطعة، كأنَّ الجماعة الأولى أفراد استطلاع يكتشفون، ويُقدِّرون كم نملةً تستطيعُ حملَ هذا الشيء، بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعةَ المُلقاةَ لرأيت عدد النمل الذي جاء لحملها يتضاعف أيضاً، ولو قتلت النملَ الأول الاستطلاعي تُلاحظ أنَّ النمل قد امتنع عن هذا المكان، إما بتحذير نملةٍ ناجيةٍ، أو بانقطاعِ العلةِ.

وكلمة: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾: تدل على أنَّ لهم بيوتاً ومساكن، وكسبَ أرزاق؛ لذلك نجد النمل يتتبَّعُ مواضع الطعام والفضلات، ويدخل إليها من أضيق الأماكن «والعرب تُسمي جُحرَ النمل مساكن»، وأحياناً تدخل أماكن حلوى كبيرةً مليئةً بالسكر، والحلوى من معشوقات النمل، ومع ذلك لا تجد فيها نملةً واحدةً ! لماذا؟

علماء الحيوان حديثاً اكتشفوا ظاهرة عجيبةً من ظواهر النمل، وهذه العجيبة أنَّ المكان الذي يوجد فيه «سمسم» لا يدخله النمل أبداً، ولم يعلم العلماء تعليل ذلك.

قال الجاحظ: ومن أمثلةِ العرب في النمل قولهم: «أضبطُ من نملة»، وهذا قول يدل على شدةِ الالتزام، ثم قال: وللنمل قياداتٌ وسادةٌ.

قال أبو موسى الأشعري في ما رواه عنه قسّامة بن زهير: إنَّ لكل شيء سادةً، حتى إنَّ للنمل سادةً.

وقال أبو الجهجاه: سألتُ أبا عمرو المكفوفَ عن سادة النمل فقال: سادتُها اللواتي يخرجْنَ من الجُحر يَرْتَدْنَ بجماعتها ويستبقْنَ بِشَمِّ الذي هو من طعامهن.

وقد قرأت في «مجلة المختار» من «ريدرز دايجست»: أنه في الحرب العالمية الثانية، كان أهل جنود الحلفاء يبعثون إلى أولادهم في جبهات القتال صناديق الحلوى لتصِلَهم قبل عيد الميلاد، للاحتفال بذلك اليوم، وكانت هذه الصناديق تصل قبل يوم أو يومين من عيد الميلاد، فيحتار الجنود أين يحفظونها !! خاصةً في جبهات القتال الحارة حيث يكثر النمل.

وفي سنة ابتكر الجند طريقةً لحفظ هذه الحلوى، حيث صنعوا بِركةً ملؤوها بالماء، وجعلوا في وسطها ساريةً ضخمةً توضع عليها الحلوى، ثم وضعوها واطمأنوا فماذا شاهدوا بعد ذلك؟

رأوا أنَّ النمل لما صعدَ إلى سطح البركة شاهد الماء، فصار يُلقي بنفسه في الماء بأعداد كبيرة، حتى شكَّلَ النمل جسراً على سطح البِركةِ، ثم كان هذا الجسر معبراً للنمل الذي وصل إلى الحلوى فنقلهُ كلَّه إلى أعشاشه.

ورأيتُ في بعض الكتب مقالاً بعنوان: «شِقُّ جرادة»: وهو أنَّ رجلاً رأى نصف جرادةٍ ميتةٍ وحولها نمل استطلعوها ثم ذهبوا.

وبعد ذهابهم رفعَ شِقَّ الجرادة، أتى النمل فلم يجدوا شيئاً، ثم وضعها فعادت النملة فدارت حول شِقِّ الجرادة، ثم ذهبت ورجعت ومعها نملٌ وكان صاحبُنها قد رفعَ شِقَّ الجرادة، وفي المرة الرابعة قتلوا النملة لظنهم

كذبها.

قال العلماء: وبلغ من فهم النمل الذي تهتدي به إلى ما ينفعُها إلى أنها إذا أصابَ الحبَّ المخزون عندها بللٌ أو نداوةٌ تنشره في الشمس حتى يجف.

وقد لاحظ المهتمون بدراسة النمل، وجود حباتٍ أحياناً بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل، وبفحصها تبيَّن لهم: أنها زُريقةُ النبات التي تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كي لا تنبت.

فسبحان خالقها، وسبحان من هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة.

ومن عجائب النمل ما رواه الجاحظ قال: قلتُ لأهلِ «كسكر»: شعيركم عجبٌ، وأرزكم عجب، وبَطُّكم، ودجاجكم عجب، فلو كانت لكم أعنابٌ؟! قالوا: كل أرض كثيرة النمل لا تصلح للأعناب، ثم تلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾.

و«كسكر» في الأصل من بلاد فارس، ثم لما فُتحت من قِبل المسلمين صارت هي الأرض التي بين «البصرة والكوفة»، وهي بلاد زراعية يكثر فيها الشعير والبُر والرز، وامتازت الفراريج فيها، حيث كانت فراريجها مميزةً.

قال ابن الحجاج:

ما كان قطُّ غذاءَها   إلا الدجاجُ المُصدرُ[1]

وقال صاحب كتاب «آثار البلاد»: يُجلب من كسكر الرز الجيد والسمك الشَّبوط.

وقال صاحب كتاب «معجم البلدان»: وإليها تُنسب الفراريج الكسكريةُ،

---

(١) «المعظم»

ثم قال: رأيتُها أنا تُباعُ فيها أربعة وعشرون فروجاً بدرهم.

وسُميت «كسكر» باسم الملك «كسكر» الذي هو أصل الفُرس.

ولأنه يكثر فيها الشعير، والشعير بلغة الفُرس: كسكر.

قال عُبيد الله بن الحر:

أنا الذي أجْليتُكم عن كسكر ثم هزمتُ جمعَكم بتُستر

ثم انقضضتُ بالخيول الضُمَّر حتى حللتُ بين وادي حِمير

قد يقول قائل: كيف وبم عرفت النملة سليمان؟

والجواب: إنها كانت مأمورةً بطاعته، فلابد أن تعرف من هي المأمورةُ بطاعته، والنمل - كما ذكرنا - له من الفهم فوق هذا، ألا ترى أنَّ النملة تُخرج الحبَّ الذي أصابته النداوةُ فتنشره في الشمس حتى يجفَّ.

وقال صاحب «التحرير والتنوير»: يجوز أن يكون الله قد خلقَ عِلماً في النملة علمت به أنَّ المارَّ سليمان عليه السلام، وذلك على سبيل المعجزة وخرق العادة، لذلك قال المهدوي: وأفهمَ الله النملة هذا لتكون معجزةً لسليمان.

قال ابن كثير: والمقصود أن سليمان فَهِمَ ما خاطبت به النملة قومها، من الرأي السديد والأمر الحميد.

قال العلماء: وقد ورد النهي عن قتل النمل وغيره من بعض الحيوانات، فقد أخرج أبو داوود بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ «عن قتل الصُّرَدِ والضفدع، والنملة، والهدهد»، وورد النهي عن قتل النملة كذلك.

والصُّرَدُ طائر فوق العصفور يصيد العصافير.

ونهى النبي ﷺ عن قتله ردّاً للطِيَرَةِ والتشاؤم، فقد كان العرب يتشاءمون منه ومن صوته.

قال إبراهيم الحربي: أراد بالنملة – أي في الحديث – الكبار الطويلةَ القوائم التي تكون في الخربات وهي لا تؤذي ولا تضرُّ.

والنهي عن قتل الهدهد لأنه أطاعَ نبياً، ولأنَّ لحمه لا يؤكل.

ونهى عن قتل النحلة؛ لأنها تُعَسِّلُ شراباً فيه شفاء للناس، ومنه الشمعُ.

وورد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الدواب لا يُقتلن، النملة والنحلة والصُّرَدُ والهدهد» رواه أبو داوود.

وفي حديث أبي صديق الناجي قال: خرج سليمان يستسقي، فرأى نملة مستلقيةً على ظهرها، رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: «اللهم إنا خلقٌ من خلقك، ليس بنا غِنىً عن سقيك، فإما أن تَسقينا وترزقنا، وإما أن تُميتنا وتُهلكنا».

فقال سليمان لمن معه: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم.

هنا يأتي سؤال: هل يجوز قتل المؤذي من النمل؟

والجواب: روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقتل قرية النمل حرقاً، فأوحى الله إليه أفي أنْ قرصتك نملة أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبح»، وفي رواية: «فهلّا نملةً واحدةً».

قال العلماء: إنَّ هذا النبي هو موسى عليه الصلاة والسلام، وإنه قال مرةً

يدعو ربه ويسأله: «يا ربِّ، تُعذب أهلَ قريةٍ بمعاصيهم وفيهم الطائعُ؟»، فأحبَّ الله أن يُريَهُ، فسلَّط عليه الحَرَّ حتى التجأ إلى شجرةٍ مُستروحاً إلى ظلها، وعندها قرية نمل، فغلبهُ النوم، فلما وجدَ لذةَ النوم لدغتهُ النملة فأضجرتْهُ، فدلَكهُنَّ بقدمه فأهلكهُنَّ، وأحرق مساكنهن، فأراه الله العبرة في ذلك فقال: «لما لدغتك نملةٌ، فكيفَ أصبتَ الباقين بعقوبتها».

قال العلماء: أراد الله أن يُنبِّهَ موسى إلى أنَّ العقوبة من الله حينما تَعُمُّ تصير رحمةً للمُطيع وطهارةً وبركةً له، وشراً ونقمةً على العاصي.

قال القرطبي: وليس في الحديث ما يدل على كراهةٍ ولا حظرٍ في قتل النمل، فإنَّ من آذاك حَـلَّ لك دفعُه عن نفسك، ولا أحد من خلق الله أعظمَ من حُرمةِ المؤمن، وقد أُبيحَ لك دفعه عنك بقتل أو ضرب على المقدار، ثم قال: فكل شيءٍ من الدواب والهوام التي سُخرت لك، أو سُلِّطْتَ عليها إذا آذاك أُبيحَ لك قتله.

وروي عن إبراهيم النخعي قال: ما آذاك من النمل فاقتلْه.

قال العلماء: وقد كان التحريقُ جـائزاً في شرعهم - شرع موسى - ويُؤخذ من الحديث: «فهلا نملةً واحدةً»، أي هَلَّا حرقتَ واحدةً بخلاف شرعنا، فإنَّ النبي ﷺ نهى عن التعذيب بالنار.

كما كان القتل للنمل مباحاً في شريعتهم، أما عندنا فقد جاء النهي عن القتل إلا إذا آذى، أو حصل منه ضرر.

قال الإمام مالك: أكره قتل النمل إلا أن يضر ولا يمكن دفعه إلا بالقتل فيقتل.

وورد عن الحسن بن سعد قال: نزل رسول الله ﷺ منزلاً، فانطلق لحاجةٍ،

فجاء وقد أوقدَ رجلٌ على قرية نملٍ، إما في شجرة، وإما في أرض، فقال له ﷺ: «مَنْ فعلَ هذا أطِفئْها أطفئها».

وحدَّث هشام بن حسان قال: إنَّ أهلَ الأحنف بن قيس لقوا من النمل أذىً، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند جُحرهن، فجلس الأحنف على الكرسي، ثم تشهَّد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وقال: لَتَنْتَهُنَّ، أو لنُحرقنَّ عليكنَّ، أو لتفعلنَّ، أو لنفعلنَّ» تأكيداً للتهديد، قال: فذهبْنَ.

قال الآلوسي: لما سمع سليمان مقالة النملة تبسَّمَ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل].

قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾: التبسُّمُ أولُ الضحك، وآخر الضحك بُدُوُّ النواجذ؛ وذلك يكون مع القهقهة، وجُلُّ ضحك الأنبياء التبسم، وهكذا كان ضحك رسول الله ﷺ لحديث عائشة قالت: جاءت امرأةُ «رفاعة القرظي» إلى النبي ﷺ، وكان رفاعةُ قد طلَّقها فَبتَّ طلاقها، فتزوجت بعده «عبد الرحمن بن الزبير»، فقالت: يا رسول الله؛ والله ما معه إلا مثل هذه الهُدبة – لهدبةٍ أخذتْها من جلبابها – وأبو بكر وخالد جالسان عند النبي ﷺ، وكان سعيد بن العاص بباب الحجرة ينتظر الإذن له، فَطَفِقَ خالدٌ يُنادي: يا أبا بكر، انظر ما تجهر به المرأة عند رسول الله ﷺ، وما يزيدُ رسولُ الله ﷺ على التبسم، ثم قال ﷺ: «لعلكِ تُريدين أن ترجعي إلى رفاعة».

وروى عبد الله بن عمر: أنَّ النبي ﷺ لما كان بالطائف قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فقال بعض أصحاب النبي ﷺ لا نبرح حتى نفتحها، فقال ﷺ: «فاغدوا على القتال»، قال: فَغَدَوْا، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثُرت

الجراحاتُ، فقال ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله».

قال: فسكتوا، قال: فضحك رسول الله ﷺ.

قد يُقال: من أي شيء ضحكَ سليمان؟

والجواب ذكره العلماء: قال أبو السعود: تبسَّم سليمان سروراً بشُهرةِ حاله وحال جنوده في بابٍ يُرضي الله تعالى، وهو: باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات، وابتهاجاً بما خَصَّهُ الله تعالى به من إدراك همسها، وفهمِ مُرادها؛ لأنه لا يُسَرُّ نبيٌّ بأمر دنيا، وإنما يُسَرُّ بأمر الدين.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وضحكُ الأنبياء التبسمُ، أو ما يُقارب التبسُّم، وهو بُدُوُّ النواجذ، هكذا ورد في صفةِ ضحكه ﷺ.

وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء، وفي الحديث: «كثرة الضحك تُميت القلب»، وفي كلام لقمان لولده وهو يعظه: «يا بني، إياك وكثرةَ الضحك، فإنه يُميت القلب».

وفي الصحيح من حديثٍ عن «جابر بن سمرة»، وقد سُئِلَ: أكنت تُجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مُصلَّاه الذي يُصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمسُ، فإذا طلعت قامَ، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون، ويتبسم ﷺ «سَيِّدُ ضحكهِ التبسمُ والمشيُ الهُوينا، ونومه الإغفاء».

وإنما ذكرنا هذا الأمرَ، وهو «الضحك» لأنَّ بعض الناس لا يضحكون، من شدةِ خوفه من سوء الخاتمة.

وهناك ضحك مكروه كما في قوله تعالى في [سورة التوبة]: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهذا أمر بمعنى الخبر؛ لأنه إنذارٌ بالجزاء لهؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم فازوا لعدم اشتراكهم في الجهاد مع المؤمنين، وجلسوا في حدائق المدينة وهم فرحون يضحكون، وهذا الضحك سيكون لفترة قليلة، سيأتي بعده بكاءٌ وندم لفترةٍ أبديةٍ عند دخولهم النار.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: لما سَمِعَ سليمان كلام النملة سُرَّ بذلك لأنها ذكّرته بالرحمة والشفقة، ثم قال: وفي كلام النملة التي ذكرتْهُ الآية معنى لطيف وهو: «أنه ينبغي على القوي أن يرحم الضعيفَ».

قال المؤرخون: كان سليمان مع ملكه العظيم، أغنى ملوك الدنيا، يلبس من الملابس المزركشة بالجواهر والذهب، ومع هذا الغنى وهذا المُلك العظيم، كان متواضعاً، فكان يخرج إلى الناس بهذه الثياب المزركشة فيقول لهم: «إنَّ أيَّ زهرةٍ من زهرات الحقول، ترتدي أجمل مما يرتدي سليمان الملكُ، فالله صنع ألوان الزهرة وأوراقها، وشتان بين ما يصنعُهُ الله ويصبغُهُ، وبين ما يصنعه الإنسان ويصبغه»، ولذلك لما سمع كلام النملة قال بعد التبسّم: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل ١٩].

أي اجعلني أُقيدُ شكرَ نعمتك فلا ينفلتُ مني، أي بمعنى أوضح: اجعلني مُلازماً شكرَ نعمتك.

وقد ذكر الشيخ الطيبي، أثراً مذكوراً في حاشية «الكشاف» جاء فيه: «النعمةُ وحشيةٌ، قيِّدوها بالشكر، فإنها إذا شُكرت قَرَّت، وإذا كُفِرت فَرَّت».

وقول ابن عطاء: من لم يشكر النعمةَ فقد تعرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها.

وفي أثرٍ إلهي: يقول الرب عز وجل: «أهلُ ذكري أهل مُجالستي، وأهل

شُكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي».

وكل هذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم ٧].

وأدرج ذِكرَ والديه في قوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، لأنَّ النعمةَ على الولد نعمةٌ على الوالدين، خصوصاً النعمةُ الراجعةُ إلى الدين.

فإنه، إن كان – أي الولد – تقياً، نفعهما بدُعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له، وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك، ونِعَمُ الله على والده داوود كثيرة: النبوة وتسبيح الجبال والطير، وإلانةُ الحديد، أما والدته: فاسمُها «بشَشبع» فقد كانت مؤمنة طاهرةً زكيةً عابدةً، وهي التي قالت لولدها سليمان: «يا بني لا تُكثرنَّ النوم في الليل، فإنَّ ذلك يدعُ الرجل فقيراً يوم القيامة».

ولذلك قال العلماء: وهكذا شكرُ الله وحمدُهُ على النِعم هي النواةُ التي يتجمعُ عليها المزيد من النِّعَمِ.

وهذا يُشبه شيئاً عند الإخوة المصريين يُسمونه «بالرقويةِ» وهي بيضة تضعها ربةُ المنزل في الريف في مكانٍ أمينٍ يصلح عُشاً يبيضُ فيه الدجاج، فإذا رأت الدجاجة هذه البيضة جاءت فباضت، وهكذا يكون شُكر الله وحمده على النِّعَمِ هو النواةَ التي يتجمع عليها المزيدُ من نِعَمِ الله.

وهذا المعنى مُجتمعٌ كله في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم ٧].

ألا ترى – يا عبد الله – أنَّ من عَلِمَ علماً فَعَمِلَ به أورثه الله عِلمَ ما لا يعلم؟ لماذا؟

لأنه ما دام عَمِلَ بعلمه، فهو مؤتمنٌ على العلم، لذلك يزيده الله منه، ويفتحُ له مغاليقه.

أما من عَلِمَ علماً ولم يعمل به، فإن الله يسلبُهُ نور هذا العلم، فيُغلق عليه، وتصدأ ذاكرته وينسى ما تعلمه.

فعندما تشكر الله بالحمد يشكرك الله بالزيادة، فإنَّ من أسمائه «الشكور»، فثمرةُ الشُكر تعود عليك يا عبد الله.

قال العلماء: ثم طلب سليمان من الله تعالى أن يُعينه على العمل الصالح فقال: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾.

قال أبو الليث: أي وفقني لعملٍ تقبله مني، طلبَ من الله أنْ يُعينه في الدنيا على فعل الخيرات، ثم دعا الله أنْ يكون في الآخرة من الصالحين، فقال: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل ١٩]، أي في زمرة الصالحين من عبادك الذين لهم الجنة.

وهذا القول من سليمان دليل تواضعه عليه السلام، حيث لم يجعل لنفسه ميزةً ولا صدارةً، ولا ادعى خيريةً على غيره من العباد مع ما أعطاه الله من المُلك والنبوة، ومع ذلك كان يأكل الردَّة من الدقيق، ويترك النقيَّ منه للرعية.

قد يقول قائل: إن الله تعالى يقول في [سورة الأعراف] مُنادياً أهل الجنة بعد أن دخلوها فيقول لهم: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

الآية صريحة هنا في كون الجنة تُنال بالعمل.

وسليمان هنا يقول: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل ١٩]، أي الجنة معهم.

ونبينا محمد ﷺ يقول في الصحيح من حديث أبي هريرة: «لن يُدخِلَ أحداً عملُهُ الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمةٍ»، فكيف التوفيق بين الآية وبين أقوال الأنبياء؟

نقول: لا تعارض.

فالمعنى: أنَّ عمل الإنسان مهما يكن عظيماً لا يستحق به الجنة بنفس العمل، لولا رحمة الله وفضله، إذ جعل هذا الجزاء العظيم على هذا العمل القليل، فدخول الجنة بالعمل دخولٌ بفضل الله ورحمته، ولذلك جاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: «فَسَدِّدوا وقاربوا»، أي لا تَغلُوا في دينكم، ولا تتكلَّفوا من العمل ما لا تُطيقون.

ثم إنَّ رحمة الله وفضله، سببها العمل الصالح، أي الرحمة ستكون لمن عملَ الصالحات.

هنا سؤال: قد يُقال: إنَّ درجة الأنبياء أعلى من درجة الصالحين فما السبب في أنَّ الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فمثلاً: يوسف يقول: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف]، وسليمان يقول: ﴿ **وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النمل ١٩].

والجواب: المراد بذلك أن يصل إلى أعلى مراتبِ الصالحين، لأن للصالحين مراتبَ كثيرةً، فهم يطلبون الكمال في الصلاح.

قال ابن الشيخ: والصلاح الكامل، أن لا يعصي الله تعالى، ولا يَهمَّ بمعصية.

وهذا الصلاح الكامل درجة عالية يطلبها كل نبي، وكلُّ وليٍّ.

واصلاح الله للإنسان يكون تارةً: بخلقه صالحاً، وتارةً بإزالة ما فيه من

الفساد، والأول أندرُ وأعزُّ.

سليمان وخبر الهدهد:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: في يوم من الأيام، أصدر سليمان أمره لجيشه أن يستعد، فاستعد الجيش، ثم خرج سليمان لتفقده، مرَّ على البشر أولاً، ولاحظ استعدادهم، وأعطى أوامره للقادة، ثم مرَّ على الجن، وأصدر تعليماته إليهم، ثم عاتبَ بعضهم.

ثم استعرض بعض الحيوانات، ثم تفقد الطير على الخصوص تفقداً دقيقاً، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل].

هنا سؤال: لماذا خصَّ في الآية تفقد الطير بالذات؟

والجواب: لأن سليمان أراد أن يقوم بتحركٍ في الصحراء، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة؛ لأنه يعلم مجاهلها، ويرى حتى الماء في باطن الأرض.

وقد أخرج السيوطي في «الدر المنثور» ج ٦ ص ٢٤٩ قال: أخرج عبد ابن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله تعالى عنه قال: ذُكِرَ لنا أن سليمان أراد أن يسلكَ مفازةً، فدعا بالهدهد – وكان سيد الهداهد – ليعلمَ مسافة الماء، وكان قد أُعطيَ من البصر بذلك شيئا لم يُعطَهُ أحدٌ من الطير، لقد ذُكِرَ لنا أنه كان يُبصر الماء في الأرض كما يُبصرُ أحدكم الخيال من وراء الزجاجة، أو الزيت في وعائه – في رواية أُخرى –.

قال العلماء: لذلك نرى من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض، إنما ينبُش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض، لذلك نراه حين كلَّمَ سليمان في شأنٍ من دقائق العقيدة

والإيمان بالله تعالى قال: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل]، فاختار هذه المسألة بالذات لأنه خبير بها.

وهذا كله تفقدَ سليمان عليه السلام الطير على الخصوص، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال ابن عاشور: كان الطير من جملة جنود سليمان عليه السلام، وكثيرٌ من الطير صالحٌ للانتفاع به في أمور الجند، فمنه:

الحمام الزاجل: للرسائل.

البُزاةُ والصقور: لصيد الملوك وجندهم إذا حلّوا القِفار.

الهدهد: لمعرفة الماء، فإذا قال الهدهد: ههنا ماءٌ، شقت الشياطين وجه الأرض، وأخرجت الماء في مُدَّةٍ يسيرةٍ، تسلخُ وجه الأرض عن الماء كما تُسلخ الشاة.

والهدهد: نوعٌ من الطيور في رائحته نتنٌ، وفوق رأسه قزعةٌ سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات بالدود والحبوب، يرى الماء من بُعدٍ ويحسُّ به، في باطن الأرض، فإذا رفرفَ على موضعٍ عُلِمَ أن به ماء.

قال أبو مجلز: قال عبد الله بن عباس لعبد الله بن سلام: أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل؟

قال: أتسألني وأنت تقرأ القرآن؟ قال: نعم ثلاث مرات.

قال: لِمَ تَفقَّدَ سليمان الهدهد دون غيره من الطيور؟ قال: لأن الهدهد يعرف أماكن الماء وعمقه.

ولذلك جاء في كتاب «النقاش»، كان الهدهد مهندساً وكنيتُهُ عند العرب «أبو الأخبار».

قال أهل المعرفة بالحيوان: ونَتَنُ ريحِ الهدهد ناتج عن أنه يتخذ عُشَّه من الزِبل، فإذا طال مُكثه في عُشه، أنتَنَ ريحه وريحُ أولاده.

والعرب يقولون: إنَّ القرزعةَ التي على رأس الهدهد ثوابٌ من الله له على ما كان من برِّهِ لأمه، لأنه لما ماتت أمه حملها على رأسه مدةً، فهذه القزعةُ عِوَضٌ عن ذلك، وفيه قال أمية بن أبي الصلت:

يبغي القرارَ لأمه لِيُجِنَّها ... فبنى عليها في قفاهُ يُمَهِّدُ

مهداً وطيئاً فاستَقَلَّ بِحمله ... في الطير يحمِلُها ولا يتأَوَّدُ

من أُمِّهِ فجُزي بصالح حملها ... ولداً وكَلَّف ظهرُه ما تفقدُ

قال ابن العربي صاحب كتاب «أحكام القرآن»: لما التقى «ابن الأزرق» وهو من زعماء الخوارج بعبد الله بن عباس، وسمعَ ابنُ الأزرق ابن عباس يذكر الهدهد، فقال ابن الأزرق: قف يا وقاف: كيف يرى الماء تحت الأرض، ولا يرى الحبةَ في الفخ؟

فقال ابن عباس بديهةً: إذا وقع القدر عشي البصر.

قال العلماء: ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم قرآنٍ.

ومن شعر الشيخ «أبي الفضل الجوهري» في هذا المعنى قوله:

حين سمعهُ منه الشيخ «محمد بن عبد الملك التنيسي»، والتنيسي أسمعَهُ لابن العربي:

إذا أراد الله أمراً بامرئٍ ... وكان ذا عقلٍ وسمعٍ وبصر

وحيلةٍ يعملُها في دفع ما يأتي به مكروه أسباب القدر
غطى عليه سمعَه وعَقلَه وسلَّه من ذهنه سلَّ الشَعَر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه ردَّ عليه عقله ليعتبر

أما قوله تعالى حاكياً عن سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل]: هذا الكلام من سليمان موجَّهٌ إلى خُفرائه، قائلاً لهم: هل عدمُ رؤيتي للهدهد أنَّ نظري أخطأه فلم يقع عليه أم لشيء آخر، وهو كونه غائباً، فلما تبيَّنَ له أنه غائب بعد أن فتشَ بدقّة قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال الرعية والمُحافظة عليها، فانظر إلى الهدهد مع صِغره، ومع كثرة طوائف الطير لم يَخْفَ على سليمان حاله، فكيف بالأمور العظيمة؟!

ورحم الله عمر بن الخطاب فإنه كان على سيرةِ سليمان عليه السلام، إذ هو القائل: «لو أنَّ سخلةً على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليُسأَلُ عنها عمر».

ثم قال القرطبي: فما ظَنُّكَ بولاةٍ تذهبُ على يديه البُلدان، وتضيعُ الرعيةُ ويضيع الرعيان.

قال البروسوي: قال صاحب «التأويلات»: الواجبُ على السلاطين التيقظُ في ممالكهم، ويتفقدون أصغرَ رعيَّتهم كما يتفقدون أكبرها، ولهذا سافر عمر بن الخطاب بنفسه إلى جنده ورعيته إلى الشام وإلى بيت المقدس حين فُتحت سنة ١٧ هـ، ورحم الله ابن المبارك حين قال:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوك وأحبارُ سوءٍ ورُهبانها

قال صاحب «روح البيان»: ولحم الهدهد: إذا بُخِّرَ به من رُبِطَ عن زوجته بسحرٍ شفاه الله، وإذا بُخِّرَ المجنون بعُرفه شُفي بإذن الله تعالى.

قال العلماء: ولما ثبتَ لسليمان تغيُّبُ الهدهد بغير عذر وتغيُّبُهُ بدون عذر عصيانٌ للقائد يقتضي العقاب، قال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾.

معاقبةُ المخالف أمر ضروري حتى لا تنتشر الفوضى والتكاسل والإهمال إلى الجند، وليكون عقابه نكالاً لغيره، وأمر هذه العقوبة موكولٌ لاجتهاد سليمان في المقدار الذي يراه استصلاحاً له إن كان يُرجى صلاحه، أو إعداماً له لئلا يُلقِّنَ بالفساد غيره.

قال ابن عاشور: ويُؤخذ من هذه الآية جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عُيِّنَ له من عمل، أو تغيَّبَ عنه.

وقوله: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾: دليل على أنَّ العقوبة على قدْر الذنب لا على قدْر الجسد.

أما العقاب الخفيف للمُدان لتأديبه وتربيته كضرب الخيل لتعليم السير، أو السَّبْقِ بين الخيل مع ما فيه من التعب فمأذونٌ فيه للمصلحة العامة في الحروب.

ولكن: كيف يكون عذابه؟

والجواب: تكلَّم العلماء كثيراً في كيفية تعذيب الهدهد إذا ثبتَ غيابه بلا عذر، فقالوا: قد يكون عذابه بنتف ريشه الجميل الذي يزهو به بين الطيور حتى يصير لحماً، ثم يسلَّطُ عليه النمل فيلدغه.

أو يجعله خادماً لأمثاله الذين لم يُخالفوا، أو يوضع في قفصٍ، أو يُفرِّقُهُ عن إلفه، أو يجمعه مع أضداده، وبعض الطيور إذا اجتمعت تنافرت وتشاجرت، ونتف بعضُها ريش بعض؛ لأنهم أضدادٌ، ولذلك قال المتنبي:

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقتِهِ بُدُّ

قال العلماء: لأنه من عادةِ الأجناس أن تتآلف، والأضداد أن تتخالف فقالوا: الأشباهُ لا تختلف، والأضداد لا تأتلف.

وقال أهل التاريخ: أنه قَدِمَ مرةً ناسٌ إلى مكة، وفيهم الصالح والطالح، فقالوا لبعض أهل مكة: قدمنا إلى بلادكم، فعرفنا في يومين خياركم من شِراركم، فقال المُتحدث المكي: وكيف ذلك؟ قال الضيوف: لَحِقَ خيارُنا بخياركم وشِرارُنا بشِراركم فألِفَ كلٌّ شكله.

وكان من عادة ملوك الفرس، أنَّ أحدهم إذا غضب على عالم حبسهُ مع جاهل؛ لأنَّ الاقترانَ مع الجاهل فيه عذاب للروح، والضرب بالسياط عذاب للبدن، والعذاب على الروح أوجع.

وسُئِلَ بعض الحكماء: ما بال الرجل الثقيلِ أثقلُ على الطبعِ من الحِمْلِ الثقيل؟ فقال: «لأنَّ الحِمْلَ الثقيل يُشارك الروحُ الجسدَ في حمله، والرجل الثقيل تنفُرُ الروح بحمله».

ويروي المؤرخون: أن الرشيد غضب يوماً على «ثُمامة بن الأبرش» وكان عالماً مُتَبحِّراً، فسلَّمه إلى خادمٍ يُقال له «ياسر»، وكان ياسر يُحسن إلى الشيخ، ويتأدب معه.

وفي يوم كان «ياسر الخادم» يقرأ القرآن، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات] وقرأها بفتح الذال «المكذَّبين»، وسمعه الشيخ

ثمامةُ يقرأ بهذا الخطأ، فقال له: يا ياسر ويحك: المُكذَّبين هم الرُسل، فقال له ياسر: كان يُقال عنك إنك صنديقٌ فلم أُصدق، أَتشتمُ الأنبياء يا ثمامة، ثم أعرض عن الشيخ وهجره، فلما رضي الرشيد عنه، وردَّه إلى مجلسه، سأله يوماً في أثناء المحاورة ما أشدُّ الأشياء؟

قال ثمامةُ: عالمٌ يجري عليه كلام جاهل، ثم أخبره بقصة خادمه ياسرٍ، فضحك الرشيد من ذلك.

هذه أنواع العذاب للهدهد إذا ثَبَتَ غيابه بدون عذر، ولكن صاحب كتاب «إنسان العيون» قال قولاً آخر في عذاب الهدهد، قال: لأُزَوّجَنَّهُ عجوزاً.

قال العلماء: وكل هذا منسوخ بشريعة نبينا محمد ﷺ.

أما قول سليمان: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾، وهنا انتهاء كلامه عليه السلام.

والسلطان: هنا، الحجة البينةُ، والعذر الواضح الذي يدفع عنه العقوبة، فصار مآل الكلام: ليكوننَّ أحد الأمور الثلاثة: العذاب، أو الذبح، أو الإتيان بسلطان، فإن كان الأمر الثالث فلا تعذيبَ ولا ذبحَ، فكان الأمر أنه جاء بسلطان وعذر.

وقد ذكر الآلوسي، وصاحب «روح البيان» وغيرهما قصة ننقُلها قالوا: وجاء في بعض الآثار، أن سليمان طلب من العُقَاب أن يُفتش عن الهدهد، فارتفع العُقاب قليلاً وإذا بالهدهد قد أقبل، فلما رأى العقابَ خاف وخاطبه قائلاً: بحق الذي قَوَّاكَ إلا تركتني، فتركه، وقال للهدهد: إنَّ نبي الله حلف أن يُعذبك أو يذبحك، قال الهدهد: وما استثنى؟ قال العُقاب: بلى، قال:

﴿ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ ﴾، فقال الهدهد: نجوت إذاً.

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص» محمد السيد الوكيل: كان الهدهد متأكداً من أنَّ سليمان سيغضب عليه لغيابه بغير إذنٍ، وكأنه كان يتوقع وعيدَ سليمان، لذلك لم يكد يصل إلى مركز القيادة حتى أبدى عُذره، دون أن يسأله القائد عن سبب غيابه، وكانت مُدة غيابه يسيرة لأنه يعلم أنه تخلَّفَ عن مجلس سليمان فتعجَّلَ العودة وبادرَ سليمان بالكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ ﴾ [النمل].

وقوله: «فَمُكِثَ» فيه قراءتان: الأولى من باب كَرُمَ، والثانية: ﴿ فَمَكَثَ ﴾ من باب نَصَرَ، والقراءتان تُفيدان أنَّ الهدهد رجع إلى سليمان بعد زمنٍ قليل من تَفَقُّده.

وقوله: ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ ﴾ بادر الهدهد سليمان بالكلام حتى لا ينهرهُ، وقول الهدهد لهذه العبارة: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ ﴾: فيه تشويق إلى استماع لما سيقوله له، وفيه تنبيه لسليمان بأنَّ في مخلوقات الله ممالكَ وملوكاً تُداني مُلكه، ونحن نعلم، أنَّ معرفةَ أحوالِ الأمم والممالكِ من الأمور الهامة التي يعتني بها الملوكُ الصالحون ليكون ذلك من دواعي الازدياد من العمل النافع بما عند الآخرين، وسليمان لا يجهل أن هناك مملكة سبأ، ولكن ما ظن أنها بهذه العظمةِ.

وفي كلام جميل للوزير الأندلسي ابن الخطيب في كتابه «ريحان الكُتّاب» قال: فأخبار الأقطار مما تُنفِقُ فيه الملوك أسمارها وترقُمُ ببديعِ هالاته أقمارها، وتستفيد منه حُسنَ السِّيَرِ، والأمن من الغِيَر.

قال العلماء: والإحاطة في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي اطلعتُ على شيءٍ لم تتطلع عليه يا نبيَّ الله، وعلمتُ هذا الأمر من كل جوانبه، كل ذلك ليُرغبَ سليمان بالاستماع إليه، وقبول اعتذاره، فإنَّ النفوس تميل إلى قبول الاعتذار الدال على أمرٍ بديع، وتميل إلى سماعِ ما لا تعلمه، وأيَّدَ الهدهد قوله بقوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾.

«سَبَأٌ»: اسم رجل هو «عَبَّشَمْسُ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، و«سبأ» لقبه؛ لأنه أول من سبأ في غَزْوِهِ وذريَّتُهُ كانوا في اليمن ثم تفرقوا، ثم أُطلق اسم «سبأ» على ديارهم وبلادهم، وأصلهم من العراق، نزحوا إلى بلاد العرب «اليمن» وهم العرب المُسْتعربة.

انتقل «يَعْرُبُ» من العراق، وسكن اليمن «جنوب البلاد العربية» ثم استقر في موضع بنى فيه «ظفار» وهي أول مدينة في بلاد اليمن، ثم انتشر أبناؤه في الجنوب على البحر وهو القسم المُسمى «بلاد حضرموت»، ثم بنى ولده «يشجب بن يعرب» مدينة صنعاء، وسمى البلاد «باليمن»، ثم خلفه «عَبَّشَمْسُ»، وساد قومه، ولُقب «سبأ»، واستقلَّ بأهله فبنى مدينة «مأرب» عاصمة «سبأ».

قال النابغة الجعدي: يمدحُ أميراً:

مِن سبأ الحاضِرِين مأرب إذ   يبنون من دون سيلهِ العَرِما

قال المؤرخون: وكانت بلاد اليمن – أو القحطانية – منقسمةً إلى ثلاث قبائل:

اليمنيةُ، والسبئية، والحميرية، و لكل قبيلة ملك، ولكل قبيلة موقع ومكانٌ، سموه «المِخلاف»، ويُسمى كل ملكٍ «قيلاً»، والملك الذي تتبعُهُ

الأقيالُ كلها يُسمى «تُبَّعاً» أي المتبوع من أُمراءٍ كُثرٍ.

وفي حدود القرن السابع عشر قبل هجرة النبي ﷺ انفردت سبأ بالمُلك، وكان أشهر ملوكهم، أو أول ملوكهم «الهدهادُ بن شرحبيل» ويُلَقَّبُ «اليَشَرَّحُ»، ثم وُلِّيت بعده «بلقيس ابنته»، وكان أهل سبأ صابئةً يعبدون الشمس.

أما قوله: ﴿ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾: والنبأ: هو الخبر الهام العجيب المُلفت للنظر، ولذلك وقف المفسرون طويلاً عند قوله: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾:

أولاً: وقفوا عند جمال التعبير في كلمتي «سبأ ونبأ»، وبين هاتين الكلمتين مُحسِّنٌ بديعي يُسمى الجناس.

والجناس نوعان:

النوع الأول: جناس تام: وهو أن تتفق الكلمتان في الحروف وتختلفان في المعنى، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم]، فالساعة الأولى: تعني يوم القيامة، والساعة الثانية: مُطلق الوقت، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور].

الأبصار الأولى: جمع بصر، وهي حاسة الرؤيا.

والأبصار الثانية: جمع بصر، وهو العلم، وفي الشعر قولهم:

رحلتُ عن الديار ولكم أسيرُ وقلبي في محبتكم أسير

النوع الثاني: الجناس الناقص: وذلك مثل الآية التي نحن بصددها: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

والناقص: هو ما اختلف فيه اللفظان، في الحروف أو عددهما أو موقعهما، ومثاله في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [الهمزة].

وفي الحديث قوله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

قال العلماء: والجناس لا يكون مؤثراً جميلاً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتلَّكف، وكذلك كما في جناس القرآن المارّ.

أما الجناس المُتكلف فيأتي سَمِجاً، يتصيَّدُهُ صاحبه، كقول ذلك الأديب: «في أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواهِ القِرب، فوقع رجلٌ كان يحملُ العنب».

ووقفوا عند قوله تعالى: ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ وقالوا: تعبيرٌ جميلٌ لفظاً، دقيقٌ معنىً، ألا تراهُ لو قال: «وجئتك من سبأ بخبر»، لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً؛ لأنَّ الخبرَ يُراد به مُطلقُ الخبرِ، أما النبأ فلا يُقالُ إلا للخبر العجيب المُدهش المُلفت للنظر كما مرَّ معنا.

ثم وصفَ النبأ بقوله: ﴿ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ أي أنه شيء مُحقق لا شُبْهَةَ فيه، ولذلك قال البروسوي: تُشير الآية إلى أنَّ من شرط المُخبرِ أن لا يُخبرَ عن شيءٍ إلا أن يكون مُتيقناً فيه سيما عند الملوك والحكام.

قال العلماء: وقول الهدهد: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ ﴾، يدل على أنَّ للصغير أن يقول للكبير، وللمُتعلم أن يقول للعالم: «عندي ما ليس عندك، إذا عَلِمَهُ وتَيَقَّنَهُ»، فهذا عمر بن الخطاب مع جلالته لم يكن عنده علمٌ بالاستئذان، وغابَ جواز التيمم عن ابن مسعود حتى قال: لا يتيمم الجُنبُ، ووجد علمهُ عند عمّار.

وقد سُئِلَ عليٌّ رضي الله تعالى عنه وهو على منبر الكوفة سؤالاً فقال: لا أدري، فقال السائل: ليس مكانك هذا مكان من يقول لا أدري، فقال علي

رضي الله عنه: «بلى والله، هذا مكان من يقول لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكانَ له».

قال العلماء: ثم شرحَ الهدهد النبأ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل].

بدأ بنبأ عجيب عند بني إسرائيل لم يعهدوه، وهو كونُ المرأةِ ملكاً، ووجهُ العجبِ أن المُلوك عادةً من الرجال، وعَمَلُ الكافرين في توليةِ امرأةٍ عليهم ليس حُجةً، وهو قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾.

لهذا أخرج البخاري من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ لما بلغهُ أن أهلَ فارس قد ملَّكوا عليهم ابنةَ كسرى قال: «لن يُفلحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأةً».

قال ابن العربي القاضي: وهذا نصٌّ في أنَّ المرأة لا تكون خليفةً، ولا خلاف فيه.

ونُقِلَ عن «محمد بن جرير الطبري» أنه يجوز أن تكون المرأة قاضيةً ولم يَصِحَّ ذلك عنه، وقال القرطبي: ولم يَصِحَّ هذا عن الطبري.

ولعله نُقِلَ عنه كما نُقِلَ عن أبي حنيفة أنها: تقضي فيما تشهدُ فيه، وليس بأن تكون قاضيةً على الإطلاق، بأن يُكتب لها مسطورٌ بأنَّ فلانةَ مُقَدَّمَةٌ على الحُكم - أي القضاء - وإنما على سبيل التحكيم والاستنابةِ في القضية الواحدة.

ثم يقول القرطبي: وهذا هو الظنُّ بأبي حنيفة وابن جرير الطبري.

وقد جرت مُناظرةٌ في هذه القضية - تولي المرأة القضاء - بين القاضي «أبو بكر بن الطيب المالكي» مع الشيخ «أبي الفرج بن طرار» شيخ الشافعية في بغداد في مجلس السلطان الأعظمِ «عضد الدولة».

قال أبو الفرج بن طرار: يجوز أن تَلِيَ المرأة القضاء، والدليل على ذلك: أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسماعُ البيّنةِ عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكنٌ من المرأةِ كإمكانه من الرجل.

فردَّ عليه القاضي أبو بكر، ونَقَضَ كلامه بالإمامةِ الكُبرى، وقال: إنَّ الغرضَ من الإمامةِ، حِفظ الثغور، وتدبير الأمور، وحماية البيضة - الحوزة- وقبضُ الخراج، ورَدُّهُ على مُستحقيه، وذلك لا يتأتى من المرأة كَتَأَتِّيه من الرجل.

قال ابن العربي مُعلقاً على هذه المُناظرة: إنَّ كلام الشيخين ليس بشيءٍ، فإنَّ المرأة لا يتأتى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تُخالطَ الرجال، ولا تُفاوضهم مُفاوضةَ النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاةً حَرُمَ النظرُ إليها، وإن كانت بَرْزَةً لم يجمعها والرجال مجلس تزدحم فيه معهم، وتكون مُناظرةً لهم، ثم قال: «ولن يُفلحَ قطُّ من تصوَّرَ هذا ولا من اعتقده».

ويقول صاحب «الأساس في التفسير»: ويدل حديث النبي ﷺ: «لن يُفلحَ قومٌ ولوا أمرهم امرأةً»، على أن سياسة الدولة العليا إذا كانت بيد امرأةٍ، فإنَّ هذه السياسةَ يُصيبُها الخلل، وما من مرةٍ حكمت امرأةٌ إلا تبيَّنَ بعد فترةٍ آثارٌ سيئةٌ لِحُكمها.

فالملكة «فكتوريا»، ملكةُ بريطانيا سابقاً، والملكة «كاترين»، ملكةُ روسيا، و«جولد مائير»، و«باندرا نايكا»، و«أنديرا غاندي»، و«بنازير بوتو» قبل الآن، و«تاتشر»، وثلاث منهن سقطن وسقط حزبُهُنَّ معهن: مائير، وباندرا، وأنديرا.

وقول الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾، هذه المرأة هي «بلقيس» كانت مُعاصرةً لسليمان، وكانت امرأةً عاقلةً، كان لها مجلسٌ للشورى، يضم

ثلاثمائة واثني عشر رجلاً - كما نقل مَعْمر عن قتادة، وأخرجه عبد الرزاق-.

ويُقالُ: هي التي بنت سد مأرب، والتحقيق أنها ليست هي التي بنت السدَّ، بل بدأ بناء السد ملوكُ سبأ، ثم ملوكُ حِمْير أتمُّوه، وبلقيس رمَّمتهُ، حيث كان يُرَمَّم كل سنة، وكانت عاصمةَ مُلكها مأرب، بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل.

وقول الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي نالت كل شيءٍ حسنٍ من شؤون المُلك.

قال العلماء: وبناء الفعل هنا للمجهول: ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾، يعني أنَّ هذا المُلكَ نالتهُ بوسائلَ وأسباب شتّى.

فمنه ما كان إرثاً من المُلوك الذين سبقوها، ومنه ما كان كَسْباً من كسبها واقتنائها، ومنه ما وهبها الله من عقلٍ وحكمةٍ، وما منحَ بلادها من خصب وثراءٍ، ووفرةِ مياه، وكان اليونان يُلقبون مملكةَ اليمن: بالبلاد السعيدة، أخذاً من معنى «اليُمْنِ» في العربية، وقد قال تعالى مُشيراً إلى هذا بقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ].

وقد شاهدَ هذا السدَّ «الحسن الهمذاني» ووصفه في كتابه «الإكليل» في أوائل القرن الرابع الهجري، ووصفه الرحالةُ «آرنو» ١٨٨٣ م، وهو فرنسي، وكذلك الرحالةُ «غلازرُ»، وهو فرنسي أيضاً.

وهذا السدُّ جُعِلَ بين جبلين يُعرف كلاهما بـ«البَلَق»، فهذا البَلَق الأيمن، والبَلَق الأيسر.

وهذا السد حائطٌ طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراعٍ، وعرضه مائة

وخمسون ذراعا، وارتفاعه بضعةَ عشرَ ذراعاً.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾، المُراد بالآية: الشيء العجيب النادر الوجود، تقول: فُلانٌ آية في الأدب، أو في الكرم، كما قال العلماء، فما هي عجيبةُ هذه الجنان؟

والجواب: ذكره السيوطي في «الدر المنثور» فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، قال: لم يكن يُرى فيها بَعُوضٌ قط، ولا ذباب، ولا عقارب ولا حيات، بل إنَّ الركبَ ليأتونَ في ثيابهم القملُ، فما هي إلا يومٌ، فتموت تلكَ الهوام، وقالوا: إن الإنسان ليدخل الجنتين فيضعُ القُفَّةَ على رأسه ويخرج حين يخرجُ وقد امتلأت القُفَّةُ بالفاكهة دون أن يَمَسَّ منها بيده شيئاً، قال ابن عاشور: وهذا من المبالغةِ.

وأما رجاحةُ العقول عندهم، فتراه في قول النبي ﷺ: «أتاكم أهلُ اليمن، أرقُّ أفئِدةٍ، الإيمان يمانٌ، والحكمةُ يمانيةٌ»، وكل ذلك من عطاء الله.

قال ابن عاشور: وخَصَّ الهدهدُ من نفائس الأشياء التي عند بلقيس العرشَ، إذ لم يكن لسليمان مثله، فكان عرشاً بديعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل]، والعظيم: هذا اللفظ مُستعملٌ في النفاسَةِ والفخامةِ.

قال قتادة: كان سريرها من الذهب، مُكلَّلٌ بالياقوت واللؤلؤ، قوائمُهُ من جوهرٍ.

قد يقول قائل: وصفَ عرشها بأنه عظيمٌ، وهذا الوصف يخصُّ عرشَ الرحمن - وهو رب العرش العظيم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ

﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦﴾ [المؤمنون] - فماذا هو الجواب؟

قالوا: عرشها عظيمٌ بالنسبةِ لأمثالها من المُلوك، أما عرشُ الله تعالى، فعظيم بالنسبةِ لكل الخلق عَظَمَةً مُطلقةً.

ثم تابع الهدهد كلامه قائلاً: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل].

بيَّن الهدهد أنَّ هذه المملكةَ رغمَ رُقِيِّها المادي، فإنهم في الجانب الاعتقادي مُنحطُّون لكونهم يسجدون للشمس، أي يعبدونها، ومن أجلِ الاهتمام بهذا الخبر تُلاحظ: أُعيدَ فعل ﴿وَجَدتُّهَا﴾، وهذا استنكارٌ منه لهذه العقيدة.

وحالهم يُشبه قوله تعالى في الكفار: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم].

فقوله: ﴿ظَٰهِرًا﴾ يفيد أنَّ للدنيا ظاهراً وباطناً:

فظاهرُها ما يعرفه الناس من أمور المعاش، كيف يكتسبون ويتَّجرون، ومتى يغرسون، ومتى يحصدون، وكيف يبنون، وكيف يَتنعَّمون بزخارفها وملاذِّها، أما باطنُها - باطن الحياة الدنيا - فهي أنها مَمَرٌّ للآخرةِ يتزود منها بالطاعات والأعمال الصالحة وفقَ منهج الله.

والمُلاحِظ لقوانين البشر الوضعية المُغايرةِ لمنهج الله، يفهمُ هذه الآية جيداً، خذ روسيا التي فُتِنت بالنظام الشيوعي وتَبَنَّته، ودافعت عنه بكل قوة، هي التي أسقطت هذا النظام ونقضتهُ، ولذلك قالوا: «ما اندحرت الشيوعيةُ، إنما انتحرت على أيدي أصحابها».

انظر إلى قوانين التأمين، والإصلاح الزراعي، كيف حَملوا مشعلها، ثم

طالبوا بإعادة النظر فيها، ثم بإلغائها، ولذلك قال أحد العلماء: «لو عَلِمَ الذي اكتشفَ السولار مثلاً حقيقتهُ لما استخدمهُ فيما نستخدمُهُ نحن الآن» وهكذا.

قال المفسرون: وهذا الكلام من الهدهد يدل على أنه كان مُدرِكاً لقضيته الإيمانيةِ، وهي معرفةُ الله، ووجوبُ السجود له، وحُرمةُ السجود للشمس، وذلك إلهاماً من الله تعالى له.

وقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، أي حسَّنَ لهم الشيطانُ عبادة الشمس وغيرها من أنواع الكفر والمعاصي، فَصَرفهم عن الدين الحق، وعن السبيل القويم.

وكان عربُ اليمن أيامئذٍ من عبدةِ الشمسِ، ثم دخلت فيهم الديانةُ اليهودية في زمن «تُبَّعَ أَسْعَدَ» من ملوك حِمير، ولكونهم عبدةَ شمسٍ، كانوا يُسَّمَّوْنَ «عبد شمس»، كما مرَّ معنا.

وبعد أن بيَّن الهدهدُ لسليمان صِفَةَ المكان، والأديان، وصِبغةَ الدولةِ، وثروتها، أشار الهدهد إلى أنَّ من لم يكن على التوحيد فلن ينفعهُ طريقٌ آخر يسلُكه، لذلك قال: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]، أي إلى الله المعبود بحق، وإلى توحيده، ثم تابعَ الهدهد كلامه: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل]، الكلام مُتصلٌ، فصار المعنى: صَدَّهم الشيطان عن السبيل القويم، لئلا يسجدوا لله، وحسَّنَ لهم عبادةَ الشمس فسجدوا لها، ولذلك قال: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾، أي لماذا زيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم؟

الجواب: لئلا يسجدوا لله.

و«ألا»: مؤلفةٌ من «أن»، و«لا»، وعند إدغامهما تُقلب النون لاماً فتصير: «ألّا»، أن ناهيةٌ، ولا النافيةُ.

قال ابن كثير: ولما كان الهدهد داعياً إلى التوحيد، والسجود لله وحده نُهِيَ عن قتله، ولذلك ورد من حديث أبي هريرة الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داوود وابن ماجة أنه ﷺ: «نهى عن قتل النحل والنمل والهدهد والصُّرَد»، والحديث صحيح.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وإخراجُ الخبءِ: أي إبرازه للناس، أي عطاؤه عز وجل للخلقِ ما هو غير معلومٍ لهم من المطر، من السماء، هذا خَبْءُ السماء، وخبءُ الأرض، كنوزها ونباتُها وأرزاقُها، والخبءُ: المخبوء أيّاً كان.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾، وقُرِئَ: «ما يُخفون وما يُعلنون»، ما يخفونَ في القلوب، وما يعلنون: بالألسنةِ والجوارح، وفي هذا إشارةٌ إلى اسمه العليم، وفيه تنبيهٌ على تساوي علمه للظاهرِ والباطن.

قال العلماء: ألا تُشْدَهُ حينما تعلم أنَّ في الدماغ «١٤٠» مليار خلية استناديةٍ لم تُعرف وظيفتُها بعد.

وألا تُدهشُ: إذا علمتَ أنَّ في شبكية العين «١٣٠» مليون مخروط وعُصَيَّة، وأنَّ العصبَ البصري يمر في تسعمائة ألف عصب.

ألا تعجب حينما تعلم أنَّ في رأسك - قبل الصلع - ثلاثمائة ألف شعرة، وأنَّ لكل شعرةٍ عصباً وشُرياناً ووريداً، وغُدةً دهنيةً، وغُدةً صبغيةً، «فعلمُهُ تعالى يستوي فيه الظاهر والباطن».

فاحذر - ياعبد الله - أن تقول أنا عالمٌ، بل قل: طالب علم، لأنه لا أحد

يُحيطُ بالعلم، يظل المرءُ عالماً ما طلبَ العلم، فإذا ظنَّ أنه قد علِمَ فقد جهل، ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ [البقرة ٢٥٥].

دخل مرةً على الشافعي عالم تقليدي - كما ذكر ذلك صاحب كتاب «موسوعة أسماء الله» - والشافعي صغير السنِّ، فأراد هذا الشيخ أن يُسَفِّهَ الشافعي أمامَ تلامذته، فقال له: يا غلام، هذا الذي تقوله ما سمعناه، من أينَ جئت به؟ ما قاله أحدٌ غيرك، فأجابه الشافعي بكل أدب: يا سيدي تعلّمتَ العلمَ كلَّهُ؟ هنا لا يستطيع هذا العالم أن يقول نعم، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ [الإسراء].

فقال الشيخ: لا، فردَّ الشافعي عليه وقال: يا سيدي هذا العلم من الشطر الذي لا تعرفه، ثم يقول صاحب كتاب «أسماء الله الحسنى» أحيانا: يكون أحد الناس خِرّيج جامعةٍ عالمية فيتفاخر: أنا عندي «بُورد» من كذا، وآخر يقول: عندي «إف آر إس» من بريطانيا، آخر يقول: معي «أكريجيه» - وهي أعلى شهادة بالطب في فرنسا - من السوربون، وبعضهم يفتخر بأُستاذه، أنا أخذتُ العلم من البروفسور..

فإن جلست - يا عبد الله - إلى مُثقف مُتفاخر بعلمه، قل له: من علَّمَ النبي ﷺ، فحسبه ﷺ هذا العلم، وهذا الشرف:

يا أيها الأُميُّ حسبُكَ رُتبةً في العلم أنْ دانت لك العلماءُ

فإذا حدَّثتك نفسُكَ - يا عبد الله - بالافتخار بعلمٍ من العلوم، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦ ﴾ [يوسف].

ثم تابع الهدهد كلامه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل].

أي عرشه مُحيطٌ بكل شيء من الشمس إلى الكواكب إلى الفُلك الأعظم، فما أصغرَ عرشها في جنبِ عظمته، فَعِظَمُ مُلكها لا يُبرر لها كُفرها بالله.

فعرشُ بلقيسَ عظيمٌ بالنسبة لعُروشِ المُلوك، وعرشُ الله عظيمٌ بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض كما قال «النسفي».

قال العلماء: نُلاحظ أنَّ الهدهد كان مُخلصاً لنظام دولته، وحريصاً على الخدمةِ لها، وعلى مُحاربةِ عدوها، وهكذا تكون الأمةُ النموذجيةُ، يقومُ كل فردٍ فيها بخدمتها، بحيثُ يكونُ المردود العامُّ هو حصيلةُ مجهود جميع الأُمة.

ومن جميل ما ذكره صاحب «روح البيان»: أنَّ «أبا قُلابَةَ» الحافظ العالم واسمه «عبد الملك بن محمد الرقاش» رأت أُمه رؤيا وهي حاملٌ به أنها ولدت «هدهداً» فقال لها المُؤوِّلُ: إنْ صدقت رؤياكِ تلدين ولداً ذكراً كثير الصلاة، فولدت ولداً، فلما كبر كان يُصلي كل يوم وليلة أربعمائة ركعةٍ، وحدَّثَ من حِفظه «بستين ألف حديث»، وتوفي رحمه الله سنة «٢٦٧ هـ».

قال القاسمي: وهذه السجدةُ من عزائم السجود.

وقال الزمخشري: هي من عزائم السجود، لأنَّ مواضع السجود في القرآن: إما أمرٌ بالسجود، وإما مدحٌ لمن قام بالسجود، أو ذمٌّ لمن ترك السجود، وإحدى القراءتين: ذمٌّ لتارك السجود: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾.

والثانية أمرٌ بالسجود: ﴿أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، أي: يا هؤلاء اسجدوا لله.

والآن: ماذا كان جواب سليمان؟

كان جوابه قوله: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل].

قال ابن عاشور: هذا هو الجواب: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾، خَشِيَ سليمان أن يكون ذلك الكلام من الهدهد كلاماً ألقاهُ الشيطان إليه ليُضلَّ سليمان ويفتِنَهُ بالبحثِ عن مملكةٍ موهومةٍ، فعزمَ سليمان على استثباتِ الخبر بالبحث الذي لا يترك ريبةً، وذلك ليُخزيَ الشيطان.

قال القرطبي: وفي هذه الآية: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾، دليلٌ على أنَّ الإمامَ يجب عليه أن يقبلَ عُذرَ رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم إذا تبيَّن له عُذرُهم، ثم قال القرطبي: وهنا صار صدق الهدهد عُذراً في دفع العقوبة؛ لأنه أخبرَ بأمرٍ فيه رضوان الله وهو «الجهاد»، وكان سليمان قد حُبِّبَ إليه الجهاد، وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العُذرُ من الله، من أجل ذلك أنزلَ الكتاب وأرسل الرسل».

قال القرطبي متابعاً كلامه: ولكن للإمام الحق أن يمتحنَ، وأن يتأكد من ذلك، وبخاصةٍ إذا تعلق به حكمٌ من الأحكام الشرعية كما فعلَ سليمان، فإنه لما قال له الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]، لم يُحرِّكْهُ الطمعُ الدنيوي، ولم يستجرَّهُ حبُّ الزيادة في المُلك، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه لما قال الهدهد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]، أغضبهُ ما سمعَ، وطلبَ تحصيلَ علم ما غابَ عنه من ذلك فقال: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل].

وهذا يُشبه ما وردَ في الصحيح عن «المِسْوِرِ بن مَخْرِمَةَ» حين استشار

عمر في قضية المرأة التي ضُربت على بطنها فألقت جنينها، وهذا يُسمى «الإملاحي»، قال المغيرة بن شعبة: شهدتُ النبي ﷺ قضى فيه بِغُرَّةٍ عبدٍ أو أمةٍ.

قال عمر: إيتني بمن يشهدُ معك، قال: فشهِدَ له «محمد بن مسلمة»، وفي رواية أن عمر قال له: لا تبرح حتى تأتيني بالمخرجِ من ذلك، قال المغيرة: فخرجتُ فوجدتُ «محمد بن مسلمة» فجئتُ به فشهِدَ.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وفي قول سليمان: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾، الغايةُ تحقيقُ صِدْقِ خبر الهدهد، والنظر هنا بمنظار العقل والتأمل، إذ خَشِيَ سليمان أن يكذبَ الهدهد ليتخلَّصَ من العقاب، ولذلك أوضَحَ سليمان، أنه يخشى أن يكون كاذباً.

وهذا من سليمان تهديد للهدهد حتى يبقى خائفاً ويُغلِّبُ الخوف على الرجاء، وذلك - عند أهل التربية - أقوى في التأديب على مثل فعلتهِ التي فعلها، والغياب بدون إذن، ولذلك قال سليمان: إذا كنت حريصاً على تصديق نفسك، فاحمل أنت كتابي لهم، وذلك ما ذكره الكتاب الكريم بقوله: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]، لأنه بعد توجيه الكتاب سينكشفُ ما يُصدّق الهدهد أو يُكذّبُهُ.

وقوله: ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾، نلاحظ أنَّ سليمان لم يقل: «فألقه إليها»، لماذا؟

والجواب: لأن الهدهد قال لسليمان: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل ٢٤]، فكأن سليمان قصد من ذلك أن يقول: «ألقه إلى الذين هذا دينهم»، اهتماماً منه بأمر الدين.

قال ابن عاشور في «تفسيره»: أَلهَمَ الله سليمان بحكمتهِ عز وجل أن يجعل

لاتصاله ببلاد اليمن طريقَ المُراسلة، فكتبَ إلى ملكةِ سبأٍ كتاباً لتأتيَ إليه، وتُصلِحَ ديانةَ قومها، وليَعْلَمَ أن الله ألقى في نفوس الملوك الذين عاصروه رهبةً له؛ لأن الله أَيَّدَهُ بأمورٍ عجيبةٍ، ولذلك كان ملوك زمانه حريصين على مرضاته وإن كانت مملكتُهُ أصغرَ من بعض الممالك الأُخرى في عهده، كمملكةِ اليمن ومصر، وهو في الأردن، وحدود مملكتِهِ إلى حدود مصر إلى البحر «بحر الروم».

قال المفسرون: ولم تزل عادةُ تبادل الرسائل بين الملوك من سُنَّةِ الدول ومن سُنَّةِ الدعاةِ إلى الخير يَدْعُونَ المشركين وغيرهم.

وقد كتبَ النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وقد عَظُمَ شأنُ الكتابةِ في دُول الإسلام.

قال الحريري في المقامةِ الثانية والعشرين: والمُنْشِئ جُهَيْنَةُ الأخبار، وحقيبةُ الأسرار، وقلمُهُ لسان الدولةِ، وفارس الجولة.

وكانت وسيلةُ المراسلة الطير الزاجل من حمامٍ ونحوه، والهدهد من فصيلة الحمام، وهو قابلٌ للتدجين، فلما فكر سليمانُ عليه السلام بالاتصال بمملكةِ سبأ لتصحيحِ عقائد أهلها، أحضرَ كتاباً وحَمَّلَهُ الهدهد.

سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ:

قال صاحب «روح البيان»: كتبَ سليمان كتاباً إلى بلقيس قال فيه: «من عبد الله سليمان بن داوود إلى ملكةِ سبأ بلقيس: بسم الله الرحمن الرحيم، السلامُ على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تَعْلُوا عليَّ وائتوني مسلمين»، ثم طبعهُ بالمسكِ، وختمه بخاتَمِهِ المنقوش عليه، أو على فَصِّه «اسمُ الله الأعظم»، ودفعَهُ إلى الهدهد.

وقوله: ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾، الإلقاء: هو الرمي على الأرض، إما حقيقةً بأن يُلقيهُ من منقاره إلى الأرض، أو يدخل المكان المُخصص إليه، فيتناول أصحابُهُ الرسالة من رجله، وهو بمعنى الإلقاء كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل].

المعنى: يا ربنا هؤلاء شُركاؤنا من الأصنام والأوثان التي عبدناها من دونك، فتنطق الأوثانُ بتكذيب مَنْ عبدها حتى تظهَرَ فضيحةُ الكفار.

ولما كانت الأصنام في العادة لا تنطق، عبَّرَ الله بلفظ «الإلقاء» المؤذنِ بكونِ القولِ أجراه الله على أفواهِ الأصنام دون أن يكونوا ناطقين، فكأنه سقطَ منهم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، أمَرَ سليمان الهدهد بحُسنِ الأدب مع الملوك، أي كُنْ قريباً بحيثُ ترى مُراجَعَتَهم.

وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، والرجْعُ: ما يُقررونه من قبول أو رفض.

قال القرطبي: إنَّ الهدهدَ وصل، فوجد الجدران والحُجُبَ دونها، فعَمَدَ إلى كوَّةٍ كانت بلقيسُ قد صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لتقومَ بأداء شعائر العبادة للشمس حيث كانوا يعبدونها، فدخل الهدهد من الكوة، ورمى الرسالة على بلقيس وهي نائمة في سريرها، فلما انتبهت ورأت الرسالة خافت وظنت أن أحداً دخل عليها، ثم قامت فوجدت نفسها كما هي فنظرت إلى الكوة اهتماماً بأمر الشمس فرأت الهدهد.

فلما اطلعت على الرسالة، وعلمت أنها من سليمان، هابت الأمر وسارعت

إلى الملأ تُشاورهم في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾[النمل].

قال ابن كثير: هذا الكتاب في غاية الفصاحة والبلاغة، فإنه حصَّلَ المعنى بأيسرِ عبارةٍ وأحسنها.

قال القرطبي: وصفت الكتابَ بأنه كريمٌ، لِما تضمَّنَ من لين القول، والموعظةِ في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل، وحُسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمَّنَ سَبّاً ولا لعناً، ولا ما يُغيِّرُ النفسَ، ومن غير كلام نازلٍ ولا مُسْتغلق، وهذه عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل، ثم إنَّ الكتابَ سُطِّرَ على ورقٍ راقٍ، وبخطٍ جميل، وهو ممهورٌ بخاتم سليمان الرسميّ، وسليمان معروفٌ عندها بعظمةِ مُلكه، كل ذلك يدل على أنه كتاب هامٌّ ينبغي دراستُهُ وأخذ الرأي فيه، ثم إنه كتابٌ مبدوءٌ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهذا من تمام نفاسَتِهِ، لقوله ﷺ: «كل كلامٍ لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أجذمُ».

ويدلّكَ على أنَّ الكتاب كريمٌ كونه مختوماً، ولذلك جاء في الأثر: «أكرم الكتاب ختمُهُ».

أما صاحب كتاب «التأويلات النجمية»: فيرى أنها سمَّت الكتاب كريماً؛ لأنه كتابٌ كان سبباً في هدايتها، فهي اهتدت إلى حضرةِ الكريم، بكرامة هذا الكتاب.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب قوله: «أيما كتابٌ لم يَكُنْ مختوماً فهو أغلف» - لا تَعِي ما فيه -.

وورد عن ابن المقفع قوله: من كتب لأخيه كتاباً ولم يختمه، فقد استخفَّ به.

وورد عن أنس، أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى العجم قيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان عليه ختمٌ، فاصطنَعَ خاتماً ونَقَشَ على فصه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قال أنس: وكأني أنظر إلى وَبِيصِهِ - أي لمعانهِ وبريقه - في كفه ﷺ.

قال العلماء: ثم ذكرت بلقيس مصدر الكتاب وتصديرَه فقالت: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال ابن الجوزي: لما رأت الكتاب وعليه خاتم سليمان أرعدت وقالت: ﴿ قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل].

قال العلماء:لم يكتب أحدٌ «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل سليمان.

وقد روى ابن أبي حاتم بأثرٍ لَيِّن عن ابن بُريدةَ عن أبيه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «إني أعلم آيةً لم تنزل على نبيٍّ قبلي بعد سليمان بن داوود»، قلتُ يا رسول الله: أيُّ آيةٍ؟ فقال ﷺ: «سأُعَلِّمَكَها قبل أن أخرج من المسجد»، قال ابن بُريدةَ: فانتهى النبي ﷺ إلى باب المسجد، فأخرجَ إحدى قدميه، فقلتُ: نَسِيَ، ثم التفتَ إليَّ قال: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال ابن عاشور: وافتتاحُ الكتاب بجملة «بسم الله الرحمن الرحيم»، يدل على أنَّ هذا كان خاصّاً بكتب سليمان، أي أن يُتْبَعَ اسمُ الجلالة بوصفي الرحمن الرحيم، فصار ذلك سُنَةً لنبينا محمد ﷺ من بقايا سُنَةِ الأنبياء بعد أن تُنوسِيَ هذا الأمر، فإنه لم يُعرف أنَّ بني إسرائيل افتتحوا كُتُبهم: «باسَم الله الرحمن الرحيم».

قال العلماء: ثم ذكرت ما في الكتاب، وماهو مطلب سليمان: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣١﴾ [النمل].

في هذا الكتاب تحذيرُ ملكةِ سبأ من أن تُحاولَ الترفُّعَ عن الشيء الذي دعاها إليه، وهو قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، أي: اتبعوا سبيلَ الإسلام.

وقد جمع سليمان في كتابه هذا بين مُسالمَتِهِ، وبين دعوتها ودعوةِ قومها إلى اتباع التوحيد بصِفَتِهِ نبياً وإن لم يكن مُرسلاً إليها، لأنَّ النبي يُلقي الإرشاد والتوجيه إلى الهُدى حيث تمكَّن منه، كما قال شُعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود ٨٨]، وهذا نظير قول يوسف كذلك لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف]، وإن كان يوسف لم يُرسل إليهم، فالأنبياء مأمورون أمراً عاماً بالإرشاد إلى الحق، وكذلك دعوة سليمان هنا.

وقد ثَبَتَ عن نبينا ﷺ قوله: «لَأَنْ يهديَ بك الله رجلاً خيرٌ لك من حُمْرِ النعَمِ»، فهذه سُنَّةُ الشرائع الإلهية؛ لأنَّ الغايةَ المُهمةَ عندها هو إصلاحُ النفوس دون التشفي والغلبةِ.

كان الكتاب - كما قال بعض المفسرين - برقيةً موجزةً في أبلغ ما يكون من الإيجاز: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣١﴾، والعلوُّ هنا: الغطرسَةُ وكون هذه الرسالةِ تُخاطبُ ملكةً ذات شأن بهذه اللهجةِ المُختصرةِ، البعيدة عن الجدل والنقاش، فهذا أمرٌ يحتاج منها إلى نظرٍ وإلى أناةٍ، ثم إلى استدعاء مجلس المُستشارين، وهذا ما فعلتهُ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ٣٢﴾ [النمل].

سألتهم إبداءَ آرائهم، وماذا تعمل تجاه دعوة سليمان؟

وكلمة: ﴿أَفۡتُونِي﴾: تريد فتوى، والفتوى مأخوذةٌ من الفُتُوَّةِ أي القوةُ، فصار معنى أفتوني: أي أعطوني قوةً في الحُكم والحُجةِ أُزيلُ به إشكالاً يعرضُ.

وانتبه – يا عبد الله – هنا إلى عظيم أدبها مع قومها ومستشاريها، إذ أعلمتهم أنَّ عادتها معهم أن تُشاورهم في كل شأنٍ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، فكيف بهذه القضية الكبرى؟

قال ابن عاشور: كانت حكيمةً مستشيرةً لا تُخاطر بالاستبداد في مصالح قومها ولا تُعَرِّضهم لِمهاوي المستبدين.

وقولها: ﴿أَفۡتُونِي﴾: أي أخبروني بالفتوى، وهي إزالةُ مشكلٍ يَعْرِضُ.

وقولها: ﴿فِيٓ أَمۡرِي﴾، الأمرُ: الحالُ المهم، وأضافت ذلك لنفسها ﴿أَمۡرِي﴾؛ لأنها المسؤولة أمام سليمان في هذه القضية العَقَدية، ولأنها هي التي تحمل الخطأ في المنهج السياسي الذي تسلُكه، من هنا يُقال للخليفة، أو للسلطان، وللحاكم والأمير، ولعالم الشرع والدين: وليُّ الأمر.

وقولها: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾: هذا الكلام كنايةٌ عن المشاورة، والمُشاورةُ لا تقعُ إلا من حضورٍ، فالمشاورةُ لا تقع مع غائب.

قال المفسرون: أرادت بقولها: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾: أي حتى توافِقوا فيما أقطعُ به معكم، وفيما يصدر عنكم:

إما بالقول: كما جرى في هذه الواقعة.

وإما بالسكوت: والسكوت في معرض الحاجة إلى البيان بيانٌ.

وإما بعدم الإنكار: لأن مَنْ يحضر للشورى ولا يُنكر يُعَدُّ موافقاً، ولذلك قال علماؤنا: إنَّ على القاضي إذا جلس للقضاء أن يقضيَ بمحضرٍ من أهل

العلم، أو أن يُشاور أهل العلم في القضية، فعثمان كان يقضي بمحضرٍ من أهل العلم، وكان عمر يستشيرُ أهل العلم في القضية وإن لم يحضروا، وسكوتهم مع حضورهم تقريرٌ لِحكمهُ.

قال العلماء: وفي الآية دليلٌ على تحسين المُشاورة والاسترواحِ إليها في الأمور المهمة.

قال القرطبي: وفي الآية دليل على صِحة المشاورة، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران ١٥٩].

هذا الخطاب لرسول الله ﷺ بعد معركة أُحد، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ: «لا تترك مشورتهم وتقول في نفسك، لقد استشرتهم وطاوعتهم في المشورةِ فكانت النتيجة الهزيمة، لا، اسْتَشِرْهُم برغم ما حدث في أُحد؛ لأنَّ العبرةَ حصلت في هذه الشدةِ والمشقة، وهي: كون أُحدٍ معركةً للتأديب، ومعركةً للتهذيب، ومعركةً للتمحيص، ولذلك نجد الأمور بعد هذه المعركةِ قد سارت سيرها المُنتصر دائماً لأنَّ التجربة والتدريب والتعليم قد أثمرَ ثمرتَهُ».

«ثم إنك يا محمد لن تظلَّ حياً فيهم، وسيحكمُهم بشرٌ مثلهم لا يوحى إليهم، فلا تحرمهُ أن يأخذَ الآراء، وتكون أمامه فُرصةٌ يأخذُ بأفضل الآراء».

إذاً، المهم أن تحدُثَ المشورة، سواءً أخذتَ برأي البعض أو لم تأخذ، وهاهو الصديقُ شاور في حروب الردة، وأشار عليه البعض بعدم محاربةِ المُرتدين، فهل استجاب لهم؟

لا، المهم أن تحدث المشورةُ، ونعملُ بأفضل الآراء، فالمشورة تلقيحُ الرأي بآراءٍ مُتعددةٍ، ولهذا يقول الشاعر:

شاورْ سِواكَ إذا نابتكَ نائبةٌ يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

ثم يُكمل الشاعر النصيحة فيقول مورِداً دليله على قيمةِ الشورى:

فالعينُ تنظر منها ما دنا ونأى   ولا ترى نفسها إلا بمرآةٍ(١)

وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك تُعْرَضُ عليك، وعندها ينظر إليها عقلك بدون انفعال، لأنه لا هوىً لك فيها كما يقول علماؤنا، فالحق هنا هو الذي يجذبك للحكم فيها.

ولكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواكَ فيُحسِّنُها لك ويُجمِّلُها.

قال العلماء: ومدح الله الفُضلاء والمؤمنين الذين يحرصون على فضيلة الشورى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ المقصود بها ابتداءً الأنصارُ، كما قال عبد الرحمن بن زيد، ونقلها ابن عاشور عنه.

ومعنى ذلك أنهم - الأنصار - من المؤمنين الذين تأصَّلَ فيهم خُلُقُ الشورى، وقد عُرِفَ الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم، وكان من تشاورِهم الذي مدحهم الله به، هو تشاورهم حين أخبرهم نُقباؤهم بدعوة محمد بعد أن آمنوا به ليلة العقبة، فلما أبلغهم نُقباؤهم بذلك، اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري، وأجمعَ رأيهم على الإيمان به ﷺ، والنصر له.

والشورى - كما قال صاحب «أحكام القرآن» - وهو أبو بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ: الشورى أُلْفَةٌ للجماعةِ، ومسبارٌ للعقول، وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ إلا هُدوا، وقد قال أحد الحكماء:

---

(١) أي إنَّ العين ترى الشيء القريب والبعيد، ولكنها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآةٍ.

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعنْ برأي لبيبٍ أو مَشُورةِ حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فإنَّ الخـوافي[1] قوةٌ للقوادمِ[2]

ولذلك قيل في الحِكَم: أعقل الرجال لا يستغني عن مُشاورةِ أُولي الألباب، وأفره الدوابِ لا يستغني عن السوط، وأورعُ النساء لا يستغني عن الزوج.

ومن أقوال عليٍّ رضي الله تعالى عنه: «نِعْمَ الموازنةُ المشاورةُ، وبئسَ الاستعداد الاستبداد».

والشورى: من الأمور القديمة، وخاصةً في شؤون الحروب، فهذه بلقيس كانت امرأةً تعبد الشمس، ومع ذلك قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي ﴾، و أرادت بذلك أن تختبرَ عزمهم على مُقاومةِ عدوهم، وعلى طاعتهم لها، لأنهم إن لم يبذلوا الأنفس والأموال، لم يكن لها طاقةٌ بمقاومة عدوها، ولو أظهرت الاستبداد لكان وَهْناً لها في طاعتها، ولذلك لما استشارتهم، ردَّ عليها الملأُ بما أرضاها وسَرَّها، وفَوَّضُوا الأمر إليها حيث قالوا: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ ﴾ [النمل].

قولهم: ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ ﴾: أي في العدد والعُدد، وأصحابُ وسائلَ في القتال والغَلَبَةِ، مع كثرة القادرين على القتال العارفين بأساليبه.

وقولهم: ﴿ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ ﴾: أي أهلُ ثباتٍ وشجاعة ونجدةٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴾ [البقرة ١٧٧]: أي في مواقع القتال.

---

(١) الخوافي: ريشاتٌ إذا ضَمَّ الطيْر جناحيه خَفِيت.
(٢) القوادمُ: عشْر ريشاتٍ في مُقدم الجناح، وهي كبار الريش.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وهذا الجواب منهم، تصريحٌ بأنهم مستعدون للحرب دفاعاً عن مملكتهم، ومع إظهار هذا الرأي، فوضوا الأمر إليها لثقتِهم بأصالة رأيها.

وقولهم: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾: أي من حربٍ أو سلم، وذلك بعد أن ذكروا لها قوتهم، فنحن نمتثلُ أمركِ، وهذا دليل على الطاعة الكاملة المُفرطة.

قال الرازي: لما عرضت الأمرَ على أكابر قومها، وقالوا لها ما قالوا، أظهرت رأيها وهو: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النمل].

وقولها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾: هنا سؤال: لماذا يفسدون؟

والجواب كما قال علماؤنا، قالوا: لأنهم - الملوك - يُريدون مُلكاً، فينهبون كل ما يَمرُّون به، بل ويُخرِّبون ويُفسدون، ولماذا كل هذا؟

لأنه ساعةَ يصلُ الملكُ المُغير لا يضمن النصر، لهذا يُخرب كلَّ شيء، حتى إذا تحقق له النصر، واستقرت الأمور له، فإنه عند ذلك يُحافظ على الممتلكات والأشياء ولا يُخربُها.

وقولها: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾، لأن المُلْكَ يقوم على أنقاض مُلْكٍ قديم، فيكون أصحابُ السيادةِ هم أولَ من يُبدأُ بهم.

قال ابن عاشور: نلمس من كلامها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ ..﴾ تفضيل السِلم على الحرب، وهي بنفس الوقت خافت من الدخول تحت سُلطةِ سليمان اختياراً، لأن نهاية الحرب قد يكون فيها سليمان هو المنتصر، فتصيرُ مملكةُ سبأ إليه، وفي الدخول تحت سَلطانه دخول ملكٍ غريبٍ جديد على خطِّ مملكتها، وكلا

الحالين مزعج، وإن كان بعضُ الشر أهون من بعض.

ثم هي تعلم من شواهد التاريخ، ومن خبرتها بطبائع الملوك أنهم إذا تصرفوا في مملكة غيرهم قلبوا أنظمتها حتى يؤمِّنوا مصالحهم، وحتى تبقى الأُمةُ المغلوبةُ ضعيفةً لا تستطيع مُقاومتهم في المستقبل، وأول ما يفعلونه: إقصاء الحاكمين الأصليين؛ لأن الخطر يُتَوَقَّعُ من جانبهم، فيقصونهم ويضعون بدلهم من سفلةِ القوم، ثم يُبدّلون القوانين والنُظم.

وإذا ما أخذوا البلاد حرباً فلا بُدَّ من تخريبٍ وسبيٍ ومغانم، وذلك أشدُّ فساداً، ولذلك تكلمت عن الحالتين حين قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ﴾ [النمل ٣٤].

فصار تقدير الكلام: إذا كان هذا شأن الملوك، فكيف نُلقي بأيدينا إلى من يُفسد أحوالنا، ولذلك كان ختام الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وهذه الخاتمة للآية للعلماء فيها أقوال:

الأول: إنه من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي ذكرته، هذه عادتُهم، وهذا ديدنُهم إذا دخلوا قرية، وهذا القول لابن شجرةٍ نقله عن القرطبي.

الثاني: منقول عن ابن عباس قال: هو من قول الله عز وجل مُعرفاً لمحمدٍ ﷺ وأُمته بذلك، ومُخْبراً به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، واستشهد له بأثرٍ مرويٍ عن ابن أبي حاتم.

والمحققون قالوا: الراجح أنه من قول الحق تبارك وتعالى، ليدُلَّ على أنَّ رب الخلق أجمعين، إذا سَمِعَ من عبدٍ من عبيده كلمةَ حق يؤيده بها، ويُكافئه عليها ولا يهضِمُهُ حقه.

قال «صاحب التحرير»: ثم دبَّرت أمراً يُبعدُها عن الحرب، ويُبعدُها

عن الوقوع تحت طاعة سليمان، فاختارت طريق المُصانعة والتَزلف لسليمان بإرسال هدية إليه.

قال بعض المفسرين: وبعد أن ترك المُستشارون لها الأمر والتدبير، أخذت تُعْمِلُ عقلها، وتستخدم خبرتها بأحوال المُلوك فقالت: إن كان سليمان ملكاً فسوف يطمع في خيرنا، وإن كان نبياً، فلن يهتم بشيء منه، فقررت أن تُرسل له هديةً تُناسب مكانته كملك، وتُناسبُ مكانتها هي أيضاً، لتُثبتَ له أنها على جانبٍ عظيم من الثراء والغنى، وذلك قولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل]، فإن كان ملكاً عرفنا علاجه، وقَبِلَها، فهو طامعٌ في المال والخراج، وإن كان نبياً لم يقبل منها شيئاً.

قال المحققون: وكلامُها هذا يدل على فطنةٍ وذكاءٍ حيثُ جَنَّبَتْ قومها ويلات الحروب، ولا شك أنَّ الهدية كانت ثمينة لتستميلهُ إن كان ملكاً.

قال المؤرخون: أرسلت إلى سليمان كتاباً مع وفدٍ يحمل الكتاب والهدية؛ لأن الوفدَ لابُدَّ أن يكون مصحوباً بكتابٍ تُجيبُ به سليمان على كتابه، فإنَّ الجواب على الكتاب عادةٌ قديمة، بل هو من سُنَنِ المسلمين كذلك، بل عَدَّهُ البعضُ من حق المسلم على المسلم.

وقال القرطبي: إذا ورد على إنسان كتابٌ بالتحية أو نحوها، فينبغي رد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر.

وكان ابن عباس: يرى ردَّ الكتابِ واجباً كرد السلام.

قال ابن عباس في قولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل]، قالت بلقيس لقومها: إن قَبِلَ الهدية فهو ملكٌ يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌ صادق فاتَّبعُوه، ولم تكن واثقةً من

قبول الهدية.

قال صاحب «الأساس في التفسير»: والهدية فكرة سياسية رائعة، تتعرف بها بلقيس على سياسة الخصم، كما أنَّ للهدية أثرها الكبير في تليين القلوب، وتفعل فعلها في النفوس، ولذلك قال قتادة: ما كان أعقلها – أي بلقيس– في إسلامها بعد أن أسلمت، وفي شِرْكها قبل أن تُسلم، حيثُ علمت أنَّ الهدية تقعُ موقعاً من الناس، إذ معنى الهدية يدل على ذلك.

فالهدية: ما يُعطى لقصد التقرب والتحبُّبِ، والآن، ما هي هذه الهدية؟

قال الآلوسي: لم يرد عن المعصوم ﷺ دليلٌ يصِحُّ في وصف الهدية، لكن بعض الأخباريين وأهلِ التاريخ ذكروا: أنَّ فيها تاجاً مُكللاً بالدُّرِّ والياقوت، وغِلماناً، وجواريَ، وأنَّ فيها لَبِناتٍ من الذهب والفضة.

وقال الثعلبي: أرسلت بلقيس قدحاً وطلبتْ من سليمان على لسان الوفد: إن كنت نبياً فاملأهُ من ماءٍ من ندىً ليس من السماء، ولا من الأرض.

وقد ورد عن «يعلى بن مسلم» عن «سعيد بن جبير» قال: فأجرى سليمان الخيل ساعة حتى عرقت، ثم ملأ القدحَ من عرقها.

قال أهل الأخبار: عَلِمَ سليمان بنوع الهدية، وأنَّ فيها لَبِناتٍ من الذهب والفضة، فأمر سليمان أن يوضعَ في المَمَرِّ الذي سيمُرُّ فيه وفد بلقيس لَبِناتٍ من الذهب والفضة على الجانبين، وأمرهم أن يتركوا قسماً فارغاً على قدرِ موضعِ بساطٍ، فلما مرَّ الوفدُ ورأوا ما رأوا من كثرةِ اللبناتِ، ورأوا المكان الفارغ، خافوا أن يظُنَّ أحدٌ أنهم أخذوها من هذا المكان الفارغ، فتركوا ما معهم في ذلك المكان.

قال القرطبي: وكانت بلقيس قد قالت لرئيس وفدها المُرسل إلى سليمان

وهو «المنذر بن عمرو»: إنْ نـظـرَ إليكَ نَـظـرَ مُـغـضـبٍ، فاعلم أنه ملكٌ ولا يهولَنَّكَ منظرُهُ، فأنا أعزُّ منه، وإن رأيتَ الرجل باشَّاً لطيفاً، فاعلم أنه نبيٌ مُرسل، فَتَفَهَّم قوله ورُدَّ الجواب.

قال العلماء: وسُنَّةُ الأنبياء والمُرسلين قبول الهدية، كما كان نبيُنا محمد ﷺ، فقد كان يقبل الهدية ويُثيبُ عليها، ولا يقبلُ الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام، ولكن بلقيس جعلت قبولَ الهدية من سليمان أو ردَّها علامةً على ما في نفسها من كون سليمان ملكاً أو نبياً؛ لأنها أدركت معنى رسالته: ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾، وهذا المطلبُ لا يُؤخذ عليه هديةً، فإنَّ أخذَ هديةٍ في هذا المكان رشوةٌ، وبيعُ الحقِّ بالباطل، فلا يحلُّ ذلك.

وأما الهديةُ المُطلقةُ للتحبُّب والتواصل، فهي جائزةٌ، بل مندوبٌ إليها؛ لأنها تُزيلُ حزازات النفوس، ورحم الله القائل:

هدايا الناس بعضِهم لبعضٍ ... تُولـدِّ فُي قلوبِهم الوصالا
وتـزرعُ في الضميرِ هـوىً وودّاً ... وتُكسبهم إذا حضروا جمالا

وقال آخر:

إن الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدَتْ ... أحظى من الابن عند الوالدِ الحدِبِ

قال القرطبي: ورد في الأخبار: أن الإنسان إذا أتتهُ هديةٌ وكان في مجلسه ومعه أحد، فالجُلساءُ شُركاؤه فيها، لِما ورد عنه ﷺ أنه قال: «جُلساؤكم شُركاؤكم في الهدية».

وهذا من باب الاستحباب لا الوجوب.

قال أبو يوسف: هذا الاستحباب يكون في هدايا الفاكهة ونحوها، وكان

النبي ﷺ يقبل هدايا أصحابه ويُكافئهم عليها أضعافها، فقد أهدى إليه النجاشي هديةً فَقَبِلها، وبعث إليه بهديةٍ عِوَضها، ثم أخبر النبي ﷺ أصحابه أنَّ النجاشي تُوفيَ قبل وصول الهدية وأنَّ الهدية ستعود، فكان كما قال ﷺ.

وقَبِلَ عليه الصلاة والسلام هديةَ «المُقوقس» صاحب الاسكندرية؛ لأنه أكرمَ «حاطب بن أبي بلتعة» رسولَ رسولِ الله ﷺ، كما أقرَّ بنبوته ﷺ، ولم ييأس رسولُنا ﷺ من إسلامه، ولكنه ﷺ لم يقبل هديةَ المُشركين حيث قال «لعياض المُجاشعي»: «إنّا لا نقبلُ زَبَدَ المُشركين»، أي رِفْدَهم وعطاءهم.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ولما جاءت الأخبار إلى سليمان بأن الوفد المُرسل من بلقيس قد وصل يحمل هديتها، أدرك سليمان فوراً أنَّ الملكةَ أرسلت رجالها ليستطلعوا قوتهُ، فهيّأ سليمان الجيش، فصفَّهُ ورتَّبَهُ بحيثُ دخل وفد بلقيس عند وصوله غابةً كثيفةً من الجند المُدَجَّجين بالسلاح، ثم يُتابع المؤلف كلامه فيقول: وفوجئ رُسل بلقيس بأنَّ كُلَّ ما تملكُهُ مملكتهم وملكتُهم وسْطَ عَظمةِ سليمان لا يُساوي شيئاً، فأصابهم شيٌ من الخجل، وصَغُرت هديتُهم في أعيُنهم، وبخاصةٍ عندما مشوا وسْطَ القصرِ على أرضٍ من خشب الصندلِ المُعطر، والمُطعَّم بالذهب.

قال البروسوي: لما رأوا عَظَمَةَ مُلكِ سليمان بُهتوا وخَجِلوا، فكان حالُهم -مع هديتهم- كحال ذلك الأعرابي الذي أراد زيارة الخليفة «هارون الرشيد» فحملَ له هديةً من البادية جرةَ ماءٍ مملوءةً، فلما وصل إلى بغداد ورأى دجلة، فخجل وصب الماء ورمى الجرة ومضى.

قال المؤرخون: وقَفَ رُسل بلقيس إلى جانب سليمان ريثما ينتهي العرضُ العسكري، وكانت أذهانُهم تنصبُّ على حِفظ عدد الجنود، ونوعيتهم، وأسلحتهم، ولكن الدهشَ شلَّ تفكيرهم، وفتحَ أفواههم حين رأوا في

الجيش نموراً وأسوداً وطيوراً، فأدركوا أنهم أمام جيش لا يُقاوم.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وبعد الانتهاء من استعراض الجيش دُعِيَ الوفد إلى الغداء على مائدة الملك، وفوجئ السُفراء بأنهم أمامَ أطعمةٍ مختلفةٍ من كافة أرجاء الأرض، ثم وُضِعَ أمامهم أطعمةٌ من أطعمةِ بلادهم ولكن لها مذاقٌ خاص.

أما خدم المائدة: فكان عليهم من الحليِّ شيئاً لم يروا مثله، وكان الطعام بآنيةٍ من الذهب، وكان سليمان يأكل مُنفرداً، ولم يُشارك في المائدة، وكان طعامه لوناً واحداً مع الخبز، وبعد الانتهاء من طعامه، قدَّمَ الوفد لسليمان هدية بلقيس على استحياءٍ شديد.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: لما رأى سليمان سكوت بلقيس عن طلبه: ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، فَهِمَ قصدها، وتبيَّنَ له أنها تريد أن تصرفهُ بالمال والذهب والهدية عن أمر الدين، فَعَدَّ تلك الهدية رشوةً، ولذلك كان جوابه ما ذكره الله لنا في [سورة النمل]: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال الأستاذ «أحمد بهجت» صاحب كتاب «أنبياء الله»: أفهَمَ سليمان وفدَ بلقيس أنَّ الذي يُرضيه ليس المال، وإنما يُرضيه: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ هو خطابٌ للوفد الذي يرأسه «المنذر بن عمرو» لقصد تبليغه إلى الملكة؛ لأن خِطاب الوفد خطابٌ لمن أرسله.

والاستفهام في قوله: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ ﴾ هو استفهامُ إنكارٍ، كأنه يقول: أتحسبون أننا مُحتاجون إلى المال؟ وسُمِيَ المالُ مالاً؛ لأنه يميلُ أبداً، فيومٌ في

بيتِ عطارٍ، ويومٌ في بيت بيطارٍ.

قال البروسوي: لما استنكر سليمان عليهم رشوته بالمال، علّل سبب استنكاره بقوله: ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾.

فصار المعنى: أنكرتُ عليكم أن تظنوا أني أفرحُ بالمال، لا، لأن ما أعطاني ربي من الإسلام، والنبوة، والمُلك، هو في النفاسةِ والوفرةِ أفضل مما عندكم من المال والمتاع، ولهذا فلا قيمةَ لهديتكم عندي.

قال جعفر الصادق: «الدنيا أصغر قدراً عند الله، وعند أنبيائه، وعند أوليائه من أن يفرحوا بشيء منها».

وقوله: ﴿ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ﴾، و﴿ بَلۡ ﴾ عند العرب تُسمى حرف إضراب، وهي «بل» الابتدائية، ومعناها الإضرابُ الانتقالي من فعل إلى فعل آخر، أو من غرضٍ إلى غرضٍ آخر، ولذلك قال: ﴿ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾، فانتقل من حالِ إنكاره عليهم إهداءَهُ المالَ، إلى فعل آخر وهو رد المال وإرجاعه، ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ ﴾ [الأعلى].

وقوله: ﴿ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ﴾ [النمل]، أي أنكم أنتم تفرحون بما يُهدى إليكم حُباً بزيادة المال؛ لأنكم أهلُ مُكاثرةٍ ومُفاخرةٍ، أما أنا فأعطاني الله خيراً منها.

قال القرطبي: ثم خاطب سليمان أميرَ وفد بلقيس بقوله: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ ﴾ [النمل].

قال ابن كثير: قال سليمان للوفد: ارجع بهديتك إلى من قد مَنَّ بها، فإن

عندنا من فضل الله ما هو خير من هذا وأفضل.

وقال البروسوي: قال سليمان للوفد: ارجع إلى بلقيس وقومها بهديتكم ليعلموا أنَّ أهل الدين لا يبيعون دينهم بحطام الدنيا وإنما يريد منكم أن تأتوا مسلمين مؤمنين.

قال العلماء: وهنا دخلت المسألة في طور المواجهة؛ لأن قوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ ﴾، كلامٌ صدر من نبوةٍ، وكلامُ النبوةِ لا يقبلُ المُساومة، أما كلامُ المُلوك فقد يقبل المُساومة، لأنهم يريدون حُطامَ الدنيا، كما نلمحُ في رَدِّ سليمان عليه السلام إشراقات النبوة، فقوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾، يُذكِّرُنا بقول بلقيس: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[النمل]، فكأنه عليه السلام يستشعر نصَّ ما قالت، فكان جوابه: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾.

وتلمسُ إشراقاً آخر من إشراقات النبوة في قوله للوفد: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، فكأنه عليه السلام يكشف لهم عن قول ملكتهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل]، كما قال العلماء.

ومعنى قوله: ﴿ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾، تقول: لا قِبَلَ لي بكذا، يعني: لا أستطيعُ مُقابلته، وأنا أضعفُ من أنْ أُقابله، أو لا طاقةَ لي به؛ لأنَّ من يُطِقْ شيئاً يُقابله، وإلا تقهقرَ عن لقائه.

وقوله: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً ﴾، أي من مأرب المدينة أو من سبأ وهي قريبة من صنعاء، ولهذا كان الشُعراء يتغنون بقولهم:

يا ديار الحبايب   بين صنعا ومارب

ثم بإخراجهم من مُلكِهم صاروا أذلةً، بعد أن كانوا مُلوكاً.

ثم صَعَّدَ اللهجة بقوله: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾، لأن الإنسان إذا زال مُلكه قد يرضى بحياةٍ أقل، وبعيشِ الرعية، أما قوله: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾، فيه إشارةٌ إلى الهزيمة وإلى الأسر، أو القتل.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وسَمِعَ الوفد من سليمان ذلك، فتقدَّمَ رئيس وفد بلقيس «المنذر بن عمرو» إلى سليمان، ورجوه أن ينتظرَ زيارة بلقيس له، في مُهمةٍ تُحققُ السلام بينهما.

قال الدكتور «أحمد بهجت»: وصل وفد بلقيس عائداً إلى سبأ، وأسرعوا إلى الملكةِ وهم بثياب السفر وغُباره، وحدثوها عن قوةِ سليمان وعن استحالة صدِّ جيشه، وأفهموها أن زيارتها له أفضل من قتاله؛ لأنه لا مجال لقهره.

قال البروسوي: وقد رويَ أنه لما رجع وفدُها إليها بخبر سليمان قالت: والله قد علمتُ أنه ليس بملكٍ، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان: إني قادمةٌ عليك مع زُعماء قومي حتى أنظرَ ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك.

قال صاحب «التحرير»: وعَلِمَ سليمان أن ملكةَ سبأ ستحضر إليه استجابةً لدعوته: ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ثم سكت القرآن عن استعدادٍ للمسير إلى سليمان، وسكت عن مسيرِها؛ لأنه لا فائدةَ ولا غرضَ من ذلك، ولما عَلِمَ سليمان أنها قاربت أن تصل إلى «أورشليم» أراد أن يُريها مقدرةَ دولته، فأحبَّ أن يُحضِرَ لها عرشها قبل أن تدخل عليه.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: أراد سليمان أن يبهرها بقوته وتقدُّمه العلمي المُستمدِّ من دينه ولتُقارنَ بين تقدُّمها وتقدُّمه، كما أراد سليمان أن يُظهرَ لها قُدرةَ الله تعالى، وأنه عز وجل اختارهُ نبياً، وجعل الإتيان بعرشها

من مكانه مُعجزةً له يدفعُها للإسلام.

قال البيضاوي: أراد بذلك أن يُريها بعض ما خصَّهُ الله به من العجائبِ الدالة على عظيم قُدرة الله عز وجل، والدالة على صدق سليمان في دعوى النبوة.

هنا سؤال: قد يقول قائل: ما سبب اختياره للعرش؟

والجواب: إنَّ عرشها كان أعجبَ شيءٍ في مملكتها، وكان محفوظاً بحراسةٍ شديدةٍ، فالإتيان به يدل على القوة الباهرةِ، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ ﴾ [النمل]، وهذا طلبٌ ضخم يقتضي الذهاب إلى مملكةِ سبأ، ثم فكَّ العرش وحملهُ إلى مملكةِ سليمان، ثم إعادةَ تركيبه عنده.

قال ابن عاشور: ومُخاطبةُ سليمان لِمَلئِهِ، لها هدفٌ وهو إظهارُ مُنتهى علمهم وقُدرتهم في إحضار العرش: ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا ﴾، ثم انظر إلى قوله: ﴿ قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾، تدلُّك على أنَّ كلَّ أفكاره كانت مُنصبةً على هِدايتها وإسلامها.

حدَّدَ سليمان المهمةَ: ﴿ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا ﴾، وحدَّدَ الوقت: ﴿ قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾، وهذا مطلبٌ فوقَ قُدرة البشر كما قال العلماء، ولذلك لم يتكلم أحدٌ، حتى إنَّ العاديَّ من الجن وعوامَّهم لم يقل لسليمان: أنا على استعداد للقيام بهذه المهمة.

قال الدكتور «أحمد بهجت»: كان أول من أجاب سليمان على سؤاله، عفريتٌ من الجن المُسخَّرين له بأمر الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ ﴾ [النمل].

قال العلماء: والجن مُتفاوتون في القدرةِ والمهارة، مثلُ الإنس، منهم القويُّ الماهر، ومنهم العَيِيُّ الذي لا يُجيدُ شيئاً، حتى قال بعض المفسرين: ومنهم «لَبْخَة».

والعفريتُ: اسم للشديد الذي لا يُغلب من أمثاله وأقرانه فهو يُتَّقى شرُّه، ويُطلق اسم العفريت على عُتاة الجن، وكلمة «عفريت» مأخوذةٌ من «العَفَرِ» أو «العَفْرِ»، وهو التراب، فكأنه يصرعُ قرنَهُ على التراب ويُمرِّغه فيه.

ويُطلق على الداهية الماكر، وفي الحديث: «أول دينكم نبوةٌ ورحمةٌ، ثم ملكٌ أعفرُ»، أي يُساسُ بالدهاء والنُّكر، والتاء مُزادةٌ فيه للمُبالغة.

وقد ورد في «موطأ مالك» عن يحيى بن سعيد قال: أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، فرأى عليه الصلاة والسلام عفريتاً من الجن يطلُبُه بشُعلةٍ من نارٍ، كلما التفت رسول الله ﷺ رآه، فقال جبريل لرسول الله ﷺ: «أفلا أُعلمك كلماتٍ تقولهُن، إذا قُلْتَهُنَّ طُفِئَتْ شُعلتهُ، وخَرَّ لِفِيه؟» فقال ﷺ: «بلى»، فقال جبريل: «أعوذ بالله الكريم، وبكلمات الله التامات، التي لا يُجاوزهنَّ بَرٌّ ولا فاجر، من شرِّ من ينزلُ من السماء، وشرِّ ما يعرجُ فيها، وشرِّ ما ذرأ في الأرض، وشرِّ ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرقُ بخيرٍ يا رحمن».

وقول العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾: أي من مجلسك الذي تجلس فيه للقضاء والحكومات، من أول النهار حتى تزول الشمس - وقت الظهر- كما ذكر «ابن كثير».

وقَصَدَ العفريت أنه يأتيه بالعرش بأقلَّ من نصف يوم، وهذا مثالٌ للسرعة.

وقول العفريت: ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾، يدُلنا على أنَّ العفريتَ كان عالماً بفخامةِ العرشِ وضخامته، وأنه شيءٌ نفيس يستحقُّ الاعتناءَ خاصةً في عملية نقله – كما قال الشعراوي – لذلك قال العفريت مُشيراً إلى ضخامته: أنا عليه قويٌّ قادر على حمله، وقال من ناحية نفاسَتِهِ وفخامته: وأنا عليه أمينٌ لن أُبدِّدَ شيئاً منه ومن هذه النفاسَةِ، ولن أُنقصَ شيئاً من جواهره وأحجاره الكريمة.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لم يُعلّق سليمان على ما قاله العفريت، ويبدو أنه كان ينتظر عرضاً ممن يستطيعُ أن يُحضر عرشَ بلقيس بأسرع من ذلك، قال: ثم التفتَ سليمان إلى شخصٍ من خاصته – وكانت خاصتُهُ أحدَ عشرَ رجلاً – كان وزيراً لسليمان، وهو ابن خالته، التفتَ سليمان إليه دون أن يُكلمه فوقع في قلب الرجل أنَّ سليمان يعنيه بهذه الالتفاتة.

والقرآن لم يُحدد من هو هذا الرجل إلا بالوصف، قام الرجل وقال: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[النمل].

القرآن حدَّدَ الرجل بالوصف: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وأكثر المفسرين على أنه «آصف بن برخيّا» كان صِدّيقاً، يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أُعطى، وإذا دُعيَ به أجاب.

وفي قول الرجل لسليمان: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾فيه تحدٍّ لعفريت الجن، حتى لا يَظُنَّ أنه أقوى من الإنسان، فإذا أراد الله مَنحني من القوة ما أتفوقُ عليك به، بل وأُسخِّرُك لخدمتي.

قال ابن عاشور: وهذه المُناظرة بين العفريت من الجن مع الذي عنده علمٌ من الكتاب ترمُزُ إلى أنه يتأتى بالعلم والحكمة، ما لا يتأتى بالقوة، وأن

اكتساب العلم طريقٌ لاستخدامِ القوى، فَذَكَرَ هنا مثلاً لتَغَلُّبِ العلم على القوة – المُتصارعان –، ثم قال: ولما كان هذان الرجلان مُسخَّرَيْن لسليمان، كان ما اختَصّا به من المعرفةِ مزيةً لهما ترجعُ إلى فضلِ سليمان وكرامته عند الله تعالى، أن سَخَّرَ الله له مثل هذه القوى، ومقامُ نبوته يترفع أن يُباشِرَ بنفسه الإتيانَ بعرشِ بلقيس.

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، أجملُ ما قيل في معناهُ: أي قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعدِ غايةٍ منك ثم أغمضتَهُ.

قال العلماء: وقول العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ [النمل ٣٩]

وقول الذي عنده عِلم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾.

هما مثلان في السرعة والأسرعيةِ.

ونحن نعلم أنَّ الزمن يتناسبُ مع القوة تناسُباً عكسياً: «فكلما زادت القوة قلَّ الزمن»، فنقلُ متاعٍ من مكانٍ إلى مكانٍ على يد طفل، يحتاج إلى وقت أطول من نقل هذا المتاعَ على يد كبير، ويظهر هذا الأمر جلِيّاً في وسائل المواصلات: فهُناك فرق بين السفر على حمار أو بالسيارة، أو بالطائرة، أو بالصاروخ.

قال العلماء: وما دام الزمن يتناسب مع القوة، فلا تَنْسُبِ الحدث – يا عبد الله – لا إلى العفريت ولا إلى الذي عنده علمٌ من الكتاب، ولكن انسُبْها إلى الله، إلى قوة القوي الذي لا تحتاجُ إلى زمنٍ أصلاً.

وورد عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه ﷺ قال: «إن الاسم الأعظم

الذي دعا به آصف بن برخيا: يا حي ياقيوم»، وهوبلغتهم: «أُهْيا شواهْيا».

وقال الزهري: كان دُعاء الرجل الذي عنده الاسم الأعظمُ: «يا إلهنا، وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنتَ، إيتني بعرشها، فَمَثُلَ بين يديه».

وقال مجاهد: كان دُعاؤه: «يا إلهنا، وإله كل شيء، يا ذا الجلال والإكرام».

قال الرازي: كان لهذا الوصف – في الدعاء – تأثيراً في نقل ذلك العرش بحيثُ وقت الإجابة من الله في أسرع الأوقات.

قال أحمد بهجت: والسياقُ القرآني لم يكشف لنا عن شخصية من أحضرَ العرش، ولكن اكتفى بقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فهل هو من الملائكة، أم من الجن، أم من البشر، فنحن أمام معجزةٍ وقعت، أما سِرُّها، وكيف، فلا يعلمُهُ إلا الله.

كل ذلك للتأكيد على قُدرة سليمان التي سخرها الله له بحيثُ يستطيع عالمٌ في مجلسه أن يأتيَ بالعرش.

ويروي القرطبي قال: وقام هذا الرجل الذي عنده علمٌ من الكتاب فصلى ركعتين، ثم قال لسليمان: «يا نبيَّ الله: مُدَّ بصرك، فمدَّ سليمان بصرهُ نحو اليمين، فإذا بالعرشِ، فما ردَّ سليمانُ بصرهُ إلا والعرشُ عنده».

هنا قد يردُ سؤال: لماذا لم يقم سليمان بنفسه بالإتيان بالعرش، كأن يدعو هو في ذلك؟

والجواب: أنَّ مقامَ نبوته أرفعُ من أن يُباشرَ بنفسه الإتيان بالعرش، ثم في تكليفِ أحد جنوده بهذا الأمر، إظهارٌ لكرامةِ سليمان، ببيانِ ما سخّرَ الله له من القوى، ثم إنَّ من عادةِ الملوك تكليفَ أتباعهم بأمورٍ يستطيعون هم القيام بها، ثم في تكليف الرجل الذي عنده علمٌ من الكتاب، «فيه إظهارٌ

لفضلِ أهلِ الفضل».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: هاهو العرشُ ماثلاً أمام سليمان، قد استقرَّ أمامه في تلكَ المُدةِ العجيبة في سُرعتها من بلاد اليمن إلى بيت المقدس، رآهُ سليمان أمامه، لم يستخفَّهُ الفرحُ، ولم تَزْهُ نفسه بالشعورِ بهذه القوة تصدُرُ عن جندي من جنوده، وإنما أرجعَ الفضلَ لمالك المُلك، وصاحب الفضل، وشكر الله الذي اختبرهُ بهذه القُدرةِ، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [النمل ٤٠].

فبأي وسيلةٍ أقدرَهُ الله على الإتيان بالعرش، فإنما هي فضلُ الله وكرمه.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: عندما استقرَ العرش أمام سليمان ردَّ الفضلَ كُلَّه إلى الله تعالى حيث أن سليمان عبدٌ له عز وجل، ولم ينشغل بالفرح بسلطانه، ولا بمقدرةِ رجاله، ولكنه انصرفَ إلى شكر الله تعالى على ما منحهُ من فضلٍ، وعلى ما أعطاهُ من جندٍ مُسخرين له بالعلم والقوة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [النمل ٤٠]، أي هو المُحسن إليَّ لا بعملٍ مني أستحقُّ به شيئاً، فكلُّ عملٍ نعمةٌ منه عز وجل يستوجبُ عليَّ به الشُكرَ، ولذلك قال بعدها: ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ﴾، أي يفعلُ معي فعلَ المُمتحنِ الناظرِ: ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾، أي: أشكر الله فأُوفَّقُ بهذا الامتحان والاختبار، أم أكفرُ بنعمةِ الله فأنسِبُ الفضلَ لي.

ثم ضرب سليمان حكمةً خُلقيةً دينيةً، وهي قوله: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل].

أي كلُّ مُتقرب إلى الله بعملٍ صالح يجب أن يُدرك، وأن يستحضرَ أنَّ ثمرةَ عمله تعود إليه، يرجو بذلك ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوامَ التفضل من ربه عليه في الدنيا، فالنفعُ يعود على العبد الشاكر في الدارين، ولا

ينتفع الله بشيءٍ من ذلك.

هذا معنى قوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنَّ الشُكرَ أن تنسِبَ النعمةَ إلى المُنعم، وألا تُلهيهُ النعمةُ وجمالُها عن عظمةِ واهبها، فينسب الفضل إلى نفسه كما فعل قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص ٧٨].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جَحَدَ النعمةَ ولم يشكر المُنعم.

﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾: غني عن شُكره.

﴿كَرِيمٌ﴾: يُعطي عبده رغمَ ما كان من هذا العبد من جحودٍ للنعمةِ لأنَّ نِعَمَ الله تعالى لا تُعد، وهذا من حلمِهِ وكرمِهِ عز وجل ورأفته بخلقه، لذلك لَـمَّـا تتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم ٣٤].

[النحل ١٨]: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

قال المحققون: ظن البعضُ أنَّ هذا تكرار لا فائدة منه، ولكن الحقَّ أنَّ ذلك ليس تكراراً، لماذا؟

لأنك لو نظرت إلى عجزِ كُلٍّ من الآيتين لتوضَّحَ لك أنهما مُتكاملتان.

فعجزُ الأولى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾[إبراهيم ٣٤].

وعجزُ الثانية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾[النحل].

فهما مُتكاملتان، لأنَّ لكلٍّ منهما معناها الخاص:

فالأولى تُبين ظُلمَ الإنسان حين يكفر بنعمةِ الله ويجحدُها.

والثانية تُضيف على الأولى: أن الله مع ظلم العبد وجحدِه لنعمةِ الله فهو غفور رحيم إن هو تابَ ورجع، وإن لم يتب فالنعمةُ متواصلةٌ.

قال صاحب «المفردات»: المنحةُ والمحنةُ جميعاً بلاءٌ واختبارٌ وامتحانٌ:

فالمنحةُ مُقتضيةٌ للشكر، والمحنةُ مُقتضيةٌ للصبر، والقيام بحقوق الصبر، أهون من القيام بحقوق الشكر، ولهذا صارت المنحةُ أعظمَ البلاءين، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: «بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسراء فلم نصبر»، وقال رضي الله تعالى عنه: «من وُسّعَ عليه في دنياهُ، فلم يعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوعٌ عن عقله».

قال الدكتور «أحمد بهجت»: تأمَّل سليمان العرش طويلاً، ثم أمَرَ بإجراء تغييراتٍ فيه ليختبرَ ذكاءها وفهمها: ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل].

والتنكيرُ: تغيير الحالة: أي غَيّروا بعض معالمه، ومنه: شخصٌ مُتنكرٌ: من يُغيرُ ملامحه وزيّه حتى لا يُعرف، ومن ذلك قول «جميل بثينة»:

وقالوا نراها يا جميلُ تنكَّرَتْ وغيَّرها الواشي فقُلتُ لعلها

قال صاحب «التحرير»: هذا الخطاب من سليمان لملئِهِ، والأمر بقوله: ﴿ نَكِّرُواْ ﴾ موجَّهٌ لأهل المقدرةِ على هذا العمل من ملئِهِ، ولكن: كيف كان التغيير؟

والجواب: ما ذكره مجاهد والضحاك عن ابن عباس: قالوا: زادوا فيه ونقصوا، وجعلوا صفائح الذهب مكان صفائح الفضة وجعلوا مكان الزبرجد الياقوت، والدُرَّ مكان اللؤلؤ، وغيروا في الألوان، فجعلوا مكان الأصفر أحمرَ، ومكان الأخضر أحمرَ وهكذا.

وقول سليمان: ﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[النمل].

قوله: ﴿ أَتَهۡتَدِيٓ ﴾: أي أتهتدي إلى معرفةِ عرشها اهتداءً إيمانياً فيكون ذلك سبباً لدخولها الإسلام، أو تهتدي إلى معرفةِ عرشها عقلاً، وهذا دليل ذكائها، أم تكون ممن شأنهم في غاية الغباوةِ لا يتجدَّدُ لهم اهتداءٌ.

قال صاحب «نظم الدرر»: وجاءت بلقيس في اثني عشرَ ألفاً من وجوه اليمن، ولما استقرَّ بها المَقامُ في مجلس سليمان، وكان العرش بين يديه مُنكراً، سُئِلت: كما قال الآلوسي من قِبَلِ سليمان على الراجح: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾؟

قال العلماء: جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لأنه لو قال لها: أهذا عرشك، لكان تليقيناً للجواب، ولذلك جاء بهذه الصيغة: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾؟ ليختبر دقةَ مُلاحظتها بعد تغيير عرشها لأنَّ سليمان أراد بتغيير العرش إجراء اختبارين لها:

اختبارٌ إيماني: يكون نقل عرشها من مملكتها إلى مملكته مُعجزةً تدل على نبوته.

واختبارٌ عقلي: ليتعرف إلى مدى ذكائها، ودقة مُلاحظتها، وثباتها.

قال صاحب «نظم الدرر»: لما رأت عرشها خالطها شيء من الهيبةِ لَمَا رأت، وبخاصةٍ أنَّ سليمان يريد جواباً بعد أن فاجأها بقوله: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾؟

وكلمة ﴿ أَهَٰكَذَا ﴾، تشمل أربعة تنبيهات: هاء التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة، وصُدِّرت بهمزة الاستفهام، أي: أَمِثْلُ هذا عرشك الذي تركتيه في بلادك؟

قال المفسرون: قالت بلقيس في نفسها لما رأت العرش، من أين يصلون

إليه، ودونه أبواب وحرس، ولكنها وجدت في العرش ما تعرفه فلم تُنكر، ووجدت فيه ما تُنكره فلم تُثبت، فلم تقل: «نعم»، ولم تقل: «لا»، بل جاءت بجواب في مُنتهى السداد،وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل ٤٢].

وعلى العموم: لما نظرت إليه إجمالاً عرفت أنه عرشُها، فلما رأت ما فيه من تغيير وتنكير ظنت أنه غيرُهُ، لذلك اختارت جواباً دبلوماسياً كما قال بعض المفسرين، وهذا الجواب يحتملُ هذا وهذا فقالت:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾، عندها فهمَ سليمان أنها على قَدْرٍ من الذكاء والحَصَافة والفِطْنة، حيث كان جوابها دبلوماسياً يصلح لكل الاحتمالات الواردة، وهذا الجواب يشبه قصة الخياط الأعور الذي خاط لأحد الشعراء جُبَّةً، فجاءت الجُبَّةُ وأحد الكُمَّين أطول من الآخر، فلم يستطع لبسها، فلما سأله من حوله عن عدم لُبسه للجبةِ الجديدة أخبرهم ما فعل الخياط بالجُبةِ، فقالوا له: اُهْجُهُ، فقال:

قلتُ شِعراً ليس يُدرى   أمديحٌ أم هجاءُ
خاط لي عمروٌ قُباءً   ليت عينيه سواء

فالكلام هنا يحتمل المعنيين: الدعاء له، والدعاء عليه، وهذا شأن الدبلوماسي الذي يتكلم بكلامٍ يهربُ به من المواجهة، وكذلك كان كلام بلقيس: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾.

قال المهايِمِيُّ: لم تقلْ: هو، هو، خَشْيةَ التكذيب، لأنه قد تغيَّرَ، ولم تقل: لا، لا، خشية التجهيل.

ثم عندها قال سليمان لبعض حاشيته: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[النمل].

وقوله: ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾: قد يُقصد بـ «مِنْ قبلها»: الزمانُ، فقومُ سليمان، وهم بنو إسرائيل كأنها أسبق في معرفة الحكمة وحضارة المُلك من أهل سبأ؛ لأنَّ الحكمة ظهرت في بني إسرائيل من عهد موسى عليه الصلاة والسلام، حيث سَنَّ لهم الشريعة، وأقام لهم نظامَ الجماعة، وعلَّمَهم أسلوب الحضارة بتخطيط المُدن والمساكن، ونظام الجيش والحرب والمواسم والمحافل، ثم ارتقوا في سُلَّمِ الحضارة إلى أن بلغَ العلم عندهم غايةً بعيدة في عهد سليمان عليه السلام.

فبهذا الاعتبار كان بنو إسرائيل أسبقَ في علم الحكمةِ من أهل سبأ، وإن كان المقصود بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾، المكانةَ الاعتبارية، التي بمعنى التفوق في الفضل والمزايا، وهذا المعنى أليقُ، لأنه يدل على أنَّ مقصود سليمان بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾، أي: نحن أوسع وأقوى علماً منهم.

قال صاحب «التحرير»: ولعل هذه العبارة التي قالها سليمان لملئه تخافتوا بها بلغتهم العبرية.

وهذا القول من سليمان يُشبه قول نبينا ﷺ: «نحن السابقون الأولون بيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبْلنا»، أي: نحن الأولون في غايات الهدى، وجعل النبي ﷺ مثالاً لذلك: اهتداء أهل الإسلام ليوم الجمعة فقال ﷺ: «وهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه».

قال العلماء: فصار المعنى: إننا سابقون لها في العلم، وبالغون ما لم تبلُغْهُ، مع ذلك الفضل العظيم بكوننا مسلمين، والإتيان بفعل الكون: ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾، للدلالة على تمكُنهم من الإسلام منذُ القِدم.

قال صاحب «الأساس في التفسير»: أراد سليمان حين جاء بعرشها وغيَّرَهُ أن يضعها في وضعٍ نفسيٍّ يصل به إلى إسلامها، ولكنها كانت مُتمكِّنةً

من عبادة الشمس، ويدُلُّنا على هذا التمكن قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل].

قال بعض المؤرخين: بعد رؤيتها لعرشها بدأتْ تهتزُّ صورة الشمس في ذهنها، وأدركت أنَّ معبودها ليست إلا مخلوقةً من مخلوقات الله تعالى مُسخَّرةً لعباده، وللمرة الأولى بدأت الشمس تنكسف من قِبلها، وأضاء في القلب نورٌ جديد لا يغيب، إنه «التوحيد»، ولكنها تماسكت وتجلَّدت لاختيار الوقت المُناسب لإعلان إسلامها.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل]، قال: إنه تكرارَ فِعْلِ الكون مرتين: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ و ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾، دلالةٌ على تمكُّنها من عبادة الشمس؛ لأنها انحدرت من سلالةِ المُشركين، فالشركُ مُنطبعٌ فيها بالوراثة، والكُفر قد أحاط بها بتغَلغُلِهِ في نفسها، وبِنشأتِها عليه، وبكونها من قومٍ كافرين، فمن أين يخلصُ إليها الهدى.

قال صاحب «الأساس»: ويبدو أن رؤية العرش وتغييره لم تكن كافيةً لإسلامها لتمكُّنِ الكفر من نفسها، فأراد سليمان أن يضعها في وضعٍ نفسي آخر يكون أكثر تأثيراً من الأول، فقيل لها عندئذ ما ذكره القرآن: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل].

قال المفسرون: أراد سليمان أن يُريَها أثراً بديعاً من آثار الصناعة الحكيمة وهو «الصرح».

والصرحُ يطلق في اللغة على صحن الدار وعَرَصتِها، والظاهر أنه صرحُ

القصر، أو ما يُسمى ببهوِ القصر، مثل «إيوان كسرى» مثلاً، كان سليمان يجلس فيه للقضاء.

والقائل لها: ﴿ ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾، هم الذين كانوا في رفقتها، وكان سليمان في صدر الصرح، وكلمةُ: ﴿ ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾، تدل على أنَّ للصرح باباً، وهو أول الصرح، ثم بهوٌ كبير، وساحةٌ واسعةٌ فُرِشت بزجاجٍ شفاف، وأُجريَ تحت الزجاج الماء حتى يظنُه الناظر إليه لُجَّةَ ماءٍ، وهذا من بديع الصناعة التي اختصَّت بها قصور سليمان في ذلك الزمان، ولم تكن معروفةً في بلاد اليمن، رغمَ حضارة بلاد اليمن العظيمة.

والإنسان إذا رأى ماءً أو بللاً يرفعُ ثيابه بعمليةٍ لا شُعوريةٍ حتى لا يُصيبه البلَلُ، وهكذا فعلت بلقيس حيث رفعت ذيل ثوبها أو خلعت خُفَّها عن ساقيها، وهنا نبَّهها سليمان بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾، يعني ادخلي ولا تخافي بللاً، فهو صرحٌ مبنيٌّ من الزجاج والبلور «الكريستال» بحيثُ يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك وحيوانات بحرية ومائية أُخرى.

قال القرطبي: لما حاولت كشف ساقها، أعرض سليمان وصرف بصرهُ، وقال لها عندئذ: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾.

والمُمَرَّدُ: هو المُمَلَّسُ، ومنه الأمردُ: وهو الشاب الذي لا شعر في وجهه.

ويُقال: شجرةٌ مرداء، للتي لا ورق لها.

ومنه: الماردُ: وهو المُتعرِّي من الخير.

والقوارير: جمع قارورةٍ، وهو اسم للإناء من الزجاج، وسُميَ قارورةً لأنه يُظهر ما يَقَرُّ في قعره، من تَفَثِ الخمر، فيعرف الساقي ما بقي فيه من الصافي.

ثم أُطلقَ على الزجاج الخالص الصفاء ومنه قول «بشار»:

ارفُق بعمروٍ إذا حركتَ نِسبته فإنه عربي من قواريرَ[1]

ولما قال لها سليمان: ﴿ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾، أنزلت ثيابها واستترت.

وقال صاحب كتاب «أنبياء الله»: نبَّهها سليمان - دون أن ينظر - ألا تخافَ بللاً حيث لا مياه هناك، وإنما الماء تحت الزجاج، عندها أعلنت إسلامها بقولها: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤ ﴾ [النمل].

بُهِرت بما رأت من آيات علمتْ منها أنَّ سليمان صادق، وأنه مؤيد من الله تعالى، وعلمت أنَّ ما عليه هي وقومها من عبادة الشمس دينٌ باطل، وأنها ظلمت نفسها حين جعلت الشمس المخلوقة إلهاً، وهذا معنى قولها: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤ ﴾[النمل]، باتباعي للباطل، وهذه الكلمة هي الدرجة الأولى في الاعتقاد وهي درجة التخلية، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها، وهي: درجة التحلي بالإيمان الحق، فقالت: ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، حيث اعترفت بأن الله هو رَبُّ جميع الموجودات، وهذا مقام التوحيد.

وقولها: ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾، ولم تقل: «أسلمتُ لسليمان»، كأنها تقول له: لا تظن أني أسلمتُ لك، إنما أسلمتُ معك، إذن أنا وأنت سواء، لا يتعالى أحد منا على الآخر، فكلانا عبدٌ لله تعالى، كما قال أهل التفسير، نعم قد خضعت له وقالت: ﴿ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾، لأنَّ سليمان كان السبب في إسلامها، فهي آمنت بالدين الذي يدين به سليمان، وذلك يشمل الشرائع والأحكام التي أتى بها عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

---

(١) أي نسبته في العرب ضعيفة.

وقولها: ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ ﴾: هو الانقياد لله تعالى.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وتَقَلُّدُ بلقيس للتوحيد، كان في خاصةِ نفسها فقط، لأنها دانت لله بذلك، ولم يَثْبُتْ تاريخياً أنَّ أهل سبأ انخلعوا من عبادة الأوثان، كما سيأتي في سورة «سبأ».

وأما دخول اليهودية إلى بلاد اليمن فكانت بعد ذلك، وقصة الغُلام في سورة «البروج»، وهو «عبد الله بن الثامر» وتأثُره بالراهب الذي كان يعبد الله على دين عيسى سراً في عهد الملك اليهودي «يوسف ذو نواس»، وكيف حرَّقَ من آمن بدعوة الراهب والغلام، وعرضَ أهل نجران على النار فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبتَ على الدين الحق قذفه في النار، وكان أهل نجران مُشركين أول الأمر يعبدون نخلةً طويلةً، ثم كثُرت فيهم دعوة الراهب الموحد سرّاً، وكان يقرأ الإنجيل، واسم هذا الراهب «فيميون»، وعند الطبري «قيميون».

قال العلماء: ومكان العبرة في هذه القصة، بحالِ هذه الملكة، إذ لم يصُدَّها عُلُّو شأنها، وعظمَةُ سُلطانها عن النظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد، وتُوقِنَ بفساد الشرك، وتعترفَ بالوحدانية لله عز وجل.

ثم لا أصلَ لما يذكره القُصاص، وبعض الروايات الإسرائيلية، من أن سليمان تزوج بلقيس، وأنَّ لها ولداً منه اسمه «رَمْبَعَام»، فإنَّ ولده هذا خلفهُ في المُلك وكان من زوجة «عمونية»، ولقد سأل رجلٌ «عبد الله بن عتبة»: هل تزوجها سليمان فقال: انتهى أمرُها إلى قولها: ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾، ولا علمَ لنا وراء ذلك.

وهنا سؤال: هل كان الصرح مُعجزةً، أم أثرَ جُهدٍ مبذول في عالم الصنعةِ والأسباب؟

والجواب: كما قال صاحب «الأساس»: إنه كان جُهداً مبذولاً في عالم الأسباب، يرمُزُ إلى أنَّ بلقيس كانت في مَدَنِيَّةٍ عريقةٍ، فأراها سليمان الصرح لتُدرك أنها أمام مَدَنِيَّةٍ أعرقَ وأعظمَ، فخضعت.

وقد نقل ابن إسحق عن «يزيد بن رومان»: أنه قال في قول سليمان لبلقيس: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾، قال يزيد بن رومان: أراد سليمان أن يُرِيَها مُلكاً أعزَّ من مُلكها، وسُلطاناً أعظم من سُلطانها، فلما رأت الصرحَ لم تشُكَّ أنها تخوضُ ماءً، حتى شكت في كون ذلك مكيدةً لإغراقها، ولذلك قال بعض المفسرين في قولها: ﴿إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾، إني ظننتُ ظنَّ السوء في نِيَّةِ سليمان، حين ظننْتُ يُريدُ إغراقي فيه ولَلقتلُ أهونُ عليَّ من التغريق.

قال العلماء: وهناك درسٌ آخر يجب أن نَعِيَهُ ونُدْرِكَهُ، في قصه سليمان، هذا الدرس يُفيد أنَّ المَدَنيَّةَ الإسلامية يجب أن تكون أرقى المَدنيات؛ لماذا؟

والجواب: لأنَّ ذلك إخضاعاً نفسياً لأهل المَدنيات الأُخرى.

ولعلَّ من بعض أسباب انخذالِ بعض المسلمين عن الإسلام وإعراضهم عنه ما يرونه من تفوّق الكافرين مدنيّاً على المسلمين، مما أدى إلى وجودِ عقدةِ نقصٍ عندنا نحن المسلمين، وهذا الأمر جعل الكافرين يستغلّون ذلك، فيتفاخرون بالكفر وتقدُّمه، ويُهاجمون الإسلام وأهله.

وفي حاشية البغوي: ولولا أنَّ بلقيس رأت ما كان عليه سليمان من الدين المتين والخُلق الرفيع، لما خضعت إليه لمّا دعاها إلى التوحيد، ولما نَدِمت على ما فرَّطتْ في السابق من كونها كانت تعبُد الشمس والكواكب.

المعجزات التي سخرها الله عز وجل لسليمان عليه السلام:

قال العلماء: ومع هذا الرُّقي الحضاري والمَدنيّ لدولةِ سليمان، كانت

المُعجزات التي أيَّده الله بها هي السَّبق الأعلى، فتعالوا نستعرض شيئاً من هذه المعجزات بادئين بتسخير الريح:

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ ﴾ [سبأ ١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص].

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: إنك تُلاحظ أنَّ الريح سُخرتْ لسليمان على ثلاثة أحوال: مرة عاصفةً شديدة الهبوب، ومرةً رُخاءً، أي ليّنةً هادئةً لطيفةً، وتقطع في يوم واحد ما يقطعه المُسافر في شهرين اثنين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ ﴾ [سبأ ١٢]، أُطلق الغدوُّ على الانطلاق تشبيهاً بغُدُوّ الناس في الصباح، وأُطلقَ الرواحُ على الرجوع، لأنَّ رواح الماشية يكون مساءً بعد الشِّبعِ إلى الحظائر.

وقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾ [ص ٣٦].

قال العلماء: معنى التسخير: خلق ريح تُلائم سيرَ سُفُنه للتجارة، أو للغزو، فجعل الله لمراسيه في شُطوط فلسطين رياحاً موسميةً تهُبُّ شهراً مُشَرِّقةً لتذهبَ سُفُنه في ذلك الموسم، وتهب شهراً مُغَرِّبةً لترجع سُفُنه إلى شواطئ فلسطين.

قال العلماء: هذا هو التسخير: هُبّي رخاءً حيثُ أراد أن تهُبي، وهُبي عاصفةً حيث أراد أن تعْصِفي.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]، وفي قوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ

﴿ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ ﴾ [الأنبياء].

قال: وصفَ الريح بـ «عاصفةً»، ومرةً بأنها: «رُخاءً»، فذلك باختلاف الأحوال، فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفةً، وإذا أراد اللّين سارت رُخاءً، والمعنى: أنها كانت مُؤاتيةً لسليمان، ويدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾، أي يُصرِّفُ الله الريح إلى ما يُلائم رغبةَ سليمان، بحيثُ يصيرُ عصف الريح إلى لينٍ إذا دعا الله، أو إذا رَغِبَ، هنا نُلاحظ أمراً: هو أنَّ الله تعالى جعل الريح تجري بأمر سليمان، ولم يجعلها تجري لسُفُنِهِ؟ لماذا؟

لأنَّ الله تعالى سخَّر الريح لكل السفن التي فيها مصلحةُ مُلكه، وإن لم تكن من سُفُنه، ولأنه كانت تأتيه سُفن طرطوشة من الأندلس ومن أفريقيا، وسفن «حيرام» ملك صور محمَّلةً بالذهب والفضة والعاج والطيب والخيل والبغال والطواويس والسلاح، والآنيةِ، والحُلَلِ.

وقوله: ﴿ حَيۡثُ أَصَابَ ﴾: أي حيثُ قصد.

وقوله: ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾، تدل على أنَّ تسخير الريح لمصالح سليمان أثرٌ من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم.

قال العلماء: كانت هذه الريح كأنها تُؤَمِّنُ المواصلات في مملكته من فلسطين حتى العراق، والله تعالى جمع لهذه الريح صِفةَ السرعة: ﴿ عَاصِفَةً ﴾، وصفةَ الراحةِ: ﴿ رُخَآءً ﴾، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله، فنحن حين تُسرع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السُرعة.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ ﴾ [الأنبياء ٨١]، فهي بركةٌ حِسِّيةٌ بما فيها من الزروع والثمار والخِصب والخيرات، وبركةٌ معنويةٌ، حيث

جعل فيها مهابط الوحي والنبوات، وآثار الأنبياء.

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: ولعل في تحديد مجال التسخير بشهر في الغُدوِّ وشهرٍ في الرواح، في قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ ١٢]، وذلك يُقَدَّرُ في دائرةِ مسيرةِ شهر، وهو ما يُقَدَّر بـ «١٥٠٠» كم ذهاباً، ومثلِها إياباً، أما ما وراء ذلك من الريح من الكرة الأرضية، فلا سُلطان له عليه، ولعل ذلك حتى لا يؤديَ إلى اضطراب دورات الرياح في الكرة الأرضية.

ثم قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: ولو تأملت سواحل سليمان وهي سواحل بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب، تجد أنَّ المسافة لا تزيد على ذلك، ثم قال: فإذا كانت عاصمة مُلكه «أورشليم»، وأمرَ الريح، فله السُلطانُ التامُّ عليها على امتداد مسيرةِ شهر في أي اتجاه: «شمالاً، شرقاً، غرباً، جنوباً» من نُقطة البدء.

وهكذا سُخِّرَ لسليمان الريح في منطقة مُلكه وما حوله من البر والبحر، وهكذا تفوَّقَ سليمان على دول عصره بأن نُقِلَ إلى عصر السرعة بتسخير الريح له، بينما سائر ملوك عصره تعيش في نواميس عصرها، وتخضع للبُطءِ في مواصلاتها.

قال ابن كثير: كان لسليمان بساطٌ مركبٌ من أخشاب بحيثُ يَسَعُ ما يحتاجُ إليه من الأمتعة والأثقال، فإذا أراد سفراً أو قتال عدو، أمر الريح فدخلت تحته فرفعتهُ، ثم يأمُر الرُّخاء فتسير به، فإن أراد السُرعة أمرَ العاصفةَ فحملتهُ، بحيثُ إنه كان يرتحلُ في أوَّل النهار من بيت المقدس، فتغدو به الريح فتضعهُ «باصطخر»، وهي مدينة بعيدة عن بيت المقدس مسيرة شهر، وهي: مدينةٌ من أقدم مُدن فارس، وأشهرها، كانت سَكَنَ ملوكِ الفُرس، ثم تحولوا عنها

إلى «جور» في عهد الملك «أردشير»، فَيُقيمُ سليمان هناكَ في «اصطخر» إلى آخر النهار، ثم يروح من آخرهِ، فترُدُّه الريح إلى بيت المقدس.

وقال الحسن البصري: كان يغدو من «دمشق» فينزل «باصطخر» فيتغدى فيها، ثم يروح منها، فيبيتُ بـ«كابل» وهي عاصمة أفغانستان – وبين دمشق واصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر –.

و«كابُلُ»: قال المؤرخون: هي مدينة كانت مُتاخمةً للحدود الهندية، تشتهر بمزارع «الزعفران» وأشجار «النارجيل»، «والعود الطيب»، وقد ذكر الشاعر «فرعون بن عبد الرحمن» المعروف «بابن سُكَلَةَ» حيث قال:

وَدِدْتُ مخافةَ الحجاج أني ... بكابُلَ في اسْتِ شيطان رجيم

والعرب يقولون إنَّ مواليد كابُلَ من الذكور يأتون شديدي الشبه بأخوالهم، ولذلك قال «عبيد الله بن قيس الرُّقياتِ»:

غلبتْ أُمُّهُ عليه أباهُ ... فهو كالكابُلِي أشْبَهَ خالَه

ويروي بعض أهل الآثار: أنهم وجدوا في منزلٍ قديم جداً في ناحية «نهر دجلة» وقد كُتِبَ على حجر فيه: «نحن نزلناه، وما بنيناهُ، ومبنياً وجدناه، غدونا من اصطخر فقُلناه، ونحن رائحونَ عنه إلى الشام فبائتون فيها إن شاء الله».

يقول صاحب كتاب «حياة سليمان»: سُخِّرت الريح لسليمان، فكُلُّ ملوكِ الأرضِ لاصقون بالأرض، يتحركون رُكباناً أو مُشاةً، وهو تحمِله الريحُ ويطير حيث يشاء، فهذا هو التفوق، حتى يكون مُلكُهُ كما طلبَ من الله فأعطاهُ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ

﴿٣٥﴾ [ص].

وذكر «الحافظ أبو نُعيم»: أنَّ سليمان ركب الريح يوماً، فمرَّ بحرَّاثٍ فنظر الحرَّاثُ إليه فقال: لقد أوتيَ آل داوود مُلكاً عظيماً، فحملت الريح كلامه فألقتهُ في أُذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحرَّاث فقال: إني سمعتُ قولك، وإنما مشيتُ إليك لئلا تتمنى ما لا تقدِرُ عليه، لَتسبيحَةٌ واحدةٌ يقبلها الله منك لخيرٌ مما أوتيَ آل داوود.

فقال الحرَّاثُ: أذهبَ الله همَّك كما أذهبتَ همي.

قال القرطبي: وُجِدتْ أبياتٌ من الشِعر منقورةٌ في صخرةٍ من أرض «كسكر» كان اسمها عند الفُرس «كسكر» باسم ملك من ملوكِ الفُرس، ولما مصَّرَ الحجاج الأمصار سماها «واسط» بين البصرة والكوفة، كتبها بعضُ أصحابِ سليمان، وفيها:

ونحنُ ولا حولٌ سوى حولِ ربنا ... نروحُ من الأوطانِ من أرضِ تدمُرِ
إذا نحنُ رُحنا، كان رَيْثُ رواحِنا ... مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أناسٌ شَرَوا لله طوعاً نفوسَهم ... بِنصرِ ابن داوودَ النبيّ المُطهَّرِ
لهم في معالي الدين فضلٌ ورفعةٌ ... وإن نُسِبوا يوماً فمن خيرِ معشرِ
وإن ركِبوا الريحَ المُطيعةَ أسرعتْ ... مُبادِرةً عن يُسرها لم تُقصِّرِ
تُظِلُّهم طيرٌ صفوفٌ عليهِمُ ... متى رفرفت من فوقهم لم تُنفَّرِ

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: لقد عُجِّلَ لسليمان ما يفعله المُلوك اليوم حين يركبون «الهيلوكبتر»، ويستعرضون جيوشهم، ثم قال: وفي إعطاء سليمان معجزةَ الارتفاع في الهواء، إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان بإمكانه أن يطير ولكن بنواميس العلم، وبالأسباب التي أودعها الله ليُسخرها البشر، والتي

هي هبةٌ من الله تعالى عليك أن تكتشفها.

أما عطاءُ الله لسليمان، فهي هبةٌ لدنيّةٌ بدون سبب أرضي، وذلك قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص].

قال الدكتور «الشلبي» في كتابه «حياة سليمان» قال: ومن العجيب أنَّ الله تعالى سخَّر لسليمان الجن كذلك، ثم قال: والأعجبُ، أنهم يقومون بأعمالٍ يعجزُ عنها الإنسان، وأنهم لا يستطيعون الإفلات من قبضته وسُلطانه، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص]، ثم قال بعد ذكر تسخير الريح: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص].

وقال عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ].

قال ابن عاشور: سخَّرَ الله الشياطين وطوائف الجن لسليمان تسخيراً خارقاً للعادة على وجه المعجزةِ؛ لأنها قوىً خفيةٌ.

قال العلماء: والجن والشياطين من الأمور المُغيبة لا نصل إلى معرفتها بطريق الحواس ولا التجربة، ولكن عن طريق الخبر الصادق.

ومعنى الجنِّ، مأخوذ من قوله جَنَّ: إذا استَتَرَ، وسُمِّيَ الجنينُ جنيناً، لاستِتاره في بطن أمه.

والشياطينُ: هو كل عادٍ مُتمردٍ من إنسٍ أو جِنٍّ، أو دابّةٍ، وسُميَ بذلك لبُعده عن رحمة الله، ومنه قولهم: بئرٌ شطونٌ: إذا كانت بعيدةَ القعْر،

وهم مُكلَّفون، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن]، وسُمِّيت سورةٌ باسمهم وهي [سورة الجن]: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾.

قال القاشاني: يغلبُ على الجن العُنصر الناري، كما يغلبُ على البشر الجوهرُ التُرابي الأرضي، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن].

والجانُّ: أبو الجن، من مارجٍ: الخليط من ألوان النار دون دخان.

وورد في السنة عن أبي سعيد الخدري أنه ﷺ قال: «إذا كنت في غنمك أو باديتك، فأذنت للصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمعُ مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شَهِدَ له يوم القيامة».

قال العلماء: وهم يتناسلون، منهم المؤمن، ومنهم الكافر، والكافر هو الشيطان منهم، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود]، أي عَلِمَ - سبحانه - من عباده من سيختارُ عَمَلَ أهل النار، ومن سيختارُ عَمَلَ أهل الجنة لسبقِ علمه الأزلي باختيارات عباده.

وقوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾: لأنهما هما الثقلان المُكلفان، والثقلان: هما الإنس والجن لأنهما كالحِملين الثقيلين على ظهر الأرض، وذلك بالتكاليف.

قال تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن]، وهو خبرٌ المقصود منه التهديدُ والوعيد، والتفرغ: كنايةٌ عن الاهتمام بالأمر دون غيره.

قال القرطبي: سخر الله له الشياطين ولم تُسَخَّر لأحدٍ قبله، فهم يبنون له ما

يشاء، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ [ص]، ثم قال القرطبي: البناء في البر، أما في البحر، فهم يغوصون له ليستخرجوا ما يشاءُ من اللؤلؤ والمرجان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾: أي مما يُكلفهم به سليمان من أعمالٍ شاقةٍ لا يقدر عليها الإنسان، وقد ذكرها الله في [سورة سبأ]: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾: أي إنَّ الله منعهم بقدرته من أن يعصوا سليمان، أو يهربوا منه، وجعلهم مُنقادين له دون عناء، ويشمل قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾: أي حفظْنا الناسَ المُعاصرين من أذى هؤلاء الشياطين.

قال العلماء: وكان تسخير الشياطين نوعَ عقابٍ لهم، وبتسخيرهم تُكَفُّ شرورهم كما تحبِسُ الدولة عُتاةَ المُجرمين.

هنا سؤال: ما الفائدة من تسخير الجن، إذ من الممكن للبشر أن يُسَخَّرَ؟

والجواب: إنَّ الجن طاقةٌ إنتاجيةٌ عاملةٌ بدون أجر، وهذه ثروةٌ ضخمة، مع قيامهم بأعمال قد لا يستطيعُها البشر.

قال النابغة:

إلا سليمان قد قال الإلـه له ... قم في البريةِ فاصْدُدْها عن الفَنَدِ

وخيِّس الجن إني قد أذنتُ لهم ... يبنون تدمُرَ بالصُّفّاحِ والعُمُدِ

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: ملكٌ من البشر يُسَلَّطُ على عوالم الجن،

وتسليطُهُ بإذن الله، يأمُرهم بما يشاء، ويُسخِّرهم كما يشاء، ويعتقِلُ من شاء ممن تمرَّدَ، ويُطلق من شاء ممن صلحَ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص].

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾: أي يخدمه ويُطيعه، ولذلك يُقال لمن يُطاع: أنا بين يديك.

وقوله: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾: الزيغُ: تجاوز الحدِّ، أو تجاوز الطريق، والمعنى: من يعصِ أمرنا الجاري على لسان سليمان عليه السلام، لأنه من عصى أمرَ سليمان فكأنه عصى أمرنا.

وقوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قال يحيى بن سلام: أي عذاباً يُشبه عذابَ جهنم لأنَّ سليمان لم يكن يُسخر من الجن إلا الكفار منهم، فإذا آمنوا أُطلقوا، وكان مع المُسخَّرين مَلكٌ بيده سوطٌ من عذاب السعير - من النار - فإن عصى الجني المُسخر ضربه المَلكُ بذلك الصوت فاحترق.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص]: أي هذا العطاء الذي أعطيناكَهُ عطاءٌ غير محدد، ولا مُقتَّر فيه، بل هو واسعٌ، فأنعِمْ على من شئت، وامنع من شئت فإنه لا حساب عليك.

قال الحسن: ما أنعم الله عز وجل على أحدٍ نِعمةً إلا وعليه فيها مسؤوليةٌ إلا سليمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

[ص].

قال العلماء: ولا شك أنَّ ذلك مُلكٌ عظيم من عطاء الله، فتسخير الجن في البناء، للدور والمصانع، وتسخيرهم للغوص في أعماق البحر لاستخراج كنوز البحر ولآلئه، ثم مَنْ تمرد منهم، جُمِعت يديه إلى عنقه بصَفدٍ، وهو: القيد من الحديد، ووضِعَ تحت الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ ﴾ [ص].

ولكن ماذا يبني له الجن المُكلفون بالبناء، وما هي الأعمال الأخرى التي يقومون بها؟ التي أشار الله إليها: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ۝٨٢ ﴾ [الأنبياء].

قال ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»: كانوا يبنون له المحاريب، والمحرابُ: هو البناء المُرتفع المُمتنع، كما يُطلق على الحصن الذي يُحارَبُ منه العدو المُهاجم للمدينة، ولأنه يُرمى من شُرفاته بالحِراب، وقد يُطلق على القصر الحصين، ولهذا سُميت قصور غُمَدان في اليمن «محاريب غُمَدان»، وهذا هو المعنى المُراد هنا، ثم أُطلق على المكان المُتخذ للعبادة، وذلك قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ ﴾ [آل عمران ٣٧]، وسُميَ المِحرابُ محراباً في المسجد؛ لأنه أعلى شيء فيه لكونه صدر المسجد، ولأن فيه العبادة لله حيث يُحاربُ فيه الشيطان، ولذلك أنشد فقيه المسجد الأقصى «عطاء الصوفي» وذلك في أيام ابن العربي في القرن السادس:

جَمَعَ الشجاعة والخضوع لربه ... ما أحسنَ المِحرابَ في المِحرابِ

قال ابن عاشور: أما تسميةُ المحاربِ للمكان الذي يقف فيه الإمام ليُصلي بالناس، فهي تسميةٌ حديثةٌ، واتخاذُ المحاريب في المساجد حدثَ في أول المائة

الثانية من الهجرة في حياة «أنس بن مالك».

ورويَ عنه أنه تنزَّهَ عن الجلوس في المحاريب، وكان العرب يُسمّون المِحراب للمكان الذي تُذبح فيه قرابينُ النصارى في الكنيسة، ولعمر بن أبي ربيعة:

دميةٌ عند راهبٍ قِسّيسي صوروها في مذابحِ المحرابِ

وهذه التسمياتُ «مذابح ومحراب» مما دخل إلى النصرانية عن طريق اليهود، وذلك لأنَّ النصرانية تفرعت من اليهودية كما قال صاحب «التحرير والتنوير».

قال العلماء: والظاهر أنَّ المَحاريب في المساجد بدأت بطاقاتٍ صغيرةٍ حتى لا يَضل الداخلُ عن القبلة، ثم وسَّعوها حتى صارت بهذا الشكل، وقد نُقِلَ عن بعض المؤرخين أن أول ما ظهرَ المِحرابُ في المسجد الأموي، في عهد الخليفة «الوليد بن عبد الملك»، إذاً كانوا يصنعون لسليمان المحاريب وذلك قوله تعالى: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ ﴾ [سبأ].

وقوله: ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾: التمثال: هو الصورة المُجسّمةُ: ووزن «تمثال»، «تفعال»، والأسماء الواردةُ على هذا الوزن «تفعال» قسمان:

إما مصادرُ وكلها بفتح التاء «إلا مصدرين»: تبيانٌ وتلقاء، وتلقاءُ هنا: بمعنى اللقاء.

وأما الأسماء الواردة على وزن «تفعال» فهي نحو أربعة عشر اسماً منها: «تمثال»، أحصاها ابن دريد وأوصلها الخطيب التبريزي إلى خمسة وعشرين اسماً.

هنا سؤال: قد يقول قائل: كيف يُقِرُّهم سليمان على التماثيل وهي مُحَرَّمةٌ؟

والجواب عند العلماء من ثلاثة وجوه:

الأول: أنهم كانوا يصنعون له الصور المُباحة من غير ذوات الحياة، فعندها يكون شرعُنا وشرعُهم واحداً «بتحريم كل ذي روح» في الصورة.

الثاني: أنها لم تكن محرمةً في شرعِهم، وفي الشرائع السابقة، وقد حرمها الإسلام، لأنه أمعنُ في قطع دابر الشرك لشدة تمكن الإشراك في نفوس العرب وغيرهم، وإنما كان تحريمُها في شرعنا لكونها ذريعةً للإشراك، لا لذاتها.

الثالث: أنَّ ما صُنِعَ من التماثيل لسليمان لا لقصد التعظيم، وإنما وضعت في أمكنةٍ تدل على التحقير والإهانة، حيث كانوا يضعون هذه التماثيل المُجسمة حاملةً لطاولات الطعام، أو على صورة أسد يحمل شُرفةً من شُرفات القصر، أو أسداً يحمل كرسي سليمان وكانت تُصنع من رخام أو نحاس أو زجاج.

وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾: جفان: جمع جَفْنَةٍ، وهي القصعةُ العظيمةُ، أو هي أكبر الصِّحاف.

وقوله: ﴿كَالْجَوَابِ﴾: جمع جابيةٍ، أو جوبةٍ، وهي: الأحواض الواسعة التي يجتمع فيها الماء لسقي الزروع والأشجار، أو الأحواض التي تُسقى منها الإبل، ومنه قولهم: جَبَيْتُ الخراجَ، وجَبَيْتُ الجرادَ: إذا جمعته في كيس أو غيره.

فالجفنة عند العرب: هي القصعة العظيمة التي تكفي العدد الكبير.

ثم تليها القصعة: وهي التي تُشبع العشرةَ من الآكلين.

ثم تليها الصفحَةُ: وهي التي تُشبع الخمسةَ.

ثم تليها الميكلةُ: وهي التي تُشبع الرجلين والثلاث.

قال الشاعر:

نفى الذمَّ عن رهطِ المُحلَّقِ جَفْنَةٌ[1] كجابيةِ الشيخِ العراقي تَفْهَقُ

وقد رويَ هذا البيت برواية أُخرى وهي:

تروحُ على آل المُحلَّق جفنةٌ كجابية الشيخ العراقي تَفْهَقُ

قال المؤرخون: وكانت هذه الجِفان توضع عند بيت المقدس لتمتلئ بالماء ليغسلوا فيها قرابينهم من «المُحْرقات».

وقوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾: أي القدور التي لا تُحمل ولا تُحرك لعظمتها.

قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات].

والقدور: هي الآنيةُ التي يوضع فيها الطعام ليُطبخ من لحم ودُهن وزيت وتوابل، وهذه القدور كان يُطبخُ فيها لجُند سليمان، ولخدمةِ أتباعه، وللقائمين على شؤون أماكن العبادة، ووصفت بـ «الراسيات»، لأنها ثابتةٌ في الأرض، ولأنها لا تُنْزَلُ من فوق أثافيها لتداول الطبخ فيها صباح مساءَ.

ومن شعر النابغة الذبياني بمدح النعمان بن حارث الجُلاحي:

له بِفناء البيتِ سوداءُ فخمةٌ تَلَقَّمُ أوصالَ الجزورِ العُراعِرِ

بقيةُ قِدْرٍ[2] من قدورٍ تُوورِثَتْ لآل الجُلاح كابراً بعد كابرِ

---

(١) أي جفنةٌ واسعة كجابية العراقي الذي عنده رزوع وكروم فكان يجمع الماء في أحواض واسعةٍ لسقاية الزروع «فالجفنةُ كالحوض».

(٢) أي قدر ضخمة تسع قوائمَ البعير إذا وضعت فيه لتُطبخ مرقاً.

قال ابن العربي: وكذلك كانت قدور «عبد الله بن جُدعان» يُصعَدُ إليها في الجاهلية بِسُلَّم، وهو ابن عم عائشة رضي الله تعالى عنها، كانت له جفنةٌ يُستظلُّ بظِلها، ويصل إليها المُتناول من ظهر البعير، ووقع فيها غُلام صغير فغرق، وفيها قال «طَرفة بن العبد»:

كالجوابي لا تني مُترعةً   لِقرى الأضيافِ أو للمُحتضرِ

وكان للنبي ﷺ قصعةٌ يحمِلُها أربعةُ رجال يُقال لها: «الغرّاء»: أي البيضاء.

قال ابن العربي في «أحكامه»: ورأيتُ برباطِ «أبي سعيد» قدور الصوفية على نحوِ ذلك - أي من الضخامةِ - فإنهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارِ أحدٍ منهم على أحد.

هنا يأتي سؤال: هل للشياطين تأثيرٌ وسُلطانٌ على عقائد الناس وأعمالهم وإراداتهم؟

والجواب: إن الله وضع في نفوس البشر سُنَّةً، وهي: إنَّ الشيطان لا يتسلَّط إلا على من كان مائلاً للغواية، فاعلاً لها، وليس له تأثيرٌ على من صان نفسه من الشر، وكان مع منهج الله، اقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]، قال الله: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿ رَبِّ ﴾: إقرارٌ بالربوبية، ولكن بعد اعترافه بأنه سبَّبَ لنفسه الطرد واللعنة، فقد قال إبليس بعد ﴿ رَبِّ ﴾، ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾، سبحانه وتعالى أعطاه حُرية الاختيار بين الفِعل - السجود - وعدم الفِعل، فخالف

أمرَ الله وعصاه، ويُتابع إبليس كلامه: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، والتزيينُ: هو تزيين الكُفر والمعاصي وكبائر الذنوب، ويكون بأمرين:

الأول: تزيين المعاصي.

الثاني: شُغلهم بالدنيا عن فعل الطاعات.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: إذا مالَ العبد إلى الضلال واستحسنه، واختار إرضاء الشهوات الحرام، صار مُتهيئاً إلى الغِواية فأغواه الشيطان فغوى، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر]، وهذا وعدٌ من الله لعباده بألا يكون لإبليس سلطانٌ على من أخلصَ لله عبادتَهُ، ولذلك قال تعالى قبلها: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾، أي الذي يقود العبد إلى الطاعة فيكون من عبادي الذين ليس لك عليهم سلطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، لماذا؟

لأنهم اتبعوا صراط الله المُستقيم، وهكذا العاقل إذا تعَلَّقَ به وَسْوَاسُ الشيطان عَلِمَ ما فيه من ضلال، فخالفهُ واختار طريق الهُدى، فلم يكن للشيطان عليه تأثير ولا سُلطان.

قال العلماء: وإنما يكون تسلُّطُ الشيطان على الإنسان من: اتِّباع الهوى، ومن الغفلة، ومن ركوب المعصية، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف]، أي من يُعرض عن القرآن مُتغافلاً عنه، ومُتعامياً عن عبادة الرحمن، بل ومن ينظر في القرآن نظراً دون تدبُّر، ولا حظَّ له من القرآن إلا سماعُ الكلمات، ولم يُفكر أن ينتفعَ بمعانيه نُهَيِّىء له شيطاناً فهو له قرين نتيجة إعراضه عن وحي السماء، ونجعلهُ له قريناً لا يُفارقه في الدارين.

قال ابن عاشور: فلكل واحد ممن «يعشو» عن ذكر الرحمن من: «عَشا»: وهو الذي ينظر في القرآن نظراً غير متمكن ولا يُريد أن يتدبره، شيطانٌ يُلازمه ملازمةً تامة، ولإيجاد التوازن في مُقابلة وسوسة الشيطان التي هي من دواعي الشرِّ، جعل الله كذلك للعبد داعياً للخير عن طريق مَلَكٍ من الملائكة، وفي الحديث: «إن للشيطان لَـمَّةً بابن آدم، وللملكِ لَـمَّةً، فأما لَـمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق، وأما لَـمَّةُ المَلكِ، فإيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأُخرى فليتعوذ بالله من الشيطان»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة].

والوعد من الشيطان الوسوسة.

قال الإمام أحمد: أعداؤك أربعة:

- الدنيا: وسلاحُها لقاء الخلق، وسجنُها العزلةُ.
- والشيطان: وسلاحه الشبعُ، وسجنه الجوع.
- النفس: وسلاحُها النوم، وسجنها السهر.
- والهوى: وسلاحُه الكلام، وسجنه الصمت.

فاعتصمْ بالله وبكتابه تَسلَمْ.

قيل لأحد الصالحين: كيف مُجاهدتك للشيطان؟

قال: ما الشيطان، نحن صرفنا هِمَمَنا إلى الله تعالى، فكفانا من دونه، وأنشدوا في هذا المعنى:

تَسَتَّرتُ عن دهري بظلِّ جنابِهِ فَعَيْني ترى دهري وليس يَرانيا
فلو تُسْأَلُ الأيامُ ما اسميَ مادَرتْ وأين مكاني ما عَرَفْنَ مكانيا

قال البروسوي: وشوهد إبليس في المنام، فقيل له: ما حالُكَ مع فُلان الصالح؟

قال: كمثلِ رجلٍ يبول في البحر المحيط يريد أن يُلوِّثه، هل هناك من أسفَهُ منه؟ أو كمثلِ رجل يريد أن يُطفئ أنوار الشمس بِنَفَسِهِ، هل ترى أجهلَ منه؟

ثم يقول الله تعالى بعد هذا العطاء لسليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ ١٢].

ثم أمرهم عز وجل بعدها بشُكر هذه النِعَم فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

وحقيقة الشُكر: استعمال النِعمةِ في الطاعةِ.

والكُفران: استعمالها في المعصية، وذكر ابن العربي في «أحكامه» أنَّ النبي ﷺ قام على المنبر، وتلا هذه الآية: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]، ثم قال ﷺ: «ثلاث من أوتِيَهُنَّ فقد أوتيَ مثل ما أوتيَ آلُ داوود»، قال: فقلنا: ما هنَّ؟ قال ﷺ: «العدل في الغضب والرضا، والقصد في الغنى والفقر، وخشيةُ الله في السر والعلانية» ذكره السيوطي في «الجامع الكبير»، من رواية الحكيم الترمذي عن أبي هريرة.

ومن جميل ما قالوا: إن الشُكرَ إنما يكون بالجوارح والقلب واللسان:

فشُكر القلب: يكون بمحبة الله، وخلوه عن محبةِ ما سواه.

وشُكر الروح: بذلُها في سبيل خالقها.

وشُكر الجوارح: استعمالُها وفقَ شريعة الله.

وشُكر اللسان: يكون بالثناء على الله، لا إله إلا أنت سبحانك... اللهم إنك عفوٌّ كريم تُحب العفوَ فاعفُ عنا... خلقتني وأنا عبدك...

و﴿ ٱلشَّكُورُ ﴾: هو المُبالغِ في الشُّكر على النعماء والآلاء بقلبه ولسانه وجوارحه، أكثر أوقاته، وأغلب أحواله.

قال العلماء: ولما كانت نِعم الله لا تُحصى، فمنَ المُستحيل أن تشكُر الله حقَّ شُكره، ولذلك قالوا: «الشكور من يرى عجزه عن الشُكر»، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

قال السيد الوكيل في كتابه «نظرات في أحسن القصص»: ومن نِعم الله على سليمان: أن أسالَ له «عين القِطر»، قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ [سبأ ١٢].

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: كانت عيناً ساخنةً من نُحاس مصهور تُسمى «عين القِطر» من جبل هناك تجري إلى الوادي في قنوات فيغترفون ما يريدون منها في أوانٍ من الحديد، وكانوا يصنعون من هذا النُحاس الأواني النُحاسية، ونُشير هنا إلى خبر ذكرتْهُ المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس والتي هي فرع للمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية في مدينة «نيو هافن» بولاية «كوند يكيت»، هذا الخبر كان في ١٦ مايو ١٩٣٨ م وفيه أنَّ «ميلاريورس»: رئيس المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية أعلنَ أن الدكتور «نلسون غلوك» مدير فرعهم في القدس كان على رأس البعثة التي كشفت ثَغْرَ «عصيون جابر»، وقال «غلوك هذا»: إن أهمية ميناء «عصيون جابر»

قديماً تنحصر في تجارة النُحاس وصناعته، وصناعة السفن، وذلك قبل ميلاد عيسى عليه السلام بحوالي «١٠٠٠» سنة.

وكان قُدماء المؤرخين قد قالوا: إنَّ سليمان بنى سفناً في ميناء اسمه «عصيون جابر»، بجانب «أيلة».

بناء بيت المقدس:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: استعان سليمان بحوالي مائة وثمانين ألف عامل في بناء الهيكل الذي هو: مسجدٌ بُنِيَ للموحدين من المؤمنين، وهذا كان هو الغرض الرئيسي من بنائه.

قال المؤرخون: كان داوود هو الذي اختار تلك الأرض الفسيحة، وكانت قريبةً من بيت لحم لبناء بيت المقدس، وبدأ داوود في البناء في أيامه، ورفعه قَدْرَ قامة الرجل ثم وقف، ولما استخلفَ الله سليمان أمره بإتمام بناء بيت المقدس، فجمع الإنس والجن والشياطين، وقسَّمَ عليهم الأعمال، وخصَّ كلَّ طائفةٍ بعمل يصلح لها، فتم بناء بيت المقدس في سبع سنين وهي - كما قال المؤرخون - مدةٌ بسيطة بالنسبة لعظمةِ البناء، فقد كان أجمل طِرازٍ في عصره.

دعا سليمان مهرةَ النحاسين، فصنعوا من النُحاس صفائح رقيقة وزركشوها بالألوان الجميلة، والأحجار الكريمة التي أُحضرت من اليمن، وأُتِيَ بالخشب من لبنان من شجر الأرْز للسقوف، وأُتِيَ بالذهب من «ترشيش» وهي «تونس»، وترشيش كلمة رومية سمّى بها الروم تونس، ومن «شعر الطريري التونسي» هو أبو الحسن محمد، كان قد خرج من تونس خوفاً على نفسه، فكتبت له والدته توبِخه فقالت:

وأنت امرؤٌ منا خُلِقْتَ لغيرنا حياتُكَ لا نفعٌ وموتُكَ فاجِعُ

فعاد أبو الحسن سراً لما وصلتهُ الرسالة من أمه، ودخل بيتهم سراً، وكتب على الجدار:

سُقياً لمن لم تكن ترشيشُ منزله ولا رأى دهرَهُ من أهلها أحدا

داراً، إذا زُرْتُ أقواماً أُحبُّهُمُ بها أزارتني الأحزان والكمدا

قالوا: وكان للساحة الخارجية عشر بوابات، تسع منها مُغطاة بالذهب، والعاشرة مصبوبة من النُحاس، وقد تدلَّت فوق البوابات العشر زخارف على شكل عناقيد من العنب الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص، وكان الهدف من عظمةِ هذا البناء إظهارَ قوة الدولة، وعَظَمَةِ عقيدتها.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: بُطِّنَتْ قِبابُ مسجد بيت المقدس وأعمدتُهُ وجدرانه بالنُحاس، فصار كاللؤلؤة المُتألقةِ يقصِدُهُ الناس للعبادة والحج.

قال ابن عساكر: وعَمِلَ سليمان في المسجد عملاً لا يوصف، وزيَّنه بالذهب والفضة والمرجان والياقوت، وأنواع الجواهر في سقفه وأرضه وجدرانه وأركانه، ولما فرغَ من بنائه جمعَ الناس فأخبرهم أنه مسجدٌ لله تعالى، وأنَّ الله أمرنا ببنائه، وأن كلَّ شيءٍ فيه لله عز وجل، وأنَّ من انتَقَصَه شيئاً فقد خان الله، ثم اتخذ طعاماً، وجمعَ الناس عليه، ثم قرَّب القُربان.

قال المؤرخون: ولما فرغَ سليمان من البناء قرَّبَ على الصخرة قرباناً، ثم دعا ربَّه قائلاً: «اللهم أنت وهبتني هذا المُلك، مَنّاً منك عليَّ، وجعلتني خليفتك في أرضك، وأكرمتني من قبل أن أكون شيئاً فلك الحمد.

اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خِصالاً:

أن لا يدخله أحدٌ يُصلي فيه ركعتين مُخلصاً فيهما إلا خرج من ذنوبه كيومَ ولدتهُ أمه.

ولا يدخله مذنبٌ إلا تُبْتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمّنْتَه، ولا سقيمٌ إلا شفيته، ولا مُجدبٌ إلا أخصَبْتَهُ وأغنيته».

وورد عن ابن عمر مرفوعاً قال: «لما بنى سليمان البيت سأل ربه ثلاثاً، فأعطاهُ اثنتين، وأنا أرجو أن يكون أعطاهُ الثالثة:

سأله مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأعطاهُ ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص].

وسأله حُكماً يُصادف حكمه، فأعطاه ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء].

وسأله أن لا يأتيَ أحدٌ هذا البيت، فيُصلي فيه إلا رجع من ذنوبه كيومَ ولدتهُ أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك».

قال ابن عاشور: وسليمان عليه السلام هو ابن داوود بن يسّي من سِبط يهوذا، ولد سنة «١٠٣٢»، اثنتين وثلاثين وألف قبل المسيح، وتوفي في أورشليم سنة «٩٧٥» خمس وسبعين وتسعمائة قبل المسيح، وتولى مُلكَ بني إسرائيل سنة أربعَ عشرة وألف «١٠١٤» ق. م، بعد وفاة أبيه داوود، وعَظُمَ مُلكُ بني إسرائيل في مُدَّته، وهو الذي أمرَ ببناء مسجد بيت المقدس، وكان نبياً حكيماً شاعراً، وجعل لمملكته أُسطولاً بحرياً ضخماً، كانت تمخُرُ سفنه البحار إلى جهاتٍ قاصيةٍ مثل شرق أفريقيا.

قال المؤرخون: بعد وفاة سليمان تولى أمر بني إسرائيل ابنه «رُحُبْعَمْ» كما ضبطه الطبري في «تاريخه»، ودام مُلكه سبعَ عشرة سنة، ثم افترقت ممالكُ بني إسرائيل وبدأت ينخُرها الفساد، ثم اعتدى اليهود على قُدسية الهيكل، فبعد أن كان رمزاً للتوحيد وعبادة الله وحده، أهانوا قُدسيةَ المسجد، فحوَّلوه إلى سوق للبيع والشراء، فتزاحمَ في ساحته بائعو الثيران والكِباش والحمام، حتى أصبحَ أشبه بمربطِ بهائمٍ.

ثم اكتنفَ مدخَلَ المسجد مكاتبُ الصيارفةِ يتعالى رنينُ الذهب فوق أصواتهم.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وحين فقد الهيكلُ حقيقة جوهره، وصار سوقاً للتجارة والمال، ولعبيد الدنيا، دُمِّرت الديار، ودُمِّرَ الهيكل، وقد أشارت الآيات الواردة في أول سورة الإسراء إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾: أي قدَّرنا، ثم مجيء «إلى» بني إسرائيل، عُدِّيَ بـ «إلى» لتتضمَّن معنى أبلغنا وأنهينا.

والمقصود بالكتاب: «كتاب التوراة»، أو بعض كُتبهم الدينية، فيكون المقصود بـ «ال» تعريف الجنس لا تعريف العهد الذِكريّ، وهو من الأسفار المُسماة: «بكتب الأنبياء»، وهي في الدرجة الثانية بعد التوراة، وهي: «كتب أشعيا، وأرميا، وحزقيال، ودانيال، وكذلك كتاب النبي ملاخي».

قال ابن عاشور: وهذه الآية السابقة تُشير إلى حوادثَ عظيمة تقع بين بني إسرائيل وبين أعدائهم من أُمَّتين عظيمتين، حوادث مع «البابليين»، و

حوادث بينهم وبين «الرومانيين»، فانقسمت هذه الحوادث إلى نوعين، نوع مع البابليين، ونوع مع الرومانيين، فعبَّرت الآية بكلمة ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ مع أنَّ كل مرةٍ تحوي عِدَّةَ ملاحم:

الغزو الأول: مع «بختنصر» ملك بابل وآشور «لأورشليم»، وقد غزاهم «بختنصر» ثلاث غزوات: الأول: سنة ٦٠٦ ق.م، ويُسمى **الأسر الأول،** حيث أُسِرَ منهم جماعاتٌ كثيرةٌ – من اليهود –.

ثم غزاهم غزواً ثانياً يُسمى: **الأسر الثاني،** وكان أعظم من الأول، وكان سنة ٥٩٨ ق.م، وأسر «بختنصر» ملكَ يهوذا، وكثيراً من اليهود، وأخذ الذهب والنفائس التي في هيكل سليمان حتى أخذ منه نفائسَ الآنية، كما قال بعض المؤرخين.

ثم جاءهم **الأسر الثالث** سنة ٥٨٨ ق.م على يد «بختنصر» كذلك وسبى كُلَّ شعب دولة يهوذا، وأحرق هيكل سليمان كله، وبقيت أورشليم خراباً يباباً – مهجورة –.

ولفظةُ ﴿ٱلدِّيَارِۚ﴾: أي ديار بلد أُورشليم، حيث دخلها «بختنصرُ» فقتل وسبى، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار، وأسر كُلَّ بني إسرائيل، وهكذا خلت البلاد منهم.

قال المؤرخون: بقيَ بنو إسرائيل في أسر البابليين نيِّفاً وأربعين سنة، ثم تابوا وندموا، فسلَّط الله على ملوك بابل ملوكَ الفُرس، فهاجم «كورش» البابليين وهزمهم، ثم نزل بهم «داريوس» ملك الفُرس وفتح «بابل» سنة ٥٣٨ ق.م، وأذِنَ لليهود بالرجوع إلى أورشليم سنة ٥٣٠ ق.م، ويُجدِّدوا دولتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ [الإسراء].

والردُّ: الإرجاع، والكرَّةُ: الرجوع إلى المكان الذي ذهب منه، وذلك أنَّ اليهود رجعوا إلى أورشليم سنة ٥٣٠ ق.م، وجددوا دولتهم وانتصروا على البابليين.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: أي جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجلاء، أو جعلناكم أكثر عدداً من أعدائكم، حيث فَنِيَ مُعظم البابليين في الحروب مع الفُرس أصدقاء اليهود حينها.

قال المؤرخون: ثم عاد بنو إسرائيل من جديد إلى طُغيان المادة وحدها، وخطف أبصارهم من جديد بريقُ الذهب، وصارت العبادة فيهم مظهراً لا حقيقة لها، وتاجر عُلماؤهم بالدين بدل الخضوع لله تعالى، وهجروا جوهرةَ القوة وهو: «الاستمداد من الله»، وانغمسوا في الترف، فساق الله إليهم من دمَّرهم، وجاسَ خلال ديارهم، وهذه سُنَّةٌ كونية لا تختلفُ، وتبقى الأُمة قوية ما بقيت صِلتها بالله صحيحة وقوية، فإذا هجروا صِلتهم بالله أهلكهم الله.

وهكذا – قال المؤرخون –: أتاهم **الغزو الثاني** على يد الرومان لأورشليم سنة ١٣٥ ق.م، فتبَّروا كل شيء، وهكذا انتهى أمر اليهود، وتشتتوا في بِقاع الأرض.

أحداث وقعت في عهد سليمان عليه السلام:

سليمان عليه السلام والخيل:

قال المؤرخون: وبعد هذه النِعَم العظيمة التي أنعمَ الله بها على سليمان، فقد وقعت إبان رسالته أحداثٌ ينبغي أن نذكرها، ونقف عندها، ونُقرِّرَ صحيحها؛ لأنَّ أهل الكتاب من الإسرائيليين أدخلوا على هذه الوقائع

وهذه الأحداث أكاذيب، فكان للإسرائيليات نصيبٌ وافر من هذه الوقائع والحوادث، ونبدؤها بقصة سليمان مع الخيل، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾: أي أعطينا بلا مُقابل؛ لأنَّ سليمان ولدُ داوود والأولاد هبةٌ من الله، قال تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾: أي كثير الأوبَةِ إلى الله تعالى.

والأوبَةُ: هي الرجوع إلى الله بالذكر والاستغفار عند حدوث الغفلة، والنسيان العارض للعبد، وهذا ثناءٌ من الله عليه.

روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال: لما وهب الله لداوود سليمان، قال له مرةً: يا بني:

ما أحسنُ؟

قال سليمان: سكينةُ الله والإيمانُ.

قال داوود: فما أقبحُ؟

قال سليمان: كفرٌ بعد إيمان.

قال داوود: فما أحلى؟

قال سليمان: روحُ الله بين عباده.

قال داوود: فما أبرَدُ؟

قال سليمان: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضِهم عن بعض.

قال داوود عندها: فأنت نبيٌّ.

قال العلماء: وسبب الثناء على سليمان هو: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فهذه الجملةُ تُعلل هذا الثناء فهي تعليلية، وفيها إيحاءٌ إلى الاقتداء به: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام ٩٠].

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾: والعرضُ: الإمرار والإحضارُ أمامَ الرائي، والعارضُ: هم السُوَّاس.

وقوله: ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: هنا تُطلقُ من وقت العصر إلى الغروب لأنه وقت تفقد الخيل والماشية عند رجوعها من المراعي.

وقال صاحب «أحكام القرآن»: العشيُّ من الزوال إلى الغروب، كما أنَّ الغداةَ من طلوع الشمس إلى الزوال.

وقوله: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾: الصافِنُ: لا يكون إلا من الخيل والأفراس، وهو الذي يقفُ على ثلاث قوائم وطرفِ حافرِ القائمةِ الرابعة، لا يُمكّن القائمة الرابعة من الأرض، وذلك من علامات خِفَّتِهِ الدالة على كريم أصل الفرس وحُسنِ خِلاله، يُقال: صَفِنَ الفرسُ صُفونا، ومنه قول القائل:

أَلِفَ الصُّفونَ فلا يزالُ كأنه ... مما يقومُ على الثلاثِ كسيرا

وقوله: ﴿ٱلْجِيَادُ﴾: الفرس الموصوف بالجودةِ والنَّفاسَةِ، وكل شيء ليس برديءٍ يُقال له جيد، ومنه قول النابغة:

لنا قُبَّةٌ مضروبةٌ بفنائها ... عِتاقُ المهارى والجيادُ الصوافِنُ

ويوصف الفرسُ – ويُطلق على الذكر والأنثى – بالصافنِ وبالجوادِ، إذا

كان يقف على ثلاث قوائمَ وطرف القائمة الرابعة، وكذا عند شُربه لا يثني سُنبُكَهُ، والسُنْبُكُ: طرف الحافر.

وقوله: ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾: أي أحببتُ الخيرَ حُباً، وهذا يُشبه قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر ١٢]، فصار المعنى: أحببتُ الخيرَ حُباً فجاوزتُ ذكرَ ربي، والمُراد «بذكر الرب» صلاةٌ رتَّبها سليمان لنفسه وقت العَشي – ووقت العَشي من العصر إلى المغرب – وهو وقتٌ ليس فيه صلاةٌ مفروضة في شريعة موسى إلى المغرب.

و ﴿ ٱلْخَيْرِ ﴾: المال النفيس، والمقصود هنا الخيل؛ لأنها من أنفَسِ أموال العرب، والعربُ يُطلقون على الخيل اسم الخير، لأنَّ العرب تُعاقب بين اللام والراء، كما يقولون: انهملت العينُ وانهمرت، وخَتَلَ، وخَتَرَ، بمعنى خَدَعَ.

والخيلُ والخيرُ في كلام العرب واحدٌ، ألا ترى أنَّ النبي ﷺ لما وَفَدَ عليه الشاعر «زيد الخيل بن مهلهل»، قال له النبي ﷺ: «أنت زيد الخير».

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص]: التواري: الاختفاءُ، والمقصود هنا: غياب الشمس واستتارُها في الأفق، وتَغطَّتْ عن أعين الناظرين.

و ﴿ بِٱلْحِجَابِ ﴾: السترُ، كقول أنس رضي الله تعالى عنه: قد أنزل الله آية الحجاب، أي آية الستر.

قال العلماء: شبَّهَ غروب الشمس وراء الأُفق بتواري المرأةِ وراء الحجاب، فصار المعنى كما عند ابن عاشور وغيره: استعرض سليمان خيلهُ الصافناتِ الجيادِ إعداداً لغزوةٍ سيغزوها في سبيل الله، فاشتغلَ بها عن صلاةٍ كان قد رتَّبها لنفسه وقت العَشي، وذكرنا أن وقت العَشي من العصر إلى المغرب، وليس فيه وقتُ صلاة مفروضة في شريعة موسى، فدلَّ على أنها صلاة تطوع،

فلم يشعر إلا وقد غابت الشمس، فندم لذلك وقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص]، ثم أسرع فصلى هذه الصلاة «العصر»، وقوله هذا يدلنا على أنه لم يستغرق في الذهول، بل بادَرَ بمجرد فواتِ وقت الذِكر- الصلاة التي اعتادها - وهذا يدلُّك على تحسُّرِه، كقول أم مريم ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران ٣٦].

قال العلماء: ثم عاد سليمان إلى استكمال العرض فأمرَ سُوّاسَه أن يَردُّوها عليه، وذلك قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ فردّوها فجعل يمسحُ بيده سُوقَها وأعناقها حتى أكملَ استعراضها، وذلك قوله:﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾ [ص].

المسحُ: إمرارُ اليد على الشيء لإزالة ما عليه من غبار أو ماء أو غبش مما لا يُراد بقاؤه على الشيء، ويكون باليد أو بثوبٍ أو بخرقة.

قال ابن عباس وغيره كالزهري، وابن كيسان وقُطرب، قالوا في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾، أي شرعَ يمسحُ أعرافَ الخيل وسوقها بيده حُباً لها.

قال صاحب «التحرير»: وهذا المعنى، هو الجاري على المُناسب لمقام النبوة، والأقوم والأوفقِ بحقيقة المسح وأَيَّدهُ في ذلك الرازي والطبري.

وقد ذكر صاحب «روح البيان» للبروسوي، كلاماً جميلاً جيداً في هذا الموضوع - الخيل - منقولاً عن الزهري رحمه الله تعالى.

قال: إنَّ رِباط الخيل كان مندوباً إليه في شريعتهم، كما هو مندوبٌ إليه في شريعتنا.

ثم إنَّ سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو، فجلس على كرسيّه، وأمر

بإحضار الخيل، وإجرائها، ثم قال عندما شاهد إجراءَها: إني لا أُجريها لأجلِ حظ النفس، وإنما أُجريها وأُحبها لأمر الله، وللجهاد في سبيله، وهذا هو المُراد بقوله: ﴿ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾، واستمر في إجرائها حتى غابت عن بصره، فإنه كان له ميدانٌ واسع مستدير يُسابق فيه بين الخيل حتى تتوارى عنه، ثم إنه أمرَ الرائضين بأن يردوها، فردُّوا تلك الخيل، فَشَرَعَ بمسحِ سوقها وأعناقها بيده تشريفاً و حُباً لها، لكونها من أعظمِ الأعوان على قهر الأعداء، ثم يُعلق البروسوي على قول الزهري فيقول: وهذا أحق بالقبول عند أولي الأفهام.

اختبار سليمان وامتحانه وابتلاؤه:

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص» الدكتور محمد السيد الوكيل: الفتن في الحياة ابتلاء واختبار من الله عز وجل لعباده، وأشد الناس قُربى إلى الله أشدُّهم تعرُّضاً للابتلاء، وكلما اشتدَّ البلاءُ بالعبد المؤمن، كلما اشتدَّ أملُهُ بالله وبفرج الله تعالى.

واقتضت سُنَّة الله في خلقه، ألا يفلت من البلاء مؤمن، غير أنَّ درجات البلاء تختلف من شخص لآخر، فتزيد أو تقل حسْبَ صلابة الإيمان، ومن هنا كان بلاءُ الأنبياء أشدَّ بلاءٍ يُواجهه إنسانٌ؛ لأنهم أقوى الناس إيماناً، وأعظمهم منزلة عند الله، ومن هنا قال ﷺ: «أشد الناس بلاءً في الدنيا نبيٌّ أو صَفِيٌّ» رواه البخاري في «التاريخ».

ونبي الله سليمان، فُتِنَ وامتُحِنَ كما امتُحِنَ غيره من الأنبياء، وذكر أهل التاريخ أقوالاً كثيرة لا يصح منها شيء عن طريق النقل الصحيح، وأغلبُها مُتلقاةٌ من الإسرائيليات، ومن اليهود الذين ألْصَقوا بداوود وسليمان مُفترَاياتٍ كثيرة، والسبب:

أنَّ اليهود لا يعتقدون أن داوود وسليمان أنبياء، وإنما هم ملوك، ولذلك

ألصقوا بهما كثيراً من المُفتريات، كما ذكر ابن عثيمين في «تحريره».

قال العلماء: ومن أغرب هذه المُفتريات، والتي هي أشبه بالخُرافات قولهم: إنه ولد له ابن فخاف عليه الناس أن يقتلوه، فاستودعه الريح لتحضُنه وتُرضعه درَّ ماء المُزن، فلم يعش طويلاً حتى أصابه الموت، وألقتهُ الريح على كُرسيِّ سليمان ليعلمَ أنه لا مردَّ لمحتومِ الموت، فَعَلِمَ أنه أخطأ بعدم توَكُّلِهِ فاستغفر، وقد نظم أبو العلاء المعري شعراً في هذه القصة تبعاً لأوهام العوام، فقال حكايةً عن سليمان:

خاف غدرَ الأنامِ فاستودعَ الريـ ... ـح سليلاً تغذوهُ دُرَّ العِهادِ[1]

وتوخى النجاةَ وقد أيـ ... ـقنَ أنَّ الحِمامَ بالمِرصادِ

فرمتهُ به على جانبِ الكُر ... سيِّ أم اللُّهَيْمِ، أختُ النّآد

وقد أشار الله إلى هذا الابتلاء وهذا الامتحان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص].

قال العلماء: وأفضل ما قيل في ابتلاء سليمان - ما ذكره القاضي عياض - قال: والذي عليه أهل التحقيق أنَّ سبب فتنته ما أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلُّهن تأتي بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله»، فقيل له: قل: إن شاء الله، قالها المَلَكُ، أو صاحبه، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف بِهِنَّ فلم تلد له من هُنَّ إلا امرأةٌ واحده جاءت بِشِقِّ رجل - بنصف إنسان - أي مشلول بشلل نصفي، كما قال الجزائري، فلما ولدته أمه أتوا به إلى سليمان ووضعوه

---

(١) العِهادُ: مطر يتوالى يُدركُ آخره رطوبةَ أوله.

على كرسيه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته».

وفي رواية: «لو قال: إن شاء الله لم يحنث ولقاتلوا في سبيل الله فُرساناً أجمعون»، من هنا نعلم، كما قال صاحب «الأضواء»: إنَّ فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول «إن شاء الله»، وأنَّ ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي أُلقيَ على كرسيه بعد موته.

ولقد نهى الله تعالى نبيَّه محمد ﷺ أن يقول: إنني سأفعل كذا في المستقبل إلا مُعلَّقاً على مشيئة الله الذي لا يقع شيء في العالم إلا بمشيئته، قال تعالى لنبيِّه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف].

والمُراد بالغَدِ: ما يُستقبل من الزمان، لا خصوصَ الغَدِ لأنَّ من خصائص اللغة العربية إطلاق الغَدِ على المُستقبل من الزمان، ومنه قول زهير:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ، والأمسِ قبلهُ ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ[1]

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾: أي رجع إلى ربه وتاب إليه من عدم استثنائه في يمينه، ونبيُّنا ﷺ لما لم يستثن عندما سأله المُشركون عن ثلاث، عوقِبَ بانقطاع الوحي عنه نصف شهر أو أكثر، فأكربَهُ ذلك.

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص].

طلب المغفرة أولاً ليزول أثر الذنب، ثم سأل الله مُراده، ثم طلبَ مُلكاً لا يكون لسواه من الناس، وذلك قوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ ﴾، أي

(١) لا أعلم المُستقبل -.

لا يكون لسوايَ من الناس، لأنَّ «بعدُ» هنا بمعنى سوى، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

أي فمن يهديه سوى الله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، هذه الجُملة علَّةٌ للسؤال «تعليلية» وتمهيدٌ للجواب، أي أنت يا رب القويُّ الموهبةِ لا غيرك، لأنَّ الله يَهَبُ ما لا يملكُ غيره أن يَهَبَهُ، ولذلك جاء بصيغةِ المُبالغة: ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾.

وقد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إنَّ عفريتاً من الجن تفلَّتَ البارحة ليقطعَ عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذتُهُ فأردتُ أن أربِطَهُ بساريةٍ من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كُلُّكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ فتركته»، وهذا دليل على استجابة الله عز وجل لسليمان فسخَّرَ له الجنَّ والريح كما مرَّ معنا.

وكل ذلك يدلُّنا - في هذا الامتحان لسليمان - على أنَّ التوبة مشروعة من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً.

كما يدلُّنا على مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحُسنى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وأن تُقدمَ توبةً صادقة قبل أن تطلُبَ شيئاً من الله.

وفاة سليمان عليه السلام:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كانت حياة سليمان قمةً في المجد الذي يمتلئُ بالعجائب والخوارق، ولما قدَّرَ الله عليه أن يموت، كان موته كذلك آية من آيات الله يمتلئُ بالعجائب والخوارق، وهكذا جاء موته مُتَّسِقاً مع

مجده، جاء نهايةً فريدة لحياةٍ حافلة وفريدةٍ.

واسمع معي - يا عبد الله - إلى قصة وفاته المذكورة في [سورة سبأ]: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال القرطبي: كان سليمان قد سأل الله تعالى أن لا يعلم أحد بموته حتى يمضيَ عليه وقت من الزمان.

وقد ورد في أثر مرفوع عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ سليمان قام يُصلي فقال في دعائه: اللهم عَمِّ عن الجن موتي حتى تعلمَ الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب» القرطبي.

هنا سؤال: لماذا طلب سليمان ذلك؟

والجواب: إنَّ تسخير الجن لسليمان، واشتغالهم له، واتصالهم به كان سبباً في فتنةٍ وشائعةٍ عمَّتْ بين الناس مفادُها: أنَّ الجن يعلمون الغيب، ولكن من أين سَرَتْ هذه الشائعة، وهذه المقولة؟

قال القرطبي: شاعت من الجن فإنهم كانوا يدَّعون عِلمَ الغيب.

وقال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لا يُعرف من أين خرجت هذه المقولة: هل هي من جنّي ساذج، أم من شيطانٍ شقي، أم من بشر مخدوع، ولهذا كان المشركون يستعلمون عن المُغَيّبات من الكُهان، ويزعمون أنَّ لكل كاهن جنياً يأتيه بأخبار الغيب، ويُسمونه «رَئِياً».

ولعل الناس قالوا في أنفسهم لما رأوا الجن تقوم بالأعمال الخارقة في بناء بيت المقدس وغيره قالوا: ما دامت الجن تقوم بهذه الأعمال الخارقة فمن الممكن أن يعلموا الغيب، وهو عملٌ خارق.

ثم قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ونسوا، أو تناسوا أنَّ معرفةَ الغيب مسألةٌ تستحيلُ على الجن والإنس والخلائق كُلِّها، ولا يعلمُ الغيب إلا صاحبه سبحانه وحده، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: أبطَلَ الله عز وجل في هذه الآية أثراً من آثار الشرك، وهو ادعاءُ علمِ الغيب بالكهانةِ وإخبارِ الجن.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وقد قدَّرَ الله أن يكون موت سليمان مُنطوياً على نسفِ فكرةِ معرفةِ الجن للغيب.

مات سليمان دون أن يعلمَ الجن، فظلوا يعملون له، وظلوا مُسخرين لخدمته، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا التسخير والعذاب لشياطينهم.

خُلاصة قصة وفاته:

أنَّ سليمان دخل محرابه، وكان من عادته أن يخلوَ بنفسه في مكان خُصِّصَ له للاعتكاف والعبادة والصلاة، وكان من عادته أن يحمِلَ معه قُوتَهُ الذي يكفيه مُدَّةَ اعتكافه، وزمنَ خلوته، وكان إذا دخل محرابه للعبادة لم يجرؤ أحدٌ على اقتحام هذه الخلوة في المحراب، وكان هذا المحراب الذي يخلو فيه من الزجاج الذي يكشفُ ما وراءه.

جلس في المحراب يوماً وهو مُتكئٌ على عصاه، غارقٌ في التفكير، مُواظبٌ على ذكر الله تعالى، حتى نَعِسَ، وما هي إلا لحظاتٌ، بل لحظةٌ واحدة، وخرج ملكُ الموتِ من محرابه.

لقد مات سليمان عليه السلام.

كان مُتكئاً على عصاه، فظلَّ على وضعه مُتكئاً على العصا.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله» الدكتور أحمد بهجت: وحَمْلُ العصا من شارات الرئاسة.

ومن كان ملكاً مثل سليمان لا يترك عصاه ما دام صحيحاً مُعافى.

ورآه الجن فظنوا أنه على صلاته وذكره، فاستمروا في عملهم، ومرت أيام – فترة زمنية – ثم جاءت دابة الأرض – وهي نملة أو حشرة تأكل الخشب – وبدأت تأكل عصا سليمان من الجزء الذي يُلامس الأرض، ولما ازداد القِسم المأكول من العصا اختلَّت العصا، وسقطت من يد سليمان، فاختلَّ توازن الجسد فَخَرَّ إلى الأرض، فأدركوا عندها أنه مات من زمنٍ.

قال ابن عاشور في «تفسيره» لقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ** ﴾ [سبأ ١٤].

قال: ومما لا شك فيه، أن ذلك لم يَطُلْ وقته؛ لأنَّ مثلَ سليمان في عظمته ومُلكه لا بُدَّ أن يفتقده بلاطُه وأتباعه.

ودابةُ الأرض: هي الأَرَضَةُ بفتحاتٍ ثلاث، وتُسمى «السُّرْفَةُ»، وهي سوسٌ ينخر الخشب – دود ينخر الخشب –.

والأَرَضَةُ: سُميت بذلك لأنها تقوم بفعل الأرض، بمعنى الأكل، ولهذا سُميت الأرض أرضاً؛ لأنها تأكل أجساد بني آدم.

قال الدكتور «عبد الوهاب النجار» في كتابه «قصص الأنبياء»: قال: هناك بلد في أرض مصر يُقال لها «دنقلةُ العجوز»، فيها دُوَيْبَةٌ «أَرَضَةٌ» تأكل الخشب بشكل عجيب وسريع.

وقد ذكر الشيخ «محمد الخضري»، أنه وضعَ أرجُلَ مكتبه في إناء فيه ماء

وهو «بدنقلة العجوز»، فلم تمضِ أيام حتى وجدَ الأرضَةَ تُؤثرُ في جزء مهم في هذه الأرجل، وقال: لقد تركتُ جُبَّتي بجانب الحائط بِضعةَ أيام، ثم جئت إليها، فرأيتُها بهيئة جُبَّةٍ، فلما مسَسْتُها بيدي، فإذا هي هباءً.

قال ابن عاشور: وقد سخَّرَ الله لمنسأةِ سليمان كثيراً من السُّرَفِ، فتعجَّلَ لها النخرُ.

وهذ الاسم: «المنسأةُ»: وهي العصا التي يُتَوكَّأُ عليها مأخوذةٌ من «النسيء» - وهو التأخير في الوقت - لأنَّ العصا يُؤَخر بها الشيء ويُدفعُ ويُزجر ويُطرد، ومنه قولهم: نسأتُ الغنم: أي زجرتُها، قال الشاعر:

إذا دَبَبْتَ على المِنساةِ في كِبَرٍ ... فقد تباعَدَ عنكَ اللهو والغزلُ

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ].

وقوله: ﴿خَرَّ﴾: أي سقطَ، وتأتي بمعنى مات كما جاء في لسان العرب، لأنَّ الرجل إذا مات خَرَّ أي: سقطَ، ومنه قول حكيم بن حزام: «بايعتُ النبي ﷺ ألا أخرَّ إلا قائماً»، أي لا أموتُ إلا قائما، لأنه إذا مات خرَّ وسقط.

قال أهل العلم: وكلمة «خَرَّ»: أي سَقَطَ، توحي بأنَّ كرامةَ الإنسان في روحه، في هذا السر الذي وضعه الله فيه، فهذا سليمان على جلالة قدره عند الله يقول عنه: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سَقَطَ كأنه جمادٌ، لأنَّ الروح حينما تُفارق البدن يصيرُ كالجماد، كالحجر.

والروح ساعةَ تُسلب من الجسد، فأول ما يُنسى من هذا المتوفى اسمه مهما كان عظيماً، ويقولون: الجثة، فإذا وضعَ في النعشِ قالوا: الخشبة، بل ويُسارع الأهل والأحبةُ إلى الخلاص منه بأسرع ما يمكن.

وقوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾: أي تَبيَّنت الجن للناس، أي تبيَّنَ أمرهم.

وقُرِىء «تُبُيِّنَتِ الجن»: أي تبيَّنَ الناسُ الجنَّ، أي تبيَّنَ أمرهم للناس أنهم لا يعلمون الغيب، وبهذا أُبطِلَ اعتقادُ المشركين وعوامِّ الناس أنَّ الجِنَّ يعلمون الغيب.

وقوله: ﴿مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: أي العذاب المُذل المؤلم المُهين، ومن الإهانة لهم أن يُسخَّروا لواحدٍ من الإنس؛ لأنَّ الجِنَّ جنسٌ اعتقدوا أنهم جنسٌ أسمى من البشر بدليل قول أبيهم إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، قال ذلك عندما رَفَضَ السجود لآدم عناداً وكِبراً.

وقد ورد عند أبي داوود في كتاب «القدر»، عن خُثيمة قال: قال سليمان بن داوود عليهما السلام لِمَلَكِ الموت: إذا أردتَ أن تقبضَ روحي فأعلمني! فقال مَلَكُ الموت: ما أنا بأعلَمَ بذلك منك، إنما هي كُتُبٌ يُلقى إليَّ فيها تسميةُ مَنْ يموت.

وذكر ابن عساكر: أنَّ سليمان قال لِمَلَكِ الموت: ما لك تأتي الدار فتأخُذُ أهلها كلهم، وتَذَرُ الدُّوَيْرَةَ إلى جنبهم لا تأخذ منها أحداً؟

قال مَلَكُ الموت: ما أنا بأعلمَ بذلك منك، إنما أكون تحت العرش فيُلقى إليَّ صكاكٌ فيها أسماء.

قال ابن جرير: كان جميعُ عُمُرِ سليمان بن داوود، نيّفاً وخمسين سنة، وذكر محمد بن إسحق عن الزهري أنَّ سليمان عاش اثنتين وخمسين سنة.

وقال ابن عاشور: عاش سليمان سبعاً وخمسين سنة ولد سنة ١٠٣٢

ق.م، وتولى المُلكَ سنة ١٠٤٤ ق.م، ومات سنة ٩٧٥ ق.م.

قال صاحب كتاب «حياة الأنبياء»: دُفن سليمان مع أبيه داوود في بيت المقدس، وقبره هناك مشهور.

قال صاحب كتاب «حياة سليمان»: كان يوم وفاته يوماً تنتظره الجِنُّ، إنه اليوم الذي استعادوا فيه حُرية إفسادهم، فانفضوا يعبثون في الأرض، وكان يوم وفاته يوماً أخزى الله فيه الجن خِزْياً عظيماً، وتحدث الناسُ بخزيهم وقالوا: لو كان الجن - كما زعموا - يعلمون الغيبَ لعلموا موت سليمان ولكنهم عجزوا عن علم ما هو أمام أعيُنهم، فهم عن علم الغيب أشدُّ عجزاً، ولكنَّ الشياطين لا يهمُّهم ما قيل فيهم، فهم من دأبهم الكذب.

وقد ذكر صاحب كتاب «النُكت والعيون»، والمعروف «بالماوردي» المتوفى ٤٥٠ هـ: أنهم وجدوا على سور مدينة سليمان عليه السلام هذه الأبيات من الشِعر، وهي:

لو أنَّ حياً ينالُ الخُلدَ في مُهَلٍ ... لنالَ ذلك سليمان بن داوود

سالت له العينُ، عينَ القِطرِ فائضةً ... فيه، ومنه عطاءٌ غيرُ موصودِ

لم يبقَ من بعدِها في المُلكِ مُرْتَقِياً ... حتى تضمَّنَ رَمْساً بعد أُخدودِ

هذا لتعلم أنَّ المُلكَ مُنقطعٌ ... إلا من الله ذي التقوى وذي الجودِ

بعض أخلاق سليمان وأقواله:

قال المؤرخون: من أخلاقه عليه السلام، أنه كان كثيرَ الخشوع لله عز وجل، فقد وردَ عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «ما رفعَ سليمان طَرْفَهُ إلى السماء تَخَشُّعاً، حيث أعطاهُ الله ما أعطاه».

وورد عن ابن عباس مرفوعاً، قال: «خُيِّرَ سليمان بين المال والمُلكِ والعلمِ،

فاختار العلمَ، فأُعطيَ المُلكَ والمال لاختياره العلم».

ومن أقواله عليه السلام: أوتينا مما أوتيَ الناسُ، ومما لم يُؤْتَوا، وعَلِمنا ما عَلِمَ الناسُ وما لم يعلموا، فلم نجد أفضلَ:

من خشية الله في الغيب والشهادة.

وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصدِ في الغنى والفقر.

وقال: القاهر لنفسه يحمِلُها على الطاعة، ويُبعدُها عن المعصية أشدُّ ممن يفتحُ المدينة وحده.

وقال: اذكر الجائع إذا شبعتَ، واذكر الفقير إذا استغنيت.

وقال: ذهبتُ أنظر في الأمر، فإذا مع الشبابِ كِبَرٌ، ومع الغنى فقرٌ، ومع الصحة سَقَمٌ، ومع الحياة موت، وإذا تُربتي وتُـربةُ السفيه سواء، إلا أنْ أفضُلَهُ يوم القيامة بعملٍ صالحٍ، فكيف يَهْنَؤني مع ذلك طعامٌ أو شراب.

وكان يقول يا معشرَ الجبابرة: كيف تصنعون إذا وُضِعَ المنبرُ للقضاء، وإذا لقيتم ربكم فُرادى.

قال المفسرون: هذا هو سليمان الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص].

المزاعم التاريخية لليهود:

يزعم اليهود أنَّ فلسطين أرضهم التاريخية، وأنهم هم الأصل في هذه الأرض، وغيرهم ليسوا من أبنائها، ويُشيرون إلى فترات داوود وسليمان.

والمؤرخون والمحققون، لا يعُدّون اليهود الحاليين امتداداً تاريخياً شرعياً لبني إسرائيل، بل حُكم الأنبياء والصالحين لأرض فلسطين، وصراعُهم مع

الكفر هو جزء من تاريخ أُمة التوحيد التي تُعَدُّ أمة الإسلام امتداداً تاريخياً لهم.

ومع ذلك نُنَاقشهم ونقول لهم:

أولاً: إن أرضَ فلسطين سكنها الإنسان منذ القِدم السحيق، بنى أبناء فلسطين أقدم مدينة في العالم «أريحا» سنة «٨٠٠٠» ق.م، والعرب الكنعانيون هاجروا من الجزيرة العربية إلى فلسطين سنة «٢٥٠٠» ق.م، وكانت هجرة العرب إلى فلسطين من الجزيرة هجرةً واسعةً بحيث أصبحوا السُكان الأساسيين للبلاد، وعُرفت البلادُ باسمهم «أرض كنعان»، وهم الذين أنشؤوا مُعظم مدن فلسطين وقُراها، والتي بلغت في «الألف الثاني قبل الميلاد» حوالي مائتي مدينة وقرية، ومنها مدن: «شكيم: نابلس وبلاطة، وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر، وبئر السبع، وبيت لحم وغيرها».

ويرى المؤرخون: أنَ عامّةَ أهل فلسطين الحاليين - وبخاصة سكان القُرى - هم من الكنعانيين.

والشعوب القديمة: مثل شعوب البحر «الفلسطينيون»، أو من العرب المسلمين الذين استقروا في البلاد بعد الفتح الإسلامي، أي أنَّ جذور الفلسطينيين الحاليين تعود إلى «٤٥٠٠» سنة على أقل تقدير، ولم يهجروها طول هذه المدة.

ثانياً: إنَّ قدومَ إبراهيم إلى فلسطين كان سنة «١٩٠٠» ق.م، والتوراة تعترفُ أنَّ فلسطين كانت قبل قُدومه أرضاً عامرةً وتُسميها «أرض كنعان»، حتى إنَّ إبراهيم اشترى من أهل فلسطين مكاناً يدفنُ فيه زوجته سارة «مغارة المكفيلة»، والتي دُفِنَ فيها هو كذلك، وابنه إسحق، وحفيده يعقوب، وهي التي بُنِيَ عليها المسجد الإبراهيمي.

ثم استقر بنو يعقوب فيما بعد في مصر أجيالاً عديدةً حتى جاء موسى عليه السلام بتكليفِ إرساهم إلى الأرض المُقدسة حوالي سنة «١٢٥٠» ق.م.

ثالثاً: إنَّ مُلكَ داوود وسليمان استمر قُرابة ثمانين سنة فقط «١٠٠٤-٩٢٣» ق.م.

رابعاً: إنَّ الدراسات العلمية لليهود أنفسهم وعلى رأسهم «الكاتب المشهور كوستلر» في كتابه «القبيلة الثالثة عشرة» يقول: إنَّ أغلبية اليهود هذا الزمان ليست من ذُرية بني إسرائيل، وإنما هم من نسل يهود الخزر، وهم قبائل تتريةٌ من القوقاز أسسوا مملكةً ثم تهودوا في القرن الثامن من الميلاد، ودخل مَلِكُها «بولان» اليهوديةَ سنة «٧٤٠» م.

ويقول «ولز» في كتابه «موجز التاريخ» حول تجربة اليهود في فلسطين بعد الغزو البابلي سنة «٣٢٢» ق.م: كانت حياة العبرانيين في فلسطين تُشبه حالة وحياة رجل يُصِرُّ على الإقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات باستمرار.

ومن الأول إلى الآخر: لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ، ويقول «جوستاف لوبون»: إنَّ وجودهم في فلسطين لم يكن إلا منبع العادات الضارة من الخُرافة والدعارة.

زكريا ويحيى

عليهما الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم
زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام

بسم الله، والحمد لله، الحمد لله الذي جعل ذكره عُدّةً للمتقين يتوصَّلون بها إلى خيري الدنيا والدين.

الحمد لله مُبلّغ الراجي فوق مأموله، المنّانِ على التائبين بصفحةِ قبوله.

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره على نيل الهدى وحصوله.

ونصلي ونسلم على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه والفائزين من الإيمان بشُعَبِه و أُصوله.

إنَّ زكريا ويحيى رسولان من رُسل الله تعالى، ومِنْ بني إسرائيل، ومِنْ آخرِهم، لم يأتِ بعدهما سوى عيسى بن مريم عليهم السلام.

لذلك نُلاحظ أنَّ قصص هؤلاء الأنبياء الثلاثة - صلوات الله وسلامه عليهم - مُتداخلةً، ويعني ذلك: أنَّ كلَّ واحد منهم «زكريا، يحيى، عيسى» سيأخذ نصيباً أو قسطاً مِنْ قصةِ صاحبه كما قال الدكتور «الوكيل».

ونُلاحظ كذلك: أنَّ هؤلاء الأنبياء الثلاثة كانوا في عصرٍ واحدٍ، فالتَقَوا وتعاونوا، وتحابُّوا حتى قُتِلَ يحيى عليه الصلاة والسلام كما سنُبيِّنُ فيما بعد.

ثم قُتِلَ بعد يحيى أبوه زكريا، وكان مقتلُهما على أيدي بني إسرائيل، ولهذا نقرأ قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢ ﴾ [آل عمران].

وحاولوا قتل عيسى، ولكن الله لم يُمكِّنْهم، وأنقذهُ مِنْ كيدهم، قال

تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ ﴾ [النساء ١٥٧]، وخُتِمت الآية بقوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء]، وقال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء].

مِنْ هنا كانت قصة هؤلاء الأنبياء الثلاثةِ مُتداخلةً، وسنبدأُ بالكلام عن زكريا حتى تتضح الصورة، وتظهرَ في الأذهانِ تامة جلَّيةً.

زكريا عليه الصلاة والسلام:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله» كان عصرُ زكريا ويحيى ذا طعم غريب، وغرابتُهُ تأتي مِنَ المتناقضاتِ التي فيه، ومِنَ الصراعاتِ التي لا تهدأُ أبداً، ثم يقول: هذا هو مسجد بيت المقدس، يُضيء بالإيمان، ويمتلئُ بالمؤمنين وعلى بُعْدِ خُطواتٍ مِنَ المسجد كان سوق اليهود، يُعشعِشُ فيه الكذب، وكلُّ أنواع الكسب الحرام، وهذا شأن الدنيا صِراعٌ بين الخير والشر، بين النور والظلام، بين الحق والباطل.

في هذا العصر القديم كان نبي الله «زكريا عليه السلام».

وكان في زمن زكريا، وفي بيت المقدس عالمٌ عظيمٌ يُصلي بالناس اسمه «عمران بن ماثان»، والدُ «مريم».

وكانت زوجة زكريا واسمها «أليصابات».

وزوجة عمران واسمها «حنة»، أُختين.

قال ابن عساكر: كان «زكريا» مِنْ أبناءِ الأنبياءِ الذين يكتبون الوحي ببيت المقدس.

وكان «عمران» مِنْ أبناء ملوك بني إسرائيل.

وقد ذكر المؤرخون، وعلى رأسهم «محمد بن إسحق»: أنَّ زوجة عمران «حنة» كانت لا تحبل، وكانت من عادتها أن تستيقظ مُبكرةً لإطعام ما عندها مِنَ الطيور.

وصباح يوم قامت كعادتها، ووضعت الحبَّ للطيور، فرأتْ منظراً دفعها للتأمُّل واستوقفها، فما هو؟

رأت طائراً يزقُّ فرخاً له، ويأخذه تحت جناحه خوفاً عليه مِنَ البرد، فجدَّدَ هذا المنظر شوقها إلى الولد، وشهوتها إلى أن تكونَ أماً، وتمنَّتْ على الله أن تلد، ونذرتْ إن حملتْ لتجعَلَنَّ ولدها مُحَرَّراً: «أي مُتفرغاً للعبادة مُحرراً مِنْ أعباءِ الدنيا».

قال ابن كثير: واستجاب الله دعاءَها فحملت، وملأَها الفرح، وأرادت أن تؤدّيَ شُكرَ النعمةِ فنذرتْ ما في بطنها مُحَرَّراً لله تعالى.

وذلك قوله عز وجل: ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾** ﴾ [آل عمران].

ونُلاحظ أنها قالت: ﴿ **رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ** ﴾، ولم تقل: يا الله، لنعلم أنَّ الربَّ: هو المُتولي لشؤون عبيده، وتربيتهم، فعندما يُنادي العبد: يا ربُّ، أي هو المُتولي للتربيةِ، وعندما يُنادي العبدُ: يا الله، فالمفهوم منه التكليف، لأنَّ: يا الله نداء للمعبود الذي يُطاعُ فيما يُكلِّفُ عبده.

والنذر: هو أمرٌ أُريدَ به الطاعةُ فوقَ تكليفِ المُكلف مِنْ جنس ما كلَّفَهُ الله به، وهو دليلٌ يُعبِّربه العبد عن عِشْقِهِ لما كلَّفَهُ الله به.

دعت «حنة» ربها أن يقبل منها هذا النذرَ: ﴿ **فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ** ﴾، أي يا رب تقبل مني ذلك برضى، وجاءت الاستجابة: ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ** ﴾

[آل عمران ٣٧].

قال العلماء: وجاء يوم الوضع، ووضعت «حنة» امرأة «عمران» بنتاً: هي «مريم»، وكان عمران قد توفيَ قبل ولادة مريم، فحصلَ عند ولادتها مشكلةٌ صغيرةٌ أولَ الأمر، فما هي هذه المشكلة؟

قال أهل العلم: المشكلة: أنَّ علماء بني إسرائيل وأحبارهم تنازعوا على كفالة هذه المولودة «مريم»؛ لكونها ابنةَ إمامهم، وأكبرَ أحبارهم، فهو: جدٌّ كبيرٌ، وإمامُ صلاتهم، ومِنْ أبناءِ ملوكهم، - كما ذكر ابن عساكر -، وزكريا مِنْ أبناءِ الأنبياء، كل واحد مِنَ الأحبار والرهبان يُريد أن يسبِقَ غيره لينالَ هذا الشرفَ، عندها تقدَمَ «زكريا» وقال: أنا أولاكم بها، فعندي خالتُها، وأنا نبيٌّ هذا الزمان، فقال الأحبار والرهبان: نريد أن نكونَ شُركاءك في الشرف، فاتفقوا على القرعةِ، فطارت القرعةُ لزكريا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران ٣٧].

إذاً فأمر الكفالةِ جاءت مِنْ أعلى، مِنَ الرب الذي تقبلَها بقبول حسنٍ، وأنبتها نباتاً حسناً، والخروج مِنَ الأهواءِ بالقرعةِ لا يوجِدُ في النفسِ غضاضةً ولا حقداً ولا غضباً، على عكس الأخذِ بالغصب أو القوة.

قال القاسمي: أخذها زكريا، زوْجُ خالتها، وتربَّت في حِجر هذه الخالة «أليصابات» فلما كبُرت، انزوتْ في محراب بيتها تتعبد فيه، - والضامنُ والكفيلُ زكريا، واستأجَرَ لها ظئراً وأرضعها سنتين - وصار حالُها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾[آل عمران].

إذاً، تكرر دخوله عليها مراتٍ مُتعدِّدَةٍ، وكان كلما دخل وجدَ عندها رزقاً، وكان لابُدَّ أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق، وتساؤله يُعبِّر عن

دهشته، لذلك جاء بالقول الحقِّ على لسان زكريا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟

ولكن ما سبب دهشته؟

السبب: أنَّ الأبواب كانت مغلقةً عليها «بطلبٍ منها»، وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقةٍ لظنَّ أنَّ هناك مَنْ دخل وأحضرَ لها تلكَ الألوانَ المتعدِّدَةَ مِنَ الرزق.

قال العلماء: كان يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ، وفاكهة القيظ في الشتاء، والرزقُ: هو كل ما يُنتفع به.

وقول زكريا لمريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، قاعدةٌ تربويةٌ راقيةٌ غَفَلَ عنها الكثيرون أو تغافلوا عنها، ذلك بأنَّ أيَّ إنسانٍ وكَّلَهُ الله على قومٍ، أو ناسٍ، أوجماعةٍ، ويرى عندهم ما هو أزيدُ مِنْ حدود الدَّخْلِ، أو ما هو فوق طاقتهم فلا بُدَّ أن يسأل كلاً منهم: مِنْ أين لك هذا؟ كما قال أهل العلم: إنَّ الرجل الذي يدخل بيته، ويجد ابنته ترتدي ثوباً مرتفع الثمن يفوق طاقة الأسرة، أو يجد ولده قد اشترى، أو أنفق فوق ما تستطيعُهُ الأسرة، هنا يجب أن يقفَ الوليُّ أو الأب أو الجد ليسألَ: مِنْ أين لكم هذا؟

قال العلماء: وهذا السؤال فيه حمايةٌ لأخلاقِ الأسرة مِنَ الانهيار أو التحلُّلِ، ولكن لو تركَ الوليُّ الحبلَ على الغارب لَفَسَدَ الأمر.

كان السؤال محدّداً: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ وكان الجوابُ آية في الروعة: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي هو رزق يحصل لها بغير طُرُقِ الأسباب المعروفة، يوضع بين يديها كرامةً لها، والله هو الرازق، الذي يرزقُ بكلمة كن فيكون.

قال ابن كثير: روى الحافظ «أبو يعلى» مِنْ حديث جابر أنَّ رسول الله ﷺ أقامَ أياماً لم يطعم طعاماً، حتى شقَّ ذلك عليه.

قال البروسوي: وكان ذلك في سنة قحط، فطافَ على بيوتِ أزواجه، فلم يجد ﷺ عند واحدةٍ منهن شيئاً، فأتى فاطمة فسألها عن شيءٍ فقالت: لا والله ما عندي بأبي أنتَ وأمي، فلما خرجَ مِنْ عندها بعثت إليها جارة لها بأرغفةٍ مِنْ خبز وقطعةٍ مِنْ لحم، فوضعت ذلك في جفنةٍ لها وقالت: «والله لأُوْثِرَنَّ بها رسولَ الله ﷺ على نفسي ومَنْ عندي»، ثم أرسلت إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيءٍ فخبأَتْه لك، فقال ﷺ: «هلمّي يا بُنَيَّةُ».

قالت: فأَتَيْتُهُ بالجفنة، فَكَشَفْتُ عنها فإذا هي مملوءةٌ خبزاً ولحماً، فلما نظرتُ إليها بُهِتُّ، وعرفتُ أنها بركةٌ مِنَ الله، فحمدتُ الله، وصليتُ على رسوله، وقدَّمتُهُ إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه حَمَدَ الله تعالى وقال: «مِنْ أين لك هذا يا بُنَيَّةُ؟»، قالت: يا أبتِ: هو مِنْ عند الله، إنَّ الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب.

فقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعلك شبيهةً بسيدةِ نساءِ بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسُئِلت عنه قالت: هو مِنْ عند الله، إن الله يرزقُ مَنْ يشاء بغير حساب»، ثم أكلوا، وأوسعوا على الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً.

وقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

أي يرزق الله مَنْ يُريد رزقه بما لا يعْرف مقدارَهُ، ولأنه موكولٌ إلى فضل الله تعالى.

قال ابن كثير: وهذا مِنْ كراماتِ الأولياءِ، ودليلٌ على جوازها كما قال البروسوي.

قال العلماء: حَرَّكَتْ هذه القضيةُ الإيمانيةُ في نفسِ زكريا أُمنيةً كان يرجوها في نفسه، فلما رأى ما رأى عند مريم، صارت هذه الأمنيةُ، «وهي رغبتُهُ في الولد» في بؤرةِ الشعورِ، فدعا الله طالباً الولد في تلكَ اللحظةِ، وفي مكانٍ كريم وهو المحراب، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ ﴾ [آل عمران].

قد يُقال: إنَّ زكريا يعلم قُدرة الله قبلَ رؤيةِ حال مريم فهلّا سألَ قبل ذلك؟

والجواب: إنَّ الإنسان تزدادُ رغبتُهُ في الشيء إذا عاينه، وإن كان عالماً به قبلَ المُعاينةِ.

وذكر الله دعاءَ زكريا في سورة أُخرى، هي [سورة الأنبياء]: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٨٩ ﴾.

أي لا أطلبُ الولدَ ليرثَ مُلكي مِنْ بعدي، فأنتَ خيرُ الوارثين، ترثُ الأرض والسماء، ولك كلُّ شيءٍ سبحانك.

إذاً طلبَ الذريةَ، لماذا طلبها؟

طلبها لا لتكونَ زينةً، أو ذِكْراً، أو تكثيراً أو تقويةً، لا، إنه طلبها لتكونَ وراثةً للعلمِ والنبوةِ، لأنَّ الأنبياء لا يُوَرِّثون، وما تركوهُ صدقة، ولذلك قال زكريا: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴾ [مريم].

والموالي: أقاربه مِنْ أبناءِ عمومته، خافَ على المنهج أن يحملهُ مَنْ ليس لهذا الحِمْلِ بأهلٍ، لأنَّ سلوكياتِهم كانت لا تُعجبه كما قال العلماء.

قال أهل العلم: وقد أمر الله عز وجل نبينا محمداً ﷺ أن يَقُصَّ على الناس خَبَرَ نبي الله زكريا، وماذا كان مِنْ أمره في طلب الولد، فوهبهُ الله الولدَ على الكِبَرِ، مع عُقم زوجته منذ كانت شابةً، وتواصل عُقمُها إلى أن أَسَنَّتْ، قال تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم].

هنا سؤال: لماذا أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقُصَّ على أمته خَبَرَ زكريا؟

والجواب: حتى لا يقنطَ أحدٌ مِنْ رحمةِ الله ولا ييأسَ أحدٌ مِنْ فضله تبارك وتعالى، فزكريا دعا ربه طالباً الولد، وهو ابن سبعةٍ وسبعينَ مِنَ العمر كما ذكر ابن كثير، وقوله تعالى لمحمد: ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾.

أي هذا الذي نتلوهُ عليك يا محمد هو ذكرٌ وحديثٌ وخبرٌ عن رحمةِ ربك بعبده زكريا.

والرحمةُ: تجلياتُ الراحِمِ على المرحومِ بما يُديمُ له صلاحهُ لمُهمَّتِهِ، وقد

تكون مِنْ بشرٍ لبشر، بنصح أو بمؤازرة في شيء، ولكن عندما تكون الرحمةُ مِنَ الله، تكونُ أعلى أنواع الرحمة، ولئن كانت هنا رحمةً خاصةً بزكريا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾.

ثم انتبه بعد ذلك إلى خطابِ محمد ﷺ مِنْ ربه، قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، فرحمةُ الله بمحمدٍ ليست خاصةً به، بل هي رحمةٌ عامةٌ لجميعِ الناس، ولجميعِ العالمين، وهذه منزلةٌ كبيرةٌ عاليةٌ؛ لأنه رحمةٌ مِنَ الخالق، ورحمةٌ لخيرِ خلقه محمدٍ ﷺ، لأنه أشرف الأنبياء وأكملُهُم، والرحمةُ لكلِّ نبيٍّ تتناسبُ مع مقدارِ مُهمَّتِهِ، ومهمةُ محمد ﷺ أكرم المُهماتِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣﴾ [مريم].

قال العلماء: والنداء لونٌ مِنْ ألوان الأساليب الكلامية، والكلامُ عند أهل البلاغة، إما خبرٌ: وهو أن تُخبَر عن شيءٍ يحتملُ الصدق أو الكذب.

وإما إنشاءٌ: وهو أن تطلب بكلامك، والإنشاءُ لا يَحتمل الصدق والكذب، والنداءُ مِنَ الإنشاءِ، فلو قلت: يا سعيد، فأنت تريد أن تُنشئ إقبالاً عليك مِنْ سعيد.

وهنا: كيف تُنادي ربَّك، وهو - سبحانه - أقرب إليك مِنْ حبل الوريد، وكيف تُناديه - سبحانه -، وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم؟

إذاً ما الغرض مِنَ النداء؟

الغرض مِنَ النداء: الدعاء.

وقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣﴾ [مريم]

هنا سؤال: لماذا كان نداؤه ودعاؤه لربه خفياً؟

والجواب: إنما كان دعاؤه خفياً لأمورٍ:

أولاً: لأنه كان ليلاً، في صلاة الليل.

ثانيا: لما ذكره صاحب التحرير حيث قال: إنما كان نداؤه خفياً؛ لأنَّ زكريا رأى أنَّ ذلك أدْخَلُ في الإخلاص، ولأنه كان يرجو مِنَ الله أن يُجيبَ دعوته، فهو لا يريد أن يتحدث الناس عن طلب الولد في سن الشيخوخة.

ثالثاً: أخفى الدعاء؛ لأنَّ في دعائه أحوالاً تفتقر إلى الإخفاء كقوله: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى** ﴾.

وهذا مما يُكتمُ ولا يُجهرُ به.

وهذه الآية تُناسب قوله تعالى: ﴿ **ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥** ﴾ [الأعراف]، أي ذوي تضرُّع وخفيةٍ، أي مُتذلّلين خاشعين، هذا هو التضرعُ.

والخُفيةُ و الخِفيةُ: بضم الخاء أو كسرها مصدر الفعل: خَفِيَ، بمعنى اختفى.

وطلبَ الله مِنْ عباده أن يدعوه مع تَيْنِكَ الحالتين: التضرعُ والخفيةُ، لأنَّ المقصود مِنَ الدعاء أن يُشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه القادر، ذي الرحمة الواسعة، فإذا حصل له ذلك، فلا بُدَّ مِنْ أن يصونَ دُعاءه عن الرياء، وذلك بإخفائه.

ولذلك ورد في الحديث: «خيرُ الذِكر الخفيُّ وخيرُ الرزق ما يكفي» - «أيسر التفاسير»-.

وقد ذكر القاسمي في «تفسيره» «محاسن التأويل» عن عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فُضالة، عن الحسن، قال: إن كان الرجلُ، لقد جمعَ القرآن - أي يحفظ - وما يشعرُ به أحدٌ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾[الأعراف ٥٥]، وذلك أنَّ الله ذكر عبداً صالحاً رضيَ فِعْلَهُ فقال تعالى: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ ﴾ [مريم]، ولكن: ما هو هذا الدعاء؟

والجواب: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ ﴾ [مريم].

قال بعض السلف كما ذكر ابن كثير: قام زكريا مِنَ الليل، فنادى ربه مُناداةً أسَرَّها عمَّن كان حاضراً عنده، فقال: يا رب يا رب يا رب، فقال الله عز وجل: لبيك لبيك لبيك، فقال زكريا: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾.

قال أهل العلم: وإنما ذكر العظمَ؛ لأنه عمود البدن، وبه قِوامُه، وهو أصل بنائه، ولأنه أشدُّ ما في الجسم وأصلبُهُ، فإذا وَهَنَ العظمُ كان ما وراءه أوهنَ، حتى شبَّه بعض المفسرين المعاصرين العظمَ في الجسم الإنساني كأنه «الشاسيه» في السيارة.

ولذلك نُشاهدُ أنَّ العربيَّ لما شكا القحطَ والجدبَ المُتعاقبَ، قال: مرت بنا سنونٌ صعبة: فسنةٌ أذابت الشحمَ، وسنةٌ أذهبت اللحمَ، وسنةٌ محّت العظمَ، فالعظمُ آخر مخزن في الجسم.

قال الرازي: واعلم أنَّ زكريا قدَّمَ أموراً ثلاثة قبل طلب الولد:

الأول: قدَّم ضعفه: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾.

الثاني: أن الله عوَّده استجابة دعائه: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

الثالث: كونُ المطلوب – وهو الولد – لا يريده لمنفعةٍ دنيوية، وإنما يريده لمصلحة الدين، ولحفظ العلم والنبوة، وبعد تقرير هذه الأمور التي قدَّمها بين يدي طلبِهِ، جاء الطلب: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾:

قال أهل العلم: أتى زكريا بأمرٍ باطني أولاً لبيان ضعفه: ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ ﴾، ثم أتى بدلالة أُخرى ظاهرةٍ بينة وهي الشيبُ، فقال: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ ﴾، وهذا توسُّلٌ إلى الله بضعف الداعي واستكانته لأنَّ الشعرَ يكتسب لونه من غُدَدٍ مُلَوِّنَةٍ في بُصيلة الشَعرةِ، فإذا ضعُفَ الجسم تضعف هذه المادة الملونة حتى تختفيَ تدريجياً، وهذه العبارة شُهِدَ لها بأعلى نمط البلاغة؛ لأنها تحوي استعارتين:

الأولى: تصريحية: حيث شبه انتشار المُبيّضِ في المُسوَّد باشتعال النار.

الثانية: مكنيةٌ: شبه الشيبَ في بياضه وإنارته باللَّهب، كما قال ابن دريد:

أمَّا ترى رأسي حاكى لونُهُ ... طُرَّةَ صُبحٍ تحت أذيالِ الدُّجى

واشتعل المُبيضُّ في مُسودِّهِ ... مثل اشتعالِ النار في جَزْلِ الغضا

وهكذا توسَّل زكريا بضعفين، وهذا مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه مِنَ الركونِ إلى الله، والتبرّي مِنْ حولِ نفسه، ومِنْ قوته، ثم توسَّل بنعمِ الله وعوائده الجميلة على عبده: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾، يقول: يا رب، هذا العمر الطويل الذي قضيتُهُ، لم أرَ منك إلا استجابةً لدعائي،

وهكذا عوَّدْتني يا رب، فإنك ما ردَدْتني قطُّ، والكريم لا يسعى في إحباط إنعامه.

فقد رويَ أنَّ محتاجاً سألَ رجلاً مِنَ الأكابر وقال له: أنا الذي أحسنتَ إليَّ يومَ كذا، فقال الرجل: مرحباً بمن توسَّلَ إلينا بنا، ثم قضى حاجته، وذلك إنه لمّا قبلَه في المرة الأولى، لو ردَّهُ في الثانية لكان الردُّ مُحبِطاً للإنعام الأول، والمُنعم لا يسعى في إحباط إنعامه.

والعرب تقول: سُعِدَ فلانٌ بحاجته: إذا قُضيت.

وشَقِيَ فلانٌ بحاجته: إذا لم تُقضَ.

قال العلماء: وتكرَّر دعاء زكريا بطلب الولد: تقرأ في [سورة الأنبياء]: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾، وقال في [سورة آل عمران]: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

قال القرطبي: وفي هذه الآية وغيرها، دليل على جواز طلب الولد، وهي سُنَّةُ المرسلين والصِّديقين.

ثم قال: وفي هذا ردٌّ على بعض جهلة المتصوفةِ الذين قالوا: «الذي يطلب الولد أحمق»، وما علموا أنَّ الذي يقول هذا القول هو الغبي الأخرقُ، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان].

وقد قال النبي ﷺ لأبي طلحة لما ماتَ ولده: «أعرَّسْتم الليلة؟»، قال أبو طلحة: نعم، فقال ﷺ: «باركَ اللهُ لكما في غابر ليلتِكما»، قال: فحملت.

قال رجل من الأنصار: فرأيتُ تسعةَ أولادٍ كلُّهم قد قرؤوا القرآن.

وترجم البخاري في باب: «الدعاء بكثرة الولد مع البركة».

وساق حديث أنس قال: قالت أم سُليم: يا رسول الله، خادمك أنس، ادعُ الله له، فقال ﷺ: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له في ما أعطيته».

قال القرطبي: إذا ثبتَ هذا، فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه، والدعاء لهم بالتوفيق والصلاح والعفاف، وأن يكونوا مُعينين له على دينه ودنياه حتى تعظمَ منفعته في الأولى والآخرة، ولهذا قال زكريا: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

وقد قال تعالى لما وصف عبادَ الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان].

والعرب تقول: أقرَّ الله عينك، وأسخَنَ الله عينَ العدو، لأنَّ دمعَ السرور بارد، ومنه «القُرُّ» وهو البرودة، ودمع الحزن سُخْنٌ، ومِنْ ذلك قول القائل:

فكم سَخِنَتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ ... وقرَّتْ عيونٌ دمعُها اليوم ساكبُ

وقال آخر:

أوقــدْ فــإن الليلَ لــيـلٌ قُــرُّ ... والــريــحُ يا غــلامُ ريــحٌ صُرُّ
عــلَّ أن يــرى نــارك من يَمُرُّ ... إن جَلَبتَ ضيفاً فأنت حُرُّ

وقال آخر:

فأما قلوبُ العاشقينَ فأُسخِنَتْ ... وأما قلوبُ العازلينُ فقَرَّتْ

وتأتي «قُرَّةُ» بمعنى الثبات واللزوم، مِنْ قوهم: قرَّ في المكان إذا لزمه.

استجابة الدعاء:

قال العلماء: وتأتي الاستجابة وقد ذكرها الله تعالى: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم].

وذكر الله هذه البشارة على لسان الملائكة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾، تضمنت البشرى ثلاثة أشياء:

الأول: إجابةُ الدعاء، وفي الأثر: «مَنْ فُتِحَ له باب الدعاء فُتِحت له أبواب الرحمة»، قالوا: لأنَّ في الدعاء إظهارَ الافتقار والانكسار لله تعالى، وليس شيءٌ أحبَّ إلى الله مِنْ ذلك.

قــالــوا: أتـشـكـو إليه   مــا لـيـس يخـفـى عليه
فـقـلـتُ: ربي يـرضى   ذل الـعـبـيـد لـديـه

ومِنْ كلام السَّلف: نِعْمَ السلاحُ الدعاء، ونِعْمَ المطيةُ الوفاء، ونِعْمَ الشفيعُ البكاء.

قال البروسوي: ثم إنَّ الدعاء يكون إما لأمرٍ للدين، وإما لأمرٍ للدنيا، والأول مطمحُ نظرِ الكُمَّلِ؛ لذلك دعا زكريا ربه طالباً أن يكون مِنْ ذريته مَنْ يرثُ العلم الذي هو خيرٌ مِنْ ميراث المال.

الثاني في البشرى: إعطاؤه الولد، وهو قوةٌ له.

الثالث: إفرادُهُ بالتسميةِ: والبُشرى، أو البشارةُ: هي الإخبارُ بما يسرُّكَ قبل أن يجيءَ ليطول أمدُ الفرح بالشيءِ السَّارِّ.

والبِشارةُ هنا ممّن؟

مِنَ الله، فلا بُدَّ أن تكون واقعةً وحقاً لا شكَّ في ذلك، أما مِنَ البشر، فقد يُبشرك أحدٌ بأمرٍ سارٍّ ثم تأتي الأحداثُ مُخالفةً لظنِّ الذي بشَّرك فلا تتم البِشارةُ، أما مِنَ الله فلا شكَّ أنها واقعة.

وقوله تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾، يدلُّكَ على أنَّ التسمية مِنَ الله كذلك.

قال الرازي: إنَّ الله تعالى سمى يحيى قبل دخوله في الوجود، فكان هذا مِنْ خواصِّه، فلم يكن له شبيهٌ في هذه الخاصيَّةِ؛ لأنَّ الناس يُسمّون أولادهم في العادة بعد دخولهم في الوجود.

قال أهل العلم: ومِنْ عادة البشر حين يُسمُّون الأولادَ، فإنهم يتمنون في المُسمى مواصفاتٍ تسرُّ النفس وتُقِرُّ العين، فيُسمون سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً، والاسم إنما وُضع للدلالة على المُسمى، ولكن هل نملك – مهما كنا متفائلين – أن يأتي المُسمى على وَفْقِ ما نُحب؟

لا، لا نملك ذلك ولا نضمنه، وقد يأتي المُسمى على غير مُرادنا لوجود قوة أعلى منا تتحكم في هذه المسألة، ولكن عندما تأتي التسميةُ مِنَ الله، فلا بُدَّ أن ينطبق الاسم على المُسمى، وقد سمَّاهُ الله «يحيى»، أي نُبشرك بمولودٍ اسمه يحيى، وهو عند الغربيين «يوحنا» بالعبرانية، تعني: «نعمةَ الرَّبِ».

أما عندنا فاسمه «يحيى»، على وزن المُضارع مِنْ «حَييَ»، «يحيى» فهي

فعلٌ، وضده «يموت»، إذن، فهو سبحانه القادر على أن يُحْيِيَهُ، ولكن إلى متى؟

هنا استدل أهل العلم على أنَّ يحيى الذي سماه الله بهذا الاسم سيظل حياً كما سماهُ الله، ولذلك قالوا هذا الاسمُ يدل على أنه سيموتُ شهيداً ليظلَّ حياً كما سماهُ الله تعالى، فهذا الاسم «يحيى» هو أول اسم وضعهُ الحق سبحانه على ابن زكريا، ولم يكن أحدٌ تسمّى به مِنْ قبل، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم، حتى قال الشاعر وقد سمّى مولوده يحيى ليعيش ويطول عُمُرُهُ فلم يُعمر طويلاً فمات، فقال الشاعر:

وسميته يحيى ليحيى، فلم يكن لـــردِّ قـضــاءِ الله فيه سبيلُ

وقال غيره:

وسميتُهُ يحيى ليحيى فلم يكن لأمرٍ قضاهُ الله في الناسِ مِنْ بُدِّ

قال المفسرون: وقالوا: وسُمّيَ يحيى؛ لأنَّ القلوبَ تحيا بنبوته، وتحيا بدعوته، وتحيا المجالسُ بوعظه، وحَيِيَ هو بالحكمةِ التي أُوتيها، وحَيِيَ به رحِمُ أمه بعد عُقم، وما أجمل قول القرطبي حين قال: وهذا يدلك على أنَّ مَنْ لم يُحْيه الله بنور علمه فهو ميت.

قال البروسوي: والذي بشَّرَ زكريا بولادةِ يحيى «جبريل»، قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

المُنادي جبريلُ، وحُكم الواحد في اللغة العربية حُكم الكُلِّ، فالعرب تقول: زيدٌ يركبُ الخيل، وإنما يركبُ في الواقع واحداً.

ثم لما كان جبريل مقدمَ الملائكة ورئيسهم عَبَّرَ عنه بلغة الجمع تعظيماً له.

ولكن المحققين في التفسير قالوا: إنَّ الصوتَ عندما يأتي مِنَ البشر فله جهةٌ يأتي منها، أما الصوتُ القادم مِنَ الملأ الأعلى، فلا يعرفُ الإنسان مِنْ أين يأتيه؛ فإنه في هذه الحالة يسمعُ وكأنه آتٍ مِنْ كل الجهات، وكأنَّ هناك ملكاً في كل مكان.

وحديثاً، فإنَّ فنَّ الصوتيات قد ارتقى بحيث يستطيع الإنسان أن يجعل المؤثرَ الصوتيَ يُحيط بالإنسان بكل جهاته.

في أيِّ مكان بُشِّرَ؟ وفي أيِّ زمانٍ بُشِّرَ؟

إنه بُشِّرَ في أجملِ لحظاتِ لقائه مع الله!! في الصلاة، وهذا دأب الأنبياء، ألم يكن رسولنا ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وقد ضمَّ الله بشارةً أُخرى إلى البشارةِ بالولد، وهي كون هذا طيباً كما أراده والده زكريا، فقال عز وجل: ﴿**مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾، أي يُسرع ولا يتردد في الإيمان بكلمة تأتي مِنْ عند الله، وهذه الكلمةُ هي «عيسى عليه السلام».

قال العلماء: وقد أجمَلَ الله الخبرَ لزكريا ولم يُفَصِّل: ﴿**مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾، ليعلمَ أنَّ حادثاً ضخماً عظيماً سيقع، يكون فيه ابنه مُصدقاً برسول يجيءُ، وهو «عيسى عليه السلام».

وإنما وَصَفَ عيسى بلفظ «كلمةٍ» لأنه خُلِقَ بمجرد أمر التكوين الإلهي المُعبر عنه بـ«كن».

أي كان تكوينه على غير العادة، حيث كان مِنْ غير أب، وهذا التصديقُ مِنْ يحيى يدلُّ على طيب الولد وتوفيقه، ولأنَّ يحيى هو أول مَنْ آمن برسالة عيسى عليه السلام، وهذا دليل على صدق التأمل السريع لمعرفة الحق.

وهذا الوصف ﴿مُصَدِّقًا﴾:هو يحيى في الأولين، وخديجة وأبو بكر في الآخرين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر]، ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: محمد ﷺ، وصدَّقَ به: أبو بكر وخديجة.

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران].

والسيِّدُ: على وزن فَيْعِلُ، مِنْ: سادَ يسودُ.

وهو الذي يفوقُ قومه في محامِدِ الخِصال حتى قدَّموه على أنفسهم، واعترفوا له بالفضل، وهكذا كان يحيى مِنْ صِغره.

وكان يوصف الرجل بـ «السؤدد» عند العرب، إذا كانت له خِلالٌ وصِفاتٌ تُرضي الناس على أفضل الوجوه، وذلك مِنْ بذلٍ للقبيلة، وإتعابِ النفسِ لراحة الناس، والقيام بالأعباء والمُهِمات، قال الهذلي:

وإنَّ سيادةَ الأقوامِ فاعلَمْ ... لها صُعَداءُ مطلبُها طويلُ

أترجو أن تسودَ ولن تُعَنّى ... وكيفَ يسودُ ذو الدَّعَةِ البخيلُ

قال العلماء: وملاكُ السيادةِ عند العرب أمورٌ خمسة:

١) بذلُ الندى.

٢) وكفُّ الأذى.

٣) واحتمالُ العظائمِ.

٤) وأصالةُ الرأي.

٥) وفصاحةُ اللسان.

والسيد في الاصطلاح الشرعي: هو مَنْ يقوم بإصلاحِ شأن الناس دنيا

وأُخرى.

وفي الحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقال ﷺ عن الحسن: «إنَّ ابني هذا سيد»، والحسنُ فعلاً كان جامعاً خصالَ السؤدد الشرعي، وحسبك مِنْ ذلك تنازله عن الخلافة لجمع كلمةِ الأمة، ولإصلاحِ ذات البين، ويحيى مِنْ صِغره كان كذلك: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم].

أما قوله: ﴿وَحَصُورٗا﴾: أي مبالِغاً في حَبْسِ نفسه عن شهواتها، ليكون مجتهداً في الطاعات.

قال البروسوي: أي مبالِغاً في حبس نفسه عن الشهوات مع القُدرةِ، وقد وردَ في بعض الآثار أنه مرَّ في صِباه على صبيانٍ يلعبون، فدعوه للعب فقال: «ما لِلَّعبِ خُلقنا».

وأصل معنى «الحَصْرِ»: الحبسُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء]، أي محبساً.

ومنه قول ابن ميادة:

وما هجرُ ليلى أن تكونَ تباعدتْ عليك ولا أنْ أَحْصَرَتكَ شُغُولُ

وقوله: ﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذه بشارة أُخرى أعلى مِنَ الأولى، وهذه البشارة تُشبه قوله تعالى لأم موسى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص].

وقوله هذا: ﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي في أعلى مراتب الصلاح التي يتصفُ بها الأنبياء، فهو مِنْ جُملتهم، وهو مِنْ أصلابهم، ونشأ بينهم، وخُصَّ الأنبياء بذكر الصلاح؛ لأنه لا يتخلل صلاحهم خِلاف ذلك، أما الصالح

مِنْ غيرهم، فهو الذي يؤدي ما افترِضَ عليه، وإلى الناس حقوقهم.

قال ابن كثير: لما تحقق زكريا عليه السلام بهذه البشارةِ، سأل عن وجه تحقيقها فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ ﴾ [آل عمران ٤٠].

وجاء في [سورة مريم]: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ٨ ﴾.

عتا العودُ: إذا يبس وجَفَّ، أي يبسَ العظم والجلد والعصب.

قال العلماء: لما سمع زكريا البُشرى واطمأن إلى حُصولها، طَمِعَ في معرفة كيفيتها، وهذا ما حدث لإبراهيم عليه السلام حين طلب مِنْ ربه أن يعرفَ طريقة الإحياء للموتى، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ [البقرة ٢٦٠]، فإبراهيم يريد أن يعرف الطريقة العجيبة في الإحياء، فهو لا يشك أنَّ الله قادر.

فالكلام كما قال العلماء: ليس في الحقيقة وجوداً أو عدماً، إنما في كيفية وجود هذه الحقيقة، والكلام في الحقيقة لا دخلَ له في الوجود.

وكما حدث في قصة موسى، حينما كلَّمهُ ربه واختاره، وأفردهُ بهذه الميزة، أغراهُ الكلام فطَمِعَ في أن يطلبَ الرؤيا، فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾[الأعراف ١٤٣].

قال القرطبي: سأل زكريا، هل يكون الولد وهو وامرأته على حالهما مِنْ حيث بلوغه الكِبَرَ، ومِنْ حيث العَقْرَةُ في امرأته، أو يكون الولد بحيث يُرَدّان إلى حالِ مَنْ يَلِدُ، يعني شباباً، أم هل يكون الولد مِنْ زوجته هذه، أم مِنْ غيرها، هذه الأسئلة لبيان الكيفيةِ، وليست شكاً في صدق الوعد.

وجاء الجواب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ ﴾ [آل عمران].

أي سيُخلق الغُلام منكما، وأنَّ هذا الفعل الذي تتعجبُ منه: وهو تقديرُ الحمل سيكون مِنْ شيخٍ هرم لم يسبق له ولد، ومِنْ امرأة عاقر كذلك.

وهنا تلمِسُ كرامةً لامرأة زكريا بأنْ جعل الولد منها ولم يؤمر بالزواج بغيرها.

وتلمسُ في قول زكريا: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران ٤٠]، أدبَ النبوةِ العالي ذلك أنَّ بلوغَ الكِبَرِ ليس دليلاً على أنه عاجز عن الإنجاب، لأنَّ الرجل قد يكون كبير العُمر وهو قادر على إخصابِ المرأة إذا لم يكن عقيماً، ولكن المرأة هي العُنصر المهم في هذا الموضوع، فإن كانت عاقراً فذلك قمةُ العجزِ في الأسباب، فلو قال زكريا: ﴿ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾، دون أن يذكر كِبَرَهُ، لكان هذا التصرف يُولِّد غُصةً في قلب امرأته لكونه عندها قد نسبَ الصلاحية لنفسه، وأنها هي التي ليست قادرةً، ولكنه أدب النبوةِ، فجاء بالكلام كله مِنَ الأول وبدأ بنفسه: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ ﴾، أي مِنَ الأمور التي تُرى عجيبةً مِنْ خلقِ ولدٍ مِنْ شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾ [مريم].

أي هو عليَّ هيّنٌ، أن أرُدَّ عليك قوةَ الجِماع، وأفتُقَ رَحِمَ امرأتك للعلوقِ، ثم ذكر له ما هو أعجبُ مما سأل عنه فقال: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان]، أي لا وجود له، فقد كان في أصلابِ الرجال ثم أوجدتُهُ.

هذه الآية سمعها الصديق - أبو بكر- مِنْ رجلٍ حين قراءتها فبكى وقال: «ليتها تمّت فلا شيء»، وكذلك حصل مع عمر بن الخطاب، أي لم يُخلق ولم يُكلَّف تمنى ذلك.

قال العلماء: ثم اشتاقت نفس زكريا إلى سرعةِ المُبشَّر به، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ ﴾ [آل عمران ٤١]، وفي [مريم ١٠]: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ ﴾.

قال ابن عاشور: طلب زكريا علامةً؛ لأنَّ البِشارة لم تُعين زمناً، وقد يتأخر الموعود به لحكمةٍ، فأرادَ زكريا أن يعلم وقتَ الموعود به، وهو بنفس الوقت سؤالٌ ضمنيٌّ يطلبُ المُبادرةَ به.

قال الصاوي: أراد زكريا تعجيل الأمر ليزداد فرحاً وشكراً، وليعيش في ظل هذه النعمة، كما قال المفسرون، وجاء الجواب: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١ ﴾ [آل عمران].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: جعل الله عز وجل حُبْسَةَ لسانه عن الكلام آيةً على الوقت الذي تحمِلُ فيه زوجُه؛ لأنَّ الله عز وجل صَرَفَ حاله مِنَ القوة في أعصابِ الكلام المُتصلةِ بالدماغ إلى أعصابِ التناسل بحكمةٍ عجيبة.

وقوله: ﴿ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾، بلياليها، لأنَّ الله تعالى قال في [سورة مريم]: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ ﴾، فدلَّ على أنَّ المنعَ ثلاثة أيام بلياليها.

وقوله: ﴿ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴾، والرَّمزُ: الإشارة باليد أو الرأس أو الحاجبين، أو

بالعين، وأصل المعنى: التحريكُ، يُقال: ارتَمَزَ: إذا تحرَّكَ، ومنه قيل للبحر: «الراموز» لتحركه.

قال الزمخشري: لما طلبَ زكريا الآية على الحمل مِنْ أجل القيام بحق الشكر، وقضاء حق النعمةِ العظيمة، قيل له: آيتُك أن تحبسَ لسانك إلا عن الشُكر.

قال ابن كثير في قوله: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: أي وأنت سَوِيُّ المِزاج مُعتدل البُنيةِ.

ولكن هذا اللسان الذي حُبسَ عن كلام الناس، قادرٌ على التسبيح والذكرِ والشكرِ، وهذه آية باهرةٌ أُخرى؛ لأنَّ ذلك قد يكون في عُرف الناس مرضاً، ولكن هذا الظنَّ يزول عندما يسمعون مِنْ زكريا الذكر والتسبيح، ولا يستطيعُ التكلُّم بغيره، وما أجملَ قولَ القائل في هذا الموضوع حين قال: «كأنَّ زكريا لما طلبَ الآية مِنْ أجل الشُكر قيل له: آيتُكَ أن تحبِسَ لسانك إلا عن الشُكر»، وأحسن الأجوبة ما كان مُشتقاً مِنَ السؤال، ومُنتزعاً منه، ولذلك قال تعالى له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

قال الرازي: كانت حُبْسَةُ اللسان عن أمور الدنيا، فكان الرمزُ هو المُستعمل فيها، وأما في الذِّكر والتسبيح فكان لسانه فيها جيداً، وكان ذلك مِنَ المعجزات الباهرة.

قال محمد بن كعب القرظي، والسيوطي في كتاب «الإكليل»: في الآية حثٌّ على ذكرِ الله تعالى، وهو مِنْ شُعَبِ الإيمان، ولو رُخِّصَ لأحدٍ في تركِ الذِّكر لرُخِّصَ لزكريا؛ لأنه أمَرهُ بالذِّكر ومنعه الكلامَ في غير الذِّكر.

فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ولو رُخَصِّ لأحد في ترك الذكر لرُخِّصَ للرجل يكون في الحرب، ولكن الله قال للمقاتلين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال].

وانتبه – يا عبد الله – إلى كلمة ﴿ كَثِيرًا ﴾ هنا فيها إشارة تقول: لا يكنْ ذِكرك لله عند الكربِ، أو عند اليأس، فإذا ذهبت الشِّدَّةُ وجاء الرخاءُ فتنسى ذِكرَ الله عند ذلك؟!!

واسمع معي إلى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]، فأكّد الله على أداء صلاة الجمعة لإقامة ذِكر الله، ثم تنتهي صلاة الجمعة فماذا قال تعالى؟!!

قال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة].

قال العلماء: نبَّهنا إلى المُداومةِ على ذِكره عز وجل فكأنه يقول: إياكم أن تُلهيكمُ المصالحُ الدنيوية عن ذِكر الله.

وإياكم أن تعتقدوا أنَّ ذِكر الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذِكره ليكون معكم في كلِّ أحداثِ الحياة، فإن فعلتم ذلك أفلحتم وفزتم في الدارين.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾: فالعشيُّ: مِنْ وقت الزوال إلى الغروب وهو وقت آخر النهار.

والإبكار: أول النهار، مِنَ الفجر إلى الضحى.

قال قتادة: افترض الله الذِكر على عباده أشغلَ ما يكونون عند الضِّراب بالسيوف وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾ [الأنفال]، والمُراد هنا الذِكر الخفي؛ لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون الصوتَ عند القتال،

والحِكمةُ مِن ذلك: هو ما يَجلِبُه رفعُ الصَّوتِ مِن شُعورٍ بإحباطٍ أو فَشَلٍ، أو قِلَّةِ تركيزٍ في المعركةِ مِمَّا يؤدِّي إلى الهزيمةِ والفَشَلِ.

وقيل: يُستثنَى مِن ذلك ذِكرُ الله تعالى.

قال البروسوي: فعلى العاقل أن يُداوم على الأذكار آناء الليل وأطرافَ النهار، فإنَّ الذِكرَ يدفع هوى النفس، فإذا طُرِدَ ذلك مِنَ الباطن، فلا سبيل للشيطان أيضاً على الظاهر.

قال سهل بن عبد الله: ما مِنْ يوم إلا والجليلُ يُنادي: «عبدي ما أَنْصَفتني، أذكُركَ وتنساني، وأدعوكَ إليَّ وتذهبُ إلى غيري، وأُذهِبُ عنكَ البلايا وأنت مُعتكفٌ على الخطايا، يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني؟».

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الحاكم وأحمد مِنْ حديث أبي هريرة وأبي سعيد أنه ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى مِنَ الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وذكر ابن كثير أنه وردَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سبحان الله»: هي صلاةُ الخلائق، إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء ٤٤].

«والحمد لله»: كلمةُ الشُكرِ.

«ولا إله إلا الله»: كلمةُ التوحيد والإخلاص.

«والله أكبر»: تملأ ما بين السماء والأرض.

وإذا قال العبد: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله تعالى: [أَسْلَمَ واسْتَسْلَمَ].

وقال أهل العلم: في قول العبد: «سبحان الله» خروجٌ مِنَ العيب، أي هي تنزيهُ الله تعالى عن كل نقص.

وفي قوله: «الحمد لله» خروجٌ مِنَ الكفر.

وفي قوله: «لا إله إلا الله» خروجٌ مِنَ الشرك.

وفي قوله: «الله أكبر» خروجٌ مِنَ الكِبْرِ.

وفي قوله: «لا حولَ ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم» خروجٌ مِنَ التَمَلُّك والاقتدار والتجبُّر، ثم قالوا: فما ظن العبد إذا اجتمعت فيه أدناسُ هذه الأشياء: دنسُ العيبِ، ودنسُ الكفر، ودنسُ الشرك، ودنسُ الكِبْرِ، ودنسُ التجبر والاقتدار.

قال الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذِكر، والقراءة، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أنَّ الباب مغلق».

قال صاحب «روح البيان»: رجع زكريا تلك الليلة إلى امرأته فقاربها ووقعَ الحملُ وهو لا يدري، إنما كان ينتظرُ العلامة الدالة على الحمل، وهي حُبْسَةُ اللسان.

قال أهل العلم: خرج زكريا صبيحة الحملِ على قومه ليُصليَ بهم على عادته صلاة الجماعة، لأنه كان حَبْرَهُم الأعظمَ، وكان خروجه لهم ليُصليَ بهم مِنْ محرابه الخاص الذي يعبُد الله فيه ويذكره ويُناجيه، فهو محرابٌ في البيتِ مُخَصَّصٌ للعبادةِ الخاصةِ، ومنه قول الحريري: فمحرابي أحرى بي.

قال البروسوي: لما خرج زكريا إلى الناس، وأرادَ أن يُكلمهم فوجئ بِحُبْسَةِ لسانه فتغير لونه، وأنكرَ الناسُ صمته، وقالوا: مالك يا زكريا؟ عندها

أشار إليهم بالتسبيح، لأنه أُمِرَ بالرّمز: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًاۗ ﴾ [آل عمران ٤١]، فأشار إليهم بالإشارة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴾ [مريم].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لما اكتشفَ زكريا أنَّ لسانه قد حُبِسَ، أدركَ أنَّ المُعجزةَ قد تحققت بقدرةِ الله، فأخذهُ الفرحُ عندها: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴾.

قال أحمد بهجت: كان زكريا بعد حُبْسَةِ لسانه – وهي العلامةُ – يرتعشُ فرحاً، وراحت دموعه تسيلُ على وجهه المُتَغَضِّنِ وتُبَلِّلُ لحيته البيضاء، ومُشيراً إلى الناس بالتسبيح والصلاة وذلك قوله تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴾.

وقوله: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ ﴾ أي أشار وأومأ باليد أو بالعين أو بغير ذلك كما مرَّ معنا.

وقال بعض المفسرين: كتبَ على الأرض، أو على صحيفةٍ.

ومنه قول عنترة:

كوحيِ صحائفٍ مِنْ عهدِ كسرى　　　فأهداها لأعجمَ طُمطميٍّ(١)

هنا سؤال قد يَرِدُ، وهو: لماذا أمرهم بالتسبيح؟

والجواب: قال صاحب «التحرير»: إنما أمرهم بالتسبيح لئلا يظنوا أنَّ زكريا لـمَّا لم يُكلمهم، أنه نذرَ صمتاً فيقتدوا به، فيصمتوا، وكان الصمتُ مِنْ أصناف العبادة في بعض الأمم السالفة، فأشارَ إليهم أن يَشرعوا بالتسبيح

---

(١) طمطمي: أي أعجمي لا يُفصح.

شُكراً لله تعالى على ما وَهَبَ نبيهم ابناً يَرِثُ عِلمه، ولأنه رأى أنَّ شُكرهُ بمفرده لله لا يُقابلُ هذه النعمة، فأمرَ قومه أن يُسبحوا الله معه؛ لأنَّ هذه النِعمةَ لا تخصُّه وحده، بل هي عامة لكل قومه.

وقوله: ﴿ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾: أي في الصباح والمساء، وهما ظرفا التسبيح.

والتسبيحُ: التنزيهُ عن كل نقص، وهنا المقصود: تنزيهُ الله عن العجز عن خلقِ ولدٍ يُستبعدُ وقوعه مِنْ عجوزين؛ لأنَّ الله على كل شيء قديرٌ.

ولذلك ورد في الآثار والأذكار: «لِكُلِّ أعجوبةٍ سبحان الله».

ولذلك تقرأ في [سورة آل عمران]: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾.

انتبه - يا عبد الله - فقد جمعوا بين الذِكر والفكر، وبين التذكر والتفكرِ، عند مُشاهدتهم لإبداعات الله عز وجل، ثم نزَّهوه سبحانه عن كون هذا الخلقِ عبثاً فقالوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران ١٩١] ثم وصلوا هذا الثناءَ بالدعاء: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

قال القرطبي: وفي الآية - وهي إشارة لزكريا - ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ دليل على أنَّ الإشارة تُنزل منزلةَ الكلام، وذلك موجود في سُنَّةِ النبي ﷺ: فقد روى الإمام أحمد في «مسنده» مِنْ حديث أبي هريرة، أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية، فقال: يا رسول الله، إنَّ عليَّ رقبةً مؤمنةً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» فأشارت بإصبعها إلى السماء، فقال لها ﷺ: «مَنْ أنا؟»، فأشارت بإصبعها إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء،

أي أنت رسول الله، فقال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة».

قال القرطبي في هذا الحديث: أجاز النبي ﷺ الإيمان والإسلامَ بالإشارة، والإيمان هو أصل الدين الذي يُحرزُ المالَ والدم، ويستحق به المؤمن الجنة، ويُنْجي مِنَ النار، وحَكَمَ أنها مؤمنةٌ بالإشارة، كما لو أنها نطقت، فالإشارة عاملةٌ في سائر أمور الدين كما يقول عامةُ الفقهاء.

قال المفسرون: ثم سكت القرآن عن ذكرِ الحملِ والولادةِ وكمالِهما، وهذه عادة القرآن الكريم؛ لأنه يريد إبراز أهم الحلقات، وأشدها حركةً وحيويةً.

ولادة يحيى عليه السلام:

ولد يحيى، وترعرعَ، وصار صبياً في مجتمعٍ فيه قِيم النقاء عند أُناسٍ، كما كان يموجُ بِقيم الطُغاة وظلمهم كذلك.

كان ميلاده معجزةً، ولد مِنْ شيخين، وكانت طفولته غريبةً عن دنيا الأطفال، كان الأطفال يلعبون ويلهون، أما هو فكان جادّاً دائماً طولَ وقته.

روى ابن عساكر: قال: قال أبو منصور: دخل يحيى بيت المقدس فرأى المُتعبدين قد لبسوا الشعرَ، وبرانصَ الصوف، ونظر إلى مُجتهديهم في العلم والدراسة، ورجع إلى أبويه فمرَّ بصبيان يلعبون، فقالوا: يا يحيى هلمَّ نلعب، فقال: «إني لم أُخلق للّعب»، ثم أتى أبويه وطلب منهما أن يُدَرِّعاه الشعرَ ففعلا، ثم رجع إلى ساحة بيت المقدس يَسْرَحُ فيها ليلاً ونهاراً بالعلم والعبادة.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان بعض الأولاد يتسلى بتعذيب الحيوانات، وكان يحيى يُطعمها، وكان يُحب القراءة ويقرأ مِنْ طفولته، فلما صار صبياً نادتْه رحمةُ الله، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم].

قال العلماء: والكتاب هنا: هو التوراة لا محالَةَ؛ لأنَّ يحيى لم يكن له كتابٌ مُنزل.

ونلاحظ أنَّ النداءَ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ جاء قبل أن يتحدث القرآن عن يحيى بكلمةٍ واحده: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، ثم يأتي التفصيل بعد ذلك، هذا أول موقف ليحيى، ماهو؟

انتدابه لحمل الأمانة الكبرى، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، والأخذ: المرادُ به الفهم والتدبر، كما يُقال: أخذتُ العلمَ عن فلان، لأنَّ المُعتنيَ بالشيء يُشبه الآخِذَ.

والقوةُ: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾: تشمل الإخلاص في حفظه، والحرص على العمل به، وحَمْلِ الأُمةِ عليه لأنَّ اليهود أصابهم الوهن فلم يعملوا بما جاء بالتوراة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة ٥].

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم]: أي في سنٍّ مُبكرةٍ؛ لأنه عطاءٌ مِنَ الله لا يخضع للأسباب، فكان يحيى مُبكّرَ النضج والذكاء، يفوقُ أقرانه، ويسبقُ زمانه.

قال ابن عاشور: أي أعطيناهُ استقامة الفكر، وإدراك الحقائق في حال الصبا، وهو أمرٌ غيرُ معتادٍ، كما أُعطي نبينا محمد ﷺ الاستقامة وإصابة الرأي في صِباه.

واتفق العلماء على أنَّ يحيى أُعطي النبوة قبل بلوغ الأشُدِّ بكثير، أي قبل الأربعين؛ لأنَّ الله تعالى لما أراده أن يكون شهيداً في مُقتبل عمره بَاكَرَهُ بالنبوة.

وقد أخرج ابن مَرْدَويه وأبو نُعيم، والديلمي مِنْ حديث ابن عباس أنه

ﷺ قال: «أُوتي يحيى الفهمَ والعبادةَ وهو ابن سبع سنين».

وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾: أي آتيناهُ فهمَ التوراة في حال صِباه وقبل بلوغه مبلَغَ الرجال.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: رزقهُ الله الإقبال على معرفةِ الشريعة وهو صبي، فكان أعلمَ الناس حيث كان يُبيّن لهم أسرار الدين، ويَفصِلُ بينهم.

وقال ابن عساكر في «تاريخه»: إنَّ يحيى غلبَ عليه الخوف مِنَ الله، وهو ابن خمس عشرة سنة.

وقد ذكر ابن كثير أنَّ يحيى كان يُحب الانفراد عن الناس، يردُ الأنهار، ويأنسُ بالبراري، ويتغذى بالخُضار والفاكهة، ويأكل الجراد أحياناً ويقول: «مَنْ أنعمُ منك يا يحيى؟».

وروى ابن عساكر عن أبي منصور، أنَّ والديه خرجا في طلبه يوماً فوجداهُ على بُحيرة الأردن، وأدركاهُ وقد قَعَدَ على شفيرِ البُحيرة، ونَقَعَ قدميه في الماء وهو عطشان، ثم سمعاهُ يقول: «وعِزَّتكَ وجلالك لا أشربُ باردَ الماء حتى أعلمَ أين مكاني منك».

فسألاهُ - أبواه - أنْ يأكل شيئاً، فأكل منهما قُرصاً، وشربَ ماءً، وعاد مع أبويه إلى بيت المقدس، ثم كفَّر عن يمينه.

قال صاحب «تفسير الجلالين»: وهكذا كان يحيى: «فَذّاً في ميلاده، وفذاً في اسمه، وفذاً في زاده».

الحكمةُ: فالحكمةُ تأتي مُتأخرة ولكن يحيى زُوِّدَ بها وهو صبي.

ثم ذكر الله تعالى تَتِمَةَ الزاد المُعطى إلى يحيى ليقومَ بأعباءِ الرسالة التي ستُلقى عليه فقال: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [مريم].

والحنانُ: الشفقةُ، ومِنْ كلام العرب: «حنانيْكَ» أي حناناً منك بعد حنانٍ، أي تعطُّفاً منك ورحمةً وشفقةً، ومنه قول «طرفة بن العبد»:

أبا مُنذرٍ أَفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بعضَنا ... حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بعضِ

ومنه قول الحُطيئة:

تحنن عليَّ هَداكَ المليكُ ... فإنَّ لكل مقامٍ مقالا

ومنه قول «ابن درهم الكلبي»:

وأحدثُ عهدٍ مِنْ أمينةَ نظرةٌ ... على جانبِ العلياءِ إذ أنا واقِفُ

تقولُ: حنانٌ ما أتى بك ههنا ... أذو نسبٍ أم أنتَ بالحيِّ عارفُ

قال أبو عبيدة: والعرب تقول: حنانكَ يارب، وحنانيك يارب: أي نريد رحمتك.

وقوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾: كلمة لدُنّا: إشارةٌ إلى أنه حنانٌ تجاوز الحدَّ المُعتادَ عند الناس؛ لأنَّ ما يَهَبُهُ العظيمُ عظيم، وهذه الصفةُ ضرورية للنبي ليؤلِّفَ القلوبَ حوله.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان يحيى يُطعم الطيور والحيوانات مِنْ طعامه رحمةً بها، وحناناً عليها، وربما بقيَ أحياناً بغير زاد.

وقال البروسوي: كانت شفقةُ يحيى عامة على أبويه وعلى الناس.

قال الضحاك في قوله تعالى ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾: أي لا يقدر على إيجاد هذا الحنانِ إلا الله، ثم قال: «فوجودُ الأخلاق في الإنسان دليل على وجود الله تعالى».

وقال صاحب «الظلال»: كان يحيى مطبوعاً على الحنان لا يَتكَلَّفُهُ ولا يَتَعَلَّمُهُ، مطبوعٌ عليه، ومطبوعٌ به، قد يقول قائل: أليسَ مِنَ الأفضل أن

يكون مُتوسِّطاً في حنانه ورحمته؟

والجواب: أنَّ الإفراط قد يُحمد مِنْ شخصٍ ويُذَمُّ مِنْ آخر.

فالسلطان إلى وهبَ الكثير كان ذلك مدحاً له، وغيره إذا وهبَ الكثيرَ كان إسرافاً.

قال الرازي: كانت شفقةُ يحيى شفقةً لم تَدْعُهُ إلى الإخلال بالواجب لأنَّ الشفقةَ الزائدةَ قد تدفع صاحبها إلى ترك الواجب أو التقاعسِ فيه، اقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور].

قال العلماء في قوله: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾: هذا تحذيرٌ مِنَ الرحمةِ الحمقاءِ التي تكون في غير محلها، فالرأفةُ لا تكون في حدود الله عز وجل لأنَّ الرأفة هنا تُعَطِّلُ حدود الله المشروعةَ استصلاحاً، وفي العبارة إشارة إلى أنَّ مَنْ شرعَ الحدَّ هو أرأفُ بعباده مِنْ بعضِهم ببعض، وفي «مسند أبي يعلى» مرفوعاً، عن حذيفة، قال ﷺ: «يؤتى بالذي ضَرَبَ فوقَ الحدِّ، فيقول الله له: عبدي لِمَ ضَرَبتَ فوقَ الحدِّ؟ فيقول: يا رب: غضبتُ لك، فيقول الله: أكان غضبك أشدَّ مِنْ غضبي؟ ويؤتى بالذي قصَّرَ فيقول: عبدي لِمَ قصَّرتَ؟ فيقول: يا رب: رَحِمْتُهُ، فيقول الله تعالى: أكانت رحمَتُكَ أشدَّ مِنْ رحمتي؟ ويؤمر بهما إلى النار».

فالرأفةُ هنا رأفةٌ ضارَّةٌ كرأفَةِ ترك المريض للدواء، وما أجمل قول القائل:

فقَسَا ليزدجروا ومَنْ يكُ حازِماً ... فلْيَقْسُ أحياناً على مَنْ يرحمِ

ثم قال تعالى: ﴿ وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾: أي طاهر النفس مِنَ الخبائث، و﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾: أي يتجنب كلَّ ما يُخالف الدين، وجاء بالفعل الماضي

«كان» لأنه مُتَمكن في صفةِ التقوى، ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾: براً مِنَ البرورِ، وهو الاتساعُ في الإحسان إليهما، والإكرامُ لها، والسعي في طاعتهما، و«البَرُّ»: أبلغ مِنَ البارِّ، وإن كانا بمعنى واحد وهو المُحسن، فلو قلنا: فلانٌ بَرٌّ: أي تتالى بِرُّهُ، وتوالى إحسانه، ولذلك كان مِنْ أسماء الله «البَرُّ»، كما في [سورة الطور]: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾.

قال العلماء: والإنسان إذا لم يكنْ فيه خير لأمه وأبيه، ولمن علَّمه، ولمن أدَّبَهُ فليس فيه خير لأحد، وكذلك قالوا: «أبٌ أنجبك، وأبٌ زوجك، وأبٌ دلَّك على الله».

﴿ٱلۡبَرُّ﴾: اسم من أسماء الله، ومعناه: هو المحسنُ بالبرِّ المطلقِ، أي إحسانه مطلق، فقد يسوق للعبد شدّة، فتحملُه هذه الشدة على التوبة، فيقبلُه ربُّه ويقبل توبته، فالمصائب كلها التي تحصل لك - يا عبد الله - هي إحسان منه تنطوي تحت اسم البَرّ، ولذلك جاء في تعريف هذا الاسم «البَرّ»: أنه هو الذي مَنَّ على السائلين بِحُسنِ عطائه، وعلى العابدين بِحُسنِ جزائه.

وقالوا: ﴿ٱلۡبَرُّ﴾: هو الذي لا يقطع الإحسانَ بسبب العصيان، فالعبد إن قال: يا رب وهو راكع، قال له الله: لبيكَ عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد، قال له الله: لبيكَ عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ، قال له الله: لبيكَ ثم لبيك، ثم لبيك.

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم].

الجبّارُ: هذا الوصف إذا نَسَبْتَهُ للخالق، فهي صفة كمال، وإذا وصفتَ به

المخلوقَ فهو صفةُ نقصٍ وذمٍّ.

فهذه الصفة تتداخل فيها صفةُ الإنسان مع صفة الله «الجبار».

لماذا كانت هذه الصفة في الإنسان صفةَ نقصٍ وذمٍ، وهي لله صفةُ كمال؟

والجواب: إنَّ وجودَ الإنسان مستعارٌ وهو مستمدٌّ مِنَ الله، فالإنسانُ مفتقر إلى إمداد الله في كل ذرة منه: وجودُه تابعٌ لمشيئة الله، وقوتُهُ تابعةٌ لمشيئة الله، عقله تابع لمشيئةِ الله.

قطرةُ دم تتجمد في شريان مِنَ المخ يُصاب الإنسان بالصمم، وقد تتجمد في مكان ثانٍ مِنَ المخ يُصاب الإنسان بالعمى، أو بفقدِ الذاكرة، وفي مكانٍ آخر يُصاب الإنسان بالشلل.

فهذا الذي يقول «أنا» هو أحمق، لأنه يدعي قوةً ليست له، أما إذا قلنا لله «جبار» فهي صفةُ مدح لأنه الخالق الواحد الفرد الصمد، فعندما نقول عنه عز وجل «جبار» فهو كذلك لأنه يتكبرُ بحقٍّ، فلا كبيرَ سِواه، ولا خالقَ سِواه، ولا قويَّ سِواه.

وكونه عز وجل «جباراً»: أي هو عالٍ لا يُنال.

وكونه عز وجل «جباراً»: أي يجبرُ عَثَراتِ الكلام.

وكونه عز وجل «جباراً»: أي الذي مشيئته نافذة.

«أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد».

أما الجبارُ مِنَ البشر: فهو المُسْتَخِفُّ بحقوقِ الناس.

وأما المغتصب لحقوق الناس، مأخوذ مِنْ «الجَبْرِ»، وهو الغَصْبُ، الغاصبُ لحقوق الناس، المُتكبر عليهم.

ويُطلق «الجبار» على الرجل الذي يُعاقِبُ على الغضب لا على الحق.

ومنه قوله تعالى يذم «عاداً قوم هود»: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[الشعراء]، أي تقتلون على الغضب مِنْ غير تثبُّتٍ، وهذه الصفةُ عند الإنسان صفةُ مَنْ يريد التعاليَ والتفردَ والتكبرَ على الغير، ظاناً نفسه في مستوى الألوهية.

وقوله ﴿ عَصِيًّا ﴾: أي لم يكن عاصياً لربه عز وجل.

ثم يأتي مسكُ الختام مِنَ الله عز وجل مخاطباً المسلمين ليعلموا كرامةَ يحيى ومكانته عند الله عز وجل فقال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم].

قال ابن عاشور في «تفسيره»: السلامُ: اسمٌ للكلام الذي يُفاتَح به الزائرُ والراحِلُ، وهو ثناءٌ أو دعاء.

وسُمّيَ سلاماً؛ لأنه يشتمل على الدعاء بالسلامة، وعلى الأمان فلا يخشى بأساً، فصار المعنى: إنَّ إكرام الله ليحيى إكرامٌ قويٌّ متمكِّنٌ ثابتٌ له في أحوله الثلاثة المذكورة:

طورُ الورود على الدنيا، وطورُ الارتحال عنها، وطورُ الورود على الآخرة.

أي هو - يحيى - بِمَحَلِّ العناية الإلهية في هذه الأحوال، وهذه الأحوالُ الثلاثةُ هي أعلامُ حياةِ الإنسانيةِ، وهي المراحلُ البارزةُ فيها، فخصَّهُ الله بالسلام يومَ مولده؛ لأنه وُلِدَ على غير العادة مِنْ أمٍّ عاقرٍ، وقد أَسَنَّتْ، وما أحدٌ مِنَ الناس اعترضَ على هذه الولادة ولا تعرَّضَ لها، وخَصَّهُ بالسلام يومَ يموتُ، لأنه سيموتُ شهيداً.

والشهادةُ غيرُ الموت؛ لأنَّ الشهادةَ تُعطيكَ حياةً موصولةً بالحياة الأبدية

الخالدة، وكذلك خصَّهُ بالسلامِ يوم القيامة، - أفقرَ ما يكون إلى الله -.

ولذلك قال ابن عطية: حيّاهُ الله في المواطن التي يكونُ الإنسانُ فيها في غايةِ الضعف والافتقار إلى الله تعالى.

قال سفيان بن عيينة: أوحشُ ما يكون الإنسانُ في ثلاثة مواطنَ:

- يومَ وُلِدَ: يرى الإنسانُ نفسه خارجاً عما أَلِفَهُ، وعما كان فيه.
- ويومَ يموت: فيرى قوماً لم يكن رآهم مِنْ قبلُ.
- ويوم يُبعث: فيرى نفسه في محشرٍ لم يره.

قال ابن كثير: وهذه الأوقات الثلاثة، أشدُّ ما تكون على الإنسان؛ لأنه ينتقلُ في كلٍّ منها مِنْ عالمٍ إلى عالم آخر، فيفتَقدُ الأول بعد ما أَلِفَهُ وعرفَه، ويصيرُ إلى العالم الآخر وهو لا يدري ما أمامه، ولهذا يَسْتهلُّ المولود صارخاً عند مُفارقةِ بطنِ أمِّه ولينِها ليُكابدَ همومَها وغَمَّها.

وكذلك إذا فارقَ هذه الدار - بالموت - وانتقلَ إلى دارِ البرزخ وصار بعد الدورِ والقصورِ إلى عِدادِ الأموات وسكان القبور، ينتظر نفخةَ الصورِ يوم البعثِ والنشور، فمن محزونٍ ومثبور، ومن مسرور ومحبور، وما بين جبيرٍ وكسير.

وفريق في الجنة، وفريق في السعير، وما أجمل قول القائل:

ولدتْكَ أمُّك باكياً مُستصرخاً　　والناسُ حولكَ يضحكونَ سُرورا

فاحرصْ لنفسك أن تكونَ إذا بكَوا　　في يومِ موتِكَ ضاحكاً مسرورا

وهكذا خصَّ الله يحيى في المواطن الثلاثة.

وروى الإمام أحمد، في كتاب «الزهد»، عن الحسن البصري، أنَّ عيسى

ويحيى عليهم السلام، التقيا، وهما ابنا الخالة، فقال يحيى لعيسى: «ادعُ الله لي، فأنت خيرٌ مني»، فقال عيسى: «بل أنت ادعُ الله تعالى لي، فأنت خيرٌ مني، سلَّم الله تعالى عليك، وأنا سلَّمْتُ على نفسي»، وكلام عيسى فيه إشارة إلى قول الله تعالى ليحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم]، أما في حقِّ عيسى فقد قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم].

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»: والظاهر أنَّ سلامَ الله على يحيى أعظم مِنْ سلامِ عيسى على نفسه.

قال أبو حيان الغرناطي: وفي قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾، تنبيهٌ على كونه مِنَ الشُّهداء لأنَّ الحال ﴿حَيّٗا﴾ وصفٌ لصاحبها.

سيرة يحيى عليه الصلاة والسلام:

قال صاحب «البداية والنهاية في التاريخ»: ورد عن «خيثمة» قال: كان عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا ابني خالة، وكانا زاهدين، فعيسى يلبسُ الصوف، ويحيى يلبسُ الوَبَرَ، ولم يكن لهما عبدٌ ولا أَمَةٌ، وكانا لا يدَّخران درهماً ولا ديناراً، فلما أرادا أنْ يتفرقا، قال يحيى لعيسى أوصني، قال عيسى له: لا تغضب، قال يحيى: لا أستطيعُ إلا أن أغضبَ، قال عيسى: فلا تَقْتنِي مالاً؟!! فقال يحيى: أما هذا فعسى، فكان أكلُهُ مِنَ البراري.

قال صاحب كتاب «الكامل» ابن الأثير: كان يحيى مجتهداً في العبادة حتى نَحِلَ جسمُهُ، فنظر إلى نفسه يوماً فبكى، فأوحى الله إليه: «يا يحيى: أتبكي لما نَحَلَ جسمُك، وعزتي وجلالي، لو اطلعتَ في النار اطِّلاعةً لتدرَّعْتَ الحديد بدل الشعر»، فبكى يحيى كثيراً، وبلغ ذلك أمَّه، فدخلت عليه، ثم دخل عليه

والده زكريا مع الأحبار، فقال زكريا: يا بني: ما يدعوك إلى هذا؟ فقال يحيى: أنت أمرتني بذلك حين قلت: إنَّ بين الجنة والنار عقبةً لا يجوزها إلا الباكون مِنْ خشية الله؟!! فقال زكريا: «فابكِ واجتهدْ إذن...».

«عينٌ بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله، وعين فقئت في سبيل الله».

وقد روى صاحب تاريخ «الكامل» وهو ابن الأثير: قال: كان زكريا إذا أراد أن يَعِظَ الناسَ نَظَرَ، فإن كان يحيى مِنْ بَيْنِ الحضور لم يذكر الجنة والنار.

وذكر ابن شهاب؛ قال: جلستُ يوماً إلى أبي إدريس الخولاني - وهو يَقُصُّ - فقال: ألا أخبرُكم بمن كان أطيبَ الناس طعاماً؟!! ثم سكت هُنيهةً، فلما رأى الناسَ قد نظروا إليه قال: إنه يحيى بن زكريا كان أطيبَ الناس طعاماً، إنما يأكل مع الوحش كراهةَ أن يُخالطَ الناس في معايشهم.

ونقل عبد الله بن المبارك، عن وهيب بن الورد قال: تأخر يحيى يوماً، فافتقده أبوه، فخرج يلتمسُهُ فإذا هو في البَرّية قد احتفَرَ قبراً وأقامَ فيه يبكي على نفسه، فقال له أبوه: يا بني أنا أطلبُكَ منذ ثلاثٍ، وأنت في قبرٍ احتفرته تقوم فيه وتبكي؟ فقال يحيى: يا أبتِ ألستَ أنت أخبرتني أنَّ بين الجنة والنار مفازةً لا تُقطع إلا بدموع البكائين؟ فقال زكريا: ابك يا بني فبكيا معاً.

وقد روى ابن عساكر عن يحيى أنه قال: إنَّ أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه مِنَ النعيم، فكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا لما في قلوبهم مِنْ نعيم المحبةِ لله عز وجل.

ثم قال: كم بين النعيمين، وكم بينهما؟

قال محمد السيد الوكيل في كتابه: «نظرات في أحسن القصص»: مِنْ هذا

العرض السريع والموجز لسيرة يحيى عليه الصلاة والسلام، نرى أنه كان يعيشُ في الدنيا كأنه غريبٌ ليس مِنْ أهلها.

وكان ينظر إلى زخارفها ومفاتنها وكأنه عابر سبيل، فلم يأبه لها.

وكانت الآخرة ماثلةً أمام عينيه، لا تغيبُ عن قلبه لحظةً.

وكان لا يَفْتَرُ عن ذكر الله طرفةَ عين، ويُتابع الدكتور الوكيل فيقول: كان يبكي تَحَسُّباً للموقف الرهيب بين يدي الله عز وجل، وكان يخشى أن يُؤخذَ بذنب، رغم عدم اقترافه خطيئة، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: فيما رواه ابن عمر، والحديث فيه ضعف: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْب، إلا ما كان مِنْ يحيى ابن زكريا»، - ابن أبي حاتم، وأحمد في كتاب «الزهد»-.

وقال قتادة: إنَّ يحيى عليه السلام لم يعص الله قطُّ، بصغيرة ولا كبيرة، ولا همَّ بامرأة قط.

فهو أهلٌ لأن يقول الله فيه: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ [مريم]، وأن يكون هذا سلام مِنَ الله تحيةً له وهي أشرفُ تحية.

قال العلماء: وقد يكون معنى الآية: وسلام عليه يوم ولد: أي أمانٌ له مِنَ الشيطان، وأمانٌ له يومَ موتِهِ من فَتّانَيْ القبر، وأمانٌ له يومَ يُبعث حياً، أي أمانٌ مِنَ الفزع الأكبر يوم القيامة.

اللهم آمنا كما أَمَّنْتَه فإنك أهلُ الفضل، وأهلُ المغفرة.

دعوة يحيى عليه السلام:

قال العلماء: نُبِّئ يحيى وهو دون الثلاثين، فدخل بلاد الشام، ودعا الناس إلى عبادة الله وحده، ثم أُمِرَ أن يدعو بني إسرائيل إلى خمسِ كلماتٍ وهي: «عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الصلاة، والصدقة، والصيام،

وذكر الله تعالى».

قال صاحب كتاب «نظراتٌ في أحسن القصص»: كان الناسُ في زمن يحيى قد طغتْ عليهم النزعةُ المادية والترفُ، وكان ملوكُ بني إسرائيل قد اتخذوا المُغنيات والراقصات في مجالسهم يمارسون اللهوَ والعبث، وكأنهم لم يُخلقوا إلا لهذا، كما يقول: عبد الحميد السحار في كتابه «عيسى بن مريم»، في الصفحة الرابعة والخمسين «٥٤»، وقد ورد في حديث أخرجه الإمام أحمد، عن الحارث الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرَ يحيى بن زكريا بخمسِ كلمات، أن يعملَ بهن، وأن يأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهن» - وكاد يحيى أن يتأخَّرَ، فقال له عيسى عليه السلام - وكان عيسى معاصراً ليحيى، وعاشا معاً فترة طويلة - قال: يا يحيى، إنك أُمِرتَ بخمسِ كلماتٍ، أن تعملَ بهن، وتأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تُبلِّغهن، وإما أن أُبَلِّغُهُنَّ.

قال يحيى: يا أخي، أخشى إن سبقتني أن أُعَذَّبَ، أو يُخسف بي.

قال: فجمعَ يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجدُ، فَقَعَدَ يحيى على الشُّرفَ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله أمرني بخمسِ كلماتٍ، أن أعملَ بهن وآمُرَكم أن تعملوا بهنَّ:

- أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ من اشترى عبداً مِنْ خالصِ ماله بورِقٍ أو ذهبٍ، فجعل - العبد - يعملُ، ويؤدي غَلَّتَهُ إلى غير سيده، فأيُّكم يسُرُّه أن يكونَ عبدهُ كذلك؟.

وإنَّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

- وآمُرُكم بالصلاة: وإنَّ مثلَ المُصلّي كمثلِ رجلٍ استأذنَ على ملكٍ فأَذِنَ له ودخل عليه، فأقبلَ عليه الملكُ بوجهه ليسمَعَ مقالَتَهُ، ويَقْضِي حاجَتَهُ، فلما

دخلَ الرجل على الملك التفتَ يميناً وشمالاً، ولم يهتَم بحاجته، فأعرضَ الملكُ عنه، ولم يَقْضِ حاجته، وفي رواية: آمُرُكم بالصلاة، فإنَّ الله ينصِبُ وجهه قِبَلَ عبده ما لم يلتفتْ فإذا صلَّيتم فلا تلتفتوا.

- وآمُرُكم بالصيام: فإنَّ مَثَلَ ذلك كمثلِ رجلٍ معه صُرَّةٌ مِنْ مسكٍ في عِصابةٍ كُلُّهم يجدُ ريحَ المِسك، وإنَّ خلوفَ فم الصائم أطيبُ عند الله مِنْ ريح المسك.

وفي رواية: قال: مثلُهُ كمثلِ الجُنَّةِ لا تَدَعُ عدوَّ الصائِمِ يصلُ إليه وتسترُ الصائمَ مِنْ جميع أعدائه.

- وآمُرُكم بالصدقة: فإنَّ مثلَ ذلك كمثلِ رجلٍ أَسَرَهُ العدو فشَدُّوا يَدَهُ إلى عُنُقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أنْ أفتدي نفسي منكم، فجعلَ يفتدي نفسَهُ منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه.

- وآمُرُكم بذكر الله كثيراً: فإنَّ مثلَ ذلك كمثلِ رجلٍ طلبَهُ العدو سِراعاً في أَثَره، فأتى حِصناً فتحصَّن فيه، وإنَّ العبدَ أَحصنُ ما يكونُ مِنَ الشيطان إذا كان في ذكرِ الله عز وجل.

التعميد:

يُسمى «يحيى عليه السلام» عند علماء النصارى «يوحنا»، ويُلقبونه «المعمدان»؛ لأنه قد تولى التعميدَ.

والتعميدُ: هو الاغتسالُ بالماء بعد التوبة، فقد كان يحيى يعظُ الناس في ناحية الأردن، ويدعوهم إلى التوبة، فكان يخرجُ إليه الناسُ مِنَ القدس، ومن القرى تائبين، فكانَ يُعَمِّدهُمُ في نهر الأردن ليجمعوا نظافةَ الباطن بالتوبة، إلى نظافةِ الظاهرِ بالاغتسال.

ثم تحول الاغتسالُ عند النصارى إلى البَّتريك.

تبشيره بعيسى:

وكان يحيى يُبَشِّرُ بعيسى، ويُمَهِّد الطريق أمامَ دعوتِهِ، ليستقبلَ الناسُ عيسى استقبال الطائع.

وكان يقول لبني إسرائيل: «أنا أُعمِّدُكُم بماء، ولكن الذي سيأتي بعدي هو أقوى مني، وهو سَيُعمدكم بروح القدس»، «المسيح عيسى» لعبد الحميد السحّار ص ٥٧.

وكان يقول لبني إسرائيل: «يا أولاد الأفاعي: مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، اصنعوا ثماراً تليقُ بالتوبة، والآن وُضِعت الفأسُ في أصلِ الشجرة، فكلُّ شجرةٍ لا تُثمر ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار».

محنة يحيى عليه السلام:

قال المؤرخون: كان يحيى - كما يقول السيد محمد السيد الوكيل في كتابه «نظرات» - قوياً في الدعوة إلى الله، صلباً في الحق، لا يُجامل أحداً مهما كانت مكانتُهُ.

وقفَ أمامَ طُغيان ملوك بني إسرائيل.

وتحدّى بإيمانه المُتمردين، والمُشاغبين وكانوا كثرةً كثيرة.

وكانت السلطةُ بأيديهم، ولهم جنودٌ، يخدعون الناس بطغيانهم، ثم يقولون: نحن من نَسْلِ إبراهيم.

فوجئوا ببعثةِ يحيى ودعوته التي كانت تؤثرُ على سلطتهم، حيثُ نبَّهَ يحيى الناسَ إلى ظُلمِ هذه الطبقةِ مِنَ الحاكمين وأتباعهم.

قال عبد الحميد السحّار: رأى المفسدون أن دعوة يحيى فيها خطرٌ على مناصبهم، وعلى أصحاب الأموال الذين يَتَكَسبون بالحرام، وذهبوا إلى الملك وقالوا له: «إنَّ نبيّاً يدعو الناس إلى الثورة على دولة الأغنياء، ويحُضُّ من له ثوبان على دفع أحدِهما لمن لا ثوبَ عنده».

وانزعجَ الملكُ لهذه الأخبار، وأرسلَ بعض العناصر لاستكشاف الأمر، وكانوا مِنَ الفريسيين - الذين لهم امتيازات خاصة في المجتمع لادعائهم أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام -.

وسمع هؤلاء يحيى وهو يدعو إلى التطهر مِنَ الآثام والمخالفات، ويدعو إلى التوبة، وكان بنفس الوقت يفضحُ رياءَ الكهنة، ونفاقَ الكتبةِ، وخداعَ الأحبار ليأكلوا أموال الناس بالباطل.

قال المؤرخون: وعاد الرُّسُلُ إلى الملك «هيرودوس» يحملون حقداً على يحيى وبخاصةٍ عندما رأوا الناس يلتفون حوله، وشعروا أنَّ نجاحَهُ فيه قضاءٌ على امتيازاتهم؛ فرفعوا إلى «هيرودوس» تقريراً يتهمون فيه يحيى زوراً وبهتاناً بأنه يدعو إلى الثورة.

أُلقي القبض على يحيى عليه السلام، وأودع السجن في حصن يُسمى حصن «ماكيروس»، وهو قلعة مُظلمةٌ نَخَرَتْ جدرانها الرطوباتُ المنتنةُ، وأثقلت السلاسِلُ يديه ورجليه.

قال صاحب كتاب «نظرات»: وتضاعَفت محنةُ يحيى بسبب أنَّ «الملك هيردوس» كان جباراً يركَبُ شهوتَهُ، وتسوقُهُ إلى المآزقِ المحرجة.

استشهاد يحيى عليه السلام:

ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة في مقتل يحيى عليه السلام، وأغلبُها يدور

على أنه طُلِبَ منه أن يُعطي الملك «هيرودوس» فتوى تُجيز له أن يتزوج باحدى محارمه – وهي زوجة أخيه واسمها «هيروديا»، فرفض يحيى ذلك وقال للملك: «اهجر هذه المرأة فإنها لا تحل لك».

ولعل أشهر الروايات في هذا الموضوع ما ذكره: ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»، وابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء»، والدكتور عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء».

وخُلاصَةُ القصة تنحصر في روايتين تاريخيتين:

الرواية الأولى: أن يحيى كان مرجعاً في الشريعة الموسوية لكلّ طالب فتوى وكان الملكُ المُسمى «هيرودوس» هو ملكَ فلسطين والشام أيام يحيى وكان طاغيةً مستبداً، ضَيِّقَ العقل، غبيَّ القلب، وكان الفسادُ منتشراً في بلاطه وقصره، وكانت تأتيه أخبار يحيى وتحركاته، ومحبةُ الناس له فيُدهش، كيف يُحب الناس يحيى، وكيف لا يُحبونه وهو ملك.

وكان للملك ابنةُ أخ اسمها «سالومي»، وكانت بارعة الجمال، أراد عمها الملك الزواج بها، وكانت البنت والأم تريدان ذلك، ولكن الزواج بابنةِ الأخ مُحرم عند أهل الكتاب، كما هو مُحرم عندنا، فحاول الملك أن يحصلَ على فتوى من يحيى تُبيح له هذا الزواج، فكان ردُّ يحيى: «إنَّ الشريعة لا تُقر هذا الزواج»، وتكرَرَ استدعاء يحيى، وهو رافضٌ، ثم قال له مرةً: «هذا حُكم الشريعة»، ثم قام وانصرف، واستدعاه الملك ثم أمرَ بسجنه.

الرواية الثانية: فهي أن الملك كان راغباً في زوجة أخيه «آرسطوبوس» أي في أم البنت، وكانت في عصمةِ زوجها أخي الملك.

وطلب الملكُ مِنْ يحيى الفتوى بجواز اجبار الأخ على تطليق المرأة

ورفض يحيى ذلك، وكانت البنتُ حاضرةً وسمعت الفتوى، فأحسَّتْ بِنُبلِ وجهه عليه السلام، وجمال روحه، وجلالِ شخصه، فوقع في قلبها.

قال المؤرخون: كانت البنت ذائِعة الصيت والشهرة في الرقص، حتى قال بعض أهل التاريخ: إنها كانت إذا رقصت ترتدي سبعةَ أثواب من الحرير، ثم تخلع في كل رقصة ثوباً، حتى تكون رقصتها الأخيرة وهي شبه عارية.

فلما سُجن يحيى تبعته إلى السجن، ثم راقَبَتْهُ، فرأَتْهُ قائماً يُصلي، وقد أَخَذَهُ البكاء، فراقبتهُ حتى إذا فرغ أَلقتْ بنفسها عند قدميه تتوسَّلُ إليه أن يكون زوجاً لها، فكان جوابه عليه السلام: «ليس في قلبي مكانٌ لغير الله عز وجل»، فذهبت عنه يائسةً، وقد امتلأ قلبُها حقداً عليه، وأشدُّ شيء على المرأة التي في مثل هذا المركز وهذا الجمال أن يُستهان بها وبأُنوثتها، وعادت إلى قصر الملك، فانضَمَّ حقدُ البنت إلى حقدِ الأم إلى حقد الملك، واتفقت الأم والبنت على تدبير مؤامرة ليحيى يكونُ فيها حتفُهُ.

قال المؤرخون: ومرت الأيام ويحيى في سجن «هيرودوس»، وتجمعت الهموم على الملك، وجاء عيد ميلاده، وأرادوا أن يُرَوِّحَ عن نفسه في عيد ميلاده، وأرادَ أن يكونَ احتفالُهُ بعيداً عن أعين المُتديّنين من اليهود؛ لأنه كان يتظاهر أمامهم بالورع والتزام الشريعة الموسوية، فقرر أن يكون احتفاله بعيد ميلاده في قلعة «ماكيروس»، ونسي أنَّ يحيى سجينٌ هناك، ولم يذكر يحيى إلا بعدَ أن وصل إلى القلعة، مع عشيقته «هيروديا» وابنتها «سالومي»، ليكونوا في استقبال المدعوين، تذكر يحيى، وتذكر كيف كانت عشيقتُهُ تُلِحُّ عليه بقتل يحيى، وتذكَّرَ وصيةَ بعض أصدقائه من الرومان بقتل يحيى قبلَ أن يستفحِلَ أمره، لأن الملأ خَشَوا أن يخرجَ يحيى يوماً من السجن، ويكونَ سبباً في ثورةٍ عامةٍ يكون فيها مصيرُهم.

وكان من رأي الملك أن يترك يحيى في السجن حتى ينساهُ أتباعُهُ – كما قال صاحب كتاب «عيسى بن مريم» –.

وصل المدعوون، ومُدَّت الموائد، عليها أطيبُ الطعام، وأشهى الأشربة، ومُلِئتْ البطون، ودارت الخمر بالرؤوس، ورقصت الفاجرات، وراحت عينا «هيرودوس» تُحملق في هؤلاء الراقصات تكادُ تلتهمُهُن، كما قال: السحّار في كتابه.

ووقعت عين الملك على «سالومي» والخمرُ دارت في رأسِهِ، وكانت أفتَن من عشيقته «هيروديا» التي هي أمُّها، وأعظَمَ جمالاً، وطلب منها أن ترقص، فاعتذرت، وكان ذلك باتفاقٍ بين الأم والبنت، أن تتأبى أولَ الأمر، فإذا ألح الملكُ فاطلبي منه رأسَ يحيى.

قال المؤرخون: ألح الملك على «سالومي»، وأقسم لها أنها إن رقصت فسأُعطيكِ ما تشائين..

دخلت «سالومي» ولبست لباسَ الرقص.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لبست لباسَ الرقصِ وعادت إلى الملك، وبدأ العزفُ، وبدأت ترقص.

ولما وصلت إلى الرقصة السابعة توقفت.

انحنت أمام الملك وقالت: أُريد أن أطلب من مولاي حاجة؟!

قال: كل شيء تطلبينه سأُعطيه حالاً؟!

قالت: أُريدُ هديةً في طست مِنْ فضة؟!

فتعجب الملك وقال: وما هي هذه الهدية؟

قالت: رأس يحيى.

قال السحّار في كتابه «المسيح عيسى بن مريم»: فوجئ الملكُ بهذا الطلب، وقال: غير هذا يا «سالومي»؟!!

ولكن الفاجرةَ أصرت على طلبها عَمَلاً بوصية والدتها.

وكررت طلبها، فكرر الملكُ رفضه.

وتدخلت الأم الفاجرة «هيروديا» بحزمٍ قائلةً: لقد أقسمتَ أن تُنفِّذَ كلَّ طلبٍ لها.

وتدخَّل أصدقاؤها من الرومان، كما تدخَّلَ الرُهبان الوالغون في الإثم والعدوان، وقالوا: لقد أقسمتَ قسماً عظيماً فَبِرَّ في قسمك.

قال المؤرخون: وتخاذَلَ الملكُ، وقال في صوتٍ تملؤه الرهبةُ: أعطوها ما طلبت.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لما أصرّت قال الملك لمسؤول الجلاوِذة: «اقتلوا يحيى بن زكريا»، وكان في حينها يتناول الكأس الرابعَ والأربعين.

رجعَ الجلاوِذة إلى الملك ومعهم طستٌ فيه رأس يحيى نبي الله، وهكذا ارتفعت السيوف إلى العنق النبيل.

قال صاحب كتاب «الكامل» وهو ابن الأثير: لما رأت المرأة رأس يحيى في الطستِ قالت: اليومَ قرَّت عيني، ولكن الله عز وجل كان لها بالمرصاد، خرجت في اليوم الثاني إلى سطح قصرها تتنزه، فزلت قدمُها فسقطت من شاهقٍ إلى أرضِ القصر، وكان لها في الأسفلِ كلابٌ ضارية فوثبت الكلابُ عليها وهي على الأرضِ جثةً هامدةً، وأكلتها، وكان آخر ما أُكِلَ منها عيناها.

وقد روى الطبري في «تاريخه» ج ١ ص ٥٨٧: وروى ابن الأثير في «تاريخه» «الكامل» ج١ ص٣٠٢، قال: لما جيء برأس يحيى يشخب دماً ووضعَ أمامَ الملك، كان اللسان يقول: «لا تَحِلُّ لك، لا تَحِلُّ لك» والله أعلم.

وهكذا انتهت حياة نبيٍّ عظيم من بني إسرائيل على يد ملكٍ فاجر، حتى يتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة]، كذبوا عيسى ومحمداً، وقتلوا يحيى.

قال العلماء: عندنا فعل هوى مُضارعه: يهوي: هَوِياً و هُوِياً يعني: سقط.

وعندنا: هَوِيَ مُضارعه: يهوى، هَوَىً أَحَبَّ، فالهوى المُحرم يقودك إلى السقوط.

وما الذي يحفظك مِنَ السقوط؟

«المنهج» يرفعُكَ ويحفظك مِنَ السقوط، لذلك نجد القرآن الكريم عندما يُشرّع يقول لنا: تعالَوْا: أي ارتفعوا عن هبوطكم.

نقرأ في [سورة المائدة]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وفي [سورة النساء]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

قال المؤرخون: وكان مقتل يحيى قبل رفع المسيح عليهما السلام، وهكذا طويت صفحةُ نبي الله يحيى.

والمؤرخون مختلفون في مكان قتله، هل في بيت المقدس، أم بالشام، والراجح

روايةُ سعيد بن المُسيب أنه قُتِلَ بدمشق، وهذا الإسنادُ صحيح إلى سعيد، وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيتُ رأسَ يحيى بن زكريا حين أرادوا بناءَ مسجد دمشقَ أُخرجَ من تحت رُكن مِن أركانِ القبلةِ الذي يلي المحراب مما يلي الشرقَ، فكانت البشرةُ والشعرُ على حالهما لم يتغير.

وفي رواية: كأنما قُتِلَ الساعة.

وذُكِرَ في بناء مسجد دمشق، أنَّ الرأسَ جُعِلَ: تحت العمود المعروف بـ «عمود السكاسكةِ».

أما زكريا: فقد شاءت الحِكمةُ الإلهية أن يرى مقتَلَ ولده يحيى بهذه الصورةِ البشعة.

وكان انتقام القُدرة الإلهية ليحيى كبيراً، فسلط عليهم من هو أظلم منهم.

أما زكريا: فيرى المحققون أنه ماتَ ميتةً طبيعية عادية ولم يُقتل.

أما ما وردَ من أنَّ اليهود لما أرادوا قتله هربَ ودخل شجرة وأنَّ إبليس دلَّهم على مكانه، فأرادوا إحراقها، ولكن الشيطان قال انشروها، فنشروها وشقوا زكريا معها.

قال المحققون وعلى رأسهم ابن كثير: هذا سياقٌ غريبٌ جداً وحديثٌ عجيب، ورفعُهُ مُنْكر، والذين ذكروه في حديث الإسراء واهمون، فلم يأتِ ذكر زكريا في حديثِ الإسراء أبداً، والله تعالى أعلم.

عيسى
عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم
عيسى عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله الذي لا شأن يشغله، ولا نسيان يُذهله، يَحْلُمُ على العاصي فلا يُعاجله، ويدَّعي الكافر أنَّ له شريكاً فيُمهله.

نحمده سبحانه وتعالى حمداً نُديمه ونُواصله.

ونُصلي ونسلم على محمد وعلى آله وصحبه وعلى من سارت على دروبهم رواحِلُهُ، وسلم تسليماً كثيراً.

يقول صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»:

المسيح عيسى بن مريم البتول، صلوات الله عليه وسلامه، هو آخر رُسل بني إسرائيل، وخاتم أنبيائهم، بشَّرَ به الأنبياءُ قبله، وتكلمتْ عنه التوراة، ووصفته بأنه المسيحُ المُنقذ، وأخبرت أنه يولد من عذراء.

وُلِدَ في بيئةٍ مهيأةٍ لاستقباله، وكان قد سبقه «يحيى عليه السلام» ودعا إلى اتِّباعهِ، وكثيراً ما كانا يلتقيان، وكان يحيى أكبرَ منه سناً بقليلٍ.

وقد ذكر الطبري عن قتادة أنَّ الحسن البصري قال: إن عيسى ويحيى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خيرٌ مني، فقال له يحيى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خيرٌ مني، سَلَّمْتُ على نفسي، وسلَّمَ الله عليك، فَعُرِفَ والله فضلُهما.

قال العلماء: والكلامُ عن عيسى يستلزمُ الكلام عن أمه «مريم بنت عمران»، وعمران هذا: هو ابن «ماتان»، أو «باشم»، والد مريم، وزوجته أم مريم اسمها «حنة بنت فاقوذ» من العابدات.

وكان زكريا نبيَّ ذلك العصر، جاءته النبوة وهو كبير، وكان لزكريا زوجةٌ

اسمها «أليصابات» أو «أشياع»، وكانت خالةً لمريم، فهي أخت «حنّة» زوجة عمران وكانت من ذرية هارون.

مريم بنت عمران:

قال محمد بن إسحق وغيره: كانت زوجة عمران - حنّةُ - لا تَحبل، وكان من عادتها أنْ تُطعم الطيور صباحاً، ومرةً تقوم على عادتها بإطعام الطيور، رأت منظراً استوقفها، فتأمَّلتهُ !! فماذا رأت؟

قال ابن إسحق: رأت طائراً يَزُقُّ فرخاً له.

وقال صاحب كتاب «أنبياء الله»: رأت طائراً يَزُقُّ فرخاً له، ويأخُذُه تحتَ جناحه خوفاً عليه من البرد، فجدَّدَ هذا المنظر شوقها إلى الولد فاشتهتهُ، وتمنَّت على الله أن تلدَ، ونذرتْ إن رزقها الله حَمْلاً لتجعلنَّ المولود مُحَرَّراً - أي مُحرراً من أعباء الدنيا، مُتفرغاً لعبادة الله -.

قال ابن كثير: فاستجاب الله دعاءها، فحملت، وملأها الفرح و الشُكر، فنذرت ما في بطنها مُحَرَّراً لله، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ ﴾[آل عمران].

قال العلماء: كانوا قديماً عندما ينذرون ابناً للبيت المُقدس، فهذا النذرُ يستمر ما دامتْ لهم الولايةُ على الولد، وهذا يظلُّ إلى أن يبلُغ سنَّ الرشد، وعند بلوغ الولد سنَّ الرشد، فله الخيارُ، إن شاء بقيَ على ما أرادَهُ له أبواه، أو أن يحيا حياته كما يريد.

وكان الذكور هم الذين يقومون بخدمة البيت المُقدس.

وكلمة: ﴿ نَذَرۡتُ ﴾، فالنذرُ: هو طاعة زيادة عما كلَّفَ الله به العبدَ، وهي زيادةٌ من جنس ما كلَّفَ الله، فالله قد فرضَ علينا الصلاة خمس مرات في

اليوم، فلو نذر إنسان أن يُصلي زيادةً، فقد كلَّفَ نفسه زيادةً عما كلَّفه الله.

وكذلك الصوم، وكذلك الزكاة، فامرأةُ عمران نذرت ذلك لتقواها وَوَرَعها، فهي لم تكنْ مجبرةً على ذلك، فالنذرُ يُعبّرُ عن عشقِ العبد للتكاليف، ثم دعتْ بعد ذلك بقبول هذا النذر: ﴿ فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ ﴾، أي اقبل ذلك يا رب، عن رضىً منك، وكان القبولُ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ ﴾، أي قبِلها ربُّها أبلغَ قُبولٍ حسنٍ: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ﴾، أي ربّاها في خيره ورزقه وعِنايته وتوفيقه تربيةً حسنةً شاملةً للروح والجسد، كما تُربى الشجرةُ في الأرض الصالحةِ حتى تنمو وتُثمر الثمرةَ الصالحة لا يُفسد طبيعتها شيءٌ.

وجاء يوم الوضع، ووضعت امرأةُ عمران بنتاً: «هي مريم»، وكان أبوها عمران قد مات قبل ولادتها، وَلَدَتْ مريم فحصلتْ مشكلةٌ في الموضوع، بين علماء وعُبَّادِ بني إسرائيل.

تنازعَ العُبَّاد والعلماء على كفالة هذه المولودة «مريم»، لأنَّ هذه المولودةَ ابنة «عمران» حَبْرُهُم الكبير، وإمامُهم في الصلوات، وهو من أبناء الملوك كذلك.

قال ابن عساكر: كان زكريا من أبناء الأنبياء الذين يكتبون الوحي ببيت المقدس.

وكان «عمران» من أبناء ملوك بني إسرائيل.

قال ابن عباس: ولم يكن أحد من أبناء الأنبياء إلا ومن نَسْلِهِ مُحَرَّرٌ لبيت المقدس.

تسابق العلماء والعُبَّاد، كلٌّ واحدٍ منهم لينالَ هذا الشرف، ولكن زكريا تقدم وقال: أنا أولاكم بها، فعندي خالتُها، وأنا نبيٌّ هذا الزمان، وقال

الأحبار والرهبان: نريد أن نكون شُركاءك في هذا الشرف، فاتفقوا على القُرعة، فصارت القُرعة لزكريا وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران ٣٧]، أي ضمّها إليه، وأنفقَ عليها، واهتم بمصالحها كل طفولتها.

قال القاسمي: أخذها زكريا، وربّاها في حِجْر خالتها، فلما كبُرت انزوت في محرابها تتعبد فيه، وصارت بحيثُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن كثير: لما وضعتْ امرأة عمران، وكان المولود أنثى، اعتذرت لربها لأنها أُنثى لا تصلُحُ لخدمة بيت المقدس، ثم سمَّتْها ودعت لها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران].

ومريم: بلغة العبرانيين: العابدةُ، وتُلفظ عندهم بكسر الميم، وسَمَّتْها بذلك تيمُّناً باسم «مريم» أخت هارون وموسى، وشجعها على ذلك تشابُهُ اسمي الأبوين أبي موسى وأبي مريم، وفي قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، استدلَّ منه العلماء، على تسميةِ المولود يومَ ولادته، وقد ثبتَ في الصحيحين من حديث أنس قال: ذهبتُ بعبد الله بن أبي طلحة - أخي أنس - إلى رسول الله ﷺ حين ولادته، فرأيتُهُ ﷺ يهنأُ بعيراً له، فقال: «هل معك تمر؟»، قلتُ: نعم، فحنَّكه ﷺ وسماهُ عبد الله.

وفي الصحيحين من حديث «سهل بن سعد الساعدي» قال: أُتِيَ «بالمنذر بن أبي أُسيد» إلى رسول الله ﷺ حين وُلِدَ، فوضعه النبي ﷺ على فخذه، وأبو أُسيد جالسٌ فلَهَى النبيُّ بشيءٍ بين يديه، فأمرَ أبو أُسيد بابنه فاحتُمِلَ من

على فخذ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أين الصبي؟»، قال أبو أُسيد: قلَبْناهُ يا رسول الله، فقال: «ما اسمه؟»، قال: فلان، قال ﷺ: «لا، ولكن اسمه المُنذر».

وفي «صحيح مسلم» عن أنس، أنَّ النبي ﷺ قال: «وُلِدَ الليلة لي غُلامٌ فسميتُهُ باسم أبي إبراهيم».

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، هل هو من كلام الله أم من قبله كان الأول كلامها؟

أي أنَّ الله أعلمُ بنفاسَةِ ما وضعت، وأنها خيرٌ من مُطْلَقِ الذَكر الذي طلبتهُ، وقُرِئَ: ﴿وَضَعَتُ﴾ بضم التاء، فيكون من كلامها المَحكيِّ، فهو خبرٌ مُستعمل في التحسر.

وجُملةُ: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾، أي لا تصلح لخدمة البيت، أو ليس الذَكر الذي طلبتُهُ كالأنثى التي وهبتَها لي، لأنَّ موهوبكَ أعظم من مطلوبي، وقدَّمَ الذَكر لأنه كان المأمول.

وقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾.

إنَّ أم مريم تعرفُ أنَّ المعاصيَ كلها تأتي من نزغ الشيطان، إذ يُحاول أن يجعل العبدَ يتمردُ على العبودية، فأرادت أن تحميَ ابنتها من نزغ الشيطان فقالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾.

والعَوْذُ: هو الالتجاء إلى الغير ليمنعَهُ ويحفظه، والالتجاء إلى الله يكون بالدعاء والرجاء.

والإنسانُ عندما يُزيّنُ له الشيطان المعاصي، يدخل معه في صراع، فإذا استعاذ بالله فإنَّ الشيطان لا يستطيع أن يدخلَ مع ربه في صراع، ولذلك

يُقال للشيطان: إنه إذا سَمِعَ ذكر الله فإنه يخْنُس، أي يتراجع ويندحر، ولذلك وصفه القرآن بـ«الخناس»، أي يخْنُسُ عندما يذكر الإنسان ربه، والشيطان أول ما يدعو العبدَ إلى الشِرك والكفر، فإن استجاب العبدُ بَرَدَ قلب الشيطان واستراح، فإن عجز دعاهُ إلى: البدعة، فإن عجز دعاهُ إلى الكبائر، فإن عجز دعاه إلى الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها، فإن عجزَ دعاه إلى الاشتغال بالمُباحات، التي لا ثواب بها ولا عقاب، فإن عجز دعاه إلى الاشتغال بالمفضولِ عما هو أفضل ليفوتهُ ثوابُ العمل الأفضل، لذلك فالله يُعَلِّمُ الإنسان بقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف].

والشيطان - كما قال العلماء - يرتعد من الاستعاذة بالله، وعندما يتكرر الذِكرُ والارتعادُ، يعلمُ الشيطان عندها أن هذا الإنسان محفوظ، ولهذا علَّمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند معاشرة الزوجة: «اللهم جَنِّبْني الشيطانَ، وجنِّبِ الشيطان ما رزقتني»، وعندها لن يكون للشيطان ولايةٌ أو قُدرةٌ على المولود الذي يأتي بإذن الله.

ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث عجلان عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود من بني آدم يمَسُهُ الشيطان بإصبعيه إلا مريم ابنة عمران وابنها عيسى عليهما السلام».

قال قتادة: كل مولد يطعنُ الشيطانُ جنبه حين يولد غير عيسى وأمَّه، جُعِلَ بينهُما حجاب، فأصابت الطعنةُ الحجاب.

قال القرطبي: ولا يلزم من ذلك إضلالُ المَمْسوسِ، فكم تعرَّضَ

الشيطانُ للأنبياء والأولياء بأنواع الإغواء فعصمهم الله وحفظهم من كيده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر ٤٢].

بشارة مريم بالاصطفاء:

قال ابن كثير: ثم جاءت البشارةُ لمريم بالاصطفاء على نساءِ عالمي زمانها، وذلك لإيجاد ولدٍ منها من غير أب، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [آل عمران].

هل عالَمِ زمانها أم نساء العالمين إطلاقاً؟ الراجح الثاني.

هذا انتقال من ذكرِ أمِّ مريم إلى ذكرِ مريم، والمقصود بالملائكة جبريل، نُلاحظ تكرارَ فعل الاصطفاء، **فاصطفاك الاولى**: معناه اختيارٌ ذاتيٌّ، والمقصود أنها مُمَيزةٌ بالطهارة والنزاهة والنفس الزكية، ولذلك قال: ﴿ **وَطَهَّرَكِ** ﴾، أي من مسيس الرجال، ومن الكفر، ومن المعاصي.

واصطفاك الثانية: بمعنى التفضيل على الغير ولذلك جاء الفعل مسبوقاً بكلمة «على»، فهي مُصطفاةٌ على نساء العالمين، فكأنه لا توجد أنثى في العالمين تُشاركُها هذا الاصطفاء، لماذا؟

والجواب: لأنها الوحيدة التي ستلد دون ذَكرٍ، وهذه المسألة لن يُشاركها فيها أحد.

قال الصاوي: الحقُّ أفضليةُ مريم على النساء إطلاقاً، ثم فاطمة، ثم خديجة ثم عائشة.

قال الزَجاج: مريم أفضلُ نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور.

قال القرطبي: وهو الصحيح، قال بعضهم:

فُضلى النساء بنتُ عمرانٍ ففاطمةٌ

خديجةٌ ثم مَنْ قد بَرَّأَ الله عائشة

وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنَّ الله وصفَ مريم بأنها صِدِّيقةٌ فهي أفضل الصِدّيقات قبلها وبعدها، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾[التحريم ١٢].

وأخرج أبو يعلى من حديث ابن عباس أنه ﷺ خَطَّ في الأرض أربعة خطوط فقال: «أتدرون ما هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «أفضل نساء أهل الجنة أربعٌ، مريم، وآسية بنت مُزاحم، وخديجة وفاطمة».

وقال أبو القاسم البغوي: «إنَّ عائشة قالت لفاطمة، أرأيتِ حين أكببْتِ على رسول الله ﷺ فبكيتِ ثم ضحكتِ؟ قالت فاطمة: أخبرني أنه ميت من وحيه فبكيتُ، ثم أكبَبْتُ عليه فأخبرني أني أسرع أهله لُحوقاً به، وأني سيدةُ نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكتُ» وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «كَمُلَ مِنَ الرجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

قال ابن كثير: أي كَمُلَتا في زمانهما، فإنَّ كُلَّ واحدةٍ منهما كَفَلَتْ نبياً حال صغره، فآسيا كَفَلَت موسى الكليمَ، ومريم كَفَلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفي ذلك كمالَ غيرهما في هذه الأمة، كخديجة وفاطمة.

قال البروسوي: والكمالُ: هو التناهي في الفضائل والبرِّ والتقوى، وحُسنِ الخِصال، ورحم الله من قال:

ولـو كـان النساءُ كما ذكرنا   لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ
فلا التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ   ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

ثم قال: ويُناسبُ ذِكرَ فُضليات النساء، ما حكاه عن والدة الشيخ «محمد بن الخفيف أبي عبد الله»، كانت من العابدات القانتات، وكان ولدُها الشيخ المذكور يُحيي العشرَ الأخيرَ من رمضان ليُدرك ليلة القدر، وكان من عادته فيها أن يُصليَ في الليل على ظهر بيته، وكانت والدتُهُ في البيت مُتوجهةً إلى الله..

وفي ليلة من ليالي العشر الأخير ظهرت للوالِدة أنوارُ ليلة القدر، فنادت ابنها محمد: يا محمد، إنَّ الذي تطلبُهُ هو عندنا، فتعال، فنزل الشيخ من فوق السطح إلى البيت فرأى الأنوار، فأَكبَّ على قدم أمه يُقبلها، وكان يقول: ما عرفتُ قدرَ والدتي حتى رأيتُ ما رأيت.

فانظر رحمك الله، كيف تفوقت على ولدِها رغمَ كثرةِ اجتهاده، فظهرَ أنَّ من النساء من هي أفضلُ من الرجال، ثم يقول البروسوي: بعد أن ذكر هذه القصة:

أما نحن فنعوذ بالله من نساء زماننا حيث لا ترى فيهن إلا القليل من أهل التقوى، وهو مُتوفى سنة ١١٣٧ هـ.

وقد ورد في حديث ضعيف رواه العوفي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوَّجني في الجنة مريم بنت عمران، وامرأة فرعون، وأخت موسى».

وقد ورد ذكر هذا الزواج عند بعض السلف، واستأنسوا له بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم].

قال السُهيلي: ذكر بعض أهل العلم أن في هذه الآية إشارةً إلى مريم البتولَ وهي البِكر، وإلى آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون، وأنَّ الله سيُزوجه إياهُما في الجنة، وبدأ بالثيب لأنَّ زَمَنَ آسية قبل زمن مريم، ولأنَّ أزواج النبي كُلَّهُنَّ ثيبٌ إلا واحدةً.

وروى ابن عساكر من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ دخل على خديجة في مرض موتها، فقال لها: «أتكرهين ما نزل بك يا خديجة وقد جعل الله في الكره خيراً كثيراً، فإذا قَدِمْتِ على ضُرّاتِك فأقرئيهن مني السلام»، فقالت: يا رسول الله: ومن هُنَّ؟ فقال ﷺ: «مريم وآسية وأخت موسى».

قال أبو الليث: تكون وليمةٌ في الجنة يجتمع عليها أهل الجنة فيُزوج الله هاتين المرأتين - آسية ومريم - من محمد ﷺ.

ولمّا بشَّرَ جبريل خديجة ببيتٍ في الجنة من قصب، لا نَصَبَ فيه ولا صخبَ، قال ﷺ: «وما القصبُ؟»

قال جبريل: «من لؤلؤةٍ جوفاءَ بين بيتِ مريم، وبيتِ آسيةَ»، وهما من أزواج النبي ﷺ.

قال ابن كثير: وبشارةُ خديجة بقصر في الجنة من قصب ثابتٌ في الصحيح، ولكن هذا الحديث فيه زياداتٌ غريبةٌ.

قال المفسرون: بعد النداء الأول لمريم: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران]، ثم كرَّرَ الرب عز وجل النداء لها، وأمرها بكثرةِ العبادة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران].

وتكرارُ النداء من الملائكة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى ﴾، قُصِدَ به الإعجاب

بحالها، وهو تنبيه المُخاطبِ إلى ما سيأتي بعده، فجاء الأمرُ: ﴿ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾، وهذا يُشبه قولَ امرئ القيس:

تقول وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً عقرتَ بعيري يا امرأَ القيس فانزلِ

والقنوتُ: مُلازمةُ العبادة، وقدَّمَ السجود في الآية على الركوع لأنَّ المقامَ مقامُ شُكر على اصطفاءِ الله لها، والسجودُ أدخلُ في الشُكرِ من الركوع ولذلك قَدَّمَهُ.

وقوله: ﴿ وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أَذِنَ لها بالصلاة مع الجماعة، وهذه خُصوصية لها من بين نساء بني إسرائيل إظهاراً لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء، ولذلك جيء بعلامة جمع التذكير: ﴿ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

وورد عن الأوزاعي قوله: لما أمرَ الله مريم بالقنوت قامت في الصلاة حتى تورَّمت قدماها.

قال العلماء: وهذا الخِطابُ لمريم: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي ﴾، مُقَدِّمةٌ للخِطاب الذي سيأتي بعده وهو قوله عز وجل: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]، وهنا شُروعٌ في قصة عيسى نفسه بعد قصة أمه مريم، وبعد قصة زكريا.

والبِشارة لا تكون إلا بأمرٍ مُفرح، و «الكلمةُ» هنا: المُراد بها كلمةُ التكوين، و «منه»، أي من الله عز وجل، أو المُراد بها كلمةُ البِشارةِ من الله، وذلك كقول القائل: ألقى إليَّ فُلانٌ كلمةً سرَّني بها، بمعنى أخبرني خبراً فرحتُ به.

وما أجمل قول صاحب «الظلال»، حيث قال: إنَّ ولادةَ عيسى أعجبُ

ما شهدتهُ البشريةُ في تاريخها، لأنَّ الحادث الأعجبَ في التاريخ – وهو خلق الإنسان الأول من دون أب ولا أم لم تشهدهُ البشرية، لأنها لم تشهد خلقَ نفسها – فشاءت حكمةُ العلي القدير أن يُبرِزَ العجيبةَ الثانية، وهي: ولادةُ عيسى بلا أب – على غير سُنة الولادة التي عرفها الإنسان – لتشهدها البشريةُ، ولتظلَّ عجيبةً فذَّةً في سجلِّ الأجيال التي لم تكن شاهدةً للعجيبةِ الأولى.

ثم قال – رحمه الله تعالى –: لقد جرت العادة والسُنَّةُ التي وضعها الله لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل، ونَسِيَ البشرُ الحادث الأول، والعجيبة الأعجب – وهي خلق آدم – فأرادَ الله أن يكون عيسى مَثَلاً يُذكرهم بطلاقة القُدرةِ، وليُفهمهم أنَّ النواميس لا تُقيّدُ قُدرةَ الله وإرادته، وهذه الحادثةُ – خلقُ عيسى بلا أب – تكفي لتبقى أمام البشرية مَعْلَماً بارزاً على طلاقةِ القُدرةِ وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم ٢١]، فالآية: هو الأمر العجيب الذي يخرج عن مألوف الناس والعادة، لذلك يُقال: فُلانٌ آيةٌ في الذكاء..

ويروي المؤرخون: أنَّ نصرانياً قَدِمَ على «هارون الرشيد»، فَوَجَدَ عنده «الحسن بن علي الواقدي»، فقال النصراني للخليفة وللحسن الواقدي: إنَّ في كلام الله آية تدُلُّ على أنَّ عيسى جزءٌ من الله، فقال الخليفة هارون: وما تلكَ الآية؟

قال النصراني: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾، «فَمِنْ»: للتبعيض، فمعنى ذلك أنَّ المسيح جزءٌ من الله، فالتفت الشيخ الواقدي وقال: إذا كانت «مِنْ» هنا للتبعيض، فكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية]، إذ لا فرقَ بينهما،

فبُهِتَ النصراني وأسلم، وأجزلَ الرشيد المُكافأة للشيخ الواقدي.

قال ابن كثير: كان زكريا قد اتخذ لها محراباً من المسجد - المحرابُ: المكان الشريف - لا يدخل عليها أحدٌ سواه، فاجتهدت في العبادة حتى لم يكن في زمنها نظيرٌ لها ولا مثيل، ورأى منها زكريا من الأحوال ما يدلُّ على كمالها، ولذلك خاطبتها الملائكة بالبشارة بأنَّ الله سَيهَبُ لها ولداً: ﴿ **ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ** ﴾ [آل عمران ٤٥].

ونُلاحظ هنا ثلاثة أسماء: «المسيح، عيسى، ابن مريم».

ونحن نعلم أنَّ العَلَم في اللغة العربية يأتي على ثلاثة أنواع: اسمٌ، أو لقبٌ، أو كُنيةٌ، يقول ابن مالك:

واسماً أتى وكُنيةً ولقَباً وأخِّرنَ ذا، إن سِواهُ صَحِبا

فالعَلَمُ له ثلاث حالات:

إما اسم، وهو ما يُطلق على المُسمى أولاً، والاسم الثاني: اللقب: وهو ما يُشْعِرُ بمدح أو بذم - كالرشيد، والجاحظ - والثالث: الكُنيةُ: وهو كل اسم مُركبٍ إضافيٍ صُدِّرَ بأب أو أم: أبو بكر، أم حَرَام.

والسامعُ يعرف أنَّ المُتعارف عليه عند ذكر أسماء الأعلام أنْ يُذكر الأب، وتُذكر الأمُّ في النسب بدل الأب في حالتين:

الأولى: عند جهل الأب، كقولهم: «زياد بن سُميّة»، وذلك قبل أن يُلحق بنسب أبي سفيان، فقالوا: زياد بن أبي سفيان.

والثانية: أن يكون لأمه مفخراً عظيماً كقولهم «عمرو بن هند» وهو عمر بن المنذر ملكُ العرب، وجاءت الأسماء الثلاثة في حق عيسى عليه السلام: ﴿ **ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ** ﴾، فالمسيحُ اللقب، وعيسى الاسم، وابن مريم

هو الكُنيةُ.

فالمسيح: لقبه، واللقب إذا اشتهر صار كالاسم.

والمسيح: بمعنى الممسوح، أي الممسوحُ «بدهن المَسْحَة»: وهو الزيت المُعطر الذي أمر الله موسى أن يتخذه ليمسحَ به رأس هارون حينما جعله كاهناً لبني إسرائيل.

قال القرطبي: كانت الأنبياء تُمسحُ به، وهو طيبُ الرائحة، فإذا مُسِحَ به عُلِمَ أنه نبي، ثم مَسَحَ به بنو إسرائيل ملوكهم.

قال ابن عاشور: والمسيحُ كان لقباً لعيسى لقَّبهُ به اليهود تهكُّماً عليه؛ لأن معنى المسيح: السيد المُبارك، أو الملك، حيث اتهموه بأنه يريد المُلك، فصار لقباً للمسيح بينهم، وقلبَ الله مقصَدَهم - وهو التحقير - فجعل اللقب تعظيماً له، وقد حَصَلَ لنبيِّنا محمد ﷺ مثالُ ذلك: فقد كان المشركون يطلقون على النبي ﷺ اسم «مُذَمَّم»، قالت امرأة أبي لهب:

مُذَمَّماً عَصَينا وأمرهُ أَبَيْنَا

فقال النبي ﷺ: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتمَ قريش ولعنهم، يشتمون ويلعنون مُذمماً، وأنا محمد» كما ورد في البخاري من حديث أبي هريرة في باب أسماء النبي ﷺ، والخُلاصة: إنه لقب تشريف.

وعيسى: اسم مُعرَّبٌ من كلمة يشوع، أو يسوع أي السيد، قلبهُ العربُ قلباً مكانياً ليجريَ على وزنٍ خفيف كراهيةَ اجتماعِ ثِقَلَ العُجْمة، وثِقَلَ ترتيب الحروف فإنَّ حرفي علةٍ في كلمةٍ واحدة مع الشين والختم بالعين - والعين حرف حلق لا يجري على طبيعة ترتيب الحروف مع التنفس عند النُطق بها- فقدَّموا العين لأنها حلْقية فهي مبدأ النُطق، وجعلوا الشينَ سيناً، ومعناها

بالعبرانية: السيد المُبارك.

وعيسى: مأخوذ من العَيَسِ، وهو البياضُ المُشَرَّبُ بحُمرةٍ أو شُقرةٍ؛ لأنَّ لونه عليه السلام كان كذلك.

قال العلماء: ولا بد هنا من الإشارة إلى المسيح الدجال، ولماذا سُمي مسيحاً؟

قال القرطبي: وأما المسيح الدجال، فسُمِّي مسيحاً لأنه ممسوحُ إحدى العينين؛ ولأنه يمسحُ الأرض – أي يطوفُها – إلا مكة والمدينة وبيت المقدس.

ففي «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس بلدٌ إلا سيطؤُه الدجال، إلا مكة والمدينة».

وفي حديث عبد الله بن عمرو الذي ذكره الطبري أنه ﷺ قال: «ليس بلدٌ إلا سيطؤُهُ الدجال إلا الكعبة وبيت المقدس».

ومن حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أراني الليلة – في المنام – عند الكعبة فرأيتُ رجلاً آدم كأحسنِ ما أنت راءٍ من أُدم الرجال له لِمَّةٌ كأحسنِ ما أنت رَاءٍ من اللِّمَمِ قد رجَّلَها، فهي تقطُر ماءً، مُتكئاً على رجلين، أو على عواتق رجلين يطوف بالبيت، فسألتُ: من هذا؟ فقيل: هذا المسيح بن مريم، ثم إذا أنا برجُلٍ جَعْدٍ قَطَطٍ أعورِ العين اليُمنى كأنها عِنَبَةٌ طافيةٌ، فسألتُ من هذا؟ فقيلَ: المسيحُ الدجال».

والقَطَط: الشديدُ جُعودَةِ الشعر.

وفي «صحيح مسلم»: «فبينا هو كذلك إذ بعثَ الله المسيحَ ابن مريم فينزل عند «المنارة البيضاء» شرقيَ دمشق بين مَهْرودَتَين – والثوبُ المَهرودُ: ثوبٌ صُبغَ بِوَرْسٍ ثم بالزعفران فيجيء لونه مثل لون زهرة «الحوذانةِ»، كما ذكر

ابن الأثير في «النهاية» – واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ راسه قَطَرَ، وإذا رفعه تحدَّرَ منه جُمانٌ كالؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونَفَسُهُ حيث ينتهي طرْفُهُ، فيطلبه حتى يُدركه بباب لُدٍّ فيقتُله»، ونزوله يكون وقتَ السَحَرِ.

قال العلماء: ونُلاحظ في الآية قوله تعالى: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، مع أنَّ الخطاب لها: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران]، فلماذا لم يقل: عيسى ابنك؟

والجواب: لأنَّ ذلك إعلامٌ لها، وأنه سيُنسب إليها لأنه لا أب له، ولذلك قالت بعد البِشارة: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ [آل عمران ٤٧].

ثم تذكر الملائكة في البشارةِ صفات هذا المولود المُبشَّر به وذلك قوله تعالى: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران].

والوجيه: أي ذو الوجاهة، والوجاهةُ هي الكرامة بين القوم والتقدمُ على الأمثال ويقولون: هذا وجهُ القوم، أي سيدهم والمُقدَّمُ بينهم وهذا الوصف مُشتقٌّ من الوجه لأنَّ الوجهَ أفضلُ أعضاء الإنسان الظاهرة ولذلك قيل في موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب].

قال صاحب «المنار»: الوجيه في الحقيقة من كانت له مكانةٌ في القلوب، واحترامٌ ثابت في النفوس، ولا يكون هذا الأمر إلا لمن يكون له أثرٌ حقيقي ثابت يدوم بعده زمناً يطولُ أو يقصر، ولا يُنكر أحدٌ ما كان للمسيح من أثرٍ، ودامَ هذا الأثرُ طويلاً بعد رفعه، وهذه الوجاهةُ أعلى من وجاهةِ السلاطين؛ لأنهم يُحترَمون في الظاهر لظلمهم، أو طمعاً بما في أيديهم، وهذه وجاهةٌ

صوريةٌ لا أثرَ لها في النفوس.

قال الرازي: وجاهتُهُ في الدنيا أنه كان مُستجابَ الدعوة، ويُبرئ الأكمهَ والأبرصَ ببركةِ دُعائه، ويُحيي الموتى.

فما هي وجاهتُهُ في الآخرة؟

يقول العلماء: إنَّ كل وجوه المؤمنين ناضرةٌ يوم القيامة، وكُلُّهم مُقربون، فلماذا خُصَّ عيسى بالنص على وجاهته في الآخرة؟

والجواب: إنَّ عيسى سوف يُسأل يوم القيامة سؤالاً يتعلق بالعقيدة الإيمانية، هذا السؤال تقرؤه - يا عبد الله - في [سورة المائدة]: ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾** ﴾.

وهذا تقريعٌ وتوبيخٌ لمن قالوا هذا الكلام عن عيسى، ولذلك قال الله فيه: ﴿ **وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾** ﴾ [مريم]، لماذا؟

لأنَّ ميلاده كان ضجةً، وبعضُ بني إسرائيل ـ نعوذ بالله ـ اتهم مريم البتول الطاهرة.

ويوم المماتِ: ﴿ **وَيَوْمَ أَمُوتُ** ﴾ وكلنا يعلم ادّعاء صَلبه، وكان ذلك ضجةً، بل صُلِبَ مَنْ خانَهُ وأُلقيَ شبهُ عيسى عليه.

ويومَ البعثِ: ﴿ **وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾، يُسأل: ﴿ **ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ** ﴾، ثم يصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ **وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾** ﴾، وهذه العبارة تدلك على كمالِ عظمة الله، وعلى كمال عدله.

فالله عز وجل يُبيّن لنا، أنَّ فتنة بعض الناس بعيسى بن مريم، لا تُؤثر في

مكانة عيسى عند الله عز وجل، إنه مُقرَّبٌ من الله.

ونحن نرى أنه عندما يُفتن بعضُ البشر في واحد منهم، فقد يغضب البعضُ من الشخص الذي فُتِنَ به الآخرون مع أنه لا ذنبَ له، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾، أي لا تُؤثر فتنةُ الآخرين به في مكانته عند الله تعالى.

ثم إنه ليس كلُّ وجيهٍ في الآخرة يكون مُقرباً، لأنَّ أهلَ الجنة - كما يقول الرازي - على وجاهتهم فإنهم منازلُ، قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة].

والْمُقَرَّبُ أبلغ من القريب؛ لأنه يدل على الاصطفاء، فهو مُطيعٌ يُجاهدُ نفسه في الطاعة لأنه يطلبُ القُربَ من الله، فإذا بلغ هذه المرتبةَ قَرَّبهُ الله، أي عاملهُ مُعاملةَ الْمُقَرَّبِ المحبوب كما جاء في الحديث: «ولا يزالُ عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطشُ بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنهُ..» البخاري.

ثم يقول الله تعالى في صفات عيسى كذلك: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران].

والمهدُ: شبه الصندوق من خشب لا غطاء له، يُجْعَلُ مضجعاً للصبي مُدَّةَ رضاعه، يوضع فيه لحفظه من السقوط.

قال ابن عاشور: وخُصَّ تكليمُهُ للناس في المهد وعند كهولته، مع أنه يتكلمُ فيما بينهما، قال: لأنَّ لِذينك الحالين مزيدَ اختصاص بتشريف الله إياه.

فأما تكليمُهُ للناس في المهد، فهو أمرٌ خارق للعادة، وهو إرهاصٌ بنبوته، ولأنَّ كلامه في المهد وُهِبَ له من الله لتبرئةِ شرفِ أمه وكرامتها، فكان من المفروض أن تأتيَ آية لتمحو عجبَ الناس، والكلمة التي قالها عيسى في المهد لا تُسعفُ ولا تؤيد من يقول أو من يصف عيسى بأوصافٍ تُخرجه عن حيز البشر، لأنه نطقَ أولاً: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم].

وأما تكليمُهُ في الكهولة: فالمرادُ دعوته الناس إلى الشريعة.

الكهلُ: هو من دخل في عشرة الأربعين، وفارقَ سن الشباب وعصره، وكان عيسى حيث بُعِثَ ابن نيفٍ وثلاثين، ويُقال للمرأة في هذا السن: «شهلَةَ»، ولا يُقال لها «كهلَةَ».

قال العلماء: لما كانت ولادةُ امرأةٍ ولداً بدون أبٍ أمرٌ عجيبٌ معجز، قد يُثيرُ مطعناً في عِفة الأم، كان من الواجب أن تأتيَ آية عجيبةٌ مُعجزةٌ تمحو عجبَ الناس من الأمر الأول، فكان كلامه في المهد.

وقد أنكرَ النصارى كلام المسيح في المهد، وقالوا: لو تكلمَ لتواترت هذه العجيبةُ، والجواب:

إنَّ الحاضرين كانوا قلةً، وعندما تكلَّموا في الأمر نسبهم اليهود إلى البَهْتِ والكذب، فسكتوا خوفاً من اليهود، فلا عَجَبَ إذا بقيَ الأمرُ مخفياً حتى أخبر الله به نبيَّه محمداً ﷺ، وقد نُقِلَ عن «جعفر بن أبي طالب» أنه لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: «لا خلاف بين ما حصل لعيسى وما ذكرتم بِذَرّةٍ».

وهناك أمرٌ آخر ينبغي أن ننتبه إليه، وهو أنَّ الكلمةَ التي نطق بها عيسى

في المهد هي قوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾.

فهذه العبارة تُخزي من يصف عيسى عليه الصلاة والسلام بوصفٍ يُخرجه عن بشريته، فلا عجبَ إذا أخفوا هذه المسألة التي تنقُضُ أساس قضيتهم التي يُريدون أن يصفوا بها عيسى عليه السلام، وسيأتي كلامه في سورة مريم، والراجح أنَّ كلامه عليه السلام كان ساعة من نهار.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي في حركته السلوكية، فالتبليغ لا يكفي، بل لا بدَّ من أن يؤدِّيَ السلوكَ الإيماني الذي ينسجم مع العقيدة الإيمانية، لذلك قال الصاوي: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي من سادة الرُّسل الذين يُراعون الأكملَ في أفعال القلوب والجوارح.

وقد جاءت سورةٌ خاصة فَصَّلتْ قصة حمل مريم وولادتها، وما أصابها من قومها، وسُمِّيت هذه السورة باسمها: «مريم»، وهذه التسميةُ رُوِيتْ عن النبي ﷺ في حديث رواه الطبراني والديلمي وابن منده وأبو نُعيم والحاكم عن أبي بكر الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم، قال: أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ: يا رسول الله إنه ولدت لي الليلة جارية، فقال النبي ﷺ: «والليلة أُنزلت عليَّ سورة مريم، فَسَمِّها مريم»، فكان يُكنى أبا مريم، واشتُهِرَ بكُنيته مع أنَّ اسمه «نذير»، وهذه السورة هي الرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وهي مكية.

قال ابن عاشور: وسُمِيت السورة باسم مريم؛ لأنها بُسِطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تُفَصَّلَ في غيرها من السُّوَرِ.

والظاهر أنَّ هذه السورة نزلت في الردّ على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان في هذه السورة وفي غيرها بيانُ نزاهةِ آل عمران، وقداستهم في الخير.

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتلوَ قصة مريم، ليُظهرَ كمال قُدرته عز وجل حيثُ انتقل من عجيبةٍ ولادةِ يحيى من أم عقيم إلى أمرٍ أعجبَ وهو ولادةُ عيسى، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ ﴾ [مريم].

والكتابُ: هو القرآن الكريم الموحى إليك يا محمد.

والانتباذُ: الاعتزال والانفراد، مأخوذٌ من النَبْذِ، وهو التباعد، ومنه قولهم: جلس نُبذةً من الناس، أي ناحيةً.

وانتبه – يا عبد الله – إلى قوله تعالى: ﴿ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾، كأنَّ أُنسها كان بالله لا بالأهل، ولكن برب الأهل، وقوله: ﴿ شَرۡقِيّٗا ﴾، أي شرقيَّ بيت المقدس، واختارت جهة الشرق لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس، ولهذا السبب اتخذ النصارى المشرقَ قبلةً لصلاتهم ولا حُجةَ لهم في ذلك إلا الابتداعُ؛ لأنَّ قبلةَ كلِ مُصَلٍّ لله الكعبة البيت الحرام، ولذلك ورد عن ابن عباس أنه قال: إني لأَعْلَمُ الناسِ لأي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلةً، لقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ ﴾ [مريم]، فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلةً، وقالوا: لو كان في شيءٍ من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريم عيسى فيه.

وكما اتخذَ النصارى المشرق قبلةً لهذا السبب، كذلك اتخذ اليهود المغربَ قبلةً لأنَّ موسى عندما تلقى التوراة كان واقفاً في الجانب الغربي من الجبل، تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ ﴾ [القصص].

الحمل والولادة بعيسى عليه السلام:

قال البروسوي: كانت مريم إذا أرادت غُسلاً أتت من المسجد إلى بيتِ خالتها فقضت حوائجها في مكانٍ شرقيّ من الدار، فاحتاجت يوماً إلى الاغتسال، وكان الوقت شتاءً، فجاءت إلى ناحيةٍ شرقيةٍ من الدار مُقابل الشمس فتطهرت واغتسلت مُحتجبةً عن أهلها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ [مريم ١٧].

قال الرازي: بيَّن الله أنها رُغمَ انفرادها عن أهلها، جعلت بينهم وبينها حائلا وستراً، اغتسلت وتطهرت مُتحجبةً عن أهلها، ثم لبست ثيابها واستقرت وإذا بالمَلَكِ يأتيها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ ﴾ [مريم].

والروح هنا: جبريل، أي جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا، ولأنَّ جبريل يُسمى «روحاً» قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ ﴾ [الشعراء]، وفي قراءةٍ: ﴿ نَزَّلَ بِهِ ٱلرُّوحَ ٱلۡأَمِينُ ﴾، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة ٩٧].

وقوله: ﴿ فَتَمَثَّلَ ﴾، والتَمثُل: تكلُّفُ المُماثلةِ لأنَّ ذلك الشكل ليس شكلَ المَلَكِ بالأصالةِ؛ لأنَّ حقيقة نورانيته ذات صفات أُخرى.

وقوله: ﴿ بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ ﴾، أي إنساناً تامَّ الحكمةِ، كامل البنية، لم يفقد من حِسانِ نعوتِ البشرية شيئاً.

هنا سؤال: لماذا تمثل جبريل بإنسانٍ تام الصورة سويّاً؟

والجواب: جاءها جبريل بصورةٍ بشريةٍ لتأنسَ به، ولأنه لو جاء على

هيئته الملائكية لخافت، لذلك قال تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾، بشرٌ من جنسها.

وقوله: ﴿ سَوِيًّا ﴾، أي أنه تامُّ الخَلق والتكوين، على أجمل ما يكون البشر من الوسامة وتناسق الأعضاء، فلا يَعيبُه عِظَمُ أنفٍ، أو سعةُ فم، أو كبر جبهةٍ كما قال العلماء.

ولماذا كان على هذه الصورة العالية من الجمال؟

والجواب:

أولاً: للتناسب بين كمال الصورة وكمال الحقيقة.

ثانياً: للإشارة إلى كمالِ عِصمتها، ولإظهار أنها العذراءُ العفيفة، لأنَّ ظهورَ شابٍ في هذا الجمال الباهر، والكمال العجيب من شأنه أن يُحركَ ميل الفتاة إليه، ولكن مريم ما أبدت به إعجاباً، ولا تلطفت إليه في الحديث، ولا نطقت بكلمةٍ يُفهم منها الميلُ إليه، بل قالت ما حكاه القرآن عنها في [سورة مريم]: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾، لأنها حَسِبَتْهُ بشراً اختبأ لها ليُراودَها عن نفسها فبادرتْهُ بالتعوذ قبل أن يُكلمها بشيء، مُسارعةً بالإنكار على ما تَوهَّمتْهُ من قصده في تلك الحالة.

قال صاحب «الكشاف»: أما قولها: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾، فقد دلَّ على عفافها وورعها؛ لأنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة.

وقال ابن عاشور: أخبرته أنها جعلت الله معاذاً لها، واستعملت صِفَةَ «الرحمانية» للمُبالغة بالعياذ به عز وجل، واستجلابِ آثار الرحمة الخاصة التي هي العِصمَةُ مما دَهِمها.

قال البروسوي: وإنما قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾، لأن التقي يتعظُ بالله ويخاف، والمؤمن يحترمُ الاستعاذة بالله ويُقدِّرها، فإن استعذتَ بالله أعاذك، وإن استجرت بالله أجاركَ، من هنا لما خطبَ النبي ﷺ امرأةً وغارت منها ضرائرها، قُلنَ لها: قولي عند دخول رسول الله ﷺ عليك: «أعوذ بالله منك»، فقالت للنبي ﷺ ذلك، وكانت ساذجة، فقال ﷺ: «لقد استغذتِ بعظيم، إلحقي بأهلكِ»، هكذا شأن المؤمن، لأنَّ الفاسق يُخوَّف بالسلطان، والمنافق يُخوَّف بالناس.

جاء في البخاري من قول أبي وائل، أو من قول أبي العالية: قال: عَلِمت مريم أن التقيَ ذو نُهْيَةٍ حين قالت: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

قال البكالي: لما سَمِعَ جبريل ذكر الرحمن نَكَصَ فَزِعاً من الله عز وجل.

قال في «التأويلات»: صار المعني: إنك يا هذا إن كنت من أهل الدين، تعرف الرحمن، فلا تقربني، وإن كنت شقياً لا تعرف الرحمن فأتعوذُ منك بالخلق، وجاءت بصيغة الشك في تقواه لتحريك خشيته.

قال الرازي: لما عَلِمَ جبريل خوفها أسرعَ فطمأنها بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم].

قال ابن عباس: تبسم جبريل أولاً، ثم قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

وما أجمل قول القاسمي عند هذه الآية حيث يقول: والمعنى: لا تخافي ولا تتوقعي ما تَوهَّمتِ، فإني رسولُ مَن استعذتِ به، رسول المالكِ لأمرك، الناظر في مصلحتك، فقد بعثني إليك: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾.

وتلمس - يا عبد الله - من قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾، أي لأكون سبباً في هِبَتِهِ لك بالنفخ في الدرع، إنما سيحدث لمريم هِبَةٌ من الله غير خاضعة

للأسباب التكوينية.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لم يكد هذا الغريب ينتهي من كلمته: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠﴾، حتى أضاء المكان بضوءٍ غريب لا يُشبه شكله ضوء الشمس ولا ضوء القمر، ولا ضوء النار، كان نوراً شديدَ الصفاء، وراح هذا النور يجتمعُ حول الواقفِ، ودارت في رأس مريم كلماتُه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، إنه سيد الملائكة جبريل قد تَمَثَّلَ لها بشراً سويا.

والزكي: هو الطاهر من الذنوب، الذي ينمو على الخير والصلاح، مُترقياً من سنٍّ إلى سن على هذين الأمرين: الخير والصلاح.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: رفعت مريم رأسها وهي ترتعشُ انفعالاً، وكان جبريل أمامها، تأملت نقاء وجهه، وجلالَ عينيه، لقد صدقَ ظَنُّها، فلديه من العزةِ ما يدل على كمالِ عُبوديته لله عز وجل، ثم تذكرت قوله أولاً ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وأنه جاء: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، تذكرت مريم أنها عذراء، ولم يَمْسَسْها بشر، فكيف يكون الإنجاب إذاً؟

وذلك ما حكاه القرآن عنها: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم].

قال العلماء: نفت مريم بهذا الكلام كل صور اللقاء بين رجلٍ وامرأةٍ، والتقاءُ الذكر بالأنثى له طُرق ووسائل:

فالوسيلة الأولى: هو الزواج الشرعي الذي شرعه الله للعباد للتكاثر وحفظ النسل.

والوسيلة الثانية: أن يتم اللقاء يصورة مُحرمة بين الرجل والمرأة، إما بالتراضي وهو الزنا، وإما بالاغتصاب، وقد نفت مريم عن نفسها كل هذه

الوسائل حين قالت: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي ﴾، لا في الحلال ولا في الحرام.

وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾، والبغي: هي المرأة الزانية، التي تُبالغ في البغي، وهو الظلم، ومعنى قولها هذا: إنني لم أكن بغياً فيما مضى أَفَأُعَدُّ بغياً فيما يُستقبل؟

قال صاحب «التحرير»: ومُحاورتها للمَلَكِ، مُحاولةٌ قصدت منها صَرْفَهُ عما جاء لأجله، لأنها عَلِمت أنه مُرسلٌ من الله، فأرادت مُراجعةَ ربّها في أمرٍ لم تُطِقْهُ، لأنه سَيَجُرُّ عليها أمراً عظيماً؛ إذ هي مخطوبةٌ لرجل صالح ولم يَبْنِ بها، فكيف يتلقى الناس منها أنها جاءت بولدٍ غير معروف الأب، إذاً، أرادت أن تُراجع ربها في أمرٍ سَيَجُرُّ عليها ضرراً.

فحاورت المَلَكَ: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾، وهذه المراجعة لها نظائر في كتاب الله عز وجل، فنحن نقرأ في سورة هود مُراجعة إبراهيم لربه عز وجل في قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود]، بعد ذهاب خوفه، وبعد البشارة له بأنَّ الله سيرزقه ولداً، وعَلِمَ أنَّ هؤلاء الملائكة ذاهبون لتعذيب قوم لوط، جادلهم، أو المقصود دعا ربّه وناجاه طالباً العفوَ عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم، أو طالباً الإمهالَ لهم لعلهم يؤمنون، وهذه المُجادلة ليست رداً لأمر الله، لذلك أتى الله بعدها بِعِلَّةِ المُجادلة، وهي أنَّ إبراهيم ذو قلبٍ رحيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود]، وكذلك راجعَ نبيُّنا ﷺ ربه في فرض خمسين صلاة.

قال القرطبي: وقول مريم: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾، ليس استبعاداً لقُدرة الله، ولكنها أرادت أن تعلم كيف يكون هذا الولد؟ هل هو من زواج مُستقبلٍ؟ أم يخلقه الله ابتداءً؟ فهي

تتعجب من ذلك، وقد ورد هذا التعجب في [سور آل عمران ٤٧]: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، وجاء الجواب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران]، وكذلك قالت في السورة المُسماة باسمها [مريم ٢٠]: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، وجاء جواب جبريل كذلك بقوله: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾ [مريم ٢١]، أي الأمرُ كما قُلْتِ، لم يمسسكِ رجلٌ لا من نكاح ولا من سفاحٍ، ولكن الله قادر: ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم ٢١]، أي خلْقُ ولدٍ بدون ماء الرجل.

وقوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، وقوله في سورة الروم في مسألة البعث بعد الموت: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم ٢٧]، «فهيّن وأهون»، يقتضي صعبٌ وأصعب، وهذا خطابٌ للناس على قدرِ فَهْمِهم وعقولهم، أما بالنسبة للخالق فلا يوجد عنده هيِّن وأهون؛ لأنه عز وجل لا يُزاول الأفعال، وإنما يوجدُها بقوله تعالى: ﴿ كُن ﴾، فالمعنى: يا أيها الناس: بمنطقكم أنتم، إن كنتُ قد خلقتُكم من غير شيء، فإعادتُكم من شيء موجود أمرٌ هيِّنٌ.

وقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾،[مريم ٢١] أي علامةً على كمالِ قُدرتنا.

قال صاحب «أضواء البيان» في وقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾، أي أنه تعالى يخلق ما يشاء، كيف يشاء من أنواع الخلق:

إنْ شاء خلقه من أنثى بلا ذكر كما في خلق عيسى.

وإن شاء خلقه من ذكر دون أنثى كما فعل بحواء: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء ١].

وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معا، كما في خلق آدم.

وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى، كما فعل بسائر بني آدم.

وقوله: ﴿ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ ﴾، أي كرامةً للغلام الذي سيكون رحمةً لمن آمن به، واتَّبعَ طريقه، واسترشدَ بإرشاده.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم ٢١]، أي هذه مسألةٌ مُنتهية لا مُراجعةَ فيها، وإنباءٌ بأنَّ التخليق قد حصل في رَحِمِها، فهو أمرٌ مقدورٌ في الأزل، مسطورٌ في اللوح المحفوظ فلا بُدَّ من وقوعه، فلا فائدة في المُراجعةِ، ولا في الحُزن، وهذا معنى القول المشهور: «مَنْ عرفَ سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب»، ولما كانت مريم صِدّيقةً صبرت وأسلمت أمرها لله، ولذلك جاء في الآثار: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإنْ صبر اجتباه، وإن رضيَ اصطفاه».

لذلك قال العلماء: الواجبُ على العبد الحمدُ على البليةِ لما في طَيِّها من النعمةِ، فإن فقدَ الحمدَ، فالصبرُ، وكلاهما - الحمد والصبر - من طريق العبودية، فإذا وقف العبد عند المصيبة مع الجزع خوفاً على نفسه، فهو في غلبةِ الهوى.

قال صاحب «الأساس»: لما قال لها المَلَكُ جبريل: ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ﴾، تَيَقَّنتْ أنه أمرٌ من الله، قالت عندها: «لتكن مشيئةُ الله، يفعلُ ما يشاء وهو على كل شيء قدير».

قال الآلوسي: اطمأنت إلى قول جبريل، عندئذ نفخَ عن بُعد فوصل ريحُ النفخةِ إليها فحملت، وقد بيَّنَ الله ذلك في القرآن الكريم بعد أن أثنى عليها وعلى عِفتها وحصانتها، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا

﴿مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء].

قال السُهيلي في قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي فرجَ القميص، والمعنى لم يعلق بثوبها رِيبةٌ، وفروجُ القميص أربعة: الكُمَّان، والأعلى والأسفل، فلا يذهبنَّ وَهْمك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأنَّ القرآن أنزهُ معنىً، وأوزنُ لفظاً، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً من أن يُريد ما يذهب إليه وَهْمُ الجاهل، لا سيما وأنَّ النفخَ حصل من روح القُدُسِ بأمر القدُّوسِ، فَأَضِفِ القُدُسَ إلى القُدُّوسِ، ونَزِّهِ المُقَدَّسَةَ المُطَهَّرَةَ عن الظن الكاذب والحدس.

وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، أي نفخنا الروحَ في عيسى فيها، أي أحييناهُ في جوفها، وإطلاقُ النفخ هنا تمثيلٌ لإلقاء روح التكوين للنسل في رَحم المرأة دُفعةً واحدةً بدون الوسائل المُعتادة، وإنما قال: ﴿فِيهَا﴾؛ لأنَّ مريم كانت وعاءَ الولد، فهي ظَرفٌ لحلولِ الروح المنفوخ فيها، كما يقول الزمّار: نفختُ في بيت فلان أي نفختُ في المزمار في بيت فلان.

و«الروح»: هي القوةُ التي بها الحياة كما قال صاحب «التحرير والتنوير»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر].

والإضافة هنا: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: إضافةُ تشريف، كما تقول: بيتُ الله وناقة الله، ولأنَّ جبريل مبعوثٌ من الله بدون واسطة التطورات لتكوين النسل، وبهذا امتازَ عن بقية الأرواح، ثم كان الحمل من جرّاء هذه النفخة، وذلك قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم].

يُقال: حملتْه، وحملت به للدلالة على تأكيد اللُّصوق، ومنه قول الهذلي:

حَمَلتْ به في ليلة مَزؤودَةٍ   كرهاً وعقدُ نطاقها لم يُحلَلِ

وقوله: ﴿ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴾ هذا انتباذٌ ثانٍ، فالأول كان انتباذاً للخُلوةِ من أجل العبادة، وهذا الانتباذ هو الابتعاد عن القوم لما أحست بالحمل وخشيت أعيُنَ الناس وشكوكهم.

والمعنى: اعتزلت مُتَلَبِّسةً به وهو في بطنها، كقوله تعالى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ [المؤمنون ٢٠] أي تنبُتُ ودُهنها فيها، وقوله: ﴿ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴾، هو (بَيتُ لحم) عند الجمهور.

وفي إنجيل «لوقا»: ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهودية.

قال ابن عباس: انتحتْ بالحمل إلى مكان بعيد إلى أقصى الوادي، وادي بيت لحم، وبينه وبين إيلياء أربعة أميال، وإنما بَعُدت فراراً من تعيير قومها بالولادة من غير أب.

وقد ورد في حديثٍ صححه البيهقي، ورواه النَسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً أنَّ النبي ﷺ قال في حديث الإسراء: «فقال لي جبريل: انزل فصلِّ، فصليتُ، فقال: أتدري أينَ صَلَّيتَ؟ صليتَ في بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: قادتها قدماها إلى مكانٍ يمتلئُ بالشجر والنخل، قَلَّ من يقصده لبُعده، جلست تستريح عند نخلة، وراحت تُفكر في نفسها، وكانت تشعُرُ بألم يتزايد في مراحل مُتقاربةٍ، إنه المخاضُ، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ ﴾ [مريم].

قوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ ﴾: قال في «قصص الأنبياء»: لما دنت ولادةُ مريم خرجت في جوف الليل من منزل زكريا إلى خارج بيت المقدس، وأحبت

أن لا يعلمَ بها أحد، والذي دفعها إلى ذلك مجيءُ المخاض.

تقول: جاء فلان: أي جاء باختياره ورضاه.

ولكن عندما تقول: أجاءَ فلان زيداً، أو أجاءَهُ فلانٌ، فالمعنى: جاء به رغماً عنه ودون إرادته، فكأنَّ المخاضَ هو الذي اضطرها إلى جذع النخلة وإلى الخروج إلى هذا المكان البعيد، فكأنَّ هناك قوةً خارجة عن إرادتها شدَّتها إلى هذا المكان.

والمرأةُ حين يأتي وقتُ ولادتها تحتاج إلى شيء تستند إليه، وتتمسك به ليُخفف عنها ألم الوضع إذ لا يوجد قابلةٌ تُعينُها.

والعربُ استعملت كثيراً فعل أجاء: بمعنى ألجأهُ الأمر واضطره، ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

إذ شددْنا شِدّةً صادقةً فأجأناهم إلى سفحِ الجبلِ

ومنه قول زهير:

وجارٍ سارَ مُعتمداً إلينا أجاءتْهً المخافَةُ والرجاءُ

فألجأها المخاض إلى جذع النخلة، لتعتمد عليه أثناء الولادة، ولِتَسْتَتِرَ به، ولإظهار المعجزة في هذا الجذع، والجذعُ: هو الساقُ المُمْتد إلى بداية الجريد.

يقول البروسوي: ولعل الله ألهمها اللجوءَ إلى جذع النخلة ليُريها من آياته ما يُسكِّنُ خوفها وحُزنها.

قال المفسرون: كانت نخلةً يابسة رأتها في جوف الليل فجلست عند أصلها.

قال البروسوي: كانت نخلة يابسة لا رأس لها، ولا خُضرةَ عليها،

والنخل إذا قُطِعَ رأسه لا يُثمر، ولا يُثمر إلا عند اللقاح، وكان الوقت شتاءً، فأثمرت، والنخل أقل شيء صبراً على البرد وثمرُها إنما يكون من جُمَّارها بعد اللقاح، والجُمَّار: رأس النخلة وهو شيء أبيض لين، وليُطعمها الرُّطَبَ الذي هو أفضل الأشياء بالنسبة للنُّفساء.

قال الرازي: كأنَّ الله أراد أن يُبين لها - بذلك - إنَّ القادرَ على إظهار الثمر - وهو الرُّطَب - في النخل بدون لُقاح قادرٌ على خلق الولد بدون ذكر.

قال العلماء: أصبحت السيدة مريم أمام أمرٍ واقع، وحملٍ ظاهرٍ لا تستطيعُ إخفاءه، ولا تقدر على ستره، لقد قبلت حين بشرها جبريل بالحمل بغلام زكي له صفاتُهُ التي ذُكِرت سابقاً، وهاهو الأمر قد تحول من الكلام إلى الواقع الفعلي، وهاهو الوليد يتحرك في أحشائها وقد دنت ولادته، ولا بُدَّ للقارئ أن يتعرف على حالها في تلك اللحظات؟!

إنها كانت في حالة انفعالٍ شديد فالأمرُ مُحيّر وعصيبٌ، فهي إذن في حالة حُزن ترى أنَّ الموتَ أهونُ من هذا الموقف ولهذا قالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم]، وهذا الكلام دليل على مقامِ صبرها وصدقها، ولذلك سُميت صِدِّيقة.

وقولها: ﴿مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، متُّ: مِنْ ماتَ يَماتُ، وقرئ بالضم: مُتُّ من: ماتَ يموتُ، والمعنى واحد، و ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾: المُشار إليه هو الحمل؛ تمنَّت الموتَ قبل الحمل حتى لا يتطرق عِرضُها بطعن، ولا تَجُرَّ على أهلها عاراً، ولم تتمنَّ أن تكون ماتت بعد الحمل وظهوره؛ لأنَّ الموتَ لا يدفع الطعنَ في العِرض بعد الموت، ولا المَعَرَّةَ والعار عن أهلها، إذ يُشاهد أهلها بطنها وهي مُرتفعة فيُتكلم في عِرضها.

وقولها: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: والنَّسيُ: الشيء التافه كالوتد

وقطعة الحبل، وهو في العادة يُنسى ولا يتألم الإنسان لفقده، والعربُ تُسمي الأشياء التي يغلبُ إهمالُها «أنساء»، ويقولون عند الارتحال: انظروا أنساءكم، أي الأشياء التي في العادة أن تنسوها، ومريم لم تكتفِ بأن تكون نسياً تافهاً لا يُؤبهُ له في ذاته لتفاهته، إذ قد يوجد من الناس من يتذكره ويعرفه، فقالت: ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، فأكدت النسيَ بقولها: ﴿مَّنسِيًّا﴾، أي لا يذكره أحد، ولا يُفكر فيه أحد، و"للكميت»:

أتجعلُنا جسراً لكلبِ قُضاعةٍ ولستُ بنسيٍ في معدٍّ ولا دخلِ

هنا سؤال: لمذا تمنت الموت مع علمها بما قاله جبريل لها من أنها وولدها سيكونان آية للعالمين؟

والجواب، من وجوه:

أولاً: قالت ذلك استحياءً من الناس على حُكم العادة البشرية لا كراهةً لحكم الله تعالى.

ثانياً: إنَّ مريم تمنت الموت من جهة الدّين، إذ خافت أن يُظَنَّ بها الشر في دينها وتُعَيَّرَ، وهذا مُباح، فإنَّ من عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء وخافوا على دينهم، تمنَّوا الموت حتى لا يُفتنوا في دينهم.

فهذا أبوبكر: ينظر إلى طائر على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر، تقع على الشجر، وتأكل من الثمر، ودِدْتُ أني ثمرةٌ ينقُرها الطائر.

وهذا عمر بن الخطاب، أخذَ تِبنةً من الأرض فقال: ليتني هذه التِبنة، ليتني لم أكُن شيئاً، وفي الحديث: «وإذا أردت بقومٍ فتنةً فاقبضني إليكَ غيرَ مفتونٍ» رواه أحمد.

وعن علي رضي الله تعالى عنه يوم الجمل: ليتني متُّ قبلَ هذا بعشرين

سنة.

وعن بلال رضي الله تعالى عنه: ليتَ بلالاً لم تَلِدْهُ أُمه، وجميلٌ قول القائل:

فقولي تارةً يا ربِّ زِدْني وأُخرى ليتَ أُمي لم تَلِدْني

فمريم على العموم راضية عن ربها، وإنما قالت ذلك حتى لا يقع الناس في المعصية بسببها.

قال الزمخشري: ليس أشَدَّ على نفس مريم أن تعرفَ من نفسها البراءة، وتعلمَ أنَّ الله اختصَّها بالإجلال والإكرام بمولودٍ عجيب، وفضل باهر تستحق المدح فيه، ثم تراه عند الناس - لجهلهم - عيباً يُعابُ به، ويُعنَّفُ عليه، فهي عندهم فاجرة، وهي عند نفسها وعند الله بريئةٌ عابدةٌ، وقد ورد عن «وهب» قال: أنْسَتها كُربَةُ الغُربةِ وما سمعتهُ من الناس بشارةَ جبريل بعيسى عليه الصلاة والسلام.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لم تكد مريم تنتهي من تمني الموت قبل الحمل، حتى ناداها مُنادٍ قائلاً لها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم].

فمن هذا المُنادي؟

أولاً: الراجح أنَّ الذي ناداها هو المولود كما ذكر الطبري وهو شيخ المفسرين لأنَّ الضمير في ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ يعود على أقرب مذكور وهو عيسى في قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾.

ثانياً: إنها لما أتتْ إلى قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليُكلموه، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾، وإشارتُها إليه ليُكلموه دليلٌ على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعتهُ و «أنْ»

هنا في قوله: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ مُفَسِّرَةٌ تُفسِّرُ هذا النداءَ، فالنداءُ المذكور هو قوله لها: «لا تحزني» بما أنت فيه من انقطاعٍ عن الناس فلا مُساعِدَ لك، وليس هناك لوازمُ الولادة.

لأنَّ الحُزنَ: غَمٌّ يلحق الإنسان من توقع مكروه، أو فواتِ نفع.

قال القرطبي: كان نداؤه لها معجزةً وتسكيناً لقلبها، وإظهاراً لعظمةِ هذا المولود الذي بُشِّرت به.

ثم الذي يؤكد أنَّ عيسى هو القائل، أنَّ ذلك الموضع موضعُ النظر إلى الصورة، وذلك لا يليقُ بالملائكة.

و «السريّ»: الجدول الصغير من الماء كالساقية، وهذا يُناسبه قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي ﴾ [مريم ٢٦]، فدلَّ على أنَّ المأكولَ الرُّطبَ، والمشروبَ ما في الجدول.

قال ابن عباس: كان ذلك نهراً صغيراً قد انقطعَ ماؤه فأجراه الله لمريم، وإطلاقُ السَّرِيّ على الجدول، أو على النهر الصغير معروف عند العرب، ومنه قول الشاعر:

سهلُ الخليقةِ ماجدٌ ذو نائلٍ مثلُ السَّرِيِّ تمُدُّه الأنهارُ

كما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون]: أي وفَّرَنا لها أسباب الاستقرار، من هواءٍ وماءٍ وطعامٍ.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وهبها الله طعاماً طيباً، وشراباً طيباً، كرامةً لها يشهَدُها كلُّ من يراها، ويكون ذلك شاهداً بعصمتها وبراءتها مما يُظنُّ بها.

قال العلماء: ونُلاحظ أنَّ القرآن الكريم ذكر الماء أولاً فقال: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم]، ثم جاء بذكر الحاجة الثانية وهي الطعام، بعد ذكر الماء فقال: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم]، قالوا: لأنَّ الماء أولى من الطعام في احتياج الإنسان، ولكن عندما أمرَ بالانتفاع بهذه الحوائج قال: ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾، فبدأ بالطعام قبل الشراب، لماذا؟

والجواب: لأنَّ الإنسان في العادة يأكل أولاً ثم يشرب، فالماء مع كونه أهمَّ من الطعام إلا أنه يأتي في العادة بعد تناول الأكل.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُزِّىٓ ﴾، أي قَرِّبي وأَدْنِي، أي حَرِّكي جذع النخلة يدْنُ إليك ويَلنْ بعد اليبس ويُسقط عليك رُطباً.

والرُّطب: تمرٌ لم يتمَّ جفافه، وهو أشهى للنفس من التمر، إذ هو كالفاكهة، والتمر غذاء.

قال ابن عاشور: وفائدةُ قوله: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطباً ببركة تحريكها إياه، وتلك كرامةٌ أُخرى لها، ولترى آية في إحياء مواتِ الجذع.

قال القرطبي والآلوسي وغيرُهما: تدل الآية على أنَّ السعيَ في تحصيل الرزق مطلوب، وأنه لا يُنال في التواكل، ولهذا أمرها بالهزِّ، والله قادر على إجراء الآية بغيرِ هزٍ، ولأنَّ المُكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر الله عز وجل، مع علمه أنه لا يقع إلا ما شاء الله وقوعه، وما أجملَ قول القائل عند هذه الآية:

ألم تَـرَ أنَّ الله أوحـى لمريـم ... وهُزي إليكِ الجذعَ يَسَّاقطِ الرُّطب

ولو شاءَ أحنى الجذعَ من غيرِ هزِّها إليهـا ولكـن كل شيءٍ له سـبب
وقـد كان حُـبُّ الله أولى برزقِهـا كما كان حُبُّ الخَلْقِ أدعى إلى النصب

وفي أثر ورد عن ابن عباس قال: لم يكن للنخلة إلا الجذعُ، فلما هزتهُ إذ السَّعَفُ قد طَلَعَ، ثم نظرت إلى الطَلَعِ يخرج من بين السَعَفِ، ثم اخضرَّ فصارَ بلحاً، ثم احمرَّ فصارَ زهواً، ثم رُطباً، كل ذلك في طرفةِ عين، فجعل الرُّطب يقع بين يديها لا ينشدخُ منه شيء، ووصف الرُّطبَ بأنه «جَنِيّ»: أي الرُّطب الطري الساقط حديثاً، أي ليس من الرُّطب المخبوء من قبل، لانَّ الرُّطبَ متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيبَ طعماً.

ولذلك ورد عن «عباس بن الفضل» قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ قال: لم يَذْوِ، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ليس شيءٌ أجودَ للنُفساءِ من التمر والرُّطب ثم تلا الآية.

وورد عن الباقر قال: لم تستشفِ النُفساءُ بمثل الرُطبِ، إن الله أطعمهُ مريم في نِفاسها.

وقال أهل الطب: ما للنُفَساءِ خيرٌ من الرُّطب، ولا للمريض خيرٌ من العسل.

وقالوا: المرأة إذا عَسِرَ وِلادُها لم يكن لها خيرٌ من الرُّطب.

وقال الربيع بن خيثم: ما للنُفساءِ عندي خير من الرُّطب لهذه الآية، ولو عَلِمَ الله شيئاً هو أفضل من الرُّطب للنُفساءِ لأطعمهُ مريم.

وقالوا: صار إطعامُ التمر والتحنيكُ به عادةً للنُفساءِ والولدِ من ذلك الوقت.

هنا قد يقول قائل: لماذا أجرى الله لها الجدول بغير سعي منها، ولم يُعطها الرُّطبَ إلا بسعيٍ فقال: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم]؟

والجواب: إنَّ السُنَّةَ الكونية التي أجراها الله في الرُطب، أن يكون بأسباب العمل، كالغرس، والسقي، والتأبير..

أما الماء، فلم يجعل الله له سبباً أرضياً، بل هو هبةٌ سماويةٌ منه تعالى، ولذلك أجرى الله الجدولَ لمريم بلا سبب، ولا جُهد.

قال القرطبي: ثم أمرها الله أن تاكل من الجَنِيّ وتشربَ من السَّرْيِ، وأن تَقرَّ عيناً برؤية الولدِ النبيِّ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشۡرَبِى وَقَرِّى عَيۡنًا ۖ﴾.

وقُرَّةُ العين: تعني السرور والهناءةَ والأُنسَ بالطفل المولود الذي سيكون له شأن، وأي شأن؟!!

قال البروسوي: أي أبعدي وارفضي عن نفسك ما أحزنك، فإنَّ الله تعالى قد نزَّهَ ساحتك بالخوارق التي أوجدها لك من جَرْيِ النهر واخضرار النخلة وإثمارها، فإنَّ الناس إذا رأوا ذلك عندك لم يستبعدوا ولادة ولدٍ بلا رجل.

والعرب تستعمل «قرَّةَ العين» كناية عن السرور، ويُقابلها عندهم ضدها وهو «سُخْنَةُ العين» ويكنّى بها عن الحُزن والبُكاء الناتج عن الحُزن والأسف، ومن المعنى الأول قول امرأة فرعون ليسْلمَ موسى من القتل: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ [القصص ٩]، كما يُكنّون بالسخونةِ عن الحُزن ومنه:

أوْهِ أديمَ عِرْضِهِ واسخنِ بعينهِ بعد هجوعِ الأعيُنِ

ومن ورود هذا التعبير في الشرِّ والدعاء على إنسان، ما رويَ أنَّ أحد الخُلفاء دخلت عليه امرأة تطلب حاجةً فنهرها، فقالت له: «أتَمَّ الله عليك

نِعمتهُ، وأقَرَّ عينك»، فظنَّ بعضُ الحاضرين أنها تدعو له، لكنَّ الخليفة فَطِنَ لِمُرادها، فقال لجُلسائه: ما فهمتم ما تقول، إنها تقصِدُ: أتَمَّ الله عليكَ نعمتَهُ، أي أزالها، لأنه ليس بعد التمام إلا النُّقصان، والشاعر يقول:

إذا تم شيءٌ بدا نقصُه ... تَرَقَّب زوالاً إذا قيل تم

وقولها: «أقَرَ الله عينك»: أي أسكنها بالعمى، وما أجمل قول أبي تمام:

فأما عيونُ العاشقين فأسخَنَتْ ... وأما عيون الشامتين فقرَّتِ

وقد ورد عن عبد الرحمن بن زيد: أن عيسى لما قال لأمه: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، قالت: كيف لا أحزن، وأنت معي ولستُ زوجةً ولا مملوكةً، فما هو عُذري عند الناس، ليتني متُّ قبل هذا، فقال لها: أنا أكفيكِ الكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم].

قال ابن عاشور: هذا من بقية ما ناداها به عيسى، وهو وحيٌ من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل، تعليماً وتلقيناً لمريم لقطع المُجادلةِ والمُراجعة مع من يُريد أن يُناقشها ويُجادلها، فعلَّمها أن تنذُرَ صوماً يُقارِنُهُ انقطاعٌ عن الكلام، فتكونَ في عبادة وتستريح من سؤال السائلين، ومن مُجادلة الجاهلين.

قال القاسمي في قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾، أي: إنْ رأيتِ أحداً من هؤلاء المحجوبين الذين لا ينظرون إلا ظواهِرَ الأسباب، الذين لا يُصدقون حالك، ولا يفهمون قولك، وسألوكِ فقولي: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، وإنما أُمرت بذلك، كراهةَ مُجادلةِ السفهاء، والاكتفاءَ بكلام عيسى فإنه نَصٌّ قاطع في براءة ساحتها.

قال الزمخشري: في الآية دليل على أنَّ السكوت عن السفيه واجب، وأذلُّ الناس سفيهٌ لم يجد مُسافهاً، وسَوْرةُ السفيه تكسِرُها الحُلماء، والنارُ المُضطرمةُ يُطفئُها الماء، ويعني بذلك: أنَّ سوْرَةَ السفيه كالنار المُضطرمة، ولا يُطفئُها إلا الحِلمُ، كما لا يُطفئُ النار إلا الماء، والنارُ تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله.

ومن بلاغاته: ما قَدَعَ السفيهَ بمثل الإعراض، وما أطلقَ عنانه بمثل العِراض.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: كان الانقطاع عن الكلام نوعاً من أنواع العبادة في بعض الشرائع السالفة، وقد أَخَذَ به العرب في الجاهلية، كما يدل عليه حديث المرأة التي من «أُحْمُس»، حجّت مُصْمِتَةً، وجاء الإسلام فنسخه النبي ﷺ بالسُنَّةِ، ففي «الموطأ» أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال ﷺ: «ما بالُ هذا؟»، قالوا: نذرَ ألا يتكلمَ ولا يستظِلَّ من الشمس، ولا يجلس ويصومَ، فقال النبي ﷺ: «مُروهُ فليتكلم وليَستظلَّ، وليجلسَ وليُتِمَّ صومه»، وكان هذا الرجل يُدعى «أبا إسرائيل».

وورد عن الصدِّيق أنه دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلمَ، فقال لها: إنَّ الإسلامَ قد هدمَ هذا فتكلمي.

وقد حرَّمَ الإسلام كل نذرٍ ليس فيه قُربَةٌ لله تعالى، وحرَّمَ بعض أفعال أهل الجاهلية التي كانوا يفعلونها ويحسبون أنهم يتقربون بها إلى الله تعالى، فقد ورد عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ مَرَّ وهو يطوف بالكعبة بإنسانٍ ربط يده

إلى يد إنسانٍ آخر بخيط أو بسير من جلد، فقطعه النبي ﷺ ثم قال: «قُدهُ بيده».

وفي مسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي

ﷺ أدركَ رجلين وهما مُقترنان، فقال ﷺ: «ما بالُهما؟»، قالا: إنا نذرنا لنقترِننَّ حتى نأتيَ الكعبة، فقال ﷺ: «أطلِقا أنفُسَكُما، ليس هذا بنذر، إنما النذرُ ما يُبتغى به وجه الله تعالى».

وقد بقيَ الصمت عند النصارى معتبراً عبادةً، وهم يجعلونه تَرَحُّماً على الميت، حيثُ يقفون صامتين بُرهةً من الزمان.

قال البروسوي: وكان من عادة المجتهدين في بني إسرائيل أن يجمعَ بين الإمساك عن الطعام - الصوم - والإمساك عن الكلام حتى المساء.

قال ابن كثير: وعندنا يُكره للصائم صمتُ يومٍ إلى الليل، وعند غيرنا يجمعون صوماً وصمتاً.

والعاقل يرى أنَّ للصمتِ مكاناً، وللكلام مكاناً، ولذلك جاء في «أبكار الأذكار»: السكوت في وقتهِ صفةُ الرجال، كما أنَّ النُطقَ في موضعه من شريفِ الخِصالِ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، فجاء رجلان، فسلَّمَ أحدُهما ولم يُسلم الآخر، ثم جلسا، فقال القوم: ما لصاحبكَ لم يُسلِّمْ؟ فقال: إنه نَذَرَ صوماً لا يُكلم اليومَ إنسياً، فقال له ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: بئسَ ما قُلتَ، إنما كانت تلكَ المرأةُ قالت ذلك ليكونَ عُذراً لها إذا سُئِلت؛ لأنهم أنكروا ولداً بلا زوج، فكلِّمْ، وأمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المُنكر، فإنه خيرٌ لك.

وقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾: أي لن أُكلِّمَ أحداً من الناس.

والإنس: اسمُ جمعٍ لإنسان، والياء للنسبةِ، مثل: يا حَرَسيّ، لواحدٍ من الحرس، وكلمةُ إنسي، نكرةٌ في سياق النفي فتدل على العموم: أي لن أُكلِّمَ

أحداً.

هنا سؤال: لماذا عَدَلَ القرآن عن كلمة «أحداً» إلى كلمةِ «إنسياً»؟

والجواب: لمُراعاةِ الفاصلةِ التي هي الياء، قَصيّاً، مَنسيّاً، سَرِيّاً، جَنِيّاً.

قال العلماء: ولما تمَّ لها الأربعون اتجهت عائدةً إلى ديار قومها، وكان قومُها قد خرجوا في طلبها.

وقد أخرجَ ابن أبي حاتم عن «نوف البكالي»، أنَّ قومها خرجوا في طلبها فلقوا راعيَ غنم فسألوه: هل رأيتَ فتاةً كذا وكذا صفاتُها؟ قال: لا، ولكن رأيتُ نوراً سَطَعَ الليلة من هذه الجهة، فتوجهوا فاستقبلتهم مريم عائدةً وهي تحملُ وليدها.

قال الشنقيطي: لما اطمأنت مريم بسبب ما رأت من الخوارق، أتت إلى قومها حاملةً عيسى، وهي غيرُ مُكترثةٍ.

قال الكلبي: ولدت حيثُ لم يشعر بها قومُها، ومكثت أربعين يوماً للنفاس، ثم أتت به قومَها مُعلِنةً به، لأنها عَلمت أنَّ الله سيُبرِّئُها مما تُتَّهَمُ به، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ** ﴾[مريم ٢٧]، فبدلاً من أن تخجل وتَسْتَتِرَ بوليدها عن أعيُنِ الناس، إذا بها تحمِلُهُ، وتذهب به إلى قومها، وما كانت لتفعل ذلك إلا لِثقتها بأنَّ الحقَّ معها، وأنها بريئةٌ، ولذلك، لما سألَ بعضُ المستشرقين الشيخ «محمد عبده» رحمه الله تعالى لما كان في باريس: يا شيخ بأي وجهٍ قابلتْ عائشةُ قومها بعد حديث الإفك؟

سبحان الله يعلمون أنه إفكٌ وباطل ثم يُردِدونه كأنهم لا يفهمون، كما يقول الشعراوي رحمه الله تعالى.

وكان جواب الشيخ محمد عبده، قال: «بالوجه الذي قابلت به مريم

قومها وهي تحملُ وليدها»، أي بوجه الواثق من البراءة، المطمئنِّ إلى تأييد الله، ولذلك لما نزلت براءةُ عائشة في [سورة النور ١١]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴾، يأجُركم الله عليه، ويُظهِرُ براءة عائشة.

تقول عائشة: إنَّ الوحيَ نزل على رسول الله ﷺ فسكتنا عنه، وإني لأتبيَّنُ السرورَ في وجهه وهو يمسحُ جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك».

قالت: وكنتُ أشدَّ ما كنتُ غضباً، فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلتُ: لا والله لا أقومُ إليه ولا أحمَدُهُ، ولا أحمدُكما، ولكن أحمدُ الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما غَيَّرتُموه، ولا أنكرتموه. البخاري.

وقد أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور عن ابن عباس قال: وبعد أربعين يوماً حين طَهُرت في نِفاسها، وعَلِمت أنَّ الله سيُبرِّئُها حَنّتْ إلى وطنها، أتت به، فلما رأوْها بكَوا وحزنوا، وقالوا لها مُوَبِّخين ما ذكره الله تعالى: ﴿ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ ﴾ [مريم].

والفَرِيُّ: المقصود به، الأمر العظيم سواء كان هذا الأمر في الخير أم في الشرّ، فمِنْ ورودِهِ في الخير والإصلاحِ، قول القائل مادِحاً مسؤولاً:

فلأنتَ تفري ما خلقتَ   وبعض القومِ يخلُقُ ثم لا يفري

ومنه الحديث في وصف عمر رضي الله تعالى عنه: «فلم أرَ عبقرياً يفري فَرِيَّهُ».

ومنه قول زُرارَ يصف العامرية وأكلها العظيم من تمر امتلأ بالدود فقال:

قد أطعمتني دقلاً حوليّا

مُسَوِّساً مُدوِّداً حَجْريا[1]

قد كنتِ تفرين به الفريّا[2]

وكلامُهم لمريم: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾: المقصود به المُنكر العظيم، والمُختلق.

قال الأمين: يعنون به الزنى، ويدُلُّ على أنَّ مُرادهم هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء]: أي طبعَ الله على قلوبهم لكفرهم وقولهم، أي بادعائهم أنَّ عيسى مولودٌ من حرام، وحاشاها وحاشاهُ من ذلك.

قال السدّي: لما أتت به قومها تحمله، تسامَعَ بنو إسرائيل فاجتمعَ رجالُهم ونساؤهم، فمدَّتْ امرأةٌ يدها إلى مريم لتضربها، فيَبِسَ شطرُها، فحُمِلت إلى بيتها.

وقال آخر: ما أراها إلا قد زَنَتْ، فأخرسه الله تعالى، فخاف الناسُ أن يؤذوها، فألانوا لها الكلامَ وقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم].

وهارون هنا: ليس هارون أخا موسى، وإنما هو رجلٌ صالح من بني إسرائيل يُسمى «هارون»، يُنسب إليه كل من عُرِفَ بالصلاحِ، وكان عابداً صالحاً مُقدَّماً فيهم، وقد رُوِيَ عن بعض السلف أنه تَبِعَ جنازته يوم ماتَ أربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يُسمى هارون سِوى سائر الناس، كل

(١) حجريّا: اسم بلد في اليمامة.

(٢) الفريّا: أكلًا عظيمًا.

هؤلاء الأربعون ألفاً يَتبرَّكُون باسمه.

ويُؤيد هذا القول الذي عليه المحققون، ما رواه مسلم في حديث صحيح عن المغيرة بن شُعبة قال: لما قَدِمْتُ نجران - حين بعثه النبي ﷺ إلى أهلها - فسألوني قالوا: إنكم تقرؤون في القرآن: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا من السنين فكيف ذلك؟

قال: فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك فقال ﷺ: «إنهم كانوا يُسَمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»، وهذا الحديث قطعَ دابرَ كلِّ تفسير آخر.

قال الشنقيطي في «أضوائه»: والمُرادُ بكونها أُخته: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾، أنها تُشبِهُهُ في الصلاحِ والعبادة، وإطلاقُ اسم الأخ على المُشابه والنظير معروفٌ في القرآن وفي كلام العرب، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء ٢٧].

ومن كلام العرب:

وكلُّ أخٍ يُفارِقُهُ أخوهُ ... لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدان[1]

وقد يطلقون اسم الأخ على الصديق والصاحب، ومنه قول القلاح:

أخا الحربِ لبَّاساً إليها جلالَها ... وليسَ بِولَّاجِ الخوالِفِ أعقلا

ومنه قول الصدِّيق لزوجه: يا أخت بني فراس، ومنه قول مالك الفزاري:

يا أختَ خيرِ البَدوِ والحضارة ... كيف ترينَ في فتى فزارة

(١) الفرقدانُ: نجمان في السماء لا يغرُبان، قريبان من القطب.

والتقديرُ: يا أخت أفضل قبائل العرب من بدوها وحضرها.

فصار معنى الآية: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم]:

أي كان أبواكِ عفيفين لا يفعلان الفاحشةَ، فما لك أنت ترتكبينها؟ أي أتيتِ بأمرٍ ليس من شأنِ أبيها، وبسوءٍ وبغاءٍ ليس من شأنِ أمها، وهم أرادوا ذمَّها فأتوا بكلامٍ صريحُهُ ثناءٌ على أبويها، مُقتضٍ أنَّ شأنها أن تكون مثل أبويها.

قال الآلوسي: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الفروعَ غالباً ما تكون زاكيةً إذا زكتْ الأُصول، ويُنكر على الفروع إذا جاء منها عكس ذلك.

قال ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير: أنه لما كَثُرَ القيل والقال، فاتَّهم بعضُ الناس خطيبَها «يوسف النجار» بها، وقسمٌ اتّهم زكريا بها، فلما ضاقَ الحالُ وانحَصَرَ المجال، وامتنعَ المَقالُ، عَظُمَ التوكل على ذي الجلال، ولم يبقَ إلا الإخلاصُ والاتِّكالُ، عندها أشارت إليه، أي: خاطبوه وكلّموه، فإنَّ جوابكم عليه، وما تُريدون من الكلام لديه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ [مريم ٢٩]، أي أومأتْ إليه، والإشارة قد تكون باليد أو بالعين أو بالرأس، فعلموا بذلك أنها نذرت ألا تتكلم.

قال القرطبي: لما أشارت إليه قالوا: إنها تستخِفُّ بنا وتستهزئُ وإنَّ استخفافَها بنا أشدُّ علينا من زِناها.

وورد عن السَدّي قال: لما أشارت إليه أن كلِّموه، غضبوا غضباً شديداً وقالوا ما قصَّةُ القرآن [مريم]: ﴿ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ ﴾، أنكروا أن يُكلموا مَنْ ليس من شأنه أن يتكلم، وغضبوا وأنكروا منها أن تُحيلَهم على مُكالمته، أي كيف ننتظر منه الجواب، أو كيف نُلقي عليه

السؤال، وفي كلا الحالين يحتاجُ إلى الكلام وليس من شأنه أن يتكلم لأنه لا قُدرةَ له على فهم الخِطاب ورَدِّ الجواب، وما عهدنا فيما سلفَ صبياً رضيعاً موضوعاً في مكانٍ مُهَّدَ لنومه فيه.

قال الفخر الرازي: إنَّ عيسى كان يرضع، فلما سَمِعَ كلامهم ترك الرضاع، وأقبلَ عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليُمنى، وقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾، وهكذا استهلَّ كلامَهُ وابتدأهُ بإظهار عبوديته لله عز وجل، وَوَصْفُ عيسى نفسه بالعبودية لله تعالى ألقاهُ الله على لسان عيسى؛ لأنَّ الله عَلِمَ بأن قوماً سيقولون «إنه ابن الله»، فَنَزَّهَ جنابَ الله عن قول الظالمين.

وقد ذكر بعض أصحاب التاريخ، أنَّ زكريا كان موجوداً عند مُحاورة اليهود لها، فلما أشارت إلى عيسى أن كلموه، قال زكريا لعيسى عندما أشارت مريم إليه: «انطق بحجتِكَ إن كُنتَ قد أُمرتَ بها»، فقال عيسى عندها: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾.

قال الشنقيطي: وفي قول عيسى هذا وهو صبي في المهد أعظمُ الزجر للنصارى عن دعواهم أنه الله، أو ابنه، أو إلهٌ معه.

وهذه الكلمةُ التي نطقَ بها عيسى في أول كلامه لهم ذكرها ربُنا في عدة مواضع من كتابه العزيز، ففي [سورة آل عمران]: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة ١١٧].

قال الجُنيد في قوله: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾، أي لستُ عبدَ سوء ولا عبدَ طمع ولا عبدَ شهوة.

قال ابن كثير: ثم برَّأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون، وقذفوها به، ورموها

بسببه، وذلك قوله تعالى: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم]، فإنَّ الله عز وجل لا يُعطي النبوة شخصاً كما وصفوا.

وقد قال الله في افتراءات اليهود: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء]، فبرَّأها الله، واتّخذ ولدها نبياً مُرسلاً أحد أولي العزم الخمسةِ الكبار.

وقوله: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ﴾: عبَّرَ بالماضي عما سيقع في المستقبل لتحقُّقِ وقوع الأمر، أو أنَّ الله قدَّرَ أن يؤتيَني الكتاب، ونظائر ذلك في القرآن كثير، كقوله تعالى في [سورة النحل ١]: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ ﴾.

ومنه: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ [الزمر ٦٨].

والمُراد بـ ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: الشريعة التي من شأنها أن تُكتَبَ لئلا يقع فيها تغييرٌ، والمُراد بالكتاب «الإنجيل» وهو ما كُتِبَ من الوحي الذي خاطب الله به عيسى.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾: ارتقاءٌ في المراتب التي آتاه الله إياها، ثم تابع عيسى كلامه بقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم].

البركةُ: الخير واليُمن، والمُبارك: هو الذي تُقارِنُ البركةُ أحواله كلّها، من الأقوال والأفعال.

وقوله: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، أي لا تقتصر بركتُهُ على بلده، أو في مجمعِ قومه أو في الهيكل، بل حيثُ يَحِلُّ تَحِلُّ معه البركة.

قال ابن عاشور: في قوله: ﴿ مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، ذلك أن الله أرسله

رحمةً إلى بني إسرائيل ليُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق، بعد أن قست قلوبهم، وغيروا دينهم، فهذه أعظم بركة تُقارِنُهُ.

ومن بركته عليه الصلاة والسلام، أن جعل الله حُلوله في المكان سبباً لخير أهل ذلك المكان من خِصْبٍ واهتداءِ أهله، وتوفيقهم للخير، ولذلك كان إذا لَقِيَهُ الجَهَلَةُ والمُفسدون انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة، من هنا نرى أنَّ أكثر الحواريين كانوا من عامة الناس من صيادين وعشّارين، فصاروا دُعاةَ هُدىً، وفاضت ألسنتُهم بالحِكمة.

قال الشنقيطي في قوله: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾: أي كثيرَ البركات؛ لأنه يُعلِّمُ الخيرَ، ويدعو إلى الله، ويُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ ويُحيي الموتى بإذن الله.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أثرٌ يشرح فيه: ﴿ مُبَارَكًا ﴾، فقال ﷺ: «أي نَفَّاعاً حيثُ كنتُ».

قال التستري: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾: أي آمراً بالمعروف، ناهياً عن المُنكر، أُرشد الضالَّ، وأنصُرُ المظلموم، وأُغيثُ الملهوف.

وقد ورد عن قتادة، أنَّ امرأة رأتهُ - أي عيسى - وهو يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمهَ والأبرص، فقالت: طوبى لبطنٍ حملتكَ، وثديٍ أرضعك، فقال عيسى مُجيباً لها: طوبى لمن تلا كتاب الله، واتبعَ ما فيه، وعَمِلَ به ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم].

والوصيةُ والوصايةُ: الأمر المؤكد بعملٍ مستقبلٍ، أي قدَّرَ وصيتي بالصلاة والزكاة، أي أنْ يأمُرني بهما أمراً مؤكداً مُستمراً.

والمقصود بالصلاة والزكاة: ما شرعهُ الله من تكاليفَ في البدن والمال، أي أنَ الله تعالى أوصاني بهما، وبأدائهما وَقْتَ وُجوبهما عليَّ، وهو وقتُ البلوغ، وقوله: ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾: قال البروسوي: ناقلاً عن «بحر العلوم»: في الآية دلالة بيّنةٌ على أنَّ العبدَ لا تسقطُ عنه التكاليف في العبادات، فالقولُ بسقوطها كما نقل بعضُ الإباحيين كُفر وضلال.

وقال صاحب «التأويلات النجمية»: في الآية: ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾، إشارةٌ إلى أنه ما دامَ العبدُ حياً فلا بُدَّ من مُراقبةِ نفسه وتزكيتها، وإقامةِ العبودية لله تعالى، لأنَّ إقامةَ التكاليف عبوديةٌ شُرِعت لتزكيةِ النفس وللشكر، وكلا الأمرين لا يسقط ما دامَ العبدُ حياً بالغاً، فإذا تغيَّرَ حالُهُ بجنون فقد عُذِرَ.

وهذه الآية كقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]، لأنَّ العبادة تنقطع بالموت.

ثم يُتابع عيسى كلامه: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم].

و﴿ وَبَرًّا ﴾: أي بارّاً، وقد خَصَّهُ الله تعالى بذلك بين قومه؛ لأنَّ برَّ الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ، وبخاصة الوالدة لأنها تُستضعف، ولأنَّ فَرْطَ حنانها يُجرِّئُ الولدَ على التساهل في برِّها.

قال ابن عباس: لما قال: ﴿ بِوَٰلِدَتِي ﴾، ولم يقل بوالديَّ، عُلِمَ أنه مأمورٌ به من قِبَلِ الله تعالى، ولعدم وجود جهةٍ غيرها، وفيه إشارةٌ إلى براءتها، إذ لو كانت زانيةً لما أُمِرَ بتعظيمِها رسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام.

والجبارُ: المُتكبر الغليظ على الناس في مُعاملاتهم، و﴿ شَقِيًّا ﴾: خائباً من

الخير تصدر منه الأقوال والأفعال المُخالفةُ لشرع الله تعالى، فكان عيسى غايةً في التواضع، يأكل من الشجر ويلبس الشعر، ويجلس على التراب حيث جنَّهُ الليل، حيثُ لا مسكن له، وكان يقول: سلوني، فإني لينُ القلب، صغيرٌ في نفسي.

قال بعض أهل العلم: لا تجد العاقَّ إلا جباراً شقياً وتلا قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾، ولا تجدُ سيِّئ المَلَكَةِ - الضبع - إلا مُختالاً فخوراً، وفي الأثر: «لا يدخل الجنة سيِّئُ المَلَكَةِ»، وهو الشقي العاصي، ثم تابع عيسى الطفل كلامه: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم].

قال العلماءُ: هناك أحداثٌ ثلاثة هامة في حياة الإنسان: يوم مولده، ويوم وفاته، ويوم بعثه يوم القيامة، فما هو وجه السلامةِ في هذه الأحداث الثلاثة بالنسبةِ لعيسى عليه الصلاة والسلام؟

والجواب: أما يوم مولده، فقد مَرَّ بسلام عليه وعلى أمه رُغْمَ أنه من غير أب، فلم يتعرض لأذى أحدٍ عندها، وسَلِمَ من طعن الشيطان، وأما يوم موته: ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾، فقد أُخِذَ ليُصلبَ فنجاه الله من أيدي أعدائه، وألقى شبهَهُ على من وشى به، ورُفِعَ إلى السماء، و ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾: أي يوم القيامة، وفيه رَدٌّ على اليهود الذين شتموه في الأحوال الثلاثة، فقالوا: وُلِدَ من زنىً ومات مصلوباً، ويُحشر مع الملاحدةِ والكفَرةِ، لأنهم يزعمون أنه كَفَرَ بأحكام التوراة، وحاشاهُ عليه السلام.

وفي وقوله: ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾، تنويه بكرامته عند الله، وأنه محل العناية، وسيُسأل يوم القيامة أسألة أُريدَ بها توبيخُ من اتخذوه وأمَّه إلهين من دون الله، وذلك ما ورد في [سورة المائدة]: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ

لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

فبهذه الآيات بُرِّئَت ساحتُهُ، وَوُبِّخَ من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.

قال العلماء: لما قال ما قال في المهد من قوله: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم]، لم يتكلم بعدها بشيء حتى بلغ سِنَّ التكلُّم.

قال الكلبي: ثم انقطع كلامه في المهد حتى بَلَغَ مبلَغَ من يتكلم من الغِلمان.

قال المؤرخون: وكانت ولادة عيسى في زمن الملك «أغسطس» ملكُ روميَّةَ، وكان «هيرودوس» هو حاكم القدس من جهة الملك الروماني، وذلك سنة (٦٢٠) قبل الهجرة النبوية المحمدية.

ثم قال الله عز وجل مُبيناً أنَّ ما أخبرتُكم عن عيسى وعن صفاته هو القول الحق الذي لا باطل فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم].

قال ابن عاشور: وفي هذا ردٌّ على اليهود والنصارى جميعاً، إذ أنزله اليهود إلى الحضيض، ورفعهُ النصارى إلى مقام الإلهية، وكِلاهُما مُخطئٌ مُبطلٌ، فاليهود

قالوا: إنه ابن فجور، وكلامُهُ من السحر، وأنَّ الشياطين تكلموا على لسانه، وقال النصارى: إنه الإله أو ابن الإله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، الامتراء: الشك، أي كان اعتقادهم به مبنيّاً على الشك والخطأ، وهذا الشك الذي وقع فيه الكفار هو الذي نهى الله المسلمين عنه على لسان نبينا محمد ﷺ إذ قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران]، والخِطاب لهذه الأمة.

قال العلماء: ولما وقع الشكُّ عندهم، وبَنَوْا اعتقادهم على الخطأ، اختلفوا وتفرقوا، وذلك قوله تعالى كما سيأتي معنا في [مريم]: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن كثير: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد وضوح حاله، وأنه عبدُ الله ورسوله، فصمَّمت طائفةٌ منهم وهم جمهور اليهود على أنه ولدُ زنيّةٍ، وقالوا: كلامه في المهد سحر، وانقسمت النصارى في أمره انقساماً كبيراً، فقالت طائفة: هو ابن الله، وقالت ثالثة: هو ثالث ثلاثة، وقالت رابعة: هو عبد الله ورسوله، وهذا هو الحق.

قال الصاوي: اجتمعَ بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفرٍ، مع كلِ قومٍ عالمُهم، فتجادلوا في شأن عيسى حين رُفِعَ:

فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض، فأحيا مَنْ أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية «الأرثودوكس».

فقال الثلاثة: كذبت.

ثم قالت اثنتان منهم للثالث: قُلْ فيه، قال: هو ابن الله، وهم «النسطورية»،

فقال الاثنان: كذبت.

ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، قال: إنه ثالثُ ثلاثة، وهم «الملكانيةُ»، وهم ملوك النصارى، أو «الإسرائيلية»، وهم الكاثوليك اليوم.

فقال الرابع كذبت: بل هو عبد الله ورسوله وكلمَتُهُ، وهم المسلمون.

قال العلماء: وكان لكل فريق أتباع، فاقتتلوا، وظهروا على المسلمين وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ ﴾ [آل عمران].

وهذه الفرقة الأخيرة القليلة التي اضطهدها الكفرةُ، انقسمت عند بعثة النبي ﷺ إلى فرقتين، فرقة لم تتبع النبي محمداً ﷺ فكفرت، وفرقةٌ اتبعوه، منهم الذين يُؤْتَوْنَ أُجورهم مرتين، وهؤلاء هم الذين ذُكِروا في [سورة المائدة]: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ ﴾.

وذكرت الآية المشركين مع اليهود؛ لأنَّ الفريقين اجتمعَ على عداوة المسلمين، فألَّفَ بُغضُ الإسلام بين اليهود والمشركين.

فاليهود كان عداؤهم للإسلام حسداً لمجيء النبوة الخاتمة من غيرهم، والمشركون حسداً للمسلمين لسبقهم إلى الدين الحق ونبذ الباطل.

ثم ذكرت الآية النصارى فقالت: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ [المائدة ٨٢]، وهذه الآية تعني جماعةً مُعينة من النصارى، كانوا ثمانية من نصارى الشام، وكانوا في بلاد الحبشة النصرانية أيام النجاشي حيث هاجر المسلمون إلى الحبشة.

ولما عاد المهاجرون المسلمون إلى المدينة سنة (٧) للهجرة عاد معهم هؤلاء الثمانية من نصارى الشام وهم: «بحيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثُمامة، وقثم، ودريد، وأيمن»، وهؤلاء يُحسنون العربية، فنزلوا إلى المدينة لفهم القرآن عند سماعه، ونزل معهم من الحبشة اثنان وستون راهباً من الحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا، فأشارت الآية إليهم تذكيراً بفضلهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ [المائدة ٨٢].

قال: هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة.

وورد عن سعيد بن جبير: هم رُسُل النجاشي، لما أتوا رسول الله ﷺ، دخلوا عليه فقرأ عليهم، فبكوا حين سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة].

والقسيسون: العلماء في دين النصرانية، والرهبان: المُتعبدون، فهؤلاء يقبلون الحق ولا يستكبرون عنه، فهم مُتواضعون بخلاف اليهود.

وقوله: ﴿ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾: أي تمتلئُ فتفيضُ؛ لأنَّ الفيضَ لا يكون

إلا بعد امتلاء، ومنه قول امرئ القيس:

ففاضت دموع العين مني صبابةً على النحر حتى بلَّ دمعي مِحْمَلي

وقولهم: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أي بعدما سمعوا القرآن وتأثروا به وبكوا من أجل معرفتهم للحق، عندها سألوا الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين ليكونوا معهم في الجنة، والشاهدون هم الذين شهدوا لله تعالى بالوحدانية، ولأنبيائه بالرسالة، وصدَّقوا رسوله فأطاعوه.

وفي الصحيح من حديث عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شَهِدَ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمَتُهُ ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وأنَّ الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

طفولة عيسى:

قال صاحب كتاب «قصص القرآن» لجاد المولى ورفاقه: أقامت مريم في قريتها تُعنى بطفلها، وتُربي وليدها قريرة العين مُنشرحةَ الصدر لأنها تعلم أنَّ الله سيكلؤه.

نشأ عيسى كما ينشأ الأطفال، إلا أنه قد ظهرت بوادر فضله، فهو إذ يلعب مع أقرانه كان يُنبئُهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

قال سعيد بن جبير: كان عيسى إذا كان في المكتب يُخبرهم بما يأكلون، ويقول للغلام: يا غلام إنَّ أهلك قد هيؤوا لك كذا وكذا من الطعام فتُطعمُني منه، وهو في ذهابه إلى مُعلم القرية «الكُتّاب» يجلس إلى المُعلم ولا يسلُكُ سبيل أنداده، بل تراهُ يستمع إلى حديث المُعلم في اهتمام، ويُصغي إليه بشوقٍ ولهفةٍ، ثم هو لا يُعلمهُ المُعلم شيئاً إلا بَدَرَهُ إليه، وسَاءَلهُ عنه، فلا تنبو عن

ذهنه مسألةٌ، ثم ينتقل من القرية إلى بيت المقدس، وهو في الثانية عشرة من عمره، فلا تفتنه المظاهر الخلابة، ولم تُلْهِه هذه المدينة بزيفها، بل ألقى بنفسه في ميدان العلم يرتوي من منهله، ويُلازم حلقةَ الدرس يُصغي لمن اتخذوا لأنفسهم سمتَ العُلماء، وهم يُزخرفون للناس أحاديثهم، فانبرى يُناقش الكهنةَ، وانبرى من بين الطلاب مُتسائلاً ومُجادلاً بالحق، فضاقَ به العُلماء وأنَّبوه، إذ لم يجترئ أحدٌ من قبل على جِدالهم، ولم يُقدم سامعٌ على البحث في أقوالهم.

والحقيقة أنَّ الأحبار والكهنة توجسوا منه خيفةً منذ سمعوا كلامه في المهد.

يقول صاحب كتاب «أنبياء الله»: لم يكد عيسى ينتهي من كلامه في المهد حتى كان وجوه الأحبار والرهبان ممتَقِعة وشاحبة، كانوا يشهدون معجزة أمامهم مباشرة، طفل يتكلم في المهد، طفل جاء بلا أب، طفل يقول: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم]، فما معنى ذلك؟

معناه: أنه سيُقيم الدين الحق وأنَّ سلطانهم سينهار، وكان الفراق بين الديانة اليهودية التي جاء بها موسى وما عليه هؤلاء الكهنة كبيراً، ولذلك كتموا ميلاده وكتموا كلامه في المهد، واتهموا مريم بالفاحشة، ونسبوا كلامه إلى السحر، وأسدلوا الستار على القصة.

ويروي صاحب كتاب «قصص القرآن» أحمد جاد المولى: أنَّ عيسى كان من حرصه على مُناقشة الكُهان ينسى طعامه وشرابه، بل نسي رجوعه إلى البيت أحياناً، ففي ليلة انتظرت أمه أَوْبَتَهُ إلى البيت فلم يعد، وفتَّشت عنه في الأماكن التي من الممكن أن يتواجد فيها فلم تجده، وبينما هي تبحثُ عنه وقع بصرها عليه وهو مندمج في زمرة العلماء، يُكثر معهم الحِوار، ويتطاول

عليهم في الجِدال، فدُهِشت لما رأت منه، وساءلتهُ عن سبب غيابه عنها، وكيف تعبت في السؤال عنه، فأجابها بأنه استهوتهُ مُناقشة العلماء، ثم سار مع أمه التي عادت به من القدس إلى الناصرة البلدة التي نشأ بها.

قال العلماء: ومع ذلك فقد تسربت أنباء عيسى إلى الحاكم «هيرودوس» والذي كان كلباً من كلاب روما المُخلصين، يحكم اليهود في القدس والفلسطينيين بالسيف والرعب والدماء، والجواسيس.

وذكر صاحب «البحر المحيط»: أن هيرودوس حاكم القدس عَزَمَ على قتل عيسى عليه السلام، ففرت به أمه خارج البلاد، ولكن إلى أين هربت به؟

قال ابن جرير: هربت به إلى مصر، وهذا قول ابن زيد رحمه الله تعالى، وقال زيد بن أسلم: هربت به إلى الإسكندرية.

قال ابن كثير: ورد عن ابن عباس قوله: وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله تعالى، ففشى ذلك في اليهود، وهَمَّتْ به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه، فألهمها الله أن تنطلق به إلى أرض مصر، وقد حصل له في مصر بعض الكرامات حال صِغره، فمن هذه الكرامات: أنهم نزلوا في دار «دِهْقانٍ»، وكانت هذه الدار لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء، وسُرِقَ مال من عند الدهقان، ولم يدرِ من أخذه، وشقَّ ذلك على الناس وعلى رب المنزل، وعَزَّ على مريم كذلك، فلما رآى عيسى ذلك عَمَدَ إلى رجل أعمى، وآخر مُقعد من جملة من هو مُنقطعٌ إليه، فقال عيسى للأعمى: احمل هذا المُقعد وانهض به، فقال الأعمى: لا أستطيع ذلك، فقال عيسى عليه السلام: بلى تستطيع كما فعلت أنت وهو حين أخذتُما المال من تلكَ الكوة من الدار، فلما قال عيسى ذلك صدَّقاه فيما قال، وأتيا بالمال، فَعَظُمَ عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً.

وعَمِلَ الدهقانُ وليمةً للناس بسبب ختان أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم وأرادوا تقديم الخمور بعدها على حسب عاداتهم، لم يجدوا في الجرار خمراً، فقام عيسى فمرَّ على تلك الجِرار ووضع يده فيها فامتلأت الجِرارُ شراباً من خِيار الشراب، فتعجب الناس من ذلك وعرضوا عليه مالاً كثيراً فلم يقبل، وكان يأكل هو وأمه بما تكسبه الأم من الغزل، فقد ورد عن «السُّبيعي أبي إسحق» عن أبي ميسرةَ، عمرو بن شُرحبيل قال: كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه.

قال القرطبي: كان أول نزول عيسى وأمه في «بئر البلسان» من أرض مصر التي بظاهر القاهرة بضاحية المطرية، وغسلت مريم ثيابه في ذلك البئر، ومن هذه البلدة يخرج «دهن البلسان» الذي يخلطه النصارى مع الزيت الخاص بالتعميد.

ولذلك كان للقارورة الواحدة من هذا الدُهن قيمةٌ عظيمة، وكان ملوك القسطنطينية وصقلية والحبشة والنوبة وملوك الفرنجة عندما يتهادون مع ملوك مصر، كان ملوك مصر يُقدمون لهم «دُهن البلسان» فيقعُ منهم موقعاً عظيماً جليلاً، وتكون هذه الهدية أحَبَّ إليهم من كل هدية لها قَدْرٌ.

وفي تلك السفرة وصل عيسى إلى بلدة «الأشمونين» إحدى قُرى مركز «ملَّوي»، وإلى «قسقسام»، وهي «القوصية» إحدى قُرى مركز «منفلوط» المعروفة الآن «بالمحرقة»، وتُسمى اليوم «بالدير المُحرَّق»، والنصارى يُعظمون هذه المدينة إلى الآن، ويحضرون إليها في كل عيد فصح من كل مكان؛ لأنها نهايةُ ما وصل إليها المسيح من أرض مصر، ومنها عاد إلى الشام

وقد روى إسحق بن بشر عن وهب قال: إن عيسى لما أتَمَّ الثالثة عشرة من عمره، رجعت به أمه إلى بيت المقدس، وأقام بها، وظهرَ على يده كثيرٌ من

الكرامات في مصر كما ذكرنا.

وقد ذكر المؤرخ «عبد الوهاب النجار» في كتابه «قصص الأنبياء»، أنَّ مريم وولدها لما نزل في بئر البلسان استظلا بشجرة هناك بضاحية المطرية، واحتفظ الناس بهذه وأصلها مُدةً طويلة، وكانوا يُسمونها «شجرة العذراء»، ويذهب الناس لزيارتها هناك.

قال صاحب «روح البيان»: سكنت مريم مع عيسى في مصر، حتى مات «هيرودوس»، وتولى مكانه «الخيلاوس بن هيرودوس» ملكاً على القدس، رجعت إلى الشام.

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: ظهرت على عيسى بوادر الفضل، ومظاهر النبوة منذ طفولته.

وقال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لما عاد عيسى مع أمه من مصر، وصل إلى الجليل، وأقام في الناصرة لخوف أمه عليه، ثم ذهبت به أمه إلى «أورشليم»، إلى بيت المقدس ليسجد هناك لله تعالى حسب الشريعة الموسوية المكتوبة في التوراة، وبعد الصلاة افتقدته أمه فلم تجده، وبحثت عنه فوجدته في حلقةٍ من حلقات كبار العلماء، فعنَّفتهُ لما أتعبها البحث عنه، فأجابها كما يروي صاحب كتاب «النبوة والأنبياء»: «ألا تعلمين أنَّ خدمةَ الله يجب أن تُقدم على الأم والأب»، قال: ثم عاد معها إلى الناصرة، وكان يُطيعُها بتواضع واحترام.

وقال صاحب «روح البيان» البروسوي: أنَّ عيسى تواصلت معه الكرامات وهو صغير بعد عودته من مصر والله أعلم، وذكر قصة حصلت لعيسى في هذا الباب من الكرامات، وذكر: أنَّ أمه ذهبت به إلى «صباغ» وطلبت منه أن يُعلمه شيئاً من هذه الصنعة، فأخذه الصباغُ، ثم سأله: ما اسمك يا غلام؟ فقال له: عيسى بن مريم، فقال له: خذ هذه الجرة واملأ

هذه النقائر من هذا النهر، ففعل، ثم أعطاه الصباغ الثياب وقال له: ضع كل لون مع ثيابه في نقير، ثم تركه وانصرف إلى منزله، فأخذ عيسى الثياب جميعاً ووضعها في نقيرٍ واحد ووضع عليها الأصباغ جُملةُ واحده ثم عاد إلى أمه.

وأتى من الغد ليجد الصباغ وقد استشاط غضباً، وصرخ في وجه عيسى: أتلفتني واتلفتَ الثياب للناس؟!! فقال عيسى له: ما دينك؟ قال: يهودي، فقال له: قل لا إله إلا الله وأني عيسى روح الله، ثم أدخل يدك في هذا النقير وأخرج كل ثوب على اللون الذي يُريده صاحبه، فهدى الله الصباغَ ففعل، فكان الأمر كما قال عيسى، والعجيب أنَّ المؤرخين والأناجيل جميعاً لم تذكر لنا الفترة التي قضاها عيسى منذ بلغ الثانية عشرة، بعد رجوعه من مصر وحتى سن الثلاثين شيئاً عن حياته عليه السلام وهذه المُدة تُقارب سبعة عشر عاماً، وهذا ما دفع الدكتور «عبد الوهاب النجار» صاحب كتاب «قصص الأنبياء» إلى القول: نُفوض أمر العلم بحال عيسى في هذه الفترة إلى الله تعالى، ثم يقول: ولكن لا نشك أنَّ نشأته كانت نشأةً لا غبار عليها – لما علمنا من طفولته – كانت نشأةً محمودةً كان عيسى فيها حريصاً على الدين، غيوراً عليه، يُريد أن يفهمَ حُكمَ الدين وأسراره، فكان يُجالس العلماء، فالبيئة التي تمرَّسَ بها بيئة علم وحكمة ودين، وإلى هذا أشار قوله تعالى مُشيراً إلى البشارة به وبصفاته: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران].

قال الرازي: في هذه الآية أربعة أمور قد عطف بعضُها على بعض، ثم قال: والمُراد بالكتاب: تعليم الخط والكتابة، ولذلك نُقِلَ عن بعض المفسرين قولهم «أُثِرَ عن عيسى عليه السلام أنَّ تسعة أعشار جمال الخط كان في يده»، فالمقصود هنا: هو القُدرة على الكتابة.

قال البروسوي: كان أحسن الناس خطاً في زمانه، وقد يُراد بالكتاب اسم جنس للكُتب المتقدمة: «كزبور داوود وصحف إبراهيم».

والمُراد بـ «الحِكمة»: تهذيب الأخلاق لأنَّ كمال الإنسان أن يعرف الحق والخير ليعمل بهما، والحِكمةُ هي مجموع العلم والعمل مع الفهم.

و «التوراة»: هو كتاب موسى، فقد كان عيسى عالماً به يُبين أسراره لقومه، ويُقيم عليهم الحُجَجَ بنصوصه، ومعنى «التوراة» بالعبرانية: الشريعة والهدى والنور والضياء، والتوراة عند اليهود مؤلفة من خمسة أسفار:

سفر التكوين: ويتكلم على بدء الخليقة، وأخبار بعض الأنبياء.

سفر الخروج.

وسفر اللاويين، أو الأخبار.

وسفر العدد.

وسفر تثنية الاشتراع، ويُسمى «التثنية» فقط.

والنصارى: يُطلقون لفظ التوراة على جميع الكتب التي يُسمونها «العهد القديم»، وهي كتب الأنبياء، وتاريخ القُضاة الذين حكموا بني إسرائيل، وأخبار ملوكهم قبل المسيح، ومنها ما لا يعرفون كاتبه.

وقوله: ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: وهو اسم الكتاب الذي أُنزل على عيسى عليه السلام، واللفظ يوناني الأصل ومعناه: البشارةُ، أو الخبر الطيب أو التعليم الجديد، ويُطلق عند النصارى على أربعة كتب تُعرف بـ «الأناجيل الأربعة»، ويُضيفون إليها كتاباً يُسمونه «أعمال الرُّسل» وهم الحواريون، ورسائل أُخرى لبولس وبطرس ويعقوب ورؤيا يوحنا.

والأناجيل الأربعة: عبارة عن كتب وجيزة في سيرة المسيح عليه السلام، وليس لها سند مُتصل عند أهلها، بل هم مختلفون في تاريخ كتابتها على تسعة أقوال.

وكيف كان ذلك التعليم؟

قالوا: كان ذلك إلهاماً، لتطييب قلب أمه وإزاحة الهَمِّ عنها من كونه خُلِقَ بلا أب، ولذلك ورد عن «الضحاك» عن ابن عباس: أن أمه لما أسلمتهُ للكُتَّاب كان يسأل المُعلم عن أشياء لا يُجيب عنها المُعلم ببنت شفةٍ، مما يدل على أنَّ علمه كان «محض موهبةٍ ربانية، وعطيةٍ إلهية»، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ ﴾ [المائدة ١١٠].

وقد ذكرنا أنَّ الفترة ما بين بلوغه الثالثة عشرة إلى سن الثلاثين لم يذكر عنها المؤرخون شيئاً، واستعرضنا أنَّ الدكتور «عبد الوهاب النجار» قال: نُفوض أمر العلم بحال عيسى مدة السبعة عشرة عاماً إلى الله».

رسالة عيسى عليه السلام:

قال العلماء: كلما مرت الأيام كان يتعلّق قلب عيسى بالخلوة، وتميل نفسه للبُعد عن الناس، فعزَمَ على أن يتعبد في الخلاء، وكأنه بذلك يُعِدُّ نفسه لأمر عظيم ينتظره.

وهذه المقولة نقلها الدكتور «محمد السيد الوكيل» في كتابه «نظرات في أحسن القصص»، ونسبها إلى المؤرخ «ابن الأثير» ج ١ ص ٣١٤ «الكامل».

ويُتابع المؤرخ ابن الأثير قوله، فيقول: فلما بلغ الثلاثين من عمره أوحى

الله إليه أن يبرُزَ للناس، ويدعوَهم إلى الله تعالى، ويُداوي المرضى والزُمنى والأكمه والأبرص وغيرهم من المرضى، ففعل ما أُمِرَ به، وأحبه الناس، وكَثُرَ أتباعه وعلا ذكره.

وقد ذكر القرآن الكريم رسالة عيسى إلى بني إسرائيل في سورة آل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران].

ومعنى: ﴿ جِئْتُكُم ﴾: أي أُرسلت إليكم من جانب الله، ويُشبه هذا المعنى قوله تعالى في [سورة الزخرف ٦٣]: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾، قال ابن كثير: أي النبوة.

وقوله: ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: أي بعلامة تدل على صدقي بأني رسول من الله إلى بني إسرائيل، فالرسول المُدَّعي للرسالة لا بُدَّ وأن يُقدم بين يدي دعواهُ مُعجزةً تُثبتُ أنه رسولٌ من الله.

والآية: هي الأمر العجيب الذي خرجَ عن القوانين والنواميس الكونية لتُثبتَ صدق الرسول في التبليغ عن الله.

فائدة المعجزة: أنها تُفحم المُنْكِرَ وتُسكِتُهُ؛ لأنه لا يستطيع أن يأتيَ بمثلها، والله عز وجل، حين يُعطي معجزةً لرسول يتحدى بها من أُرسِلَ إليهم، فإنما يُؤيده بمعجزةٍ في شيء قد نبغَ فيه القوم المبعوث إليهم، لماذا؟ لأنَّ الحق لو جاءهم بشيء لم يعرفوه فقد يقولون: إن هذا الأمر لا نعرفه، ولم نُرَوِّض أنفُسنا عليه، ولو تدرّبنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله، مثال ذلك:

موسى عليه السلام أُرسِلَ إلى قوم كانوا نابغين في السحر، فكانت معجزةُ موسى تُشبه السحر في رأي المُنكرين، ولكنها في الحقيقة مُعجزةٌ

وليست سحراً، لأنَّ موسى لما ألقاها خاف منها، ولو كانت من جنس السحر لما أوجسَ في نفسه خيفة ولما قال له الله عز وجل: ﴿ **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴿٢١﴾ ﴾ [طه].

والساحر عندما يُلقي العصا لا يخاف منها لأنه يعلم أنها عصا، ويراها غيرُهُ حية.

ثم ذكر الله عز وجل أنواعَ مُعجزات عيسى فقال: ﴿ **أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [آل عمران ٤٩].

وكذلك نقرأ في [سورة البقرة ٨٧] أنَ الله قد منَّ على عيسى بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات، وبتأييد جبريل له، قال تعالى: ﴿ **وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ** ﴾.

قال القرطبي: أيدناه بروح القدس، وهو جبريل، ومنه قول حسان شاعر النبي ﷺ:

وجبريل رسولُ الله فينا ... وروحُ القدس ليس به خَفاءُ

وقوله: ﴿ **أَنِّيٓ أَخْلُقُ** ﴾: أي أُشكّل وأُقدّر، ومنه: خلق الأديمَ، أي تقديره بحسْبِ ما يُراد من قِطعِهِ قبل قطعِ القطعةِ منه، قال زهير:

ولأنتَ تفري ما خلقتَ ... وبعض القوم يخلقُ ثم لا يفري

أي أُقدر لكم من الطين كهيئة الطير، وليس المُراد به خلق الحيوان بدليل قوله: ﴿ **فَأَنفُخُ فِيهِ** ﴾: والعرب تقول: خَلقَ النعلَ: إذا قدَّرها وسواها بالقياس، ويقولون: فُلان خليقٌ بكذا، أي له ذلك المقدار من الخير.

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: خرج عيسى تنفيذاً لأمر الله، يدعو الناس إلى توحيده، وإخلاص العبادة له عز وجل، ودخل قريةً فوجد الناس مشغولين بالدنيا، لا همَّ لهم إلا جمعَها، فصعد إلى مكان مرتفع ونادى: يا بني إسرائيل، يا بني إسرائيل، واجتمع الناس حول هذا الداعي، يُصغون إلى قوله، فدعاهم إلى الله قائلاً: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة].

فسأله الحاضرون: مَنْ أنت؟

قال: إني رسول الله إليكم.

قالوا: وما أدرانا أنك رسول الله؟

قال: قد جئتكم بمعجزةٍ من ربكم.

قالوا: وما هي؟

قال: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران ٤٩].

قال: وأخذ عيسى قطعة من الطين، وصوَّرها في صورة طير، ثم نفخ فيها فَسَرَتْ فيها الروح، وطارت في السماء، وأخذ الناس ينظرون إليها في دهشة وحيرة.

ولكن سُرعان ما نفخ الشيطان في عقولهم، وهَمَسَ بعضهم يقول: إنه سحر مبين، وانفضَّ عنه الناس، وانصرف هو عنهم كذلك وهو حزين، ولكنه صمَّمَ على مُعاودة الكرة، وعزَمَ على التذرُّع بالصبر، فالصبر نِعْمَ المُعين في مثل هذه المواقف.

وقوله: ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، لإظهار العبودية، ولبيان أنَّ الإحياء من الله لا منه، وحتى لا يتوهم أحدٌ المُشاركة في خلق الكائنات.

قال الرازي: كان الله يخلقُ الحياة في جسم الطائر بقدرته عز وجل عند نفخة عيسى على سبيل إظهار المعجزة؛ لأنه تعالى هو خالق الموت والحياة، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ [الملك]، وقال عز وجل حاكياً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظرَ الملك: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة ٢٥٨].

ثم إنَّ في النفخ سراً آخر، وهو أنَّ عيسى عليه السلام تولَّدَ من نفخة جبريل في كُمِّ درعِ مريم.

فلا عَجَبَ إذا كانت نفخَتُهُ سبباً لوجود الروح والحياة في الجمادات المُصورة على هيئة الحيوان.

فالنفخ – في مريم – من جبريل، والخلقُ من الله.

والنفخُ هنا – من عيسى –، والخلقُ من الله.

قال الدكتور «محمد سيد الوكيل» في كتابه «نظرات في أحسن القصص»: عَزَمَ عيسى على مواجهة الباطل بالحق الذي بعثه الله به، فخرج من بيته بعد أن ودَّعَ أمه، واتجه نحو شاطئ بُحيرة طبرية، وذلك وقت أن مالت الشمس إلى الغروب، وازدحَمَ شاطئ البُحيرة بالصيادين وغيرهم، فقام عيسى يعظ الناس ويدعوهم إلى الله تعالى، وكان للموعظةِ أثرٌ كبيرٌ في نفوس السامعين لما في قلب الواعظِ من إخلاص وصدق، وكان أكثر الناس تأثُراً بموعظةِ عيسى رجلان من الصيادين، فقد أحسَّ هذان الرجلان بأن شيئاً جديداً دخل قلبيهما، إنه نور الحق والهِداية، فسارا في أثره وتبعاهُ، فسألهُما: ماذا

تطلبان؟ فلم يُجيبا عن السؤال، وسألاه أين تسكن؟ ولما لم يكن لعيسى مكان يأوي إليه قال لهما: تعالا وانظرا، كما قال صاحب كتاب «المسيح» ص٧١.

قال ابن الأثير: ودعا عيسى هذين الصيادين، ووعظهما وشعر الرجلان بسعادة غامرةٍ لم يشعُرا من قبل بمثلها، وأخذا على عاتقهما دعوة من يعرفون من أصدقائهم لاتباع عيسى، وقد استطاع هذان الرجلان أن يجمعا حولهما عشرةً من الرجال، فكان عددهم اثني عشرَ رجلاً، وكلهم من الصيادين، وكانوا هم الحواريين.

عيسى يعظ في حرم بيت المقدس:

قال العلماء: لما جاء موسم الحج، انتهزَ عيسى هذه الفرصةَ ليعظ الناس، والحج دائماً يكون موسماً وفُرصةً للدُعاة حتى يُذكروا الناس.

دخل عيسى الحرم، فسمعَ ضوضاء وجلبةً، ونظر حوله، فإذا بقرٌ تخور وغنم تثغو، وحمامٌ يهدل، وأصواتٌ بلغات مختلفة ترتفع وتنخفض، واختلطت تراتيل الأحبار بأصوات الباعة الجشعين الذين اتخذوا من المسجد المقدس سوقاً يبيعون فيه للحُجاج ما يحتاجون إليه.

رأى عيسى هذه المناظرَ، وعزَّ عليه أن يكون بيتُ الله سوقاً، تحت سمعِ وبصر الأحبار والكُهان ولم يحركوا ساكناً، فعزمَ على تطهير المسجد الشريف من كل ما يُعَدُّ مُخالفاً لقُدسيته.

فحملَ سوطاً وراح يضرب الثيران والغنم، حتى أخرجها من المسجد، وكذلك طرد أصحاب الحمام، ثم ذهب إلى أماكن الصيارفة تحت القِباب، وقلب عليهم موائدهم، فانشغلوا بجمع ما تبعثرَ منها، واجتمع الناس مبهورين لهذا العمل الذي كانوا ينتظرونه أن يصدر من الرُّهبان والأحبار

الذين سكتوا عما يجري في الحرم القدسي - وهم حُراسه - مقابِلَ دراهم معدودات من هؤلاء التجار والباعة.

حقد هؤلاء الأحبار والرهبان على عيسى عليه السلام لما رأوا من التفاف الناس حوله.

دخل عيسى بعد ذلك المسجد، ودخل معه ناسٌ كثيرٌ ممن أُعجبوا بعمله وشجاعته في مقاومة الباطل، ثم انتهزَ فُرصة اجتماع الناس فَوَعظهم وكان مما قال:

تبارك اسم الله القدوس، الذي خلق الخلقَ ليُمجِّدوه.

تبارك اسم الله القدوس، الذي خلق الملائكة ليعبدوه.

وتبارك الله الذي خذلَ الشيطان وأتباعه - من كتاب المسيح عيسى ص٧٧-.

وانتقدَ عيسى جهل الكهنة، وجهلَ الكتبةِ ووبَّخَ الجميع لسوء تصرفهم في معاملة الناس، وتهاونهم في تقديس الحرم وتطهيره للعابدين.

اتهم المسيح الأحبار بالرياء و الجهل، وبيَّنَ أنهم يعملون للحصول على الدنيا، وأنهم يُجهدون العامة بالأوامر الباطلة، والأوامر الفاسدة، التي تحرمُهم من العيش الطيب، ليبتزوا بها أموالهم، ويأخذوا اللُّقمة من أفواههم.

قال المؤرخون: دعا رجل من أهل الشريعة - الأحبار - عيسى للعشاء ليُجربه، وحضر عيسى ومعه تلامذته، وجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم، فدعا الكتبةَ المسيح قائلين: لماذا لا يحفظُ تلاميذك تقاليد شيوخنا لعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزاً؟

وأجاب المسيح: وأنا أسألكم لماذا أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم،

تقولون لأولاد الفقراء: قدّموا وانذروا نُذوراً للهيكل، وإنكم أيها الكذابون المُراؤون تفعلون ذلك لتملؤوا كيسكم، ولذلك تعشرون السَّذَاب والنعنع، ما أشقاكم لأنكم تظهرون للناس أشهرَ الطرق وضوحاً، وأنتم لا تسيرون فيها.

أيها الكتبة والفقهاء: إنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالاً لا يُطاق حملُها، ولكنكم أنفسكم لا تُحركونها بإحدى أصابعكم «برنابا الفصل ٣٢».

قال أحد الفقهاء لعيسى: يا معلم، لقد تكلمت كثيراً عن عبادة الأصنام، كأن عند شعب إسرائيل أصناماً، وعليه فقد أسأت إلينا، فأجاب المسيح: أعلمُ جيداً أنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب في إسرائيل، ولكن توجد تماثيل من جسد، فقال الكتبة بغضب - بحنق -: أنحنُ إذن عبدةُ أصنام؟ أجاب عيسى: الحقَ أقول لكم، لا تقولُ الشريعة: اعبُدْ، بل أحبَّ الربَّ إلهكَ بكل نفسك، وبكل قلبك، وبكل عقلك، ثم قال: إن كل ما يُحبه الإنسان، ويترك لأجله كلَّ شيء سواه فهو إلهُهُ، وهكذا فإنَّ صنمَ الزاني الزانيةُ، وصنمَ السكير والنَّهِم جسدُهُ، وصنمَ الطماع الفضة والذهب، وقِسْ عليه كل شيء خاطئ آخر - برنابا ٣٣-.

واتهم الكتبة والفريسين بالعناية بالمظهر، وإهمال المَخْبر، واتهمهم بتزيين ظاهرهم، وتخريب باطنهم، وشبههم بالقبور المصبوغة بالطلاء الجذاب، ومن داخلها مملوءة بعظام الموتى، فقال: ويلكم أيها الكتبة الفَريسيُّون المُراؤون، لأنكم تُنقُّون خارج الكأس والصفحة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارةً، أيها الفريسي الأعمى: نَقِّ أولاً داخل الكأس لكَي يكون خارجُها نقياً.

وقد رُوِيَ عن «الفُضيل بن عياض» قال: قيل لعيسى بن مريم: يا عيسى

بأي شيء تمشي على الماء؟

قال: بالإيمان واليقين.

قالوا: فإنا آمنا كما آمنت، وأيقنا كما أيقنت.

قال: فامشوا إذاً.

قال: فمشوا معه في الموج فغرقوا، فقال لهم عيسى: مالكم؟

قالوا: خفنا الموج.

قال: ألا خِفتم ربَّ الموج، فأخرجهم، ثم ضرب بيده إلى الأرض فَقَبَضَ بها، ثم بسطها، فإذا في إحدى يده ذهبٌ، وفي الأُخرى مَدَرٌ وحصىً، فقال: أيُهما أحلى في قلوبكم؟

قالوا: هذا الذهب، قال: فإنه عندي سواء، «نقل ذلك الوكيل عن ابن كثير».

وروى أبو مصعب عن مالك: قال عيسى عليه السلام: لا تُكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوَ قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيدٌ من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا فيها كأنكم عبيدٌ، فإنما الناس رَجُلان: مُعافى ومُبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وعن ابن عمر قال: قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحقٍّ ما أقول لكم: إنَّ حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإنَّ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإنَّ عباد الله ليسوا بالمُتنعمين.

بحقٍّ ما أقول لكم: إنَّ شركم عالمٌ يُؤثر هواه على علمه، يودُّ أنَّ الناس كلهم مثله.

منهج رسالة ودعوة عيسى عليه السلام:

من هنا نستطيع أن نُدرك منهجَ رسالته ودعوته؛ فهذا المنهج يحتوي على أربعة عناصر رئيسية:

١) الإيمان العميق بالله الواحد الأحد.

٢) تصحيح المفاهيم الخاطئة التي كانت عند الكهنة والكُتاب.

٣) توطيد أواصر المحبة بين المؤمنين، وتقوية الرابطة الإيمانية بينهم.

٤) الزُهد في حرام الدنيا، والتطلع إلى نعيم الآخرة «التربية الروحية».

الأساس الأول: الدعوة إلى التوحيد:

هي دعوة كل الرُسل، فما من رسول إلا قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون ٢٣]، والغاية من ذلك تحرير القلب من الانشغال بغير الله، وأنه يجب تقديم حب الله على كل شهوة، وبخاصة حب المال، لأنَّ المالَ أحب شيء إلى النفس البشرية ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر].

فالمُراد «باللمّ»: الجمعُ من حلال وحرام، وما يُحمد وما لا يُحمد، ومنه قول النابغة:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلُمّه ... على شعثٍ أيُّ الرجالِ المُهذب

ومن ذلك قول الحطيئة:

إذا كان لمّاً يتبع الذم ربّه ... فلا قدَّسَ الرحمن تلك الطواحنا

يخاطب بذلك أهل الجاهلية الذين كانوا يأكلون نصيب الصغار والنساء من الميراث، ويقولون: لا يرثُ إلا من يحمي الحوزة، مع علمهم بأنَّ شريعة إسماعيل كانت على نقيض ما يعملونه.

وقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: أي كثيراً مع حرصٍ وشرهٍ، ومنه قول أمية:

إن تغفرِ اللَّهمَّ تغفر جَمَّا   وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمّا

وكذلك كان دعوة المسيح عيسى عليه السلام، واسمع ماذا يقول لتعلم أنَّ المصدرَ واحدٌ: لا يقدرُ أحدٌ أن يخدمَ سيدين؛ لأنه إما أن يُبغض الواحد ويحب الآخر، أو يُلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. - المسيح عيسى بن مريم ص ٩٥.

الأساس الثاني: تصحيح المفاهيم الخاطئة:

وهذه القضية هي مهمة الرسل والدعاة والمصلحين في كل عصر.

والخطأُ في فهم الحقائق بلاءٌ بعامةٍ أُصيبت به كل الأديان، وكلُّ الحركات الإصلاحيةَ التي قامت للانتصار للأديان، ولكن هل لهذا سبب؟

والجواب: نعم، والسبب إما أن يكون من جهلِ المنتسبين إلى هذا الدين، أو للحركة الإصلاحية.

وإما أن يكون السببُ في تغيير الحقائق الرغبةَ من القائمين على هذا العمل أن يستغلوا الدين لمآرب شخصيةٍ، ومنافعَ ماديةٍ تعود عليهم من وراء تغيير الحقائق الصحيحة إلى مفاهيم خاطئة.

وقد كان هذان السببان مجتمعين وراء انحراف الرهبان والأحبار، أو قل: الكتبةِ والفقهاء عن المفاهيم الصحيحة، وتبني المفاهيم الخاطئة.

قال المؤرخون: وكانت أولُ خطيئة زَيَّنُوها للناس، أي زينها الكتبةُ والفريسيون للناس، ودسُّوها للناس دَسّاً في دين الله وليس لها أصلٌ في شريعة موسى، هي أنهم أوهموا الناس أنَّ اليهود هم شعب الله المختار، وغيرُهم من الشعوب إنما هم منبوذون.

فجاء عيسى ليقول لهم: لُعِنَ اللسانُ الذي نطق بهذا، واليدُ التي سطَّرته، لأن هذا إنما هو اعتقادُ الشيطان. - كتاب المسيح عيسى عن برنابا ص ٩٠.

يقول صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: وقد بذل عيسى عليه السلام جهداً عظيماً لإقناع الناس بأنَّ الشعب المختار إنما يكون مُختاراً بطاعته لله، واتباعه لرسالته، وإن الشعب المنبوذ إنما يكون منبوذاً بمعصيته وتمرُّده على رسالة السماء.

ويقول السيد الوكيل: إنَّ الخطأ في فهم هذه القاعدة يؤدي إلى تفرقةٍ بين الشعوب، وإلى غطرسةٍ يُصاب بها الإسرائيلي، وأنه فوقَ شعوب الدنيا لكونه إسرائيلياً، وأنه مهما أخطأ فهو شعبُ الله المُدللُ الذي لا يؤاخذ بخطيئة، ولا يُعذَّبُ بذنب، وهذا وحده كاف لإذكاء نار الحروب والخصومات في كل مكان يدخلونه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدعوى اليهودية وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناؤه وأحباؤه، فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ** ﴾ [المائدة ١٨].

معجزات عيسى عليه السلام:

يقول محمد السيد الوكيل: كان هناك مفاهيمُ خاطئة كثيرة، فهمها

الناسُ خطأً لتلاعُبِ الأحبار بها، استغلالاً لسذاجة الناس، وطمعاً في ابتزاز أموالهم، ومن ذلك: ما كان يقوله هؤلاء الكهنة للناس، أنَّ الأبرص – المريض بالبرص – لا يبرأ من برصه إلا بطقوس ورسوم تتم على يد الكاهن، وبدون هذه الطقوس يظل هذا الأبرصُ مهما برئ نجساً حتى يُطهره الكاهنُ، فكان الكاهن يأتي الأبرصَ – في غير محلِّ سكنه – ويذبحُ عصفوراً حياً على ماءٍ في وعاءٍ من خزف، ويأخذ خشبَ أرْزٍ وقُرمُزاً وعصفوراً آخر حياً ويغمسُها في الدم، ويرُش المُتطهر من البرص سبع مرات، ثم يُطلق العصفور الحي، ويُعلن طهارة الأبرص، فيغتسل المُتطهر، ويحلق كل شعره، ويُقيم سبعة أيام خارج داره، وفي اليوم السابع يأتي بخروفين، ويذبحهما، أحدُهما ذبيحةُ إثم، والآخر ذبيحة خطيئةٍ، ويُقدم نعجةً للمحرقة، ويأتي بدقيق وزيت، فيأخذُ الكاهن من دم ذبيحة الإثم والزيت ويدهن شحمة أُذنِ المُتطهر اليُمنى وإبهام يده، وإبهام رجله اليُمنى، ويصب الزيت على رأسه ويُعلن طهارته.

ما أشبه هذا بما يفعله المُشعوذون الآن لابتزاز أموال الناس والاستيلاء على أموال السُّذَّج.

إنَّ البرصَ مرض مثلُ كل الأمراض، وليس هناك مرضٌ ينجُسُ به المريض حتى يحتاج إلى تطهير، ولكنه التحايُل على أخذ أموال الناس.

من أجل هذا: أعلن عيسى أنَّ الذي يشفي هو الله، فكان من مُعجزاته إبراءُ الأكمه والأبرص، وأعلن أمام الملأ أنه إنما يفعل ذلك كله بإذن الله، قال تعالى: ﴿ **أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ** ﴾ [آل عمران ٤٩].

المعجزة الأولى: النفخ في الطين الذي على هيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله:

وقد ورد عند المؤرخين: أنَّ عيسى لما أظهر المُعجزات تَعَنَّتوا، وطالبوه قائلين له: اخلق لنا خُفاشاً - أي صَوِّرهُ من الطين - واجعل فيه روحاً إن كنتَ صادقاً في مقالتك.

قالوا: فأخذ عسيى طيناً وصوَّرَهُ، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض.

وقد ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال لهم عيسى: ماذا تُريدون؟

قالوا: الخُفاش، قال أبو سعيد: سألوه عن أعقد الطير خلقاً.

هنا سؤال: لماذا طلبوا الخُفاش على الخصوص؟

قال العلماء: لأنَّ فيه من عجائب الخلق أموراً كثيرةً.

فمن عجائبه: أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ولذلك قالوا:

وطائرٌ أشرَفُ ذو جُردةٍ   وطائرٌ ليس له وكرُ

ويلدُ كما يلدُ الحيوان، ولا يبيض كما تبيض الطيور، ويكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يُبْصر في ضوء النهار ولا في ظُلمة الليل، وإنما يُبصر في ساعتين: ساعةٍ بعد غروب الشمس، وساعةٍ بعد طلوع الفجر قبل أن يُسفِرَ جداً، ولهذا قال أبو الشمقمق:

أنا بالأهوازِ محزون   وبالبصرة داري
في بني سعدٍ، وسعدٌ   حيثُ أهلي وقراري
صرتُ كالخفاشِ لا   أُبصِرُ في ضوءِ النهارِ

هذا الطائر: يضحك كما يضحك الإنسان، ويحيضُ كما تحيضُ المرأة،

والخُفاش يُعمّر أكثر من النسر والفيل والأُسود والعُقاب، وأحياناً تَتَّئِمُ أُنثاه، فإذا أتأمتْ حملت ولديها، فإذا كان الولدان كبيرين عاقبت بينهما.

أحبُّ شيء إليه أكلُ الرُمان، يأكل الرمانةَ ويترك قِشرها، وهو يأكل البعوض، يتحرك لاصطياد البعوض بعد غياب الشمس عند تحرك البعوض يتحرك الخُفاش، يخرج هذا طالباً رزقه، وهذا طالباً رزقه، فيقعُ طالبُ الرزقِ على طالبِ الرزقِ، فيصير ذلك هو رزقه، ومن فوائده:

أنَّ دماغه إن مُسِحَ بالأخمصين هيَّجَ الغريزة.

وإن أُحرق واكتُحِلَ به قلع البياض من العين.

وإن طُلِيَ به على العانات منع ظهور الشعر.

وإن مُسِحَ به على بطن المُعسرة في الولادة ولدت في ساعتها.

قال الرازي: ثم تأتي المُعجزات الأُخرى، بعد المعجزة الأولى التي ذكرناها وهي: النفخ في الطين الذي على هيئة الطير، فيكون طيراً بإذن الله.

المعجزة الثانية والثالثة: إبراءُ الأكمهِ والأبرصِ:

والأكمهُ: هو المولود أعمى، أي لم يحدث له العمى بعد ميلاده.

قال ابن فارس: الكَمَهُ: العمى يولد به الإنسان، وقد يكون العمى عارضاً بعد الولادة، من ذلك قول القائل:

كَمِهت عيناهُ لما ابيضتا — فهو يلحى نفسه لما نزع[1]

وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء أنَّ الأكمه: هو الممسوح العين الذي لم يُشَقَّ بصره، ولم يُخلق له حدقة، ولم يكن في صدر هذه الأمة بهذا الوصف إلا

---

(١) أي عَمِيَتا.

رجل واحد وهو: «قتادة بن دُعامة السَدوسي» صاحب التفسير.

وقوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران ٤٩].

والأبرص: هو المُصاب بالبرص، وهو داءٌ جلدي، كما قال ابن عاشور له مظاهر مُتنوعة: منها الخفيف، ومنها القوي، وأعراضه بُقع بيضاءُ شديدةُ البياض تظهر في الجلد، فإذا كانت غائرةً في الجلد فهو «البرص».

وإن كانت مساوية لسطح الجلد فهو «البَّهَقُ»، ثم تنتشر على سطح الجلد، فرُبما عَمَّتْ الجلد كله حتى يصير أبيض، ولذلك سُمِيَ القمر «الأبرصَ»، و«سام أبرص» حيوان معروف.

قال ابن عاشور: وأسباب البرص مجهولة ويأتي بالوراثة وهو غير مُعدٍ، ويكثر في الأماكن التي تقل فيها النظافة، وكان العرب واليونانيون والعبرانيون يطلقون البرص على مرض آخر يكون مُقدمةً لمرض الجُذام، فكانوا يتشاءمون من البرص إذا بدت أعراضه على واحد منهم.

وكان ملوك العرب لا يكلمون الأبرص إلا من وراء حجاب، كما وقع في قصة الشاعر: «الحارث بن حلّزة» حين وَفَدَ على الملك «عمرو بن هند» حيث رفض الملكُ أن يكلمه إلا من وراء حجاب بسبب إصابته بالبرص.

وقد وصفَ الوحيَ لموسى المرض وطُرُقَ علاجه، ليُعلّم ذلك للكهنة، وكان المُصاب به يُعزل عن القوم.

ثم قال ابن عاشور: ولهذا كان إعجاز المسيح بإبراء الأبرص أهم المُعجزات فائدةً عندهم ديناً ودنيا.

وقد ذكر الفقهاء المسلمون البرص في عيوب الزوجين الموجبة للخيار.

وذكر البروسوي في «تفسيره»: أنهم أتوا لعيسى بأكمه، وأتوا له بأبرص

قد غُرِزتْ الإبر في جلده، فلم يخرج الدم، وهذا دليلٌ على تمكن الداء منه، قالوا: فدعا عيسى لهما، ثم مسحَ بيده بعد الدعاء فقاما سليمين مُعافيين، فآمن به البعض، وقال الآخرون: هذا سحر.

قد يقول قائل: لماذا تعرّضَ عيسى لهذين المرضين؟

والجواب: لأنهما كانا من الأمراض المُستعصية في ذلك العصر، ولذلك ورد عن - جالينوس - قوله: إذا وُلِدَ الإنسان أعمى فإنه لا يبرأُ بالعلاج، وكذلك الأبرص المُستحكم فيه البرص.

وقد ذكر القاسمي: أنَّ عيسى عليه السلام، ردَّ بصرَ أعميين في «كفر ناحوم»، وأعمى في «بيت صيدا»، وردَّ بصرَ رجلٍ وُلِدَ أعمى في «أورشليم»، وشفى عشرةَ مُصابين بالبرص في «السامرة»، وأبرأ البرصَ في «كفر ناحوم».

كان عيسى يُبرئ بالكلمة والدعوة، ومهما تقدم العلم فلن يستطيع أن يُبرئ بالكلمة والدعوة.

المُعجزة الرابعة: إحياء الموتى:

ثم يُضيف الحق عز وجل قول عيسى: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران ٤٩].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان إحياء عيسى للأموات، إما بالنداء، وإما باللَّمس.

وقال الكلبي: كان عيسى إذا أراد إحياء الموتى قال: «يا حَيُّ يا قيوم».

قال العلماء: وكان أول ما أحيى من الموتى - كما ذكر ابن كثير - أنه مَرَّ ذات يوم على امرأة قاعدةٍ عند قبر وهي تبكي، فقال لها: ما لك؟ فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولدٌ غيرُها، وإنما عاهدتُ ربي ألا أبرحَ من موضعي

هذا حتى أذوقَ ما ذاقت من الموت، أو يُحييها الله لي، فأنظر إليها، فقال لها عيسى: أرأيتِ لو نظرت إليها أراجعةٌ أنت؟ فقالت: نعم، قالوا: فقام فصلى ركعتين، ثم جاء فجلس عند القبر، فنادى: يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي، قال: فتحرك القبر، ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة، فخرجت وهي تنفُضُ التُّرابَ عن رأسها.

فقال لها عيسى: ما أبطأ بكِ عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحةُ الأولى بعث الله مَلَكاً فركَّبَ خلقي، ثم جاءتني الصيحةُ الثانية فرُدَّت إليَّ روحي، ثم جاءتني الصيحة فخفتُ أنها صيحةُ القيامة فشابَ رأسي وحاجِباي وأشفارُ عينيَّ من مخافةِ القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه، ما حملكِ على أن أذوقَ كرْبَ الموت مرتين، يا أُماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روح الله وكلمتَهُ سَلْ ربي أن يرُدني إلى الآخرة وأن يُهوِّنَ عليَّ كربَ الموت، فدعا الله فقبضها إليه، ثم استوت الأرض عليها، فبلغَ ذلك اليهود فاستشاطوا غضباً.

وقد ذكر الآلوسي أثراً عن ابن عباس قال: قد أحيا عيسى عليه السلام أربعةَ أنفس: ابن العجوز، وعازر، وابنةَ العاشر، وسام ابن نوح.

قال الصاوي: أما ابن العجوز فقد أحياه عيسى بإذن الله وهو محمول على أعناق الرجال، فقام فلبسَ ثيابه وعاد إلى أهله.

وأما عازر: فقد كان صديقاً لعيسى، فأرسلت أُخت عازر إلى عيسى أنَّ أخاك عازر في النزع، وكان بينه وبين عازر مسيرةُ أيام، فأتى عيسى مع أصحابه إليه، فوجدوه قد مات، فقال عيسى لأخته: انطلقي بنا إلى القبر، فانطلقت معهم إلى قبره، فدعا عيسى الله تعالى، فقام عازر وجسمه يقطُر عرقاً، وخرج من قبره.

وأما ابنة العاشر: فكان والدُها عَشَّاراً، ماتت من مرض، فجاء عيسى بعد يوم من موتها، فدعا الله فأحياها.

قال القرطبي: لما رأوا إحياءه لبنت العاشر، وكان قد مضى على موتها يوم واحد، قالوا: إنك تُحيي من كان موته قريباً، فلعلهم لم يموتوا، وإنما أُصيبوا بسكتةٍ، فأحي لنا «سام بن نوح»، فقال لهم عيسى دُلوني على قبره، فخرج وخرج الناس معه حتى انتهى إلى قبره، فدعا الله فخرج من قبره وقد شابَ رأسه.

فقال له عيسى: كيف شابَ رأسك ولم يكن في زمانكم شيب؟

فقال: يا روح الله: دعوتني فسمعتُ صوتاً يقول: أَجِبْ روح الله، فظننتُ أنَّ القيامة قد قامت، فمن هَوْلِ ذلك شابَ رأسي، فسأله عيسى عن النزع فقال: يا روح الله، إنَّ مرارة النزعِ لم تذهب عن حُنجرتي، وكانت المسافة الزمنية بينهما أكثر من أربعة آلاف سنة، كما قال القرطبي، ثم قال سام ابن نوح للناس: صَدِّقوه فإنه نبي، فآمن البعض وكفر الأكثرون، وقالوا: إنه سحر.

وقد ذكر الآلوسي: أن سام بن نوح قال لعيسى عندما خرج من القبر: أقامت الساعة؟ قال عيسى: لا، ولكن دعوتُكَ باسم الله الأعظم، ثم قال له عيسى: مُتْ، قال سام: ادعُ الله أن يُجنِّبني سكرات الموت، قال: ففعل عيسى.

قال الآلوسي صاحب تفسير «روح المعاني»: كان عيسى يُداويهم بالدعاء إلى الله، وشرط عليهم الإيمان، وكان من دُعائه الذي يدعو به للمرضى، والزمنى، والعُميان، وغيرهم:

اللهم أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك،

وأنت جبار من في السماء، وجبار من في الأرض، لا جبار فيهما غيرك، وأنت ملكُ من في السماء، وملكُ من في الأرض، ولا مَلِكَ فيهما غيرك، قُدرتُكَ في الأرض كَقُدرتِكَ في السماء، وسُلطانك في الأرض كسُلطانك في السماء، أسألُكَ باسمك الكريم، ووجهك المُنير، ومُلكِكَ القديم، إنك على كل شيء قدير.

قال العلماء: ومن فوائد هذا الدعاء أنه إذا قُرئ على الخائف والفزع نفعه بإذن الله تعالى.

قال العلماء: ومسألةُ إحياء الموتى لم يأخُذها عيسى على إطلاقها فيُحيي كلَّ ميت، إنما قام بها في عيّنات ووحداتٍ تُثبِت صدقَ الآية.

قال القرطبي: لما رأى الناس إحياء الموتى، قال الأكثرون: إنه سحر وطالبوه بمعجزة أُخرى.

المعجزة الخامسة: إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم:

قال القرطبي: لما رأوا إحياء الموتى، قال الأكثرون: هذا سحر،فطالبوه بآية أُخرى، وقالوا: أخبرنا بما نأكل في بيوتنا، وبما ندَّخره إلى الغد وما بعد الغد؟

فكان يُخبرهم بما أكلوا قبل السؤال، وبما يأكلون بعدُ، وبما يدَّخرون إلى الغد، فيزداد المؤمنون إيماناً، ويزداد المنافقون والكافرون شكاً وكُفراناً، وهذه المعجزة الخامسة.

لذلك قال العلماء: إنَّ إبراء الأكمه والأبرص وغيرهما، كانت أموراً عامةً يراها الجميع، أما الإخبار بألوان الطعام التي يأكُلها كلُّ إنسان فهي قضية خاصةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الناس يأكل أكلاً مُعيناً، فيقول له عيسى:

ماذا أكل، وليس من المعقول أنَّ عيسى قد دخل كل بيت فعرفَ ما يأكلون وما يدَّخرون، والادخار بخاصة يوضح بجلاء أنَّ هذا الإخبار آيةٌ ممن يعلم مُغَيبات الأمور، من الله عز وجل، ولذلك كان عيسى يقول بعدها: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران].

قال الآلوسي: وخُصَّ لهذين الأمرين - الأكل والادخار - لأنَّ الإنسان إما يكون غالبَ سعيه لتحصيل الطعام الذي به قُوامه، والادخار الذي يسكن به قلبه ويطمئن.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: أي إن كنتم تريدون الإيمان، فهذه الخوارق آية عظيمة لكم تدل عليه، أما إذا أردتم المُكابرةَ فذلك شأنٌ آخر.

ماذا كان ردُّهم على هذه المعجزات؟

والجواب: كان ردُّهم على الآيات والبينات قبيحاً، إذ حاولوا إهانته والإساءة إليه، ولكن الله تعالى حفظه وكَفَّ أيديهم عنه، وإلى هذه النعمةِ العظيمة أشارت الآية: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة].

قال ابن عاشور في هذه الآية: وكَفُّ الله بني إسرائيل عن أذى عيسى، وحفظُه منهم من أعظم النِّعم «وهي عصمتُهُ من الإهانة»، فقد كَفَّ الله عز وجل عن عيسى ظلم بني إسرائيل، وضررهم له حتى أدى الرسالة، وأدى أركانها الأربعة التي ذكرناها سابقاً.

من الإيمان العميق بوحدانية الله عز وجل، ثم تصحيح المفاهيم الخاطئة،

ثم قال: بتوطيد أواصر المحبة والتعاون بين المؤمنين بالتسامح، ثم حرصه على التربية الروحية، وربط المؤمنين برضوان الله والجنة، فصغَّرَ في أعيُنهم كنوز الدنيا الآيلة إلى الزوال، وحفظُ الله له وهو بين ظهرانيهم يدعو إلى الدين مع قلة أنصاره، ومع حقدهم الشديد مُعجزةٌ، فقد صرفهم الله عنه حتى أدى الرسالة ثم حفظه الله كذلك عندما أجمعوا أمرهم على قتله، بأن رفعه الله إليه، ولم يظفروا به، وماتت نفوسهم بغيظها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يدل على أنَّ مُدةَ الحفظ والتي دامت سنين، كانت كُلُّها في المدة التي ظهرت فيها معجزاته بينهم إلى حين رُفعَ، ثم انتبه إلى قوله تعالى مُشيراً إلى اتهام الكافرين لعيسى بالسحر، لماذا اتهموه بذلك؟

والجواب: أرادوا من وراء اتهامهم له بالسحر قتله؛ لأنَّ حكم الساحر في شريعة اليهود القتل «إذ السحر عندهم كفر»، لأنَّ الذين يتعاطون السحر عَبَدَةُ الأصنام يومئذ، لذلك نجد التوراة قد قرنت السحر، وعرّافَةَ الجانِّ بالشرك، كما جاء في «سفر اللاويين».

قال البروسوي في وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١١٠﴾ [المائدة].

قال: ردّوا رسالة عيسى وأنكروها، فبقوا على مرض الكفر، ولم يُعالجوا بعلاج الإيمان على يد الحكيم الإلهي الحاذق.

وجميل أن نأتيَ بقصة حصلت للشبلي في أيام الوزير «علي بن عيسى».

قال البروسوي: حُكي أنَّ الشيخ الشبلي اعتلَّ، فحُمِلَ إلى البيمارستان، وكتب الوزير علي بن عيسى إلى الخليفة «المقتدر» يخبره بمرض الشيخ الشبلي،

فأرسل الخليفة مُقدم الأطباء ليُداويه، فما نجحت المُداواة، فقال الطبيب للشيخ: والله لو علمتُ أنَّ مُداواتك في قطعة لحم من جسدي ما ترددتُ في ذلك، فقال الشيخ للطبيب - وكان نصرانياً -: دوائي في أقل من ذلك وأيسر، قال الطبيب: وما هو، قال: بقطعِكَ الزُّنار، فقال الطبيب: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فأُخبر الخليفة بذلك فبكى وقال: نفذنا طبيباً إلى مريض، وما علمنا أنا نفذنا مريضاً إلى طبيب.

قال اليافعي عند ذكر هذه القصة: هذا هو الطبيب الحاذق، وحكمَتُهُ من الحكمة التي بها العلل تزول، وفي ذلك أقول:

إذا ما طبيبُ القلب أصبح جسمه　　عليلاً فمن ذا للطبيبِ طبيبُ
فقل: هم أُولو علمٍ لَدُنّيٍّ وحكمةٍ　　إلهيـةٍ يَشفى بـذاك قلوب

والشبلي عالم عامِلٌ كان في أيام المقتدر العباسي، وكان الخليفة يُجِلُّهُ، كان مُحباً لله بكّاءً في ظُلَمِ الليل، سأله مرة تلميذ له اسمه «بكيرا» قال: يا أستاذ أين أبغيه؟ فقال الشيخ الشبلي له: ثَكلتك أمك، وهل يُبغى من يأخذ السموات على إصبع والأرضين على إصبع، فيهُزُّهما ويقول: أنا الملكُ أين الملوك؟ ثم قال: إن الله لم يحتجبْ عن خلقه، وإنما الخلقُ احتجبوا عنه بحب الدنيا.

ومن شعره الجميل الذي كان «الجُنيد» يقترح على المُنشدين أن يقولوه، ما نقله الشبلي «بندار بن الحسين»:

فلـو أنَّ لي في كل يـومٍ وليلـةٍ　　ثمانـينَ بحـراً مـن دمـوعٍ تَدَفَّـقُ
لأفنيتُهـا حتـى ابتـدأتُ بغيرهـا　　وهـذا قليـلٌ للفتى حين يعشـقُ
أهيـمُ بـه حتـى المماتِ بشـقوتي　　وحولي من الحب المُبَرِّحِ خندقُ
وفوقي سحابٌ تُمطِرُ الشوقَ والهوى　　وتحتـي عيـونٌ للهـوى تتدَفَّـقُ

قال العلماء: والله عز وجل عندما يأمر عيسى بذكر هذه النِعَم التي أنعمها عليه بقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ [المائدة ١١٠]، فليس معنى ذلك أن عيسى لم يكن ذاكراً لهذه النعَمِ، لا، وإنما أمره الله بذكر هذه النعَمِ لأمرين:

الأول: ليُبيِّن للأُمم ما خَصَّهُما به – لعيسى ولأمه – من الكرامة.

الثاني: ليرُدَّ على الجاحدين لرسالته، ويُؤكد صدقه.

الحواريون:

قال ابن كثير: ومن جُملةِ نِعَمِ الله على عبده ورسوله – عيسى بن مريم – أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكون إيمان الحواريين نعمةً لعيسى، لأنهم حملوا تعاليمه، فحصَلَ له عليه الصلاة والسلام من الثواب والأجر المُتجدد بتَجَدُّدِ اهتداء الأجيال إلى أن جاء الإسلام فنَسَخَ دينه، وإلى هذه النعمَةِ أشارت الآية: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[المائدة].

والمُراد بالوحي هنا: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾: أي إلهامهم عند سماعِ دعوة عيسى للمُبادرة والإسراعِ إلى الإيمان والتصديق برسالته الداعية إلى توحيد الله عز وجل في ألوهيته ورُبوبيته.

قد يقول قائل: ما وجه تعداد «إلهام الله للحواريين» نعمةً من النعَمِ التي أنعمَ الله بها على عيسى؟

والجواب: إنَّ الإنسان إذا كان محبوباً من الناس، مقبولاً قوله عندهم وفي قلوبهم، عُدَّ ذلك من أعظم النعَمِ كما قال القاسمي.

وهذا الوحي للحواريين، هو إلهامٌ بإجماع المُفسرين، والمعنى: أُلهِموا ذلك فامتثلوا بما أُلهِموا.

والحواريون: لقب أصحاب عيسى عليه السلام الذين آمنوا به ولازموه، واللفظَةُ مُعرَّبةٌ من النبطية، والمُفرد منه: حواري، ومعناه: الناصر، وفي الحديث الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ لما نَدَبَ الناس يومَ الأحزاب، فانتدبَ الزُّبير، ثم نَدَبهم، فانتدبَ الزُّبير، فقال ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزُّبير»، وتُطلق على الصَفيّ النقي، ومنه: الحواري: وهو الدقيق النقي، وكان هذا الاسم - الحواريون - معروفاً عند نصارى العرب، أخذوه من نصارى نجران، ولم تذكر الأناجيل هذا اللفظ.

والحواريون كانوا اثني عشر رجلاً وهم: سمعان بطرس، وأخوه أندراوس، ويوحنا بن زبدي، وأخوه يعقوب - وهؤلاء صيادو سمك - ومتّى العَشّا، وتوما، وفيليبس، وبرثوطاوس، ويعقوب بن حلفي، ولباوس، وسمعان القانوني، ويهوذا الإسخريوطي.

قال ابن عاشور: أرى عيسى الآيات لبني إسرائيل، ودعاهم إلى التصديق به وطاعته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران]، يقول عيسى: أنا ما جئتكم بهذه الآيات لأكون سيداً عليكم، ولكن أنا وأنتم مُشتركون في العبودية لله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ

﴿ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

قال ابن كثير: أي أنا وأنتم يا بني إسرائيل، سواء في العبودية لله والخضوع إليه عز وجل.

وقوله: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، أي الاعتقاد الحق الواضح الذي لا غُبار عليه، فشبَّهَهُ بالطريق المستقيم الذي لا يَضِلُّ سالكه ولا يتحير.

وقوله: ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾: أي اعملوا وفقَ هذا الاعتقاد الحق، وهذا نظيرُ قوله ﷺ: «قل آمنتُ بالله ثم استقم».

قال العلماء: وهكذا - يا عبد الله - ينبغي أن تُحدد هدفكَ في الحياة، لأنَّ الهدفَ هو الذي يُحَدِّدُ لك حركتك في الحياة، كالتلميذ الذي يذهب إلى المدرسة، له هدف، أن يتخرج في مهنةٍ ما، أو في عملٍ ما، وما دام ذلك هدفه، فنحن نقيسُ حركةَ سلوكه بمقدارِ ما تُقرِّبُهُ الحركةَ من هذا الهدف، فإذا رأيناه كسولاً فهو يبتعد عن الهدف بنفسه، أما اجتهاده فيُقربه من الهدف الذي يُريده، وهكذا، فبتحديد الهدف نحكم على صلاح العمل أو فساده، فالذي يعتبر هدفه الدنيا يُريد أن يُحقق لنفسه أكبر لذةٍ فيها، وذلك يؤدي إلى الاضطراب والضلال، أما الذي يعرف أنَّ الهدف ليس الدنيا، وأنَّ الحياة مرحلة فيقول: إنَّ الهدف هو لقاء الله والاخرة.

ولذلك لما سُئِلَ الجُنيد: كيف السبيل إلى الله؟

فقال: بتوبة تُزيل الإصرار، وخوف يُزيل التسويف، ورجاء يبعثُ على العمل، وذِكرٌ لله على اختلاف الأوقات، وإهانةٌ للنفس «بقُربها من الأجل، وبُعدها من الأمل»، قيل له: وكيف الوصول إلى هذا؟

قال: بقلبٍ فيه توحيدٌ مُجَرَّدٌ.

وقال الحسن: ما طلب رجل هذا الخير - الآخرة والجنة - إلا اجتهدَ، ونَحُلَ وذَبُلَ، واستمرَ واستقام حتى يلقى الله تعالى، أما ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت].

قال العلماء والمُرَبّون: والاستقامة لا يتحملها إلا الأكابر، لأنها - أي الاستقامة - الخروج عن المألوفات، والمُفارقة للرسوم والعادات، والقيامُ بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

وبعد أن أراهم الآيات، ودعاهم إلى التصديق به، وإلى طاعته، كفروا به، عندها طلب النُصرة من الناس ليُظهرَ دعوة الحق، وقد ذكر الكتاب الكريم طلب عيسى النُصرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران ٥٢]، قال هذا الكلام في مشهد من بني إسرائيل، إبلاغاً للدعوة، وقطعاً للمعذرةِ.

وكلمة: ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾، أي عَلِمَ علماً لا شُبهةَ فيه، كما يُدرك الإنسان بحواسه ما حوله، أنهم مُصرون على الكفر، وأنهم أرادوا قتله، عندها قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، أي من ينصُرني على إعلان الدين والدعوة إليه.

وكلمة: ﴿ أَحَسَّ ﴾ تدُلُّك على أنَّ صاحب الدعوة عليه أن يكون يقظاً في أحاسيسه كلها حتى يعرف من الذي يجبنُ ويرتجف عندما يُطلب منه فعل الخير، ومن الذي يطمئن ويحس بالراحة لدعوة الخير،إنَّ رجل الدعوة وكل صاحب هدف مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذي تتغير سحنته لحظةَ دعوة الخير، ومن الذي يستبشر ويفرح، كما قال علماؤنا.

قال صاحب التحرير: وطلبُ النُصرة من الناس لإظهار الدعوة موقفٌ

من مواقف الرُسل، وقد أخبرنا ربُنا ببعض هذه المواقف في كتابه الكريم، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ ﴾ [القمر].

وقال موسى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ﴾ [طه].

وقد عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب لينصروه حتى يُبَلِّغَ دعوته، فقد كان ﷺ يقول في مواسم الحج في مكة قبل الهجرة: «من يُؤْوِيني، حتى أُبَلِّغَ كلامَ ربي، فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أُبلغَ كلام ربي»، حتى وجدَ الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه، وحَمَوْهُ من الأسْود والأحْمر.

قال ابن كثير: وهكذا عيسى، استجابت له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به ووازروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزلَ معه، وقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾ [آل عمران].

ماذا كانت إجابة الحواريين لعيسى على طلب النُصرة؟

كان جوابهم ما ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾ [آل عمران].

وهذا الجواب يدل على أنهم علموا أنَّ نصرهم لعيسى ليس لذاته، بل هو نصر لدين الله، ولذلك قالوا: ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾.

وقولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾: تعليلٌ لنصرهم؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى يوجب النُصرةَ لدين الله، ويوجب حماية أوليائه، ومُحاربة أعدائه.

وقولهم: ﴿ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾: أي مُنقادون لطاعتك ونُصرتك، وطلبوا من عيسى أن يكون شاهداً على استجابتهم؛ لأنَّ الرُسل ستشهدُ لأُمَمِهم، وهذا يدلُّك ويُشعرك على أنَّ غرضَ الحواريين هو السعادة

الأُخروية، وقول الحواريين هذا: يدُلُّنا على أنَّ بني إسرائيل افترقوا إلى طائفتين: طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة - وهم الأكثرون - كفرت به، ثم قامت هذه الطائفة المؤمنة القليلة بالدعوة إلى دين الله، والمُصابرة عليها، فاستجاب لهم بعضُ بني إسرائيل، وكانوا أكثر من سبعين، وقاموا بالدعوة وآمنَ كثيرون، ولكنهم تعرَّضوا من قِبَلِ الكفار للقتل، ومُثِّلَ بهم، وكانوا يُلْقَونَ إلى السِّباع في المشاهد العامة تفترسهم، وكان ممن قُتِلَ من الحواريين: الحواري الأكبر الذي سماهُ عيسى عليه الصلاة والسلام - بطرس - أي الصخرة لثباته على الحق.

والنصارى يزعمون أنَّ جثته في الكنيسة العُظمى في روما، المعروفة بكنيسة القديس بطرس.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾ [الصف].

وقد تم النصر لأتباع عيسى في النهاية على اليهود، ومَزَّقوهم كلَّ مُمَزق.

قال صاحب «أيسر التفاسير» في قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾، أي غالبين عالين، إلى أن احتال اليهود على إفساد التوحيد الذي جاء به عيسى - وهو الإسلام - وهو عبادة الله وحده بما شَرَعَ أن يُعبد، ثم علا الكفر والتثليث، ولم يبقَ على التوحيد إلا فُرادى هنا وهناك، إلى أن بعثَ الله محمداً ﷺ، فانضم إلى الإسلام من انضم من النصارى، فأصبحوا بالإسلام ظاهرين على المشركين المُؤلِّهين لعيسى، ثم تابع الحواريون بيان إيمانهم بالله وبرسوله، فقالوا: ما قصَّهُ الله علينا في [سورة آل عمران]: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣ ﴾.

وقولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾: أي بالإنجيل.

وقولهم: ﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾: أي عيسى في كل ما يأتي ويذَرُ.

وقولهم: ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾: أي مع الذين شهدوا لرُسل الله بالصدق والتبليغ، ولفظة ﴿ فَٱكْتُبْنَا ﴾ تدل على أنَّ كتابَ الأبرار إنما يكون في السماء مع الملائكة، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المطففين]، فإذا كتبَهم الله مع المؤمنين الذين شهدوا للرُسل بالصدق كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى، وعند الملائكة المُقربين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[المطففين].

طلب المائدة:

قال ابن كثير: ومما امتنَّ الله به على رسوله وعبده عيسى، استجابتُهُ لدُعائه بإنزال المائدة من السماء.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وكان من المُعجزات التي أَيَّدَ الله بها عيسى بن مريم، استجابتُه لطلب الحواريين في إنزال مائدةٍ من السماء، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الإنزال في سورة خاصة سُميت بسورة «المائدة»، لأنَّ فيها قصة المائدة، وتسميتُها بسورة المائدة ثَبَتَ في كتب التفسير وفي كتب السُّنَّة.

وفي «مسند أحمد» قال: وقعت تسميتُها بسورة المائدة في كلام عبد الله بن عمر، وعائشة، وأسماء بنت يزيد، وهذا الاسم أشهر أسمائها، ولها اسم ثانٍ وهو «سورة العقود» لورود هذا اللفظ في أولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة ١].

وفي كتاب «أحمد الجرجاني» المُسمى «كتاباتُ الأُدباء»، يُقال: فُلان لا يقرأ

سورة الأخبار، أي لا يفي بالعهد، قال: وذلك لأنَّ الصحابة كانوا يُسمون سورة المائدة بـ «سورة الأخبار»، ومن ذلك قول جرير يهجو اثنين ممن جَرَتْ بينه وبينهما المُهاجاة فقال:

إنَّ البعيثَ وعبدَ آل مُتاعِسٍ   لا يقرآن بسورة الأخبار

قال العلماء: وتُسمى سورة المائدة باسم آخر، وهو «المُنقذة»، ففي أحكام ابن الفرس، أنه ورد عن النبي ﷺ قال: «سورة المائدة تُدعى في ملكوت السموات: المُنقذة»، قالوا: إنها تُنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب.

وقد أخرج الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمِلَهُ فنزل عنها، وهي من السُّوَرِ الطويلة.

قال أبو ميسَرَةَ: المائدة من آخر ما نزل من القرآن الكريم، ليس فيها منسوخ، وفيها ثماني عشرة فريضة، وعُدَّت السورةُ الحادية والتسعون في ترتيب النزول، وإلى طلب الحواريين أشارت الآية: ﴿ **إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾** ﴾ [المائدة].

وقَفَ العلماء كثيراً عند قول الحواريين: ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾، فاستشكلَ بعضهم هذه العبارة وقال: قولهم هذا يدل على جهل بالله تعالى، وعدم معرفة الأدب مع رسوله، وهذا الكلام صدر عن الزمخشري، وقالوا: إنَّ الحواريين كان منهم ذلك في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكمَ معرفتهم بالله عز وجل، ولذلك لم يقولوا لعيسى: يا رسول الله، ولا يا روح الله، ثم إنهم طلبوا مائدةً دنيوية فانية، وما رغبوا في فائدة دينية باقية، ولو رغبوا في الفائدة الدينية، لنالوا معها المائدةَ الدنيوية أيضاً، قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ**

ﭐلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى].

قال الإمام الراغب: إنَّ الإنسان في دُنياه حارثٌ، وعمله حرثُه، ودُنياه محرثُهُ، ووقتُ الموت وقت حصاده، والآخرة بَيْدرُه، ولا يَحصدُ إلا ما زرعه، ولا يَكيلُ إلا ما حصده، وروي أنَّ رجلاً ببلخ، أمرَ عبداً من عبيده أن يزرعَ حنطةً، فزرع العبد شعيراً، فرآه وقت الحصاد سيده، فقال له: ماذا زرعت؟ قال العبد: شعيراً على ظنٍ أن ينبُتَ حنطةً، فقال السيد: يا أحمق: هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصدَ حنطةً؟ فقال العبد: يا سيدي، وأنت كيف تعصي الله وترجو رحمته وتغتر بالأمانيِّ، ولا تعمل بالصالحات.

وقال الفريق الآخر: إن قول الحواريين هذا لا يدل على عدم معرفتهم بالله عز وجل، ولا يدل على عدم معرفتهم للأدب مع رسوله ﷺ.

فقولهم: ﴿ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾، هذه طريقةٌ عربية في العرض والدعاء، يقولون لمن يستطيع الأمرَ المطلوب: هل تستطيع كذا؟ وفي هذا القول أدبٌ كثير؛ لأنَّ السائل لا يُحب أن يُكلف المسؤول أمراً يصعب عليه، فقوله: هل تستطيع كذا؟ هو كناية عن تَطَلُّب العُذر للمسؤول إذا لم يُجبكَ إلى مطلوبك، وهذه الكناية تدلك وتُثبتُ لك أنَّ السائل يعلم استطاعة المسؤول على القيام بذلك وليس شَكّاً في استطاعة المسؤول، والعادةُ في ذلك أن يقول ذلك: هل تستطيع كذا؟ الأدنى للأعلى، ومن ذلك ما جاء في حديث يحيى المازني، أنَّ رجلاً قال لعبد الله بن زيد: أتستطيعُ أن تُريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فإنَّ السائل يعلم أن عبد الله بن زيد لا يَشُقُّ عليه ذلك، فليس هناك شك من الحواريين وإنما يدل على أنَّ الأمر واضح لا يَشُكُّ فيه عاقل، ومن ذلك قول من يقول: وقد أخذ بيده إنساناً مُحتاجاً ضعيفاً، هل يقدر السلطان

على إشباع هذا؟

قال ابن عاشور: فليس قول الحواريين الذي حكاه القرآن إلا لفظاً في لُغتهم يدل على التَلطُّف في السؤال والتأدب فيه كما هو عادة أهل الإيمان الخالص، وليس شكاً في قُدرة الله، ولكنهم سألوا هذه الآية ليزدادوا اطمئناناً، لينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس، فإنَّ النفوس بالمحسوس آمنُ، وكذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة ٢٦٠]، فإنه لم يكن شاكاً ولا جاهلاً بقدرة الله عز وجل - وهذا قول المحققين: ابن عطية، والواحدي والبغوي - وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة ٢٦٠].

وهم قالوا بعد الطلب: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة ١٣]، ويؤيد أنَّ الحواريين لم يكونوا شاكين في قُدرته عز وجل، ما ورد عن معاذ بن جبل قال: أقرأنا رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ (بالتاء، فالجمهور قرأ بالياء: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، وقرأ الكسائي: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاء، و﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب، والمعنى: هل تستطيعُ أن تسأل ربك، وهذه القراءة قرأت بها عائشة ومعاذ بن جبل، وعلي، وابن عباس، وقال معاذ بن جبل: سمعتُ النبي ﷺ مِراراً يقرأ بالتاء: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾.

وفي رواية الطبري عن عائشة قالت: كان الحواريون أعلمَ بالله عز وجل من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء، ولكن قالوا: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاء، والمعنى: هل تستطيع أن تسأل رَبك.

ورحم الله صاحب «البحر المحيط» حينما قال: أطبقَ أهل التفسير على أنَّ الحواريين كانوا مؤمنين، وهم خواصُّ عيسى عليه السلام، وأنهم لم يشكّوا في ذلك، حتى قال الحسن: لم يشكّوا في قُدرة الله، وإنما سألوه سؤالَ

مُسْتخبرٍ هل يُنزّل أم لا؟ فإن كان يُنزل فاسأله لنا، فالسؤال للتثبت - كما قال الغرناطي - لذلك قال ابن الأنباري: لا يجوز لأحد أن يتوهم عن الحواريين أنهم شكّوا.

ولذلك قال صاحب «اللباب»: وبهذا يظهر أنَّ ما قاله الزمخشري في الحواريين ليس بجيد، وكان بذلك خارقاً للإجماع، أو كأنه بذلك خارقٌ للإجماع، مثل: استجاب بمعنى أجابَ، فالمعنى: هل يرضى ربك ويختار أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً، وتأتي «يستطيعُ» بمعنى يُطيع.

وقولهم: ﴿مَآئِدَةً﴾: هي الخِوان أو الخُوان: الموضوع عليه الطعام، فالمائدةُ: اسم مُركب يدل على «الطعام وما يوضع عليه الطعام»، فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة.

والخِوان أو الخُوان: تختٌ من خشب له قوائم، مصنوع ليوضع عليه الطعام للأكل.

قال صاحب «اللباب»: ولهذه المسألة نظائر في اللغة:

فلا يُقال للخِوان مائدةٌ إلا إذا كان عليه طعام، وإلا فهو خُوان أو خِوان.

ولا يُقال كأسٌ إلا وفيها خمر، وإلا فهو قدح.

ولا يُقال ذَنوبٌ وسَجْلٌ إلا وفيه ماء، وإلا فهو دَلْوٌ.

ولا يُقال جِرابٌ إلا وهو مدبوغ، وإلا فهو إهاب.

ولا يُقال قلمٌ إلا وهو مَبْرِيٌّ، وإلا فهو أُنبوب.

قال الجرمي: ويُقال للمائدة «مَيْدَةٌ»، ومنه قول الشاعر:

ومَيْدَةٌ كثيرةُ الألوانِ ... تُصنَعُ للإخوانِ والجيرانِ

وسُميت مائدة لأنها غياث وعطاء، والعرب تقول: مادَ فُلانٌ فلاناً إذا أحسَنَ إليه، ومنه قول الشاعر «رؤبة»:

تُهدى رؤوس المترفينَ الأندادْ إلى أمير المؤمنين المُمتادْ

أي المُتفضل بالعطاء على الناس، وهو المُسْتَعطى المسؤول.

وقال أهل الكوفة: سُميت مائدة لأنها تميدُ بالآكلين.

وفي حديث قتادة عن أنس قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خِوان قط ولا في سُكُرُّجَةٍ، قال قتادة: قلت لأنس: فعلامَ كنتم تأكلون؟ قال: على السُّفرِ، والسُكُرُّجَةُ: إناء صغير يوضع فيه الإدام.

قال القرطبي: لم تكن للعرب موائدُ، إنما كانت لهم السُّفْرَةُ، والسُّفْرَةُ: وعاء من أديم مُستدير له معاليقُ ليُرفع بها إذا أُريدَ السفر به، وسُميت سُفْرَةً لأنها يتخذُها المُسافر.

قال ابن عاشور: وإنما سأله الحواريون كون المائدة من السماء: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾: لأنهم رغبوا أن تكون خارقةً للعادة، فلا تكون مما يُصنع في العالم الأرضي، فتَعَيَّنَ أن تكون من عالمٍ عُلوي.

والآن: ماذا كان جواب عيسى؟

كان الجواب ما ذكرته الآية: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة].

قال صاحب «المنار»: قال عيسى لهم: اتقوا الله أن تقترحوا على الله أمثال هذه الاقتراحات التي كان سَلَفُكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم، فإنَّ المؤمن الصادق لا يُجرِّبُ ربه، أو: اتقوا الله أن تطلبوا رزقكم بخوارق العادات، وعلى غير السُنن الكونية التي شرعها الله لكم من كسب وعمل.

وقد ورد عن سلمان: أنَّ عيسى نهاهم عن طلب المُعجزات، فقال لهم: ﴿ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾، وقال لهم وقد كَرِهَ طلبهم للمائدة: «اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتُلوا بها حتى كان هلاكُهم فيها»، في إشارة منه عليه السلام إلى قوم صالح حين طالبه قومه بمعجزة، وأن تكون المعجزة ناقة كدليل على صدقه، ثم كذَّبوا فأهلكهم الله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[الشمس]

قال العلماء: أصرّوا على طلب المائدة، وقالوا: ما أردنا إنزال المائدة لشكٍّ في أنفسنا، وإنما أردنا التيَمُّنَ والتبَرُّكَ بأكل طعام نزل من عند الله إكراماً لنا، ولذلك قالوا: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المائدة].

وانتبه – يا عبد الله – إلى كلمة ﴿ مِنْهَا ﴾ في قولهم: ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾، فهم لم يقولوا: نريد أن نأكل فقط، وإنما قالوا: ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾، وهذا يدل على أنَّ غرَضهم من الأكل ليس دفعَ الجوع، بل الغرضُ التَشَرُّف بأكل شيءٍ سماوي.

وهذا الأمر يُشبه ما حصل للصدِّيق حين جاءه ضيف، فأوصى الصدِّيق أولاده بتقديم العشاء له، وتأخر الصدِّيق فانتظروه إلى أن مضى جزء من الليل، وحضر الصدِّيقُ وغَضِبَ لتأخيرهم الطعام عن الضيف، فلما أخذوا يأكلون صار الطعام يربو، فقال الصدِّيقُ لزوجه: ما هذا يا أُختَ بني فراس؟ وأكل منه تبَرُّكاً، وحمل بعض ذلك الطعام من الغد إلى رسول الله ﷺ فأكل

منه.

وقولهم: ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بمشاهدة هذه المعجزة، لأنَّ الدليل الحسِّي أقوى في النفس، أو لتطمئن قلوبنا بأنَّ الله قد اختارنا لدعوته.

وقولهم: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾، قال عطاء: وذلك بازدياد اليقين فلا تعتري أنفسهم شُبهةٌ بعد نزول هذه الآية «المائدة».

وقولهم: ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾: أي الشاهدين لرؤية هذه المعجزة، فَنُبَلِّغُها من لم يشهدْها من بني إسرائيل، ليزدادَ المؤمنون منهم بشهادتنا طُمأنينةً ويقيناً، ويؤمن بسببها كُفارُهم.

قال ابن عاشور: ذكروا أربع فوائد لإنزال المائدة، كلها تدل على درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالُهم.

قال القاسمي: لما رأى عيسى أنَّ لهم غرضاً صحيحاً في طلب المائدة، ولهم نيةٌ صحيحةٌ، وألَحّوا عليه، قرّرَ أنْ يطلب المائدة ليُلزِمَهم الحُجة بكمالها.

روى ابن أبي حاتم: أنَّ عيسى توضأ بعد أن اغتسل، ودخل مُصلاه، فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته، قام مُستقبِلَ القبلة، وصَفَّ قدميه، ووضع يده اليُمنى على اليُسرى فوق صدره، وغَضَّ بصره، وطأطأ رأسه خُشوعاً، ثم أرسلَ عينيه بالبكاء حتى كَثُرَ سيلان الدموع على خديه، وقَطَرَ من لحيته، عند ذلك دعا بما ذكره القرآن الكريم في [سورة المائدة]: ﴿**قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤**﴾.

قال العلماء: اشتمل دُعاء عيسى على نداءين: «اللهم، وربنا»، إظهاراً لغاية التضرُّع، ومُبالغةً في الدعاء، حِرصاً على الاستجابة، والنداءُ الأول

باسم الذات: «اللهم» وهو الاسم الجامع لكل صفات الجلال، الجامع لمعنى الألوهية والقُدرة والحكمةِ والرحمة وغير ذلك.

قال سيبويه: وأصل «اللهم»: يا الله، جاؤوا بحرفين هما الميمان عِوَضاً عن حرفين هما «يا» أداةُ النداء، وذلك لكثرة الاستعمال.

قال صاحب «روح البيان»: وهي - أي اللهم - كلمةٌ عظيمة من قالها فقد ذكر الله بجميع أسمائه.

وقال النضر بن شميل: من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه.

والنداء الثاني «ربَّنا»، أي يا ربنا: وهو الاسم الدال على المُلْكِ والتدبير والإحسان على الخصوص، أي يا ربنا، ومالِكنا كُلَّنا ومُتولي أُمورنا، ومُربّينا.

فعيسى عليه السلام بدأ بنداء الألوهية أولاً، وهذا اعترافٌ بأنه عبدٌ لله تعالى، وأنه مُطيعٌ لله فيما يُكلَّف به أمراً ونهياً.

ثم ثنّى بنداء الربوبية «ربنا»، والربُّ: هو رب المؤمن به عز وجل وربُّ الكافر، والربُّ يتولى إمداد الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية، فهو تعالى يُعطي الكافر كلَّ ما يُقيم حياته، فهو عز وجل يُعطي الماديات التي تُقيم الحياة لكل الناس لأنه ربُّهم.

والعجيب أنَّ الكافر لا يستطيع أن يُنكر أنَّ الله هو الخالق، ومع ذلك ينصرف عن عبادته إلى عبادة مَنْ لا يخلقُ ولا يسمع ولا يُبصر، واسمع معي إلى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ٢٥]، وهذا اعتراف منهم بأنه هو الخالق الرازق، وهذا الجواب هو جواب الفطرة الأولى التي أودعها الله القلوب، خذ مثلاً عندما يرى الطفل الصغير شيئاً فيسأل: من الذي أحضره؟ فإننا نجد أنَّ الإجابات

تتسلسل إلى أن تصل أنَّ مُعطي كل شيء هو الله، وضرب العلماء مثلاً على ذلك فقالوا: لو أعطت الأم لولدها تُفاحة، فيقول: من أين؟ تقول: جاء بها والدك من بائع الفاكهة، ومن أين جاء بها بائع الفاكهة؟ فتقول: من تاجر السوق، ثم يسأل من أين أتى بها التاجر؟ فتقول: من المُزارع الذي حرثَ الأرض، وزرع أشجار التفاح، فيقول الطفل: ومن الذي خلق الأرض، وأنبت الشجر..؟ فلا بُدَّ عندها أن يكون جواب الأم: إن الله ربنا خلق لنا كل شيء، وكذلك الكافر لا يُنكر ذلك، ولذلك بعد اعتراف الكفار بأنَّ الله هو الخالق يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، وهذه الكلمة «الحمد لله»، يقولُها أحدُنا في مُناسبات كثيرة:

فحين يعترف لك الخصمُ بحقكَ تقول: الحمد لله.

وحين يُخلصك الله من أذى شِرِّيرٍ تقول: الحمد لله.

وحين يبلُغكَ موتُ ظالم، أو شقي تقول: الحمد لله الذي أراح العباد.

وحين يُنصف مظلوم فتُرد له مظلمته، أو تظهر براءته يقول: الحمد لله، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

وسنقولها «الحمد لله» عندما نخلص من هم الدنيا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر].

وسنقولها عند دخول الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر].

هذا كله حمدٌ على نعمةٍ، وهناك حمدٌ أعلى، وذلك عندما يكون الحمد مع

المُنعم، وإلى هذا يُشير حديث الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

فماذا بعد هذا الرضوان؟

يأتي الحمد الأعلى، الحمدُ مع المُنعم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر].

وقول عيسى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي ليست من الأرض لأنَّ موائد الله في الأرض منصوبةٌ فهم يُريدونها مائدةً ملكوتيةً سماويةً.

وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾: أي يكونُ يوم نُزوها عيداً، أي عيداً خاصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا.

قال ابن عاشور: أي يكون تذكُّر نزولها من كل سنة يومَ عيد، أي نجعل اليوم الموافق لنزولها يوم عيدٍ نُعَظِّمه ونُسَرُّ به نحن الذين رأوْها وأدركوا نُزولها، ولمن بعدنا من الذين يسمعون بها فيَتَقوَّوْنَ في دينهم، ولذلك قال: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: أي لأول الأمم النصرانية، ولآخرها: وهم الذين خُتِمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية.

وقوله: ﴿عِيدًا﴾: اسمٌ ليوم يعودُ كلَّ سنة، ذكرى لنعمةٍ أو لحادثةٍ وقعت فيه، إما للشُكر أو للاعتبار.

قال الخليل: كلُّ ما عاد إليك في وقتٍ معين فهو عيد؛ لأنه يعود إما بفرح، وإما بِهَمٍّ وحُزن، ولذلك قالوا: للطَّيْف عيدٌ:

فواكبدي من لاعجِ الحبِ والهوى إذا اعتادَ قلبي من أُميمةَ عيدُها

أي طيفُها، والبيتُ للأعشى، وهو هنا عيد هَمٍّ لأنه عاشق.

قال ابن الأنباري: وسُمِّيَ العيدُ عيداً؛ لأنه يعود بالفرح والسرور على الخَلق، ثم قال: ألا ترى إلى المسجونين في ذلك اليوم لا يُطالبون ولا يُعاقبون، ولا يُصاد الوحش ولا الطيور، ولا تغدوالصبيان إلى المدارس.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وأشهر ما كانت الأعياد في العرب عند النصارى منهم، يقول النابغة:

رقاقُ النِعالِ طيبٌ حُجُزاتُهمْ يُحيَّونَ بالريحانِ يومَ السباسبِ

ويوم السباسب: هو عيد الشعانين عند النصارى، وكقول الشاعر:

واعتاد أرباضاً لها آرِيُّ كما يعود العيد نصراني.

قال القرطبي: إنَّ المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غُدْوَةً وعَشيةً، ولذلك جعلوا يوم الأحد عيداً.

وقد ذكر النصارى أنَّ الحواريين أكلواعلى مائدةٍ ليلة عيد الفصح، وليلة عيد الفصح عند النصارى - الآن - هي الليلة التي يعتقدون أنَّ عيسى صُلِبَ في صباحها.

قال ابن عاشور: وعيد نزول المائدة عند النصارى - نصارى اليوم - غير معروف، وهذا مما أخْفَوه، ثم قال: وكم من خبر أهملوه كان موجوداً بالأناجيل.

قال صاحب «روح البيان»: بَقِيَ شيءٌ نذكره؟ فما هو؟

قال: إنَّ الأعياد أربعةٌ لأربعةِ أقوام:

الأول: عيد قوم إبراهيم يوم كسَّرَ الأصنام حين خرج قومه إلى عيدٍ لهم.

الثاني: عيد قوم موسى، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى** ۝٥٩ ﴾ [طه].

الثالث: عيد قوم عيسى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ** ۝١١٤ ﴾ [المائدة]، وهي الآية التي نحن بصددها.

الرابع: عيد هذه الأمة، وهو ثلاثة: عيد يتكرر كل أسبوع، وعيدان يأتيان في كل عام مرة من غير تكرر في السنة.

أما العيد المُتكرر فهو يوم الجمعة: فهو اليوم الذي اكتمَلَ فيه الخَلْقُ، وفيه خُلِقَ آدم، وفيه دخل الجنة، وفيه أُخرِجَ منها، وفيه ينتهي أمر الدنيا فتزول، فتقوم الساعة فيه، وفيه الاجتماع للذكر والموعظة والصلاة، وجعله الله للمسلمين عيداً، فنهاهم عن إفراده بصوم، وفي الجمعة شَبَهٌ بالحج، فالجمعة حج المساكين.

قال سعيد بن المسيب: شهودُ الجمعة أحبُّ إليَّ من حجَّةٍ نافلةٍ، والتبكير فيها يقوم مقامَ الهَدْي، على قدْرِ السَبْقِ، وشهودُ الجمعة يوجب تكفير الذنوب من الجمعة إلى الجمعة الأُخرى، إذا سَلِمَ ما بينهما من الكبائر، وفي بعض الآثار: إذا سَلِمت الجمعة سَلِمت الأيام.

أما العيدان الآخران:

فأولهما: عيد الفطر، وهو مُرتَّب على إكمال الصيام، والصيام هو الركن

الثالث من أركان الإسلام، فإن أتموا صومَ رمضان استوجبوا المغفرة والعتق من النيران.

وثانيهما: عيد النحر، وهو أفضَلُها، وهو مُرَتَّبٌ على كمال الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، فإن أكملوه غُفِرَ لهم.

قال البروسوي: وأعياد الدنيا تُذكِّرُ بأعياد الآخرة، فقد قال العلماء: كل يوم كان عيداً للمسلمين في الدنيا، فهو عيد لهم في الجنة.

فيوم الجمعة، يُدعى يوم «المزيد»، ويوم الفطر والأضحى، يجتمع فيهما أهل الجنة للزيارة، وهذا لعوامّ أهل الجنة، ثم قال: وأما خواص أهل الجنة، فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بُكرةً وعشياً.

ثم قول عيسى: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: أي لأول أمة النصرانية، وآخِرُها: هم الذين خُتمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية.

ثم قال: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾، أي علامةً دالة على كمال قُدرتك، وصدق وعدك، ودالّةً على صدق نبوتي ورسالتي.

ثم قال عيسى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾: أي وارزقنا منها ومن غيرها ما تتغذى به أجسامُنا أيضاً، كما نسألُكَ أن ترزقنا الشُكر عليها.

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، لأنك خالق الأرزاق ومُعطيها بلا عِوَضٍ.

قال الرازي: إنَّ قول عيسى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، يَدُلُّكَ على صفاء عيسى، وإشراقِ روحه، فإنه لما ذكر الرزق بقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾، لم يقف عنده، بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، ويظهر لنا صفاءُ نفسه عليه الصلاة والسلام، وإشراقُ روحه، حين طلب المائدة قَدَّمَ طلبَ القِيم الروحية، والفائدة الأُخروية من إنزالها، وأَخَّرَ القِيَمَ المادية وهي

الأكل.

نعم الرزق يشملُ الأكلَ، ولكنَّ الرزق ليس أكلاً فقط، بل هو كل شيء نحتاجه وننتفع به في الدارين، فالأكلُ رزق، واللبسُ رزق، والعلم رزق، والشُكر رزق، والحِلمُ رزق، لذلك جاء عيسى بالكلمة الجامعة للنوعين: الرزق المادي والرزق الروحي الديني، فقال: ﴿ وَٱرۡزُقۡنَا ﴾، بينما نرى الحواريين عندما طلبوا المائدة قدَّموا الأكل على القِيم، فقالوا: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾، وبهذا يظهر الفرق بين صفاء نُفوس الرُسل، وبين بقية الناس.

قال الرازي: ابتدأ عيسى بذكر الحق سبحانه: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾، ثم انتقل من الذات إلى الصفات: ﴿ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا ﴾، ثم أشار إلى سرور الروح بالنعمة: ﴿ وَٱرۡزُقۡنَا ﴾، فنزل من الأشرف فالأشرف إلى الأَدْوَنِ فالأدون، ثم قال: ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، فهو عُروجٌ مرة أُخرى من الخَلْقِ إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله؛ لأنَّ كل خير منه.

نزول المائدة:

ويأتي جواب دعاء عيسى بقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥ ﴾[المائدة]، ونُلاحظ أنَّ الآية أَكَّدتْ خبرَ الإنزال بـ «أنَّ» ﴿ إِنِّي ﴾، وذلك تحقيقاً للوعد «الآن» فهو استجابة آنيَّةٌ وليست وعداً في الحقيقة.

ثم حذرهم الله عز وجل من الوقوع في الكفر بعد الإيمان – إعلاماً بأهمية الإيمان – فجعل عقوبة من يقع في الكفر بعد هذه الآية فيُنكر عظيمَ قدرة الله، أو يُنكر رسالة عيسى، أو يُنكر التوحيد، عقوبةً أشدَّ من عذاب سائر الكفار، لأنهم رأوا دليل العقلِ والحسِّ فلم يبقَ لهم عذر.

قال صاحب «تفسير المنار»: وأيُّ عُذْرٍ لمن يرى الآيات من رسوله، ثم يقترح آية بيِّنة على وجهٍ مخصوص «وهي المائدة»، وقد اشترك بالعلم بها كلُّ حواسه، وانتفعَ بها في دنياه قبل آخرته، ثم يُعطى كلَّ ما اقترح، وكلَّ ما طلب، ثم بعد ذلك كله يعود كافراً بكل شيء من قُدرة الله ورسالة رسوله، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة].

قال ابن عاشور في «تحريره وتنويره»: وقد وقفت قصة سؤال المائدة عند هذا المقدار، وطُويَ خبر ما حدث بعد نزولها؛ لأنه لا أثرَ له في المُراد والعبرة من القصة، إذ المُراد من القصة قد تحقق: لأنَّ المُرادَ بيانُ حال الحواريين، وإيمانهم، وتعلُّقهم بما يزيدهم يقيناً، وحرصهم على كل ما يُقربهم من الله، وتحصيل مرتبة الشهادة على من يأتي بعدهم.

وعلى ضراعة المسيح الدَّالةِ على عبوديته، وعلى كرامته عند ربه إذ أجاب دعوته.

وتدل على طلاقة القدرةِ الإلهية وسَعَتها، ثم قال: وأما تفصيلُ ما حَوَتْهُ المائدة، وما هي أحاديثهم عندها، فلا عبرةَ فيه، ولكن من المؤكد أنَّ المائدة قد نزلت لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾.

قال القاسمي وغيره: وقد ذكر ابن كثير وغيره من المفسرين أخباراً عن المائدة واهيةَ الأسانيد، لا تخلو من غرابةٍ ونكارةٍ في سياقها.

ومن الآثار المقبولة الواردة في نزولها، ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس أنَّ عيسى بن مريم لما قالوا له: ادعُ لنا الله أن يُنزل علينا مائدة من السماء، قال: فدعا، فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها، عليها سبعةُ أحوات، وسبعةُ أرغفة، فأكل منها آخِرُ الناس كما أكل منها أولهم.

وأخرج الترمذي عن عمار بن ياسر مرفوعاً وموقوفاً، ووقفُهُ أصح، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزلت المائدة من السماء خُبزاً ولحماً».

وروى عكرمة أنَّ الخبز الذي كان على المائدة من أرز.

وورد عن ابن عباس، وأبي عبد الرحمن السُّلمي قال: كان طعام المائدة خُبزاً وسمكاً.

قال ابن عطية: كانوا يجدون في طعم السمك طيبَ كلِّ طعام.

قال الآلوسي: ورُوِيَ أنَّ عيسى لما دعا ربه لإنزال المائدة، أنزل الله سُفرةً حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها، وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في السماء تهوي إليهم، وعيسى عليه السلام، يبكي خوفاً من الشرط وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾، فما زال يدعو حتى استقرت السُفرةُ بين يديه عليه الصلاة والسلام، والحواريون حوله يجدون رائحةً طيبة لم يجدوا رائحةً مثلها قط، ثم خرَّ الجميعُ سُجَّداً لله تعالى، ثم قام عيسى فصلى ثم دعا الله أن يجعلها بركة له ولقومه، ثم قام وجلس إلى السُفرة، وتناول المنديل وقال: «بسم الله خير الرازقين».

قال القرطبي: هبطت المائدة بين يدي عيسى، وكانت سُفرةً حمراء مُدورةً بين غمامتين، والناس ينظرون، فقال عيسى: «اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها فتنةً، إلهي أسألك من العجائب فتُعطي».

قال العلماء: وفي إطعام الطعام وبذله للفقراء أجرٌ كبير، ففي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تُصلي الملائكة على الرجل ما دامت مائدته موضوعة».

دعوة عيسى ومُعاداة اليهود له:

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: أَيَّدَ الله تعالى عيسى بالمعجزات الباهرة التي تُخرس الألسنة، وتُطَمْئِن كلَّ مُرتاب، ولكن اليهود الذين بُعِثَ إليهم كانوا قُساة القلوب، فعادوه وبدؤوا يكيدون له.

وقال صاحب كتاب «النبوة والأنبياء»: قام المسيح يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله عز وجل له في المجتمع اليهودي الذي دخلته انحرافاتٌ كثيرة، فحرَّفوا الشريعة، وتلاعبوا بنصوص التوراة المُنزلة على موسى، فبعثَ الله عيسى ليردَّهم إلى الجادَّةِ، ويُعلمهم بعض الأحكام الشرعية الجديدة، ومنها: تحليل بعض ما حُرِّمَ عليهم في شريعة موسى، حيث كان قد حرَّم عليهم في شريعة موسى أنواعاً من الشحوم وغيرها سيأتي ذكرها، وكان ذلك تأديباً لهم وعقوبة في ذلك الحين، وقد ذكر القرآن الكريم على لسان عيسى المُهمة التي بُعِثَ من أجلها وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران].

قال صاحب «التحرير والتنوير»: انحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة، وفي تحليل بعض ما حرَّمه الله عليهم رَعْياً لحالهم في أزمنةٍ مختلفة، وبهذا كان رسولاً.

واحذر أن تظنَّ أنَّ الله لا يُحرم إلا الشيء الضار، لا، بل قد يُحرم أشياء تأديباً للخلق، والله حكيم في كل ما يُحلل ويُحرِّم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء]، وليست هذه فقط، بل: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء].

ما هي الأمور التي أحلها لهم؟

قال العلماء: أحلَّ لهم الشحوم، ولحوم الإبل، وبعض السمك، وبعض الطير مما كان مُحرماً من قبل.

قال القاسمي في «تفسيره»: ومن البعض الذي أحله عيسى عليه السلام لهم: فعل الخير في السُّبوت، وقد كانوا يعتقدون تحريمَ مُطلقِ عمل يوم السبت، ولذلك لما اجتاز عيسى مرة بالإسرائيليين أبصرَ مريضاً فسألوه، هل يحل أن يُشفى في السبت؟ فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: أي إنسان يكون له خروف، فيسقط في حفرة يوم السبت ولا يرفعه؟ والإنسان كم يَفْضُلُ الخروف؟ فإذن يحلُّ فعل الخير في السبوت، ثم أبرأ ذلك المريض.

ومما ثَبَتَ عن المسيح قوله: ما جئتُ لأنقُضَ الناموس والأنبياء بل لأُكملَ، وتضمنت شريعته تذكيراً ومواعظ، وترغيبات.

ثم جاء «بولس» ومن بعده من الرهبان، فغيَّروا مُعظمَ تعاليم المسيح، وادَّعوا أنه هو أمرَ بذلك.

ومما غيروه: شريعة الختان، فقد كان حُكم الختان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام، وأولادِهِ إلى شريعة موسى، وقد خُتِنَ عيسى عليه السلام، فجاء الرُهبان من بعده فنسخوا هذا الحُكم.

ومما غيروه: قضية الطلاق، فقد ادَّعى الرهبان أنَّ عيسى حرَّمَ الطلاق، وهذا كذب، نعم إنَّ عيسى بيَّنَ سوء عاقبة الطلاق ولكنه لم يُحرِمْه.

قال صاحب كتاب «النبوة والأنبياء»: لاقى عيسى أهوالاً من القائمين على الكهانةِ، ومن رؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدالٍ عنيف حول شريعة موسى التي حرَّفها الظالمون المجرمون، فكان عيسى يُناقش الفريسيين:

وهم الزُهاد العُباد، ويُناقش الكتبةَ: وهم كُتابُ الشريعة والوعاظ، ويُناقش الكهنة: وهم خَدَمَةُ المعبد والهيكل، فكان يُقيم الحُجةَ الدامغة عليهم، ويأمُرهم بالاستقامة، وألا يأكلوا الدُنيا بالدين، وكان يفضح خُبثهم حتى قرروا التخلص منه.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: مضى عيسى في دعوته حتى أدركَ أهل الشر أنَّ مناصبهم مُهددةٌ بالزوال، كانوا يتهمونه بالسحر، وخرق الشريعة، وينسبون قواه الخارقة إلى الاتصال بالشياطين، فلما أَعْيَتْهُم الحيلةُ، دَسّوا عليه عند الرومان.

ولكن السُلطات الرومانية لم تتدخل في البداية على أساس أنَّ خلاف اليهود مع بعضهم أمرٌ طيب بالنسبة لمصلحة روما، وكان الرومان أهلَ وثنية لا يدينون بالديانات السماوية، ولا يعرفون شيئا عنها.

ويروي المؤرخون: أنَّ اجتماعاً دينياً لكبار الكهنة الإسرائيليين اجتمعَ للنظر في أمر عيسى، فقام أحد كبار الكهنة، وبصورة تمثيليةٍ، مزَّقَ ثيابه في هذا الاجتماع، وكانت هذه العادة - عادة تمزيق الثياب - معروفة عند اليهود، إذا رأوا أو سمعوا شيئا يتضمن شتيمةً لله عز وجل.

ثم اجتمع المجلس الأعلى، المُسمى: «السَنْهَدريم»، وهو المجلس التشريعي الأعلى لليهود، وتداولوا الأمور، فخرجوا بقرار، وهو أنه لا بُدَّ من قتل عيسى، فهو كافر في زعمهم، ولكن لا بُدَّ من قتله بطريقة يُمكنهم فيها القبض عليه بغير إثارةٍ للناس.

قال المؤرخون: ولما قرروا ذلك أدركوا أنهم ليس لهم الحقُّ في إصدار حكم بالإعدام على أحد، لأنَّ هذا الحق للحاكم الروماني، فأتوا إلى الحاكم المُعينِ على بيت المقدس من قِبَلِ الرومان.

كان الحاكم «داوود بن نورا» فاجراً يستمع لكل وشايةٍ، ويُنصت لكل كذاب، فقصدوا قصره، وأوغروا صدره على عيسى عليه الصلاة والسلام، وأفهموه أنه خطر على حُكمه.

وصدر حكم الحاكم الظالم على عيسى بالقتل والصلب دون أن يراه، ودون أن يسمع منه كلمة.

وخرج اليهود الحاقدون على المسيح يبحثون عنه لينفذوا فيه حُكم الحاكم الروماني الجائر، وقد قَصَّ الله علينا مكرهم وتدبيرهم لقتله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤ ﴾ [آل عمران].

والمكرُ: فعلٌ يُقصد به ضَرَّ أحد بطريقةٍ تخفى عليه، أو تلبيسُ فعل الإضرار بصورة النفع.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: والمُراد بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ هنا، هو تدبير اليهود لأخذ المسيح، وسعيهم عند ولاة الأمور ليتمكنوا من قتله.

أما مكرُ الله بهم: ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾: هذا تمثيل لإخفاق مساعيهم بفضل الله، مع أنهم يظنون أنها قد نجحت.

قال البروسوي: المكرُ من العبيد خُبْثٌ وخديعة وحيلة، والمكرُ من الله: استدراج العبد، وأخذه بغتَةً من حيث لا يعلم.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾: أي أقواهم عند مُقابلة مكرهم بأن يخذلهم ويُنجي المؤمنين، فالمكرُ المنسوب إلى الله: هو الاستدراج الذي يُقدِّرهُ للجبابرةِ، وهو خيرٌ محضٌ لا ينتج عنه إلا الصلاح العام، فالمكرُ من الله: الأخذ غفلةً وفجأةً لمن استحقَّهُ.

وهنا نقف قليلاً لنُبيِّنَ قاعدة في صفات الله تعالى: فنقول:

صفات الله تعالى كلها صفات كمالٍ لا نقصَ فيها أبداً، كالعلم والقُدرة والسمع والبصر والحكمة والرحمة والعزة وغير ذلك.

فإن كانت الصِفَةُ نقصاً فهي مُمتنعةٌ في حق الله تعالى: كالموت والجهل والنسيان والعجز والعمى والصمم وغيرها، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان ٥٨]، وقول موسى: ﴿ فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف]، وإن كانت الصفةُ كمالاً في حالٍ، ونقصاً في حال: فتجوز في الحال التي تكون فيها كمالاً، وتمتنع في حق الله في الحال التي تكون نقصاً، كالمكر والخداع والكيد.

فهذه الصفات تكون كمالاً عندما يُقابل الله الفاعل بمثلها؛ لأنها تدلُّ على أنَّ فاعِلها قادرٌ على مُقابلة عدوه بمثل فعله أو أشدَّ، ولذلك نُلاحظ أن الله عز وجل لم يذكر هذه الصفات فيه، بل يذكُرها في مُقابلة من يُعاملونه ورُسله بمثلها، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾[الطارق]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء ١٤٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة].

وقال الفضل في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]: دبَّروا، ودبَّرَ الله، وقد سأل رجل الجُنيد قال: كيف وصف الله عز وجل نفسه بالمكر، وقد عاب هذا الوصفَ في غيره؟

فقال الجُنيد: لا أدري ما تقول، ولكن الظَّهرانيَّ أنشدني:

ويقبُحُ مِن سِواكَ الفعلُ عندي فتفعَلُهُ فَيَحْسُنُ منك ذاكا

وقال للرجل: قد أجبتُكَ إنْ كنت تعقل.

إلتقاء الخيانة مع الكفر لإسكات الحق وأهله:

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وبينما كان الكهنةُ يتشاورون سراً في الطريقة التي يقبضون فيها على عيسى دون إثارة الشعب، ذهب إلى هؤلاء الكهنة واحدٌ من تلامذة المسيح الإثنى عشر وهو «يهوذا الاسخريوطي»، فساوَمَ هذا الرجل رؤساء الكهنة على أن يُعطوه «٣٠» قطعة فضية مُقابل ذلك، وكانت تُسمى هذه العملة الفضية بـ «الشاقل»، مُقابل أن يدُلَّهم إلى مكان عيسى عليه السلام.

ويروي المؤرخون، أنهم لما أجمعوا على قتله، صرخ رئيس الكهنة بصوت مُرتفع في المجلس: لَأَنْ يموتَ رجلٌ واحد خير من أن يذهب الشعب بأسره.

وعَلِمَ عيسى بالأمر، وبمكر القوم، واختفى عن أعين الرُّقباء حتى لا يعلمَ أحدٌ من أعوان الحاكم مكانه، ليسلَمَ من القتل.

قال المؤرخون: فدخل القدس على حمار، واجتمع بأصحابه فقال لهم: إنَّ بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسلمُني، ثم أوصى أصحابه قائلاً: أنا أذهب إلى حيث لا يُمكنكم أن تجيئوا معي، فاحفظوا وصيتي فسيأتيكم «الفارقليط»، ومعناه باليونانية «أحمد»، يكون معكم نبياً، فإذا أتاكم «الفارقليط» بروحِ الحقِّ فهو الذي يشهد عليَّ، وإنما كلَّمتُكم بهذا كيما تَذكروهُ إذا أتى حينه، فإني قد قُلته لكم، فأمّا أنا فإني ذاهبٌ إلى مَنْ أرسلني، فإذا ما أتى روح الحق يهديكم إلى الحق كُليةً، ويُنبئُكم بالأمور البعيدة، ويمدحُني، وعن قليل لا ترونني، ثم رَفَعَ السيد المسيحُ عينه إلى السماء وقال: «حضرت الساعة، إني قد مجَّدْتُكَ في الأرض، والعمل الذي أمرتني أن أعمله تمَّمتُهُ»، ثم انصرف إلى مخبئه.

هذا النص من كتاب «العقيدة الإسلامية» للمرحوم إن شاء الله: «عبد الرحمن حبنكة».

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: أخذَ جنود الرومان يبحثون عنه، وكان واحد من أصحاب عيسى قد نافقَ فوشى به، فألقى الله على هذا المُنافق شَبَهَ عيسى، فقبض عليه الجنود، وأُرْتِجَ عليه وأسكته الله، فَنُفِّذَ فيه حُكم الصلب، وكتب الله لعيسى النجاة، واسمع معي إلى قول الله تعالى حين يتكلم عن جرائم اليهود التي كانت سبباً في لعنهم وذُلِّهم وغضب الله عليهم، وإليك تعداد بعض هذه الجرائم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

قال المؤرخون: كان عيسى قد اختفى عن أعين الطلب، وكان واحدٌ ممن نافَقَ وهو «يهوذا الاسخريوطي» هو الذي دلَّ الجند على مكان اختباء عيسى كما تقول الأناجيل المُعتمدة عندهم، مقابل دُريهمات فضية، وكان عيسى قد أشار إلى خيانة أحدهم بقوله: إن بعضكم ممن يأكُل معي ويشربُ يُسلمُني، فلما وصل الجند إلى المكان الذي فيه المسيح، طلبَ يهوذا من الجند أن يدخل أمامهم، ولم يكن في البيت إلا عيسى عليه السلام، فدخل وهجم الجند بعدها فلم يجدوا إلا شخصاً واحداً هو «يهوذا الاسخريوطي»، لأنَّ عيسى كان قد رُفِعَ وألقى الله شبهَهُ على هذا المنافق يهوذا.

قال صاحب «المنار»: والأمر الذي لا خلاف فيه عند المؤرخين، هو أنَّ

الجنود الذين أتوا للقبض على عيسى ما كانوا يعرفون شخصه معرفةً يقينيةً، ولذلك لما دخلوا البيت ولم يجدوا إلا رجلاً واحداً وهو يهوذا، الذي ألقى الله عليه ملامح عيسى، قال الجند: إذا كان هذا عيسى فأين صاحبُنا؟

وإذا كان هذا صاحبُنا فأين عيسى؟ فأخذوه ليصلبوه، وهو يصرخ ويقول: أنا يهوذا، فكانوا يسخرون منه ويقولون: أنت يسوع، فصلبوه وهم في شك من أمره، وفي اختلافٍ، هل هذا الذي صُلِبَ هو عيسى أم غيره.

وأما إنجيل «برنابا»: فيُصرح بأنَّ الجنود أخذوا يهوذا الاسخريوطي نفسه ظناً منهم أنه المسيح؛ لأنه أُلقِيَ شبَهُهُ عليه، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: المعنى: ما قتلوا عيسى وما صلبوه كما زعموا، ولكن وقع لهم الشبهُ، فظنوا أنهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره، وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ [النساء ١٥٧]، يدل على وقوع خلافٍ في شأن عيسى منذ دخولهم عليه إلى هذا اليوم، وهذه حقيقة تاريخية.

والخلاف موجود بين النصارى إلى اليوم، فجمهورهم يقولون: قتله اليهود، وصُلِبَ عيسى وقتل، وبعد ثلاثة أيام رُفِعَ، والباقون من النصارى يقولون: لم يُصلب عيسى ولم يُقتل، ومن هؤلاء الذي ينفون الصلب والقتل: «الساطنيوسيّون» و«المركونيّون» و«البارديسيانيون»، فالخلاف واقع بينهم في القتل والصلب، و هذه حقيقة تاريخية، فمن أين لمحمد ﷺ أن يعرفَ هذه الحقائق التي لم تكن معروفة عند العرب؟!!

إنَّ هذا دليل قاطع أنَّ هذا القرآن وحيٌ إلهي نزل ليُبَيِّنَ للناس الحقيقة:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ ﴾، وجميل ما قاله ابن عاشور: إنَّ معظم النصارى المختلفين في شأنه غير مؤمنين بصلبه، بل يُخالج نفوسهم الشك، ويتظاهرون باليقين وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلا اتباع الظن، والظن: هو الشك، وقد أُطلِقَ الظنُّ على هذا المعنى – الشك – في مواضع كثيرة من كلام العرب، وفي القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات ١٢]، وفي الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإنَّ الظن أكذبُ الحديث»، ومما يدل على اضطرابهم في هذه القضية أنَّ «بيلاطس» حاكم فلسطين في حينها سُئِلَ في روما عن قضية قتل المسيح وصلبه، فأجاب بأنه لا عِلْمَ له بشيء من هذه القضية، وهذا يؤيد اضطراب الناس واختلافهم في قضية قتله وصلبه.

وقد ذكر المؤرخ الدكتور عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» أنَّ المُفكر الإنجليزي «سيل» الذي ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية قال: «إنَّ المعروف تاريخياً أنَّ المسيح ويهوذا الاسخريوطي كان كلٌّ منهما يُشبه الآخر، أي أنَّ يهوذا يُشبه المسيح»، ثم يقول النجار: ولا يفوتُني أن أذكر لكم أنَّ بعض الناس قد يُشبه بعضاً آخر، فإني قد رأيتُ في الخرطوم أخوين روميَّيْن كانا توأمين يُشبه أحدُهما الآخر كما يُشبه الغرابُ الغرابَ، وكان الذين يُخالطونهما ويتعاملون معهما، يُخاطبون الواحد منهما يحسبونه الثاني.

ثم يقول: وفي سنة «١٩٢٥» كان لي قريب كان قد بعثَ ولده إلى إنجلترا للدراسة، وعاد الشاب مُدرساً للكيمياء بمدرسة الزقازيق الثانوية سنة «١٩٢٥»، وقدَّمَ نفسه للناظر، وجمعه الناظر بالمُعلمين للتعارف، وعاد المدرس للقاهرة من يومه، ووافق أن وُجِدَ شخص يُشبه هذا المدرس على أُهبة السفر في محطة الزقازيق سقطَ هذا الشخص ميتاً فجأةً، وعند سقوطه

ميتاً مرَّ أحد مُدرسي مدرسة الزقازيق الثانوية الذي تعرَّفَ على المدرس الجديد في الصباح، والذي غادر الزقازيق إلى القاهرة، فقال هذا المدرس: مسكين إنه المدرس الجديد الذي جاءنا اليوم وتعرفنا عليه، وأنَّ بلده «القرشية» فأبلغ الخبر للشرطة، وأبلغ الشرطة أهله في القرشية فأسرع إخوته وأولاد عمه إلى مستشفى الزقازيق، فرأوه، ولم يشكوا أنه هو بعينه، وأقاموا العزاء في القرشية، وأراد أخوه أن يُخبر الوالد المُقيم في مصر بالحادث، ولكنه لم يُرد مُفاجأته بالخبر المزعج، فأرسل لوالده تلجراف بصيغة سؤال عن أخيه المُدرس، فجاءه الجواب سريعاً بأنه موجود عندي في مصر، أي عند والده، فاطمأنوا وفرحوا، وانقلب الحزن سروراً في القرية كلها، وألغَوا استقبال المُعزّين.

والعجيب - كما قال علماؤنا - أن يذهب النصارى إلى القول بصلب المسيح عليه الصلاة والسلام مع اعتقادهم بألوهيته، أو أنه ابن الإله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإذا صُلِبَ الإله، فكيف يكون شأن الخلق؟ ولمن ترك تدبير العالم بعد أن صُلِبَ؟ ومن هم الذين صلبوه؟ أليسوا اليهود كما يزعمون، وهم أخبث الخلائق، فكيف لم يستطع الربُّ أن يُخلصَ نفسه من بين أيديهم؟ أو كيف لم يستطع أن يُنقذ ولده من تنكيلهم، وما أجمل قول من قال:

أعُبَّادَ المسيح لنا سؤالٌ ... نرومُ جوابَهُ ممن دعاهُ
إذا صُلِبَ الإله بفعلِ عبدٍ ... يهوديٍّ، فما هذا الإله؟

هنا يأتي سؤال: إذا كان المسيح لم يُصلب ولم يقتل، فماذا جرى له؟ وأين هو؟

والجواب: تجده في [سور آل عمران]: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه الآية حكايةٌ لأمرِ المسيح عليه السلام، ورفعه، وإخفائه عن أنظار أعدائه.

قال العلماء: هذه الآية جاءت بعد أن أحسَّ عيسى من بني إسرائيل الكفر، وشَعَرَ بالتبييت للغدر، والمؤامرةِ للقتل، فطمأن الله عز وجل رسوله عيسى إلى تمام المعركة ونهايتها، وذكر له في الآية أربعة مواقف أرادها الله لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾.

ونُلاحظ أنَّ الآية بدأت بنداء عيسى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾، والنداء هنا للاستئناس كما قال صاحب «التحرير والتنوير»، ثم بعد النداء: يأتي إعلام الله لعيسى بأنه سيرفعه إليه، وهذا زيادة إيناسٍ، والقصد من ذلك، أنَّ عيسى لم يَتُمَّ له ما أراد من هداية قومه، فأراد الله أن يُخفف عنه هذا الأمر، فأعلمه أنه سيرفعه إليه، ثم طمأنه بأنَّ الله سيظهرُ دينه؛ لأن كلَّ همِّ الرسل هو الهدى وإبلاغُ الشريعة، ولذلك طمأنه بقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾، تعالوا نقف عند هذه الآية، فقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، والوفاة في اللغة تأتي على عدّةِ معانٍ: تأتي بمعنى تمام الشيء، وأخذه تاماً لا نقصَ فيه، فأنت تقول لمن أقرضته مالاً ثم أعطاك ما أقرضته فتقول: استوفيتُ مالي تماماً – أي أخذته بتمامه –.

وتعني الوفاة: النوم، فالنوم معنى من معاني التَوَفّي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام ٦٠]، أي يُنيمكم لأنَّ النوم

أخو الموت، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، معناه: إني مُنيمُكَ ورافعكَ إليَّ في تلك النومةِ، وعليه جمهور المفسرين.

ولذلك ورد عن الربيع بن أنس قال: هي وفاةُ نومٍ رفقاً به عليه السلام.

وقد قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾: أي يُنيمُكم، فيقبضُ نفوسكم التي بها تُميزون، وليس موتاً حقيقياً بل قبضٌ للأرواح عن التصرف في النوم كما يقبضُها بالموت.

وقد ورد عن ابن زيد قال: النوم وفاة، والموت وفاة، وقرأ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

وعند الدارقطني: أنَّ النبي ﷺ لما سُئِلَ: أفي الجنة نوم؟ فقال ﷺ: «لا، النوم أخو الموت» من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً، ويشهد لهذا المعنى قوله ﷺ حين يقوم من النوم كان يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

فصار معنى مُتَوَفيك: أنَّ الله عز وجل يريد أن يقول لعيسى: إني أُريدك تاماً، وسآتي بك إلى مكانٍ تكون خالصاً لي وحدي، فالبشر لا يقدرون على قتلك - لأن القتل هدم البِنْيَةِ - سآخُذك تاماً، أي تكون الروح في جسدك بكل مواصفاته، غير مقدور عليك من البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: أي أرفعُك إلى محلِّ كرامتي، ومَقَرِّ ملائكتي، وهذه بشارةٌ لعيسى عليه السلام، وهذه العبارة تستقيم مع قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، فهي دالة على أنَّ الوفاة هنا بمعنى النوم، وليست

بمعنى الموت، لأنَّ الله تعالى كان قادراً على أن يقول: إني رافعك إليَّ ثم أتوفاك بعد ذلك، ولكن لما كانت الواو لا تقتضي الترتيب في الحدث، كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القمر]، ومعلوم أن الإنذار كان قبل العذاب، ولكن لماذا جاءت الوفاة قبل الرفع؟

والجواب: حتى لا يظن ظانٌّ أنَّ الرفعَ تبرئةٌ من الموت، وأنه لن يموت أبداً، ولكن عيسى سيموت قطعاً لأنَّ الموت ضربةُ لازبٍ لكل البشر، ثم تأتي السُنة لتُبيِّنَ لنا أنَّ عيسى حي، ونحن نعلم أن الله قال لمحمد ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل].

ونأتي إلى الصحيحين فنرى أن النبي ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»، ثم نقول: إنَّ مولد عيسى كان أمراً عجيباً خارقاً للعادة، فما الذي يمنع أن يكون خروجه أمراً خارقاً للعادة كذلك؟.

وقوله: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران ٥٥]: أي من مكرهم وخبثهم.

قال ابن عاشور: والتطهرُ هنا بمعنى الحفظ والعصمة، لأنَّ طهارة عيسى هي هي، ولكن لو سُلِّطَ عليه أعداؤه لكان ذلك إهانةً له، ولكن الله حفظه.

قال الحسن البصري وابن إسحق: لما أَمَروا بقتله وصلبه، حصروه في دارٍ في بيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم أُلقِيَ شبهُهُ على أحد أتباعه الحاضرين عنده، ورُفِعَ عيسى من رَوزنة - كوة - من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشُرَطُ فوجدوا الشاب الذي أُلقِيَ عليه شَبَهُهُ، فأخذوه وصلبوه، ووضعوا الشوكَ على رأسه إهانة له، وسَلَّمَ عامة النصارى الذين لم يُشاهدوا ما جرى لليهود أنه صُلب، وضلوا بذلك ضلالاً مُبيناً كثيراً فاحشاً - كما قال ابن كثير.

ثم قال تعالى: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران ٥٥]، الفوقيةُ هنا الانتصار والظهور، وهي فوقيةٌ دنيويةٌ بدليل قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، والفوقيةُ هنا: فوقية دليل، وأي فوقيةٍ أعظم من أن يأتي الدليلُ من الخصم، فتلك هي الغَلَبَةُ والفوقيةُ.

فأعداء الإسلام، وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام، فقد وصلوا إلى تشريع الإسلام، وهذا دليلُ صدق على ما جاء به الإسلام، فالغرب أقام الدنيا ولم يقعدها على تشريع الطلاق عند المسلمين، ولكن ما الذي حدث؟

لقد جاء تشريعهم للطلاق من إيطاليا، تحت سمع وبصر الفاتيكان، هم لم يأخذوا الطلاق كتشريع إسلامي، لا، وإنما أخذوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق، ثم عَمَّ هذا التشريعُ أوروبا.

وفي الربا: الذي يريد البعض منا أن يُحلِّله، نجد أوروبا تُحاول التخلص منه، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أنَّ المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى الصفر، لأنهم رأوا أنَّ فساد الحياة سببه الربا، فأرادوا أن يمنعوه.

والمُراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾: الحواريون ومن جاء بعدهم إلى أن جاءت شريعة محمد ﷺ فنسخت شريعة عيسى.

ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران].

قال البروسوي: الخطاب لعيسى ومن معه من المؤمنين والكافرين، أي: إليَّ مرجعكم بالبعث، وحينها أحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، من شأن

عيسى، وعندها سيكون لكم العذاب الأُخروي بعد العذاب الدنيوي، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾ [آل عمران]، وجاء بحكم الكافرين أولاً لأن المؤمنين يوقنون بذلك.

قال ابن كثير: ذاق اليهود عذاب الدنيا بعد عيسى وذلك حين دخل «قسطنطين» في النصرانية، وغَيَّرَ وبَدَّلَ، وتتبع اليهود فقتلهم، وبنى للنصارى «اثني عشر ألف معبد»، وهو الذي بنى مدينة القسطنطينية.

وعذاب الدنيا يجري على نظام أمور الدنيا، من شدةٍ وضعفٍ وعدم واستمرار، ويكون بزوال المُلك، وضربِ الذلةِ والجزية والتشريد، ثم لا يجدون نصيراً، في المدة التي قدَّرَ الله أن لا يكون لهم بها نصير، وإلا فقد وجدوا كما في عصرنا وعصر أستير.

وأما عذاب الآخرة فهو على التأبيد، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة]، ثم قال عن المؤمنين: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران]، أي إن الله يُحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولذلك سيكون ثوابهم وافياً؛ لأنَّ العظيم يُعطي الشيء العظيم.

وتوفيةُ الأجور: للمؤمنين يكون في الدنيا، برضا الله، وبركاته، وحُسن الذكر، والحياة الطيبة، وفي الآخرة الجنة، أما الكافر، فالله لا يحبه؛ لأنه ظالم، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾.

قال المفسرون: ثم كان تذييلُ قصة عيسى بآية تُخاطب محمداً ﷺ قائلةً له: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾ [آل عمران]، أي يا محمد إنَّ هذا الذي قَصَصْناهُ عليك من شأن عيسى وميلاده إلى نهاية أمره، هو

الحق الدالُّ على صدق رسالتك فإنك لم تكن تعلم ذلك، بل هو وحيٌ أوحاه الله إليك، كما أنه ذِكرٌ وموعظة للناس.

وقوله: ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾: أي المُحْكَم الذي لا يتطرقُ إليه الخلل، وهذا الكتاب مُشتمل على الحِكَمِ النافعة.

ثم شرع الله في السورة نفسها [آل عمران]: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾، في إبطالِ عقيدة النصارى من تأليه المسيح، لأنهم قالوا: إنه إله لأنه خُلِقَ بكلمة من الله وليس له أبٌ، فهو ابن الله، فأراهم الله أنَّ آدم أولى بأن يُدَّعى له ذلك، فإذا لم يكن آدم إلهاً مع أنه خُلِقَ بدون أبوين، فعيسى أولى أن يكون مخلوقاً من آدم وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

قال ابن عاشور: ومحلّ التمثيل كونُ كليهما - آدم وعيسى - خُلِقَ دون أب، ويزيد آدم بكونه من دون أم أيضاً.

وقوله: ﴿ كُن ﴾: تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه حياً ذا روح ليعلمَ السامعون أنَّ التكوينَ ليس بآلةٍ، ولا نحتٍ، ولكن بإرادةٍ وتعلقِ قُدرةٍ، وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المُراد حتى تلتئم وتندفعَ إلى إظهار المُكَوَّنِ، وكل ذلك عن توجه الإرادة بالتنجيز.

وقد روى البروسوي: أنَّ وفدَ نجران لما قدموا إلى المدينة، وكانوا أربعة عشر رجلاً من أشراف نجران - وكانوا نصارى - قدموا على مسجد المدينة بعد العصر، عليهم ثيابٌ حِسانٌ، ولهم وجوهٌ جِسام، وصَلّوا صلاتهم، واستقبلوا قبلَتهم، فأراد أصحاب النبي ﷺ منعهم، فقال ﷺ: «دعوهم»، وكان قد نزل على رسول الله ﷺ قبل مجيئهم صدرُ سورة آل عمران لمُحاجَّتهم.

ثم تقدم أسقُفُهم «أبو حارثة» ومعه شخص آخر إلى النبي ﷺ الذي قال لهما: «أسلِما»، فقالا: أسلمنا قبلك، فقال ﷺ: «كذبتُما، يمنعكُما عن الإسلام ثلاثٌ: عبادتُكما الصليب، وأكلَكُما الخنزير، وزعمَكُما أنَّ لله ولداً»، قالوا: يا محمد: فلِمَ تشتُم صاحبنا؟ - يعنون بذلك عيسى - فقال ﷺ: «وما أقول فيه؟»، قالوا: تقول إنه عبدٌ، فقال ﷺ: «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمتُهُ ألقاها إلى العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ إنساناً من غير أب؟ فحيثُ سلَّمْتَ أنه لا أبَ له من البشر، وجَبَ أن يكون هو الله، فقال ﷺ: «إنَّ آدم عليه السلام لم يَكُنْ له أب ولا أم»، أي ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله تعالى، فكذا حال عيسى عليه السلام، فالوجود من غير أب ولا أم أخرقُ للعادة من الوجود من غير أب، فشبَّهَ النبي الغريبَ بالأغرب، ليكونَ أقطعَ لحُجةِ الخصم حين يرى ما هو أغرب مما استغْرَبَهُ.

قال القاسمي: إنَّ شأن عيسى العجيب في إنشائه بالقدرة الإلهية بدون أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، أي كحالة آدم العجيبة خلقه - أي آدم - من تراب، أي صوَّرَ جسده من تراب، ثم قال الله: ﴿كُن﴾: أي بشراً كاملاً سوياً روحاً وجسداً.

قال البقاعي: وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾: في الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، عبَّرَ القرآن بالفعل المُضارع المُقترن بالفاء إشارةً إلى أنَّ الأمر كان من غير تخلُّفٍ، وهو كذلك إشارةً إلى حكاية الحال التي كان عليها آدم، أي تصويراً لذلك الإيجاد الكامل بصورة المشهد الذي يقع الآن، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر ٩].

قال البقاعي: وفي قوله تعالى عن آدم: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، لطائف:

الأولى: خُلِقَ من تراب ليكون متواضعاً.

الثانية: ليكون سَتّاراً.

الثالثة: ليكون أشدَّ التصاقاً بالأرض حيث إنه مستخلف لعمارتها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠].

الرابعة: أراد الحقُّ إظهار القُدرة، فخلق الشياطين من أضوإِ الأجرام - النار - وابتلاهم بظُلمات الضلالة.

وخلق الملائكة من نور، الذي هو ألطفُ الأجرام، وأعطاهم كمالَ القوة والشدة.

وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام، ثم أعطاهم الهداية والمعرفة والنور.

الخامسة: خُلِقَ الإنسان من تراب، فيكونُ مُطفئاً لنار الغضب والشهوة والحرصِ، فإنَّ هذه النيران لا تنطفئ إلا بالتراب.

ثم قال عز وجل مُبيناً أنَّ ما ذكره عن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران]، أي هذا الحق الذي تَلَوْناهُ عليك من ربك.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

والامتراء: يُطلق على الشك مأخوذ من قول العرب: مريتُ الشاة أو الناقة: إذا حلبتها، فكأنَّ الشاكَّ يجتذبُ بشكِّهِ شرّاً، كاللبن الذي يُجتذبُ عند الحلب.

ويُقال: مارى فُلانٌ فُلاناً - إذا جادله - كأنه يستخرج ويجتذبُ غضبهُ،

ولذلك قال ابن عباس لعمر رضي الله عنهما: لا أُماريكَ أبداً، ومنه قيل: الشُكر يمتري المزيد، أي يجلب المزيد، والخطابُ وإن كان مُوجهاً للنبي ﷺ فهو تعريضٌ بغيره، والمُعَرَّضُ بهم هنا النصارى المُمترون الذين امتَرَوْا في الإلهية بسبب أنَّ عيسى لا أبَ له.

قال الجزائري: والخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ، فإنَّ المُراد غيره من سائر الناس الذين يتأتى لهم الشك في قضية عيسى، وإلا فإنه ﷺ معصومٌ مما هو أقلُّ من الشك، لأن الشك كفر.

شمائل عيسى وصفاته:

في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسرِيَ بي لقيتُ عيسى - ثم نعته النبي ﷺ فقال - رَبْعَةٌ أحمرُ كأنما خرج من ديماس» - الحمام -.

وفي رواية عن ابن عمر، قال النبي ﷺ: «فأما عيسى، فأحمرُ جَعْدٌ عريض الصدر»، وفي وراية أنَّ شعره كان يضرب بين منكبيه.

صفاته الخُلقية:

ومنها طهارة القلب، فقد كان لا يحمل حقداً على أحد، كما كان يقبل اعتذار الناس، ولا يُكَذِّبُ أحداً حلفَ بالله وإن كان كاذباً تعظيماً لأمر الله تعالى، وإجلالاً لذاته.

ففي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى رجلاً يسرق، فقال له: أسرقتَ؟ قال الرجل: كلا والذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذبتُ عيسى».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: قدَّمَ عيسى يمين الرجل على مُشاهدة

بصره، لتصوّرِهِ أنَّ أحداً لا يحلف بعظمةِ الله كاذباً.

وفي «مسند أحمد» من حديث أبي هريرة، قال: رأى عيسى رجلاً يسرق، فقال: يا فلان أسرقتَ؟ فقال: لا والله ما سرقتُ، فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ بصري.

وذكر صاحب كتاب «أنبياء الله»: أنَّ عيسى مرَّ مع أصحابه بجثة كلب قد تفسَّخَ وصعدت رائحته، فأشار أصحابه إلى بشاعة الرائحة، فأشار عيسى إلى أسنان الكلب وقال: انظروا إلى بياض أسنانه، كأنه يريد بذلك أن يُعلم الناس كيف يذكرون الكائنات بأجمل ما فيها.

وفي «مسند أحمد» من حديث أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياض سبط، كأنَّ رأسه يقطر وإنْ لم يُصبه بلل بَيِّنٌ بين مخصرتين، فيكسرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويُعطل المِلَلَ حتى تهلِكَ في زمانه كلُّها غير الإسلام، ويُهلك الله في زمانه الدجال، وتقع الأمنةُ في الأرض حتى ترتعَ الإبل مع الأسد جميعاً، والذئاب مع الغنم، فيمكُثُ ما شاء الله أن يمكثَ، ثم يُتوفى، فيُصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

قال مكحول: التقى عيسى ويحيى، فصافحهُ عيسى وهو يضحك، فقال يحيى لعيسى: يا ابن خالة: ما لي أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنْتَ؟ فقال عيسى: ما أراك عابساً كأنك قد يَئِسْتَ؟ فأوحى الله إليهما: إنَّ أحبَّكُما إليَّ أبَشُّكُما في وجه صاحبه.

قال وهب: وقف عيسى وأصحابه على قبر وصاحبه يُدَلّى فيه، فجعلوا يذكرون ضيقَ القبر، فقال عليه السلام: كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام

الأُمهات، فإذا أحبَّ الله أن يُوَسِّعَ وَسَّعَ.

وورد عن وهب أن عيسى خاطبَ الكهنة فقال: يا علماء السوء، جعلتم الدنيا على رؤوسكم، والآخرة تحت أقدامكم، قولُكم شِفاء، وعَمَلُكم داء، مثلُكم مَثَلُ شجرةِ «الدِّفلى» تُعجبُ من رآها، وتقتل مَنْ أكلها.

وعن وهب أيضاً قال: سُئِلَ عيسى عن أشدِّ الناس فتنةً؟ قال: زلَّةُ عالم، فإنَّ العالمِ إذا زَلَّ يَزِلُّ بزَلَّتِهِ خلقٌ كثير.

وعن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى بن مريم: من تعلَّمَ وعَلِمَ وعَمِلَ، دُعِيَ عظيماً في ملكوت السماء.

وكان عليه السلام يعلم أنَّ قلب الإنسان مُعلقٌ بالمكان الذي ادَّخر فيه ثروته، ويكونُ دائم التفكير في ماله وثروته، ولهذا كان يُخاطب الناس فيقول لهم: اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، فحيثُ يكون كنزك يكون قلبك.

فضائل عيسى عليه السلام:

أنَّ قتل الدجال يكون على يديه، وذلك حين نزوله عليه السلام على «المنارةالشرقية» بدمشق وقت صلاة الصبح، فيُقَدِّمه الإمام للصلاة بالناس قائلاً له: يا روح الله تقَدَّم فصلِّ، فيقول عيسى: لا بعضُكم على بعضٍ أُمراءُ، تكرمةً لهذه الأمة.

وفي رواية قال: إنما أُقيمت الصلاة لك، فيُصلي عيسى خلفه، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب الدجال، فيُدركه عند باب «لُدٍّ»، فيقتُلُه بيده الكريمة، كما ذكر ابن كثير، ويُريهم دمه على حربة.

ثم يحجُّ عيسى ويعتمر من «فج الرَّوحاء»،وهو الطريق الذي سلكه النبي ﷺ عام الفتح، وفي حجة الوداع.

ثم تُدركه الوفاة ويُصلي عليه المسلمون، وقد ذكر بعض المُحدثين أنه يُدفن في الحُجرة النبوية كما روى الترمذي.

ولكن البخاري قال: هذا الحديث لا يصحُّ عندي، ولا يُتابع عليه.

من فضائله عليه الصلاة والسلام ما ورد في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نَخَسَهُ الشيطان، فيستهلُّ صارخاً من نخسَةِ الشيطان، إلا ابنَ مريم وأمه»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾[آل عمران]، وهذا كلام عمران زوج «حنة بنت فاقوذا» أم مريم، تمنَّت أن تكون المولودة «مريم» طائعة عابدةً لله، ولذلك سمَّتها «مريم» أي العابدة تفاؤلاً بذلك.

قال المفسرون: ولما كانت امرأة عمران «حنة» تمتلكُ فهماً إيمانياً، وتحمل منهجاً تَعبُّدياً كاملاً، فلا عجب إذ قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾، فامرأة عمران تُدرك بتجرُبتها أنَّ المعاصي كلها تأتي من نزغ الشيطان، فاستعاذت بالله منه، فعندنا: استعاذةٌ، ومُستغاذٌ به ومُستعاذٌ منه:

فالمُستعاذُ به: هو الله.

والمُستعاذُ منه: هو الشيطان.

قال العلماء: حينما يُزَيِّنُ الشيطان للخَلْق المعاصي، فهو يدخل مع المخلوق في صراع، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في صراع، ولذلك يُقال عن الشيطان إذا سمعَ ذِكْرَ الله فإنه يخنس - أي يتراجع -.

والقرآن وصف الشيطان بأنه خناسٌ، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ

ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس]، وسُمِيَ الشيطان «بالوسواس» لأنه يدعو إلى المعصية بتزيينٍ وكلامٍ خفيّ يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته، يُغري الشيطان الإنسان بِسَعَةِ رحمة الله، أو بتخييل أنَّ له في عمره سَعَةً، وأنَّ وقت التوبة باقٍ بعد، فيُلقي وسوسته في القلوب.

قال بعض العلماء: والإلقاءُ في النفس، إما صحيح جميل، وإما فاسد. **فالصحيح**: هو ما يُلقيه المَلَكُ في رَوْعِ الإنسان، ويكونُ مُحرِّكاً ودافعاً على الطاعة والخير، ويُسمى «إلهاماً».

والفاسد: إما أن يكون شيئاً فيه حظُّ النفس، ويُسمى «هاجساً»، وإما أن يكون من الشيطان، وهو ما يدعو إلى المعصية، ويُسمى «وَسْواساً»، والفرق بينهُما هو الكتاب والسُنَّةُ، فإن دلَّ على أنَّ ما أُلقيَ فيه رضا الله فهو إلهامٌ وإلا فهو وسوسةٌ.

وقد ذكر صاحب كتاب «آكام المرجان»: أنَّ ما يدعو إليه الشيطان ينحصر في ستِّ مراتب:

المرتبة الأولى: الكفر والشرك، ومُعاداة الله ورسوله، فإن ظَفِرَ من ابن آدم بذلك، بَرَدَ أنينُهُ، واستراح من تعبه معه، وهذا أول ما يُريده من العبدِ.

المرتبة الثانية: البدعة، وهي الأمر المُحدث في الدين على غير مثالٍ سابق، وهي أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ المعصية يُتاب منها فتكونَ كالعدم، والبدعةُ يظن صاحبُها أنه على صواب، وأنها صحيحة فلا يتوب منها، فإذا عجز الشيطانُ أن يوقِعَ العبد في البدعة انتقل إلى:

المرتبة الثالثة: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فإذا عَجزَ الشيطان عن ذلك انتقل إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر، التي إذا اجتمعت على العبد أهلكت صاحبها، كالنار الموقدةِ من الحطب الصغار، فإذا عَجزَ عن إيقاع العبد في الصغائر الكثيرة، انتقل إلى:

المرتبة الخامسة: وهي اشتغاله بالمُباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عِقابُها فوات الثواب الذي فاته باشتغاله بها، فإذا عَجزَ الشيطان عن ذلك انتقل إلى:

المرتبة السادسة: وهي أن يُشغل العبدَ بالمفضول عما هو أفضل منه ليفوته ثواب العمل الفاضل، ومن هذه الشياطين: شيطان الوضوء، ويُقال له: «الوَلَهَان»، وهو شيطان يُولِعُ الناسَ بكثرة استعمال الماء، ولذلك ورد في بعض الآثار: تَعوَّذُوا بالله من وسوسة الوضوء، ومنهم شيطانٌ يُقال له: «خنزب»، وهو المُلبِّس على المُصلي في صلاته وقراءته.

قال أبو عمر والبخاري كما ذكر البروسوي في «تفسيره» لسورة الناس: أصل الوسوسة ونتيجتُها من عشرة أشياء:

١) الحرص وهو الشَّرَهُ إلى المطلوب أوالجشع، ومنه:

ولقد حَرَصتُ بأن أُدافِعَ عنهمُ   فإذا المنيةُ أقبلت لا تُدفَعَ

فقابله بالتوكل والقناعة.

٢) الأمل: فاكسره بمُفاجأة الأجل.

٣) التمتع بشهوات الدنيا: فقابلهُ بزوال النعمةِ وطول الحساب.

٤) الحسد: فاكسره برؤية العدل.

٥) البلاء: فاكسره برؤية المنَّةِ والعوافي.

٦) الكِبْرُ: فاكسره بالتواضع.

٧) الاستخفاف بحُرمة المؤمنين: فاكسره بتعظيمهم واحترامهم.

٨) حب الدنيا والمَحْمَدَةِ: فاكسره بالإخلاص.

٩) طلب العُلوّ والرِفعةِ: فاكسره بالخشوع والذِلَّةِ.

١٠) المنعُ والبُخل: فاكسره بالجود والسخاء «والبخل ضد الكرم».

قال ابن تيمية: الوسوسة نوعان: نوع من الجن، ونوع من نفوس الإنس كما قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق ١٦]:

وإذا وجدتَ لها وساوِسَ سلوةٍ شفعَ الفؤاد إلى الضمير فَسَلَّها

فالشرُّ من الجهتين جميعاً، والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين، فالذي يوسوس في صدور الناس: نفسُهُ لنفسهِ، وشياطين الجن، وشياطين الإنس، وليس من شرط المُوسوس أن يكون مُستَتِراً عن البصر، بل قد يُشاهد.

والوسوسةُ أخت الوشوشة، يُقال: فلان يوسوس فُلاناً، وقد «وشوشه»إذا حدَّثَهُ سراً في أُذُنِهِ، وكذلك الوسوسةُ، ومنه وسوسةُ الحُلي، ولكن الفعل بالسين «وسوس» أخصُّ من «وشوش»:

تسمعُ للحَلِي وسواساً إذا انصَرَفت كما استعان بريح عِشرِقٌ زَجِلُ

وقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنَّ الوسوسة التي هي حديث النفس الخالية من القول أو العمل، معفوٌّ عنها، ولا يُؤاخذ بها العبد لقوله ﷺ: «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدَّثت أنفُسها ما لم تعمل أو تتكلم به».

قال أبو حازم: والفرق بين وسوسة النفس والشيطان:

أنَّ ما كَرِهَتهُ نفسُكَ لِنفسِكَ فهو من الشيطان، فاستعذ بالله منه، وما

أحبَّتْهُ نفسُكَ لِنفسِكَ فهو من نفسِكَ فانْهَهَا عنه.

وأما «الخناس» على وزن فعّال، مِنْ خَنَسَ إذا توارى واختفى، ومنه قول أبي هريرة قال: لقيني النبيُّ ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جُنُبٌ فانخنستُ منه، ولهذا وُصِفت النجوم بهذا الوصف الاختفاء والظهور: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ [التكوير]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار.

قال ابن عباس: الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإن سها وغَفَلَ وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقد حُكِيَ أنَّ بعض الصالحين سأل الله أن يُريه كيف يأتي الشيطان لابن آدم ويُوسوس له، فرأى هيكل إنسان في صورة بِلَّوْر وبين كتفيه خالٌ أسود «شامة» كالعُشِّ والوكر، فجاء الخناسُ يتحسَّس الهيكل من جميع جوانبه، وهو في صورة خنزير له خرطوم طويل كخرطوم الفيل، فأدخل خرطومه قِبَلَ قلبه فوسوس إليه، فذكر الرجلُ الله فخنسَ وراءه، ولذلك سُمِّيَ بالخناس لأنه ينكُصُ على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب، ولاحظ تكرار بناء الوسواس لتكرار الوسوسة الواحدة مِراراً حتى يعزِمَ العبد على ما وسوس له به من المعصية، وجاء بناءُ «الخناس» على المُبالغة، لأنه كلما ذُكِرَ الله انخنس، ثم إذا غَفَلَ العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين «الوسوسة، الخناس» مُطابقاً لمعنييهما.

قال الحسن: هما شيطانان لنا:

أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية.

وقال قتادة: إنَّ مِنْ الجن شياطين، وإنَّ من الإنس شياطين، فنعوذ بالله

من شياطين الجن والإنس.

وورد عن أبي ذر: أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال الرجل: أوَ مِنَ الإنس شياطين؟ قال أبو ذر: نعم، لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام ١١٢].

ورُوِيَ عن مالك بن دينار قوله: شياطين الإنس أشدُّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يَجيئُني فيجُرُّني إلى المعاصي عياناً، ويشهد لهذا ما رُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع امرأة تنشد:

إنَّ النساءَ رياحينٌ خُلِقنَ لكم وكلكم يشتهي شمَّ الرياحينِ

فأجابها عمر:

إنَّ النساء شياطينٌ خُلقنَ لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

ولو سأل سائل: ما هي الأمور التي يتسلط الشيطان بها على ابن آدم؟

والجواب: إنما يتسلط بفضول النظر، والكلام، والطعام، وبمُخالطة السُّفهاء من الناس، ومن اختلطَ فقد استَمَعَ إلى الأكاذيب.

ولذلك ورد عن النبي ﷺ فيما رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر أنه ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء، في دار المُقامة»: أي السكن الدائم، فإنَّ جار البادية يتحوَّل.

وفي الترمذي من حديث «شَكل بن حميد» قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ له: يا رسول الله، علِّمني تَعَوُّذاً أتعوَّذ به، فأخذ ﷺ بكفي وقال: «قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن

شر قلبي، ومن شر هني» - الفرج -.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس، كما في البخاري والترمذي أنَّ النبي ﷺ كان يُعَوِّذُ حسناً وحُسيناً فيقول: «أُعيذُكُما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عينٍ لامة»، ونحن نستعيذ بالله مما عَوَّذَ، ونستمده جميلَ ما عَوَّدَ.

قال ابن القيم: إنَّ القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية، فيُوسوس الشيطان للإنسان، ويُخطِرُ الذنب بباله، فيُصوره لنفسه، ويُشهيه به، فيصير شهوةً، ثم يُزينُها ويُحسِّنُها له حتى يصير الميلُ إرادةً، ثم يُخيِّلُ ويُشَهي، ويُنسيه ضررها وسوء عاقبتها، فتصير الإرادة عزيمةً جازمةً في القلب، فإذا تقاعس العاصي بُرهةً حرَّكهُ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم]: أي تُثيرهم إلى المعصية إذا فَتَروا عنها حتى تقودهم إلى الذنب بالحِيَل والكيد، فالشيطان الذي استكبرَ وأبى أن يسجد لآدم، رضي أن يكون قوَّاداً لكلِّ من عصى الله من ذرية آدم، وجميل قول القائل:

عجبتُ من إبليسَ في تِيْهِهِ ... وقُبحِ ما أظهرَ مِنْ نخوتِهِ
تاه على آدمَ في سجدةٍ ... وصارَ قوَّاداً لذرِّيَّته

وهكذا فأصلُ كل معصية وبلاءٍ الوسوسة بنوعيها، ولذلك حُقَّ لامرأةِ عمران أن تدعوَ لمريم وذُريتها «وهو عيسى فقط» فتقول: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران].

قد يقول قائل: لماذا هذه العداوة بيننا وبين الشيطان وأتباعه؟

والجواب: إنَّ للعداوة فائدةً، وإنَّ للشر والعداوة وظيفة، فالذي يجعلنا نتحمس للخير وجود الشر، وحين يُعَربد الباطل يتحرك الناس نحو الحق

ليُدحر الباطل، ولذلك قال العلماء: الألم جُندي من جنود الشفاء، وحين ترى مريضاً يتألم، فهذا الألم يقول لك: يا إنسان تَنَبَّه فإن خللاً في هذا المكان فسارع إلى علاجه، ولهذا نرى أنَّ أخطر الأمراض هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقُها، ولا تظهر أعراضُها إلا بعد أن يستعصيَ شفاؤها.

ثم إن الإنسان حين يكون له عدو في بلده، فهو يعلم أنَّ هذا العدو ستكون عيونه مُركزةً عليه ليُحصِيَ زلاته ومَعايبه، ولذلك يحاول الإنسان الذي له عدو أن يسير على طريق الاستقامة لأنه لا يريد أن ينصُرَ عدوه على نفسه كما قال العلماء، وما أجمل قول القائل:

عِداي لهم فضلٌ عليَّ ومِنَّةٌ ... فعندي لهم شُكرٌ على نفعِهم ليا
فهم كدواءٍ والشفاءُ بِمُرِّهِ ... فلا أبعَدَ الرحمنُ عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلَّتي فاجتَنَبْتُها ... فأصبحتُ مما دَنَّسَ العِرضَ خاليا
وهم أجَّجوا جُهدي ولكن بِبُغْضِهم ... وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

- يا عبد الله -: فهل نلجأ إلى حُضن الله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر ٤٢]، وذلك بِحُسن القول والعمل، والبُعد عن المعاصي والزلل، حتى نكون من أهل الأنوار في الآخرة، لننجُوَ من الكرب والأهوال.

وخُذْ لنفسِكَ نوراً تستضيءُ به ... يوم اقتسامِ الورى الأنوارَ بالرُتَبِ
فالجسرُ ذو ظُلُماتٍ ليس يقطعُهُ ... إلا بنورٍ يُنجي العبدَ في الكربِ

وصدق الله: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران ١٨٥].

الشهود على الناس يوم القيامة:

- يا عبد الله -: احذر المعصية، وراقب الله، فالشهود عليك كُثر: تشهد لك بالخير، وتشهد عليك بالمُخالفة والشر حتى ليَوَدُّ الكافر أن يُساقَ إلى النار مما يرى من الفُضوح وهول الموقف.

والآن: من هؤلاء الشهود؟

والجواب: قال علماؤنا: إنَّ الشهود عليك - يا عبد الله - سبعة، تشهد على فِعْلكَ يوم القيامة وهم:

الشاهد الأول: المكان: وإلى هذا أشارت [سورة الزلزلة]: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤**﴾: أي تُخبر الأرض بما عَمِلَ العبدُ على ظهرها من خير أو شر.

رُوِيَ أنَّ عبد الرحمن بن صعصعة كان يتيماً في حِجر أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، فقال أبو سعيد للغلام: يا بني إذا كنتَ في البوادي فارفع صوتك بالأذان، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمعُهُ إنسٌ ولا جِن ولا حجر ولا شجر إلا شَهِدَ له».

ورُوِيَ أنَّ أبا أُمية صلى في المسجد الحرام المكتوبَةَ، ثم تقدم فجعلَ يُصلي ههنا وههنا، فلما فرغ قيل له: يا أبا أُمية: ما هذا الذي تصنع؟ قال: قرأتُ هذه الآية: ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤** ﴾ [الزلزلة]، فأردتُ أن يشهد لي يوم القيامة، فطوبى لمن شهدَ له المكان بالذكر والتلاوة والصلاة ونحوها، وويلٌ لمن شهدَ عليه المكان بالسرقة، وشرب الخمر، وفعل الفواحش والمساوي.

وقد روى الترمذي من حديث أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه

الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾، ثم قال ﷺ: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّ أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عَمِلَ يوم كذا، كذا وكذا، قال: فهذه أخبارُها»، والحديث أخرجه الترمذي والحاكم وأحمد والنسائي في الكبرى، والطبري في التفسير، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وكان علي رضي الله تعالى عنه، إذا فَرغَ بيتُ المال، صلى فيه ركعتين ويقول: لتشهدنَّ أني ملأتُكَ بحق، وفرَّغتُكُ بحق.

وفي سُنن ابن ماجة حديث فيه: «تقول الأرض يوم القيامة يا رب: هذا ما استودعتني».

الشاهد الثاني: المَلكان: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار].

قال الرازي: إن الله تعالى أجرى أُموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم، لأنَّ ذلك أبلغُ في تقرير المعنى عندهم، ولما كان الأبلغُ في المُحاسبةِ، إخراج كتابٍ بشهودٍ وخوطِبوا بمثل ذلك فيما يُحاسبون به يوم القيامة، فيُخرَجُ لهم كتب منشورةٌ، ويحضر هناك ملائكةٌ يشهدون عليهم، كما يشهد عُدول السلطان على مَنْ يعصيه ويُخالف أمره، فيقولون: أعطاك المَلك كذا وكذا، ثم خالفته، وفعلت كذا، فكذا ههنا.

والعبد إذا عَلِمَ أنَّ الله رقيبٌ عليه، والملائكة يحفظون أعماله، ويكتبونها في الصحيفة، وتُعرضُ على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، كان ذلك أزجر له عن المعاصي.

وكان الفُضيل إذا قرأ هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ

﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار]، قال: ما أشدَّها على الغافلين.

قال ابن عاشور: وأجرى الله على الملائكة المُوكلين بإحصاء أعمال الناس أربعة أوصاف هي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعملهُ الناس.

وابتدأ بوصف الحفظ؛ لأنَّ الغرض من ذلك إثباتُ الجزاء على جميع الأعمال، ثم تأتي بعد ذلك الصفات الثلاثة وهي مُكمّلَةٌ للحفظ والإحصاء، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين.

والكرمُ هنا: هو الصفة النفسية الجامعة لصفات الكمال - الزكية -، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق].

قال: ملكان يتلقَّيان عَمَلَكَ، أحدُهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيآتك، حتى إذا مِتَّ طُويت صحيفة عملك، وقيل لك يوم القيامة: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]، عدلَ واللهِ عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك.

وإلى هذه المعاني أشارت الآية: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف].

قال أبو بكر بن طاهر رحمه الله تعالى: دلَّ الله قوماً من عباده إلى الحياء منه، ودلَّ قوماً إلى الحياء من الكِرام الكاتبين، فمن استغنى بعلمِ نظرِ اللهِ إليه والحياء منه، أغناه ذلك عن الاشتغال بالكِرام الكاتبين.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: مَنْ سَتَرَ من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فقد جعله أهونَ الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق:

إني لَمُستَتِرٌ من عينِ جيراني والله يعلمُ إسراري وإعلاني

الشاهد الثالث: اللسان: قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور].

قال العلماء: نحن نعلم جميعاً أنَّ اللسان هو الذي يتكلم، فماذا زادتنا هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ... ﴾؟

والجواب: في الدنيا يتكلم اللسان وينطق، لكن المُتكلم في الحقيقة أنت؛ لأنه ما تحرك اللسان ونطق إلا بمُرادك له، فاللسان هنا آلة خاضعة لإرادتك، فهو مُجرد آلة، أما في الآخرة، فسوف ينطق اللسان على غير مُراد صاحبه، لأنَّ صاحبه ليس له مُرادٌ الآن، وهذه الشهادة من اللسان - والتي هي قولٌ صادر عن علم حصلَ بمُشاهدةِ بَصَرٍ أوبصيرةٍ -، إنما تكون قبل أن يَختِمَ على أفواههم، فلا تعارض بينها وبين قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ .. ﴾ [يس٦٥].

قال العلماء: فصار معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾: أي شهادةً ونُطقاً على مُراد الله، لا على مُرادِ أصحابها، ولا عجبَ في ذلك، ألا نرى في واقعنا الرجل اللبيب المُتكلم، يُمسَكُ لسانهُ ويتعطل بعد طلاقته بسبب مرض أو شلل، فلا يستطيع بعدها الكلام وهو في سَعَةِ الدنيا، فما الذي حدث؟

تعطلت آلة الكلام، وهكذا الأمر في الآخرة تتعطل سيطرتُكَ على جوارحك كلها، ولكنها تتحرك بإرادة الله الذي يقول للشيء: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]، ويشهد اللسان للمُطيعين بالطاعة وعلى المذنبين بالذنوب.

الشاهد الرابع: الأركان: قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس].

قال أبو بُردَةَ: قال أبو موسى الأشعري – من كبار أصحاب النبي ﷺ –: يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرضُ عليه ربُّهُ عَمَله فيما بينه وبينه، فيتعرف فيقول: نعم أي ربِّ، عَمِلتُ، عَمِلتُ، عَمِلتُ، قال: فيغفر الله ذنوبه، ويستُره منها، فما على الأرض خليقةٌ ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناتُهُ فَوَدَّ أنَّ كل الناس يرونها.

ويُدعى الكافر والمُنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عَمَله فيجحدُه، ويقول: أي ربِّ، وعِزتكَ لقد كَتَبَ عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل، فيقول له المَلَكُ: أما عَمِلتَ كذا في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك يا ربِّ ما عَمِلتُهُ، فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فِيْهِ.

قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسبُ أولَ ما ينطق منه الفخذُ اليُمنى، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك وقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «في مُخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول الحق عز وجل: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا – وفي رواية – وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فِيهِ، فيُقال لأركانه: انطُقي، فتنطقُ بأعماله – ثم يُخلى بينه وبين الكلام

فيقول: - أي العبد لجوارحه - بُعْداً لَكُنَّ وسُحقاً فَعَنْكُنَّ كنتُ أُناضل»، أي أُدافع.

قال ابن عاشور في «تفسيره»: والمُراد بتكلم الأيدي، تَكَلُّمُها بالشهادة، والمُراد بشهادة الأرجل: نُطقها بالشهادة، ففي كلتا الجُملتين مُحسِّنٌ بديعيٌ يُسمى «الاحتباك»، والتقدير: وتُكلِمُنا أيديهم فتشهَدُ، وتُكلمُنا أرجُلهم فتشهَدُ.

هنا سؤال: هل هذه الشهادة نُطقٌ على الحقيقة، أم هو كلامٌ ونُطقٌ على المجاز؟

والجواب: إنَّ للعلماء في هذا الموضوع قولين:

الأول: قالوا: إنَّ الجارحة حين تعمل أيَّ عملٍ يُلتقط لها صورة تُسَجِّلُ ما علمت، فنُطقُها يوم القيامة أن تُظهر هذه المُلتقطةِ، ويكون بهذا دلالةٌ على أنهم لا يتكلمون لأنهم لم يجدوا عُذراً يعتذرون به، ولا يجدون مجالاً للتوبة والاستغفار، ويظهر الحُزن عليهم، فيكون قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم .. ﴾، أي تظهر الأمور بحيث لا يَسَعُ معه الإنكار، مثل قول القائل: الحيطان تبكي صاحب الدار، والصحيح أن هذه الأركان تنطق على الحقيقة - أي تتكلم بلسان الحال كما تدل على المجرمين هيئاتهم - ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت ٢١]، أي لكل شيء في هذا الوجود نُطقاً يُناسبه، كما نطقت النملة: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل]، وكما نطقَ الهدهد: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ

﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل]، والله عز وجل إذا أراد أن يُفهم إنساناً نُطقَ الأشياء فهو تعالى قادر على ذلك كما فَهِمَ سليمان عن النملة كلامها: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ ﴾ [النمل ٢٠]، ثم قال لها: أَعرفتِني ظالماً؟ قالت: ألم أقل: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾؟، وكذلك فَهِمَ عن الهدهد، وناقشه في قضية عقديةٍ.

قال بعض المفسرين: وإن كان النُطقُ يُفهم عادةً عن طريق الصوت، فلكل خلقٍ نُطقه الذي يفهمه جنسه، لذلك الآن نسمع مع تقدم العلوم، أنَّ هناك لغة خاصة بالنمل والنحل والأسماك...

ورواةُ سيرة النبي ﷺ حين يذكرون مُعجزات النبي ﷺ يقولون: إنَّ الحصى سبَّحَ في يده الشريفة، فقال أحد المفسرين: علينا أن نُصَحح هذه العبارةَ، وعلينا أن نقول: سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده، وإلا فالحصى مُسبح في يده ﷺ كما هو مُسبحٌ في يد أبي جهل، وهذا هو الراجح والذي نلقى الله عليه.

ومن لطائف بعض أدباء العصر الحديث أنه ذكر شِعراً يستشهد به على أنَّ نُطقَ الجوارح يكون نُطقاً حقيقياً، فقال:

منطق الفوتجراف لنا دليلٌ ... على نُطقِ الجوارحِ والجمادِ
وفيه لكلِّ ذي نظرٍ مثالٌ ... على بدء الخليقةِ والمعادِ
يُديرُ شؤونه فردٌ بَصورٍ ... به الأصواتُ تجري كالمِدادِ
فيُثبِتُ رَسمَها قلمٌ بِلوحٍ ... على وَفْقِ المشيئةِ والمُرادِ

ثم يقول بعد أبياتٍ:

متى شاءَ المُديرُ لها معاداً ... ورامَ ظُهورها في كلِّ نادِ
يُديرُ الصُورَ بالآلات قسراً ... فيُنشرُ موتُها بعدَ الرُقادِ
وهذي آلةٌ من صُنعِ عبدٍ ... فكيفَ بِصُنْعِ خَلَّاقِ العِبادِ؟
تباركَ من يُعيدُ الخَلقَ طُرَّاً ... بِنَفْخَةِ صُورِهِ يومَ التَنادِ

قال العلماء: ولو سُئِلت هذه الجوارح: لِمَ شَهِدتِ عليَّ وأنت الفاعلةُ؟

لقالت لك: فعلنا لأننا كُنا على مُرادِكَ مقهورين لك، ولكن يوم نخرج عن إرادتك وقهرك، فلن نقول إلا الحق.

قال البروسوي: والسِّرُ في نُطق الأعضاء والجوارح بما صَدَرَ عنها ليُعلم أنَّ ما كان عوناً على المعاصي صارَ شاهداً، فلا تلتفت لغير الله تعالى.

والخُلاصة: شهادةُ أعضاء الكفار والمنافقين مُبيدةٌ ومُهلكةٌ لهم، ولكن، ما حال العُصاة من الموحدين المؤمنين؟

والجواب: إنَّ بعضَ أعضائهم تشهد لهم بالإحسان، وإنَّ بعضها الآخر يشهد عليهم بالعصيان، ففي بعض الآثار أنَّ عبداً تشهدُ عليه بعضُ أعضائه بالزَّلَّةِ، فتطيرُ شعرةٌ من جفن عينيه وتستأذن أن يُسمحَ لها بالشهادة له، فيُؤذن لها، فتشهد له بالبُكاء من خشية الله، والخوف من عقابه، فيُغفر له، ويُنادي مُنادٍ: هذا عتيقُ الله بشعرةٍ.

ثم قد وردَ عن النبي ﷺ أنه قال لبعض النساء: «عليكُنَّ بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدنَ بالأنامل فإنَّهُنَّ مسؤولاتٌ مُستنطقاتٌ».

قال العلماء: أي مُستنطقاتٌ بالشهادة يوم القيامة، ولذا سُنَّ عَدُّ الأذكار

بالأصابع.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس]، وماذا يكسبون؟

يكسب الكافر الشرك وفروعه، ويكسبون تكذيبهم للرسول ﷺ، وما ألحقوا به من الأذى، فطوبى لمن كان وِعاءً للخير، وطُوبى للسُعداء، ومن يتبَعُهم في أحوالهم وطاعاتهم وعباداتهم.

قد يقول قائل: لمَ يختم على الأفواه حال شهادة الأعضاء؟

والجواب: ليمنع الأفواه من أن تلفظَ حال أداء الأعضاء للشهادة، كما يفعل أهل العناد والمُكابرة عند الخِصام.

الشهادة الخامسة: الديوان: قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية].

وقوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ ﴾، من هول ذلك اليوم، وهول الموقف وشدته.

والأُمَّةُ: كل مِلّةٍ على انفراد، أيْ كلُّ أصحاب الأديان.

والجَثْوُ: الجلوس على الرُّكب، وذلك حين انتظار الحساب، حيث تَزْفُرُ جهنم زفرَةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على رُكبتيه، حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: نفسي نفسي لا أسألُكَ اليوم إلا نفسي.

وحتى أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألُكَ اليوم إلا نفسي، لا أسألُكُ مريم التي ولدتني.

قال مجاهد والحسن وغيرُهما: جاثيةً على الرُّكب، ومُتميزةً عن غيرها، فقد ورد عند أبي حاتم من حديث عبد الله بن باباه، أنَّ النبي ﷺ قال: «كأني أراكم بالكَوْم جاثين دون جهنم».

والكَوْم: المواضع المُشرفة، واحِدُها كومةٌ.

وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: أي إلى كتاب أعمالها، هنا يزداد بلاءُ الكفرة وأهل النفاق حين يَرَونَ ديوان أعمالهم يُستحضر دون زيادة ولا نُقصان كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف]، ثم يُقال لهم من الله، أو من الملائكة: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية ٢٩]، فتُجازَوْنَ بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فكلُّ أحد سيجد ثمرةَ شجرةِ أعماله، قال القرطبي: أي يشهد.

يروي البروسوي في هذا الموضوع، أنَّ امرأةً دخلت على عائشة أم المؤمنين، قد سترت يدها في كُمها، فقالت عائشة: ما لك لا تُخرجين يدك من كُمك؟

قالت: لا تسأليني يا أم المؤمنين.

إنه كان لي أبوان، وكان أبي يُحب الصدقة، وأما أمي فكانت تكره التَصَدُّقَ وتبغَضه، فلم أرها تصدقت بشيء إلا قطعة شحم وثوباً خَلِقاً، فلما ماتا رأيتُ في المنام قد قامت القيامة ورأيتُ أمي قائمة بين الخَلق واضعةً الخلقان على عورتها، ورأيتُ الشحمَ بيدها وهي تلحسه وتُنادي: واعطشاه.

ورأيتُ أبي على شفير الحوض وهو يسقي الماء، ولم يكن عند أبي صدقة

أحبَّ إليه من سقي الماء، فأخذتُ قدحاً من ماءٍ فسقيتُ أمي، فنوديتُ من فوق: ألا مَنْ سقاها شُلت يده، فاستيقظتُ ويدي قد شُلت كما ترين.

وقوله: ﴿نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].

قال ابن عباس: ألستم عرباً، هل يكون الاستنساخُ إلا من أصل؟

فالمعنى عند ابن عباس: أنَّ الملائكة تكتب أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيُقابل الملائكة المُوكَّلون بديوان الأعمال ما كتبهُ الحَفَظَةُ، مما قد أُبْرِزَ لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدرٍ، مما كتب الله في القِدَمِ على العباد قبل خلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فذلك هو الاستنساخ.

الشاهد السادس: الزمان: ففي الأثر يُنادى كل يوم، أنا يومٌ جديد، وعلى ما تعمل فيَّ شهيد.

وورد عن الحسن البصري قال: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم ويقول: «يا أيها الناس إني يوم جديد، وإني على ما يُعمل فيَّ شهيد، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»، وكان يقول: «يا ابن آدم، اليوم ضيفُكَ، والضيفُ مُرتحل، يحمَدُكَ أو يذُمُّك، وكذلك ليلتُكَ».

وورد عن «بكر المزني» أنه قال: ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا يُنادي: يا ابنَ آدم اغتنمني لعله لا يومَ لك بعدي، ولا ليلة إلا تُنادي: ابنَ آدم، اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي.

قال ابن أبي الدنيا: من جميل ما أنشَدَنا «محمود بن الحسين» - أي في هذا الموضوع -:

مضى أمسُكَ الماضي شهيداً مُعَدَّلاً ... وأعقَبَهُ يومٌ عليكَ جديدُ

فيومُكَ إن أغنيتَهُ عادَ نفعُهُ ... عليكَ وماضي الأمسِ ليسَ يعودُ
فإن كنتَ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فَثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
فلا تُرْجِ فعلَ الخيرِ يوماً إلى غدٍ ... لعلَ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ

من هنا كان السلف حريصين على أوقاتهم يقضونها بالطاعات والخيرات لأنهم علموا أنها ستكون شاهدةً عليهم يوم القيامة، كان «عبيد بن يعيش» يقول: أقمتُ ثلاثين سنة ما أكلتُ بيدي بالليل، كانت أختي تُلقِمُني وأنا أكتب الحديث.

الشاهد السابع: الرحمن: قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس].

﴿شُهُودًا﴾: أي رُقباء مُطَّلِعين، فكل عمل إنما يَشهدُه الله تعالى.

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي تُسرعون بهمةٍ ونشاط ولهفةٍ وإخلاص، ومنه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة ١٩٨].

لليهود مشكلة نفسية:

قال الشيخ عبد الرحمن حبنكة في كتابه «مكائد يهودية»:

كان عمل اليهود منذ القرن الأول الميلادي: إفساد رسالة عيسى، وذلك بالتلاعب بأصولها الاعتقادية، وأحكامها التطبيقية.

وعملوا منذ القرن الأول الهجري لإفساد الإسلام فلم يستطيعوا، لأنَّ الله تكفَّل بحِفظه.

ومُشكلتهم النفسية قائمة على اعتبار أنفُسهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم جِبِلَّةٌ خاصة تمتاز عن سائر الأمم، وسائر الأمم مُسخرةٌ لهم، فلا حرج عندهم أن يفتِكوا بالشعوب، ومن تحريفاتهم لشريعة موسى «وهي شروح التلمود عندهم»: أنَّ أرواح اليهود جزء من الله، وأنَّ اليهودي أفضلُ من الملائكة، فإذا ضربَ غير اليهودي يهودياً فكأنما ضربَ العزة الإلهية.

ومن معتقداتهم: أنَّ الناس قسمان: يهود و«جُوييم»، أي الأمم الأُخرى، وهؤلاء عندهم أنجاس وكفرة منحهم الله الصورة البشرية لا على سبيل الاستحقاق الذاتي، ولكن ليأنسَ بذلك أسيادُهم من اليهود، ويسهُلَ عليهم تسخيرهم، أما هم فصورتهم البشرية استحقاقٌ ذاتي لهم وتكريم.

وبناءً على هذا المعتقد: فلا حرج على اليهودي أن يستحلَّ سرقةَ وخداعَ وقتل كل من كان غير يهودي، لأنَّ هؤلاء - باعتقادهم - أعداء الله، وبما أنهم أعداء الله، فإن الله لا يُعاقب أحِبَّائه وأبناءه، على كل فعل يفعلونه بأعداء الله من الأمم الأُخرى، بل ما يقومون به هو طاعات تُسجل في صحائف أعمالهم، ولا يرضى عنهم الله إذا قاموا بها، فلا عجب إذا رأيت اليهود قد وصفهم التاريخ بكل النقائص الخُلقية.

الخاتمة

إلى هنا،وانتهت هذه الدروس في بيان سيرة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ونحن عندما نستعرض سيرة الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم رسولنا محمداً ﷺ، لا نريد بذلك عرضاً تاريخياً، وإنما نريد أخذَ العِبر والدروس من سيرتهم عليهم صلوات الله وسلامه، كما نريد التأسي بهم صلوات الله تعالى عليهم، وعلى رأسهم سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام الذي قال الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب ٢١]، لأن نبينا الكريم ﷺ قد جمع فضائل الأنبياء جميعاً، فلهذا استحق أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فنبينا محمد ﷺ قد أوتي: شجاعة موسى، وشفقة هارون، وضراعة يونس، وصدق إسماعيل، وصبر أيوب، وإقدام داوود، وبساطة يحيى، وزهد إلياس، ورحمة عيسى، وحكمة إبراهيم.

فنبينا محمد عليه الصلاة والسلام مطلوب منه أن يقتدي بجميع الأنبياء، أي أن يأخذ خصلة التميز في كل واحد منهم، وأن يكون مشتركاً معهم في قضية التوحيد، ولذلك قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام ٩٠].

ثم نحن مأمورون بالتأسي به ﷺ، فعلينا أن ندرك هذا المغزى ونحمل أنفسنا على العمل بهدي نبينا محمد ﷺ.

والله أسأل أن يدخر لي أجرَ عملي عنده وقد بذلتُ ما بوسعي، فإن أصبتُ فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان والله عز وجل يأخذ بأيدينا إلى كل ما فيه رضاه.. والسلام عليكم ورحمة الله.. تم بحمد الله..

المراجع

١.القرن الكريم.
٢.صحيح البخاري – محمد بن اسماعيل البخاري.
٣.صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج.
٤.صحيح ابن حبان – ابن حبان.
٥.نوادر الأصول في أحاديث الرسول – الترمذي.
٦.المعجم الكبير – الطبراني.
٧.سنن ابن ماجه – محمد بن ماجه.
٨.سنن الدارمي – الدارمي السمرقندي.
٩.مصنف عبد الرزاق – عبدالرزاق الصنعاني.
١٠. مسند أحمد – أحمد بن حنبل.
١١.مسند أبو يعلى – أبو يعلى .
١٢.مسند الشاميين – الطبراني.
١٣.الأسماء والصفات – البيهقي.
١٤.كتاب العظمة – لأبي الشيخ الأصبهاني.
١٥. في ظلال القرآن – سيد قطب.
١٦. روح البيان في تفسير القرآن – البروسوي.
١٧. تفسيرالتحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور.
١٨. تفسير القاسمي – محمد جمال الدين القاسمي.
١٩. تفسير الطبري – ابن جرير الطبري .
٢٠. تفسير الشعراوي – الشعراوي.
٢١.تفسير «المنار» – محمد رشيد رضا.
٢٢. تفسير الزمخشري – الزمخشري.

٢٣. تفسير القرطبي – القرطبي.
٢٤. تفسير الماوردي – أبو الحسن الماوردي.
٢٥. تفسير البحر المحيط – الغرناطي.
٢٦. التفسير الكبير – الرازي.
٢٧. تفسير الخازن – علاء الدين الخازن.
٢٨. تفسير النسفي – أبو البركات حافظ الدين النسفي.
٢٩. تفسير السعدي – عبد الرحمن ناصر السعدي.
٣٠. تفسير التأويلات النجمية – الرازي.
٣١. تفسير البغوي – معالم التنزيل – البغوي.
٣٢. تفسير ابن عطية المحرر الوجيز – ابن عطية.
٣٣. تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان – النيسابوري.
٣٤. تفسير الشوكاني – الفتح القدير – محمد بن علي الشوكاني.
٣٥. تفسير أبو السعود – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود.
٣٦. تفسير الجلالين – السيوطي.
٣٧. تفسير الآلوسي روح المعاني – الآلوسي.
٣٨. تفسير القشيري – اللطائف – أبو القاسم القشيري.
٣٩. صفوة التفاسير – الصابوني.
٤٠. المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني.
٤١. بحر العلوم – أبو الليث السمرقندي.
٤٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن – أبو إسحق الثعالبي.
٤٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – برهان الدين البقاعي.
٤٤. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير – أبو بكر الجزائري.

٤٥. الأساس في التفسير – سعيد حوى .
٤٦. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن – ابن الزملكاني.
٤٧. زاد المسير في علم التفسير – ابن الجوزي.
٤٨. الروض المربع – منصور بن يونس البهوتي.
٤٩. صفوة البيان لمعاني القرآن – حسنين مخلوف.
٥٠. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين الشنقيطي.
٥١. الإكليل في استنباط التنزيل – جلال الدين السيوطي.
٥٢. فتح الباري – ابن حجرالعسقلاني .
٥٣. البداية والنهاية – ابن كثير.
٥٤. السيرة النبوية – ابن كثير.
٥٥. فتح الرحمن في تعليم كلمات القرآن – عرب القرآن.
٥٦. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون – السيرة الحلبية – على بن برهان الدين.
٥٧. اللباب في شرح الكتاب – عبد الغني الدمشقي.
٥٨. زوائد الزهد – أبو عبدالله بن محمد بن حنبل.
٥٩. تاريخ الطبري – الطبري.
٦٠. تاريخ دمشق – ابن عساكر.
٦١. أدوار التاريخ الحضرمي – محمد أحمد الشاطري.
٦٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم الأصبهاني.
٦٣. تهذيب الأسماء واللغات – النووي.
٦٤. التاريخ الكبير – البخاري.
٦٥. الدر المنثور – جلال الدين السيوطي.
٦٦. أحكام القرأن – أبو بكر بن العربي.

٦٧. الزهد – أحمد بن حنبل.
٦٨. الموطأ – مالك بن أنس.
٦٩. مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني.
٧٠. شرح شعب الإيمان – البيهقي.
٧١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى – القاضي عياض.
٧٢. الروض المعطار في خير الأقطار – الآلوسي.
٧٣. الزهد والرقائق – ابن المبارك.
٧٤. النبوة والأنبياء – الصابوني.
٧٥. أنبياء الله – أحمد بهجت.
٧٦. قصص القرآن – محمد أحمد جاد المولى.
٧٧. قصص الأنبياء – محمد أحمد جاد المولى.
٧٨. قصص الأنبياء – عبد الوهاب النجار.
٧٩. قصص الأنبياء – ابن كثير.
٨٠. حياة الأنبياء وأخلاقهم – الصباحي عوض الله.
٨١. مع الأنبياء – الدكتور طبارة.
٨٢. حياة سليمان – محمود الشلبي.
٨٣. حياة إبراهيم – محمود الشلبي.
٨٤. حياة داوود – محمود الشلبي.
٨٥. حياة يوسف – محمود الشلبي.
٨٦. كتاب سورة يوسف – أحمد نوفل.
٨٧. أعلام النبوة – الماوردي.
٨٨. نبأ المرسلين – ربيع عبد الرؤوف الزواوي.
٨٩. نظرات في أحسن القصص – محمد سيد الوكيل.

٩٠. التعريف والإعلام فيما أُبهم من القرآن من الأسماء والأعلام – السهيلي.
٩١. لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات – الرازي.
٩٢. موسوعة أسماء الله الحسنى – النابلسي.
٩٣. الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلاني.
٩٤. العرائس – اين الجوزي.
٩٥. الإعجاز والإيجاز – الثعالبي.
٩٦. إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان – ابن القيم .
٩٧. معجم البلدان – شهاب الدين بن ياقوت الحموي.
٩٨. الكامل في التاريخ – ابن الأثير.
٩٩. أدوار التاريخ الحضرمي – محمد بن أحمد الشاطري.
١٠٠. صفة جزيرة العرب – الحسن بن أحمد الهمداني.
١٠١. أخبار مكة – الأزرقي.
١٠٢. العجائب الغريبة – الحافظ محمد بن المنذر بن سعيد.
١٠٣. العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حبنكة.
١٠٤. مكائد يهودية عبر التاريخ – عبد الرحمن حبنكة.
١٠٥. آكام المرجان في أحكام الجان – أبي عبدالله الشبلي.
١٠٦. كنايات الأدباء وإشارات البُلغاء – أحمد بن محمد الجرجاني.
١٠٧. أدب الدنيا والدين – الماوردي.
١٠٨. لسان العرب – ابن منظور.
١٠٩. عيون الأخبار – محمد الدينوري.
١١٠. الانتصاف – ناصر الدين المالكي.
١١١. الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد – صالح الفوزان.

١١٢. دائرة معارف القرن العشرين – محمد فريد وجدي.
١١٣. رحلات الإمام محمد رشيد رضا – محمد رشيد رضا.
١١٤. المسيح عيسى بن مريم – السّحار.
١١٥. صيد الخاطر – ابن الجوزي.
١١٦. حياة الحيوان الكبرى – الدميري.
١١٧. قصة الحضارة – ويل ديورانت.
١١٨. موجز تاريخ العالم – هربرت جورج ويلز.
١١٩. القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم – آرثر كيستلر.
١٢٠. التاريخ الجغرافي.
١٢١. البدائع في الوقائع.
١٢٢. موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: إبراهيم زكي خورشيد – أحمد الشنتناوي – عبد الحميد يونس.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
داوود عليه الصلاة والسلام	٥
قصة شموئيل	٧
طالوت الملك	١٧
ماذا كانت ردَّةُ فِعل بني إسرائيل على تعيين طالوت ملكاً؟	١٩
فمن هو داوود؟	٣٧
المبارزة مع جالوت	٣٨
العودة إلى داوود	٤٥
داوود المَلك	٦٦
كلمة وتعليق للدكتور «محمد السيد الوكيل» حول مُلك داوود لفلسطين.	٦٨
أحداث ووقائع مثيرة وقعت في عهد داوود	٦٩
الحادثة الأولى: مسخ يهود «أيلة» قردة وخنازير	٧٠
الحادثة الثانية: حكمُهُ في غنم القوم	٧٩
الحادثة الثالثة: فتنة داوود	٨٢
وفاة داوود عليه السلام	١٠٧
نماذج من مخاطبة داوود لربّه تبارك وتعالى	١٠٨
وصايا داوود لولده سليمان عليهما الصلاة والسلام	١١١

سليمان عليه الصلاة والسلام	١١٥
استخلاف داوود لسليمان	١١٨
نِعَم الله عز وجل على سليمان	١٢٧
سليمان وجنوده بوادي النمل	١٤١
سليمان وخبر الهدهد	١٥٦
سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ	١٧٨
المعجزات التي سخرها الله عز وجل لسليمان عليه السلام	٢١٢
بناء بيت المقدس	٢٣١
أحداث وقعت في عهد سليمان عليه السلام	٢٣٦
سليمان عليه السلام والخيل	٢٣٦
اختبار سليمان وامتحانه وابتلاؤه	٢٤١
وفاة سليمان عليه السلام	٢٤٤
خُلاصة قصة وفاته	٢٤٦
بعض أخلاق سليمان عليه السلام وأقواله:	٢٥٠
المزاعم التاريخية لليهود:	١٥٢
زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام	٢٥٥
زكريا عليه الصلاة والسلام	٢٥٨
ولادة يحيى عليه السلام	٢٨٦
سيرة يحيى عليه الصلاة والسلام	٢٩٥
دعوة يحيى عليه السلام	٢٩٧

التعميد	٢٩٩
تبشيره بعيسى	٣٠٠
محنة يحيى عليه السلام	٣٠٠
استشهاد يحيى عليه السلام	٣٠١
عيسى عليه الصلاة والسلام	٣٠٩
مريم بنت عمران	٣١٢
بشارة مريم بالاصطفاء	٣١٧
الحمل والولادة بعيسى عليه السلام	٣٣٢
طفولة عيسى	٣٦٦
رسالة عيسى عليه السلام	٣٧٣
عيسى يعظ في حرم بيت المقدس	٣٧٨
منهج رسالة ودعوة عيسى عليه السلام	٣٨٢
معجزات عيسى عليه السلام	٣٨٤
الحواريون	٣٩٦
طلب المائدة	٤٠٢
نزول المائدة	٤١٦
دعوة عيسى ومُعاداة اليهود له	٤١٩
إلتقاء الخيانة مع الكفر لإسكات الحق وأهله	٤٢٤
شمائل عيسى وصفاته:	٤٣٧
فضائل عيسى عليه السلام	٤٣٩

الشهود على الناس يوم القيامة ٤٤٨
لليهود مشكلة نفسية ٤٥٩
الخاتمة ٤٦١
المراجع ٤٦٣
الفهرس ٤٦٩